

التَّسْهِيلُ الْعُلُومِ التَّنْزِيلِ

تَأَلَّفَ الْعَلَامَةُ الْمُفَسِّرُ الرَّبِّيُّ الْفَالَسِي
مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ جُرَيْجٍ الْكَلْبِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ الْغُرَابِيِّ
رَحِمَهُ اللَّهُ وَتَقَبَّلَهُ فِي الشَّهْرِ . (٦٩٣ - ٧٤١ هـ)

وَعَدَّ تَفْسِيرَاتُ الْفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ الْبَرَكَ
حَفِظَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَقَعَ بِهَا
عَلَى الْمَوَاضِعِ الْمُشْكَلَةِ فِي الْعَقِيدَةِ وَالسُّلُوكِ

تَحْقِيقُ
عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّبَّاحِيِّ
عُصَمَاءُ مَجْلِسَةِ التَّلَاوُحِ بِمَجَامِعِ تَعْلِيمِ الرَّبِّيِّ

المجلد الثاني
من النساء إلى الإسراء



دار طيبة الخضراء
للنشر والمطبوعات | علم ينفع به

التَّسْهِيلُ الْعُلُومِ التَّنْزِيلِ

تَأْلِيفُ الْعَلَامَةِ الْمُفَسِّرِ زَيْنِ الْفَارِسِيِّ

مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ جُرَيْجٍ الْكَلْبِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ الْغُرَنَاطِيِّ

رَحِمَهُ اللَّهُ وَتَقَبَّلْهُ فِي الشُّهُدَاءِ - (٦٩٣ - ٧٤١ هـ)

وَعَمَلُهُ بِرَأْسِ الْفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ

عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ الْبَرَّاكِ

حَفَظَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَفَقَّعَ بِهِ

عَلَى الْمَوَاضِعِ الْمَشْكُوكَةِ فِي الْعَقِيدَةِ وَالسُّلُوكِ

تَحْقِيقُ

عَلِيِّ بْنِ حَمْدٍ الصَّالِحِيِّ

عُصُوهُ هَيْئَةِ الدَّرَجَةِ بِمَجَامِعِ لُغَةِ الْفَرَنجِيِّ

المجلد الثاني
من النساء إلى الإنس



دار طيبة الخضراء
للنشر والتوزيع | علم ينتفع به

حقوق الطب مع محفوظات

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م



دار طيبة الخضراء

للنشر والتوزيع | علم يرفع به

0125562986 | yyy.01@hotmail.com



dar.taibaa



@dar_tg



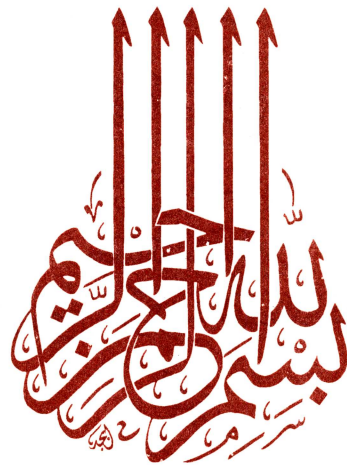
dar.taibagreen123



dar.taiba

مكة المكرمة - العزيزية - خلف مسجد فقيه

0503568771 | 0550428992 | yyy.01@hotmail.com | 0125562986



﴿ سورة النساء ﴾

[يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدَلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّبِيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَنِّي وَتِلْكَ وَرُبَّ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْمَلُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم﴾ خطابٌ على العموم، وقد تكلمنا على التقوى

في أوّل «البقرة»^(١).

﴿مَنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ هو آدم عليه السلام.

﴿زَوْجَهَا﴾ هي حواء؛ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ.

﴿وَبَثَّ﴾ نشر.

﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أي: يقول بعضكم لبعض: أسألك بالله أن تفعل كذا.

﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالنصب عطفاً:

على اسم الله؛ أي: اتقوا الأرحام فلا تقطعوها.

أو على موضع الجار والمجرور - وهو ﴿بِهِ﴾ -؛ لأنَّ موضعه نصبٌ.

وقرئ بالخفض: عطفاً على الضمير في ﴿بِهِ﴾، وهو ضعيف عند البصريين؛ لأن الضمير المخفوض لا يُعْطَفُ عليه إلا بإعادة الخافض.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ إذا تحقّق العبد بهذه الآية وأمثالها استفاد مقام المراقبة، وهو مقام شريف، أصله: علمٌ، وحال، ثم يُثْمَرُ حالين.

أما العلم: فهو معرفة العبد بأن الله مَطَّلِعٌ عليه، ناظرٌ إليه، يرى جميع أعماله، ويسمع جميع أقواله، ويعلم كلَّ ما يخطر على باله.

وأما الحال: فهو ملازمة هذا العلم للقلب، بحيث يَغْلِبُ عليه ولا يَغْفُلُ عنه، ولا يكفي العلم دون هذه الحال.

(١) انظر صفحة ٢٦٥/١.

فإذا حصل العلم والحال:

كانت ثمرتهما عند أصحاب اليمين: الحياء من الله، وهو يوجب بالضرورة ترك المعاصي، والجِدُّ في الطاعات.

وكانت ثمرتهما عند المقرّبين: المشاهدة التي توجب التعظيم والإجلال لذي الجلال.

وإلى هاتين الثمرتين أشار رسول الله ﷺ بقوله: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

فقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه» إشارة إلى الثمرة الثانية، وهي المشاهدة الموجبة للتعظيم؛ كمن يشاهد ملكًا عظيمًا، فإنه يعظمه إذ ذاك بالضرورة.

وقوله: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» إشارة إلى الثمرة الأولى، ومعناه: إن لم تكن من أهل المشاهدة التي هي مقام المقرّبين، فاعلم أنه يراك؛ فكن من أهل الحياء الذي هو مقام أصحاب اليمين، فلما فسّر الإحسان أوّل مرّة بالمقام الأعلى؛ رأى أن كثيرًا من الناس قد يعجزون عنه، فنزل عنه إلى المقام الآخر.

واعلم أن المراقبة لا تستقيم حتى يتقدّم^(٢) قبلها: المشاركة، والمرابطة، ويتأخّر عنها: المحاسبة، والمعاقبة.

فأما المشاركة: فهي اشتراط العبد على نفسه التزام الطاعة وترك المعاصي.

(١) تقدم تخريجه في صفحة ١٥٥/١.

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «تتقدم».

وأما **المرابطة** : فهي معاهدة العبد لربّه على ذلك .

ثم بعد المشاركة والمrabطة في أول الأمر تكون المراقبة إلى آخره .
وبعد ذلك ^(١) يحاسب العبد نفسه على ما اشترطه وعاهد عليه ، فإن وجد نفسه قد أوفى بما عاهد عليه الله : حمّد الله .

وإن وجد نفسه قد حلَّ عُقْدَةً ^(٢) المشاركة ، ونقض عهد المrabطة : عاقب النفس عقاباً يزجرها ^(٣) عن العودة إلى مثل ذلك .

ثم عاد إلى المشاركة ، والمrabطة ، وحافظ على المراقبة ، ثم اختبر بالمحاسبة ، فهكذا يكون إلى أن يلقي الله تعالى .

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ خطابٌ للأوصياء .

وقيل : للعرب الذين لا يورثون الصغير مع الكبير ؛ فأمرُوا أن يورثوهم .
وعلى القول بأن الخطاب للأوصياء :

فالمراد : أن يؤتوا اليتامى من أموالهم ما يأكلون ويلبسون في حال صغرهم ؛ فيكون اليتيم على هذا حقيقةً .

وقيل : المراد : دفع أموالهم إذا بلغوا ؛ فيكون اليتيم على هذا مجازاً ؛ لأن اليتيم قد كبر .

﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْأَلْوَنِ﴾ كان بعضهم يبدّل الشاة السمينة من مال اليتيم

(١) في د زيادة : «تكون المحاسبة» .

(٢) في ب ، ج ، هـ : «عقد» .

(٣) في ب : «بأن يزجرها» .

بالمهزولة من ماله ، والدرهم الطيب بالزائف ؛ فنهوا عن ذلك .

وقيل : المعنى : لا تأكلوا مالهم ^(١) - وهو الخبيث - ، وتدعوا مالكم ^(٢) - وهو الطيب - .

﴿إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ المعنى : نهى أن يأكلوا أموال اليتامى مجموعةً إلى أموالهم .

وقيل : نهى عن خلط أموالهم بأموال اليتامى ، ثم أُبيح ذلك بقوله : ﴿وَإِنْ تَخَاطَبُوهُمْ فَاخْوَنُكُمْ﴾ [البقرة : ٢٢٠] .

وإنما تعدى الفعل بـ «إلى» ؛ لأنه تضمّن معنى الجمع والضم .

وقيل : «إلى» بمعنى «مع» .

﴿حُبًّا﴾ أي : ذنبًا .

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمَنِ فَانْكِحُوا﴾ الآية ؛ قالت عائشة : نزلت في أولياء اليتامى الذين يعجبهم جمال وليّاتهم ، فيريدون أن يتزوجوهن ويبخسوهن في الصّدّاق ؛ لمكان ولايتهم عليهن ، ف قيل لهم : أقسطوا في مهورهن ، فمن خاف أن لا يُقسط فليتزوّج ما طاب له من الأجنبية اللاتي يوفيهن حقوقهن .

وقال ابن عباس : إن العرب كانت تتحرّج في أموال اليتامى ، ولا تتحرّج في العدل بين النساء ، فنزلت الآية في ذلك ؛ أي : كما تخافون أن لا تقسطوا

(١) في ب ، ج ، هـ ، د : «أموالهم» .

(٢) في د : «أموالكم» .

في اليتامى فكذلك خافوا في النساء .

وقيل : إن الرجل منهم كان يتزوج العشرَ وأكثر ، فإذا ضاق ماله أخذ مال يتيمة ، ف قيل لهم : إن خفتُم أن لا تقسطوا في اليتامى فاقصروا في النساء .

﴿ مَا طَابَ ﴾ أي : ما حلَّ .

وإنما قال «ما» ولم يقل «مَن» :

لأنه أراد الجنس .

وقال الزمخشري : لأن الإناث من العقلاء يُجرى مُجرى غير العقلاء ؛ ومنه قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾^(١) .

﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ﴾ لا تنصرف ؛ للعدل والوصف .

وهي : حالٌ من ﴿ مَا طَابَ ﴾ .

وقال ابن عطية : بدل^(٢) .

وهي معدولةٌ عن أعدادٍ مكررة ، ومعنى التكرار فيها : أن الخطاب لجماعة ؛ فيجوز لكل واحد منهم أن ينكح ما أراد من تلك الأعداد ، فتكررت الأعداد بتكرار^(٣) الناس .

والمعنى : انكحوا اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً ، وفي ذلك منْعٌ لما كان في الجاهلية من تزوّج ما زاد على الأربع .

(١) الكشف (٤/٤٢٣) .

(٢) المحرر الوجيز (٢/٤٦٦) .

(٣) في ج ، هـ : «بتعدد» .

وقال قوم لا يُعبأ بقولهم: إنه يجوز الجمع بين تسع؛ لأن مثنى وثلاث ورباع يجتمع منه تسعة، وهذا خطأ؛ لأن المراد التَّخْيِيرُ بين تلك الأعداد لا الجمع، ولو أراد الجمع لقال: «تسع»، ولم يعدل عن ذلك إلى ما هو أطول منه وأقلُّ بياناً، وأيضاً قد انعقد الإجماع على تحريم ما زاد على الرابعة.

﴿فَوَاحِشَةً﴾ أي: إن خفتُم أن لا تعدلوا بين الاثنين^(١) أو الثلاث أو الأربع فاقصروا على واحدة، أو على ما ملكت أيمانكم من قليل أو كثير؛ رغبة في العدل.

وانتصاب^(٢) ﴿فَوَاحِشَةً﴾ بفعل مضمر؛ تقديره: فانكحوا واحدةً.

﴿ذَلِكَ أَذَىٌّ أَلَّا تَعُولُوا﴾ الإشارة إلى الاقتصار على الواحدة، والمعنى: أن ذلك أقرب إلى أن لا تعولوا.

ومعنى ﴿تَعُولُوا﴾: تميلوا، وقيل: يكثر عيالكم.

﴿وَأَنُؤُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ﴾ خطابٌ للأزواج.

وقيل: للأولياء؛ لأن بعضهم كان يأكل صداق وليته.

وقيل: هي^(٣) نهى عن الشغار.

﴿مَخْلَةً﴾ أي: عطية منكم لهن، أو عطية من الله.

(١) في أ، ب، هـ: «الاثنين».

(٢) في ب: «وانتصب».

(٣) في ب، د، هـ: «هو».

وقيل : معنى ﴿نَحْلَةً﴾ أي : شِرْعَةً وِدْيَانَةً^(١) .

وانتصابه :

على المصدر من معنى : آتوهن .

أو على الحال من ضمير المخاطبين .

﴿فَإِنْ طَبْنَ لَكُمْ﴾ الآية ؛ إباحة للأزواج أو الأولياء -على ما تقدّم من الخلاف- أن يأخذوا ما دفعه النساء مِنْ صَدُقَاتِهِنَّ عَنْ طِيبِ أَنْفُسِهِنَّ .

والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ يعود :

على الصَّدَاق .

أو على الإيتاء .

﴿هَنِئًا مَرِيئًا﴾ عبارة عن التَّحْلِيل ، ومبالغة في الإباحة .

وهما صفتان ؛ من قولك : «هَنُؤُ الطَّعَامَ وَمَرُؤُ» : إذا كان سائغًا لا تنغيص فيه .

وهما : وصفٌ للمصدر ؛ أي : أَكَلًا هَنِئًا .

أو حال من ضمير الفاعل^(٢) .

(١) في ب : «ودياناً» .

(٢) كذا في جميع النسخ الخطية ، ولعل صوابه : «حال من ضمير المفعول» ، أي : حال كون المأكول هنيئًا مريئًا ، كما تومئ إليه عبارة الزمخشري في كشفه حيث قال (٤/٤٣٥) : «وهما وصفٌ للمصدر ، أي : أَكَلًا هَنِئًا مَرِيئًا ، أو حالٌ من الضمير ؛ أي : كلوه وهو [المأكول] هنيءٌ مريءٌ» ، وقال أبو حيان (٦/٤٢٧) «وانتصاب (هنيئًا) . . على أنه حال من ضمير المفعول ، هكذا أعربه الزمخشري وغيره» والله أعلم .

وقيل: يوقف على ﴿فَكُلُوهُ﴾، ويبدأ: ﴿هَيَّئَا مَرِيضًا﴾ على الدعاء.
﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ﴾ قيل: هم أولاد الرجل وامراته؛ أي: لا تؤتوهم
أموالكم للتبذير.

وقيل: السفهاء: المحجورون، و﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: أموال المحجورين،
وأضافها إلى المخاطبين؛ لأنهم ناظرون عليها وهي تحت ولايتهم.
﴿قِيمًا﴾ جمع قِيمَة.

وقيل: بمعنى «قيام» بالألف؛ أي: تقوم بها معاشكم^(١).
﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ قيل: إنها فيمن تلزم الرجل نفقته من زوجته
وأولاده.

وقيل: في المحجورين؛ يُرزقون ويكسّون من أموالهم.
﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرْفُوعًا﴾ أي: ادعوا لهم بخير، أو عدّوهم وعدًا جميلًا؛
أي: إن رشدتم دفعنا لكم أموالكم.

﴿وَابْتَلُوا الَّذِينَ﴾ أي: اختبروا رشدهم.

﴿بَلِّغُوا النِّكَاحَ﴾ بلغوا مبلّغ الرجال.

﴿فَإِنْ ءَاسَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ الرُّشد: هو المعرفة بمصالحه وتدابير ماله، وإن لم
يكن من أهل الدين.

واشترط قوم الدين.

(١) في أ، ب: «معاشكم»، وفي هـ: «على معاشهم»، وفي ج: «على معاشكم».

واعتبر مالك : البلوغ والرشد ؛ وحينئذ يدفع المال^(١) .

واعتبر أبو حنيفة : البلوغ وحده ؛ ما لم يظهر سفة .

وقوله مخالف للقرآن .

﴿وَيَدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ معناه : مبادرةً لكبرهم ؛ أي : إن الوصيَّ يستغنم أكلَ مال اليتيم قبل أن يكبر .

وموضع ﴿أَنْ يَكْبُرُوا﴾ نصبٌ :

على المفعولية بـ ﴿وَيَدَارًا﴾ .

أو على المفعول من أجله ؛ تقديره : مخافةً أن يكبروا .

﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أمر الوصي^(٢) الغني أن يستعفف عن مال اليتيم^(٣) ، ولا يأكلَ منه شيئاً .

﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال عمر بن الخطاب : المعنى : أن يستسلف الوصيُّ الفقيرُ من مال المحجور^(٤) ، فإذا أيسر رده .

وقيل : المراد : أن يكون له أجرٌ بقدر عمله وخدمته .

ومعنى : ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ من غير إسراف .

وقيل : نسخها : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ .

(١) في هامش ب زيادة : «إليه» .

(٢) في ب : «أمرٌ للوصي» .

(٣) في د : «المحجور» .

(٤) في د : «اليتيم» .

﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ أمر بالتحرز والحزم؛ فهو ندب، وقيل: فرض.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ الآية؛ سببها: أن بعض العرب كانوا لا يورثون النساء، فنزلت الآية؛ ليرث الرجال والنساء^(١).

﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ منصوب انتصاب المصدر المؤكّد؛ كقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾.

وقال الزمخشري: منصوب على التخصيص؛ بمعنى: أعني نصيباً^(٢).
﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ الآية؛ خطاب للوارثين؛ أمروا أن يتصدّقوا من الميراث على قرابتهم، وعلى اليتامى والمساكين.

ف قيل: إن ذلك على الوجوب.

وقيل: على الندب؛ وهو الصحيح.

وقيل: نسخ بآية الموارث.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ﴾ الآية؛ معناها: الأمر لأولياء اليتامى أن يحسنوا إليهم في نظر أموالهم، فيخافوا الله على أيتامهم كخوفهم على ذريّتهم لو تركوهم ضعافاً، ويُقدّروا ذلك في أنفسهم؛ حتى لا يفعلوا خلاف الشفقة والرّحمة.
وقيل: هم الذين يجلسون إلى المريض فيأمروه أن يتصدّق بماله حتى يُجحف بورثته، فأمروا أن يخشوا على الورثة كما يخشون على أولادهم.
وحذف مفعول ﴿وَلْيَخْشَ﴾.

(١) في د: «بميراث الرجال والنساء».

(٢) الكشف (٤/٤٤٦).

و﴿خَافُوا﴾ جواب ﴿لَوْ﴾.

﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ على القول الأول: ملاطفة الوصي لليتيم بالكلام الحسن.

وعلى القول الثاني: أن يقول للموروث: «لا تُسْرِف في وصيتك وارْفُق بورثتك».

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ قيل: نزلت في الذين لا يُورَثُونَ الإناث. وقيل: في الأوصياء.

ولفظها^(١) عام في كل من أكل مال يتيم بغير حق.

﴿يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي: إِنَّ أَكْلَهُمْ لِمَالِ الْيَتَامَى يُوَلِّدُ دُخُولَهُمُ النَّارَ.

وقيل: بل يأكلون النار في جهنم.



(١) في ج، هـ: «وقولها».

[يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِنْهُ حَظٌّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تَوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّتُهُ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾].

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ هذه الآية نزلت بسبب بنات^(١) سعد بن الربيع.

وقيل: بسبب جابر بن عبد الله؛ إذ عاده^(٢) رسول الله ﷺ في مرضه.

ورفعت ما كان في الجاهلية من ترك توريث النساء والأطفال.

(١) في ب: «بنت»، ولم ترد في ج، هـ.

(٢) في ب: «دعاه».

وقيل : نسخت : ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة : ١٨٠] .

وإنما قال : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ بلفظ الفعل الدائم ، ولم يقل : «أوصاكم» ؛ تنبيهاً على نسخ ما مضى والشروع في حكم آخر .

وإنما قال : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ بالاسم الظاهر ، ولم يقل : «نوصيكم» ؛ لأنه أراد تعظيم الوصية ، فجاء بالاسم الذي هو أعظم الأسماء .

وإنما قال : ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ ولم يقل : «في أبنائكم» ؛ لأن الابن يقع على الابن من الرضاعة ، وعلى ابن البنت ، وعلى الابن المتبني^(١) ، وليسوا من الورثة .

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ هذا بيان للوصية المذكورة .

فإن قيل : هلا قال : «للأنثيين مثل حظ الذكر» ، أو «للأنثى نصف حظ الذكر» ؟ .

فالجواب : أنه بدأ بالذكر لفضله ، ولأن القصد ذكركم حظه ، ولو قال : «للأنثيين مثل حظ الذكر» لكان فيه تفضيل للإناث^(٢) .

﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ إنما أنت ضمير الجماعة في ﴿كُنَّ﴾ ؛ لأنه قصد الإناث وأصله أن يعود على الأولاد ؛ لأنه يشمل الذكور والإناث .

وقيل : يعود على المتروكات .

(١) في د : «وعلى ابن التبي» .

(٢) انظر : الكشف (٤/ ٤٥٥) .

وأجاز الزمخشري أن تكون «كان» تامةً، والضمير مبهم، و﴿نِسَاءً﴾ تفسير (١).

﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ ظاهره: أكثر من اثنتين، ولذلك أُجمِع على أن للثلاث فما فوقهن الثلثين (٢).

وأما البنتان: فاختلف فيهما:

فقال ابن عباس: لهما النصف، كالبنت الواحدة.

وقال الجمهور: لهما الثلثان، وتأولوا ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾:

أن المراد: اثنتان فما فوقهما.

وقال قوم: إن ﴿فَوْقَ﴾ زائدة؛ كقوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢] وهذا ضعيف.

وقال قوم: إنما وجب لهما الثلثان بالسنة لا بالقرآن.

وقيل: بالقياس على الأخنتين.

﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً﴾ بالرفع: فاعل، و«كان» تامة.

وبالنصب: خبر «كان».

وقوله تعالى: ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ نصٌّ على أن للبنت النصف إذا انفردت، ودليلٌ على أن للابن جميع المال إذا انفرد؛ لأن للذكر مثل حظ الأنثيين.

(١) الكشاف (٤/٤٥٧).

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «الثلثان».

﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ الولد: يقع على الذكر والأنثى، والواحد والاثنين والجماعة، سواء كان للصلب، أو ولد ابن، وكلُّهم يَرُدُّ الأبوين إلى السدس. ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ لم يجعل الله للأمّ الثلث إلا بشرطين:

أحدهما: عدم الولد.

والآخر: إحاطة الأبوين بالميراث؛ ولذلك دخلت الواو؛ لتعطف أحد الشرطين على الآخر.

وسكت عن حظّ الأب؛ استغناءً بفهمه؛ لأنه لا يبقى بعد الثلث إلا الثلثان، ولا وارث إلا الأبوان، فاقضى ذلك أن الأب^(١) يأخذ بقية المال؛ وهو الثلثان.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ أجمع العلماء على أن ثلاثة من الإخوة يَرُدُّون الأمّ إلى السدس.

واختلفوا في الاثنين:

فمذهب الجمهور: أنهما يَرُدَّانها إلى السدس.

ومذهب ابن عباس: أنهما لا يَرُدَّانها إليه، بل هما كالأخ الواحد.

وحجّته: أن لفظ الإخوة لا يقع على الاثنين؛ لأنه جمع لا تنية، وأقلُّ الجمع ثلاثة.

وقال غيره: إن لفظ الجمع قد يقع على الاثنين؛ كقوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ

(١) في د: «الوالد».

شَهِيدٌ ﴿[الأنبياء: ٧٨]، وَ﴿سَوْرُوا الْخِرَابَ﴾ [ص: ٢١]، وَ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠]، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ ﷺ: «الاثنان فما فوقهما جماعة»^(١)، وقال مالك: مضت السنة أن الإخوة اثنان فصاعدًا، ومذهبه: أن أقل الجمع اثنان.

فعلى هذا: يَحْجُبُ الأخوان فصاعدًا الأُمَّ عن الثلث إلى السدس، سواء كانا شقيقين أو لأب أو لأم، أو مختلفين، وسواء كانا ذكرين أو أنثيين أو ذكرًا وأنثى.

فإن كان معهما أبٌ: ورث بقية المال، ولم يكن للإخوة شيء عند الجمهور، فهم يحجبون الأم، ولا يرثون.

وقال قومٌ: يأخذون السدس الذي حجبوا عنه الأُمَّ.

وإن لم يكن أبٌ ورثوا.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٌ﴾ قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ يتعلّق بالاستقرار المضمّر في قوله: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾؛ أي: استقرّ لهنّ الثلثان من بعد وصية.

وَيَمْتَنَعُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِ﴿تَرَكَ﴾.

وفاعل ﴿يُوصَى﴾: الميت.

وإنما قُدِّمَت الوصية على الدّين، والدّين مقدّمٌ عليها في الشريعة؛ اهتمامًا

(١) أخرجه الدارقطني (٢/ ٢٤).

بها، وتأكيذا للأمر بها^(١)، ولئلا يُتهاون بها. وأُخِرَ الدِّين؛ لأن صاحبه يتقاضاه، فلا يحتاج إلى تأكيد في الأمر بإخراجه.

وتُخَرَج الوصية من الثلث، والدِّين من رأس المال بعد الكفن. وإنما ذَكَر الوصية والدِّين نكرتين؛ ليدلَّ على أنهما قد يكونان، وقد لا يكونان؛ فدلَّ ذلك على سقوط وجوب الوصية. ﴿أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ قيل: بالإنفاق إذا احتجج إليه. وقيل: بالشفاعة في الآخرة.

ويَحْتَمَل أن يريد: نفعًا بالميراث من ماله، وهو أَلْيَقُ بسياق الكلام. ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ الآية؛ خطابٌ للرجال، وأُجْمِع العلماء على ما تضمنته هذه الآية من ميراث الزوج والزوجة، وأن ميراث الزوجة تنفرد به إن كانت واحدة، ويُقَسَّم بينهما إن كنَّ أكثر من واحدة، ولا يُنْقَص من ميراث الزوج والزوجة وسائر أهل السهام إلا ما نَقَصه العَوْلُ على مذهب جمهور العلماء، خلافاً لابن عباس؛ فإنه لا يقول بالعول.

فإن قيل: لم كرَّر قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ﴾ مع ميراث الزوج وميراث الزوجة، ولم يذكره قبل ذلك إلا مرة واحدة في ميراث الأولاد والأبوين؟ فالجواب: أن الموروث في ميراث الزوج هو الزوجة، والموروث في ميراث الزوجة هو الزوج، فكل واحدة قضية على انفرادها؛ فلذلك ذكر

(١) في د: «لأمرها».

ذلك مع كل واحدة، بخلاف الأولى؛ فإن الموروث فيها واحد، ذكر حكم ما يرث منه أولاده وأبواه؛ وهي قضية واحدة؛ فلذلك قال فيها: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ﴾ مرة واحدة.

﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾ الكلالة: هي انقطاع عمودي النسب؛ وهي خلؤ الميت عن وليه و^(١) والد.

ويحتمل أن تطلق هنا على: الميت الموروث، أو على الورثة، أو على الوراثة، أو على القرابة، أو على المال.

[١] فإن كانت للميت فإعرابها:

١- خبر ﴿كَانَ﴾، و﴿يُورَثُ﴾ في موضع الصفة^(٢).

٢- (أو) ﴿يُورَثُ﴾ خبر كان، و﴿كَالَةً﴾ حال من الضمير في ﴿يُورَثُ﴾.

٣- أو تكون ﴿كَانَ﴾ تامة، و﴿يُورَثُ﴾ في موضع الصفة^(٣) و﴿كَالَةً﴾ حال من الضمير.

[٢] وإن كانت للورثة فهي:

١- خبر ﴿كَانَ﴾؛ على حذف مضافٍ تقديره: «ذا كلالَةٍ».

٢- أو حال؛ على حذف مضافٍ أيضًا.

(١) في أ، ب، ج، هـ: «أو».

(٢) في ب زيادة: «و(كلالة) حال من الضمير».

(٣) ما بين القوسين سقط من ج، هـ.

[٣] وإن كانت للوراثه فهي: مصدرٌ في موضع الحال.

[٤] وإن كانت للقراية فهي: مفعولٌ من أجله، (تقديره: «يورث»^(١) من أجل القربى)^(٢).

[٥] وإن كانت للمال فهي: مفعولٌ ثانٍ لـ ﴿يُورَثُ﴾.

وكل وجه من هذه الوجوه^(٣) على أن تكون:

١- ﴿كَانَ﴾ تامةً، و﴿يُورَثُ﴾ في موضع الصفة.

٢- وأن^(٤) تكون ناقصةً، و﴿يُورَثُ﴾ خبرها.

﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ المراد هنا: الأخ للأم والأخت للأم بإجماع.

وقرأ سعد بن أبي وقاص: «وله أخ أو أخت لأمه»؛ وذلك تفسير للمعنى.

﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ إذا كان الأخ للأم واحدًا فله السدس،

وكذلك إن كانت الأخت للأم واحدةً.

﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ إذا كان الإخوة للأم اثنين فأكثر فلهم الثلث

بالسواء بين الذكر والأنثى؛ لأن قوله: ﴿شُرَكَاءُ﴾ يقتضي التسوية بينهم،

ولا خلاف في ذلك.

(١) هذه الكلمة سقطت من د.

(٢) سقط من ج، هـ.

(٣) في ب: «الأوجه».

(٤) في د: «أو».

﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ منصوبٌ على الحال، والعامل فيه: ﴿يُوصِي﴾،
و﴿مُضَارٍّ﴾ اسم فاعل.

قال ابن عباس: الضّرار في الوصية من الكبائر.

ووجوه المضارّة كثيرة؛ منها: الوصية لوارث، والوصية بأكثر من الثلث،
أو بالثلث؛ فراراً عن^(١) وارث محتاج.

فإن علم أنه قصد بوصيته الإضرار رُدَّ ما زاد على الثلث اتفاقاً.
واختلف: هل يُرَدُّ الثلث؟ على قولين في المذهب، والمشهور: أنه ينفذ.
﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكّد لقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾.

ويجوز أن ينتصب بـ ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدّم من الموارث وغيرها.

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية؛ تعلق بها المعتزلة في قولهم: إن
العصاة من المؤمنين يُخلّدون في النار.
وتأولّها الأشعرية: على أنها في الكفار.

(١) في أ، ب: «من».

[وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَتَاهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَقْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ فَنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾].

﴿يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ﴾ هي هنا : الزنا .

﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ أي : من المسلمات ؛ لأن المسلمة تُحَدِّدُ حَدَّ الزنا .

وأما الكافر والكافرة : فاختلَفَ هل يُحَدُّ أو يعاقب ؟

﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ قيل : إنما جعل شهداء الزنا أربعة ؛

تغليظًا على المدَّعي ، وسترًا على العباد .

وقيل : ليكون شاهدان على كلِّ واحدٍ من الزَّانِئِينَ .

﴿فَأَنسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ كانت عقوبة الزنا الإمساك في البيوت، ثم نُسِخ ذلك بالأذى المذكور بعد هذا؛ وهو السَّبُّ والتَّوْبِيخُ.

وقيل: إن الإمساك في البيوت للنساء، والأذى للرجال، فلا نُسِخ بينهما. ورَّجَّحه ابن عطية^(١) وابن الفرس^(٢) بقوله - في الإمساك - : ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾، وفي الأذى: ﴿مِنْكُمْ﴾.

ثم نُسِخ الإمساك والأذى بالرَّجْم للمُحَصَّن، وبالجلد لغير المحصن، واستقرَّ الأمر على ذلك.

فأما الجلد: فمذكور في سورة «النور».

وأما الرجم: فقد كان في القرآن، ثم نُسِخ لفظه وبقي حكمه، وقد رَجَم رسول الله ﷺ ماعزًا الأسلمي^(٣) وغيره.

﴿فَاعْزِضُوا عَنْهُمَا﴾ لما أمر بالأذى للزاني؛ أمر بالإعراض عنه إذا تاب، وهو ترك الأذى.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: إنما يقبل الله توبة مَنْ كان على هذه الصفة.

وإذا تاب العبد توبةً صحيحة بشروطها:

فَيُقْطَع بَقُولِ اللَّهِ لِتَوْبَتِهِ عند جمهور العلماء.

(١) المحرر الوجيز (٢/٤٩٠).

(٢) أحكام القرآن، لابن الفرس (٢/١٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٧١)، ومسلم (١٦٩٥).

وقال أبو المعالي: يَغْلِبُ ذَلِكَ عَلَى الظَّنِّ، وَلَا يُقْطَعُ بِهِ^(١).

﴿يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ بِجَهْلَةٍ﴾ أي: بسفاهة وقلة تحصيل أدت إلى المعصية. وليس المعنى: أنه يَجْهَلُ أن يكون ذلك الفعل معصية؛ قال أبو العالية: أجمع الصحابة على أن كل معصية فهي بجهالة، سواء كانت عمداً أو جهلاً^(٢).

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ قيل: قبل المرض والموت.

وقيل: قبل السَّيَاق، ومعاناة الملائكة، وفي هذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر»^(٣).

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾ الآية^(٤)؛ في الذين يُصِرُّونَ عَلَى الذُّنُوبِ إِلَى حِينٍ لَا تَقْبَلُ التَّوْبَةَ؛ وهو معاناة الموت.

فإن كانوا كفاراً فهم مخلَّدون في النار بإجماع.

وإن كانوا مسلمين فهم في مشيئة الله إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم.

فقوله: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ثابتٌ في حق الكفار، ومنسوخٌ في حق العصاة من المسلمين بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]؛ فعذابهم مقيَّدٌ بالمشيئة.

(١) انظر: الإرشاد لأبي المعالي الجويني (ص: ٤٠٤).

(٢) أخرجه الطبري بإسناده في تفسيره (٥٠٧/٦).

(٣) أخرجه أحمد (٦١٦٠)، (٦٤٠٨)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣).

(٤) في دزيادة: «نزلت».

﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ ابن عباس : كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقَّ بامرأته ؛ إن شاؤوا تزوجها أحدهم ، وإن شاؤوا زوجوها من غيرهم ، وإن شاؤوا منعوها التزويج^(١) ، فنزلت الآية في ذلك .

فمعنى الآية على هذا : لا يحل لكم أن تجعلوا النساء يُورثن عن الرجال كما يورث المال .

وقيل : الخطاب للأزواج الذين يمسون المرأة في العصمة ؛ ليرثوا مالها من غير غبطة بها .

وقيل : الخطاب للأولياء الذين يمنعون وليّاتهم^(٢) من التزويج ؛ ليرثوهن دون الزوج .

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ معطوفٌ على : ﴿أَنْ تَرِثُوا﴾ ، أو نهْيٌ .

والعضل : المنع .

فقال ابن عباس : هي -أيضا- في أولياء الزوج الذين يمنعون زوجته من التزويج بعد موته .

إلا أن قوله : ﴿مَّا أَتَيْتُمُوهُنَّ﴾ على هذا معناه : ما آتاها الرجل الذي مات .

وقال ابن عباس أيضا : هي في الأزواج الذي يمسون المرأة ويُسَيئون عَشْرَتَهَا ؛ حتى تفتدي بصدّاقها .

(١) في د : «التزويج» .

(٢) في أ ، ب ، ج ، هـ : «وليّاتهن» .

وهو ظاهر اللفظ في قوله: ﴿مَاءً آتِيْتُمُوهُنَّ﴾ ، ويقوّيه قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ؛ فإن الأظهر فيه أن يكون في الأزواج ، وقد يكون في غيرهم .
وقيل : هي للأولياء .

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ﴾ قيل : الفاحشة هنا : الزنا .

وقيل : نشوز المرأة وبغضها في زوجها ، فإذا نشزت جاز له أن يأخذ ما آتاها من صدقٍ وغير ذلك من مالها .

وهذا جارٍ على مذهب مالك في جواز الخلع إذا كان الضرر من المرأة ، والزنا أصعب على الزوج من النشوز ؛ فيجوز له أخذ الفدية معه .

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ الآية ؛ معناها : إن كرهتم النساء لوجهٍ فاصبروا عليه ؛ فعسى أن يجعل الله الخير في وجهٍ آخر .

وقيل : الخير الكثير : الولد .

والأحسن العموم ؛ وهذا معنى قوله ﷺ : « لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً ؛ إِنْ سَخِطَ مِنْهَا خَلْقًا رَضِيَ مِنْهَا ^(١) آخَرُ » ^(٢) .

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجٍ﴾ الآية ؛ معناها : المنع من أن يأخذ الرجل من المرأة فديةً على الطلاق إذا أراد أن يُبدلها بأخرى ، وعلى هذا جرى مذهب مالك وغيره في المنع من (أن يأخذ الرجل) ^(٣) الفدية إذا كان الضرر

(١) لفظة : «منها» زيادة من د ، وهي موافقة لما في الصحيح .

(٢) أخرجه مسلم (١٤٦٩) .

(٣) زيادة من هامش أ ، ورمز لها ب «خ» .

وإرادةُ الفراقِ من الزوج .

وقال قوم : إنَّ هذه الآية منسوخةٌ بقوله في «البقرة» : ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيهَا أَفَدَّتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] .

وقال قوم : هي ناسخةٌ .

والصحيح : أنها غير ناسخة ولا منسوخة ؛ فإنَّ جواز الفدية على وجهه ، ومنعها على وجهه ؛ فلا تعارض ولا نسخ .

﴿قِنْطَارًا﴾ مثالٌ على جهة^(١) المبالغة في الكثرة .

وقد استدلتُ به المرأةُ على جواز المغالاة في المهور حين نهى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن ذلك ؛ فقال عمر رضي الله عنه : «امرأةٌ أصابت ، ورجلٌ أخطأ ، كلُّ الناس أفقه منك يا عمر»^(٢) .

﴿أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ كنايةٌ عن الجماع .

﴿مَيْثَقًا غَلِيظًا﴾ قيل : هو عُقْدَةُ^(٣) النكاح .

وقيل : قوله : ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] .

وقيل : الأمر بحسن العشرة .

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ كان بعض العرب يتزوج امرأة أبيه بعده ؛ فنزلت الآية تحريمًا لذلك .

(١) في ج ، د : «وجه» .

(٢) أخرجه البيهقي (٤٧٩/١٤) .

(٣) في ج : «عقد» .

فكلُّ امرأةٍ تزوّجها رجلٌ حرّمت على أولاده ما سَفَلُوا، سواءٌ دخل بها أو لم يدخل؛ فالنكاح في الآية بمعنى العقد.

و﴿مَا نَكَحَ﴾ يعني: النساء، وإنما أطلق عليهن «ما» وإن كانت^(١) ممن يعقل؛ لأنَّ المراد الجنس.

فإن زنى رجلٌ بامرأةٍ فاختلف هل يحرم تزوّجها على أولاده أم لا؟
فحرّمه أبو حنيفة.

وأجازه الشافعي.

وفي المذهب قولان.

واحتج من حرّمه: بهذه الآية، وحمل النكاح فيها على الوطء.

وقال من أجازه: إنَّ الآية لم تتناولهُ؛ إذ النكاح فيها بمعنى العقد.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: إلّا ما فعلتم في الجاهلية من ذلك، وانقطع بالإسلام؛ فقد عُفي عنه فلا تَوَاحِدُونَ به، ويدلُّ على هذا قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ بعد قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ في المرّة الأخرى في الجمع بين الأختين.

قال ابن عباس: كانت العرب تحرّم كل ما حرّمت الشريعة، إلّا امرأة الأب، والجمع بين الأختين.

وقيل: المعنى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فدعوه.

(١) في د: «كُنَّ».

وقال الزمخشريُّ: المعنى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فانكحوه إن أمكنكم، وذلك غير ممكن؛ فالمعنى: المبالغة في التحريم^(١).

﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا﴾ «كان» في هذه الآية تقتضي الدوام؛ كقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، وشبه ذلك.

وقال المبرِّد: هي زائدة. وذلك خطأ؛ لوجود خبرها منصوبًا.

وزاد هنا المقت على ما وصف به الزنا في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]؛ دلالة على أن هذا أقبح من الزنا.

(١) الكشاف (٤/٤٨٩).

[حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُنَّ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٣﴾] وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَاَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥﴾].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ الآية؛ معناها: تحريم ما ذُكِرَ من النساء.

والنساء المحرّمات على التأييد ثلاثة أصناف: بالنسب، وبالرضاع، وبالمصاهرة.

فأما النسب فيحرم به سبعة أصناف؛ وهي المذكورة في هذه الآية.

وضابطها: أنه يحرم على الرجل فصوله ما سفلت، وأصوله ما علت، وفصول أبويه ما سفلت، وأول فصلٍ من كل أصل متقدّم على أبويه.

﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾ يدخل فيه : الوالدات ، والجَدَّات من الأم ومن الأب ما علَوْنَ .

﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ يدخل فيه : البنت ، وبنت الابن ، وبنت البنت ما سَقَلْنَ .
 ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ يدخل فيه : الأخت الشقيقة ، والأخت للأب ، والأخت للأم .

﴿وَعَمَّتُكُمْ﴾ يدخل فيه : أخت الوالد ، وأخت الجد ما علا ؛ سواء كانت شقيقة أو لأب أو لأم .

﴿وَحَلَّتُكُمْ﴾ يدخل فيه : أخت الأم ، وأخت الجدَّة ما علت ؛ سواء كانت شقيقة أو لأب أو لأم .

﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾ يدخل فيه : كل من تناسل من الأخ الشقيق ، وللأب ، وللأم .

﴿وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ يدخل فيه : كل من تناسل من الأخت الشقيقة ، وللأب ، وللأم .

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ ذكر تعالى صنفين من الرضاغة وهما : الأم والأخت ، وقال رسول الله ﷺ : «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»^(١) .

فاقتضى ذلك : تحريم الأصناف السبعة التي تحرم من النسب ، وهي : الأم ، والبنت ، والأخت ، والعمة ، والخالة ، وبنت الأخ ، وبنت الأخت .

(١) أخرجه البخاري (٢٦٤٥) ، ومسلم (١٤٤٧) .

وتفصيل ذلك يطول .

وفي الرضاع مسائل لم نذكرها ؛ لأنها ليس لها تعلقٌ بالفاظ الآية .
﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ المحرّمات بالمصاهرة أربع ؛ وهنّ : زوجة الأب ،
وزوجة الابن ، وأم الزوجة ، وبنت الزوجة .

فأما الثلاث الأول : فتحرّم بالعقد ؛ دخل بها أو لم يدخل .

وأما بنت الزوجة : فلا تحرّم إلا بعد الدخول بأمرها .

فإن وطئها حرمت عليه بنتها بإجماع .

وإن تلذذ بها بما دون الوطء : فحرّمها مالك والجمهور .

وإن عقد عليها ولم يدخل بها : لم تحرّم بنتها إجماعاً .

وتحرّم هذه الأربع بالرضاع كما تحرّم بالنسب .

﴿رَبِّبْتُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ الرّبيبة : هي بنتُ امرأة الرجل من غيره ،
سُميت بذلك ؛ لأنه يُربّيها ، فلفظها : فَعِيلَة بمعنى مفعولة .

وقوله : ﴿الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ على غالب الأمر ؛ إذ الأكثر أن تكون الرّبيبة
في حجر زوج أمّها ، وهي محرّمة ؛ سواء كانت في حجره أم لا ، هذا عند
الجمهور من العلماء ، إلا ما روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه أجاز
نكاحها إن لم تكن في حجره .

﴿مِنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ اشترط الدخول في تحريم بنت
الزوجة خاصة ، ولم يشترطه في غيرها ، وعلى ذلك جمهور العلماء ، إلا ما
روي عن علي بن أبي طالب أنه اشترط الدخول في تحريم الجميع ، وقد

انعقد الإجماع بعده على خلاف ذلك .

﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ الحلائل : جمع حَلِيلَة ؛ وهي الزوجة .

﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ تخصيص ؛ ليخرج عنه زوجة الابن الذي يتبناه الرجل وهو أجنبي عنه ؛ كتزويج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، امرأة زيد بن حارثة الكلبي الذي كان يقال له : زيد بن محمد .

﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ يقتضي تحريم الجمع بين الأختين ؛ سواء كانتا شقيقتين أو لأب أو لأم ؛ وذلك في الزوجتين .

وأما الجمع بين الأختين المملوكتين في الوطء :

فمنعه مالك والشافعي وأبو حنيفة وغيرهم ، ورأوا أنه داخل في عموم لفظ : ﴿الْأُخْتَيْنِ﴾ .

وأجازه الظاهرية ؛ لأنهم قصرُوا الآية على الجمع بالنكاح .

وأما الجمع بين الأختين في الملك دون وطء فجاز باتفاق .

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ المعنى : إلا ما فعلتم من ذلك في الجاهلية وانقطع بالإسلام ؛ فقد عُفي عنكم فلا تؤاخذون به ، هذا أرجح الأقوال حسبما تقدّم في الموضع الأول .

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ المراد هنا : ذوات الأزواج ، وهو معطوف على المحرمات المذكورات قبله .

والمعنى : أنه لا يحل^(١) نكاح المرأة إذا كانت في عصمة الرجل .

(١) في د : «لا يجوز» .

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ يريد: السَّبايا في أشهر الأقوال، والاستثناء متصل.

والمعنى: أن المرأة الكافرة إذا كان لها زوج، ثم سُبيت جاز لمن ملكها من المسلمين أن يطأها.

وسبب ذلك: أن رسول الله ﷺ بعث جيشاً إلى أوطاس، فأصابوا سبايا من العدو لهن^(١) أزواج من المشركين، فتأثم المسلمون من غشيانهن، فنزلت الآية مبيحةً لذلك.

ومذهب مالك: أن السبي يهدم النكاح؛ سواءً سُبِيَ الزوجان الكافران معاً أو سُبِيَ أحدهما قبل الآخر.

وقال ابن المَوَّاز: لا يهدم السبي النكاح.

﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ منصوبٌ على المصدرية؛ أي: كَتَبَ اللَّهُ ذلك عليكم كتاباً، وهو تحريم ما حرَّم.

وهو عند الكوفيين: منصوب على الإغراء.

﴿وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ معناه: أَحَلَّ لَكُمْ تزوج مَنْ سِوَى ما حرَّم من النساء.

وعطف ﴿أَحَلَّ﴾ على الفعل المضمر الذي نصب ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾، والفاعل هو الله؛ أي: كَتَبَ اللَّهُ عليكم تحريم مَنْ ذَكَرَ، وَأَحَلَّ لَكُمْ ما وراء ذلكم.

(١) في ج، د: «ولهن».

﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ مفعولٌ من أجله، أو بدلٌ من: ﴿مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ .
وحُذِفَ مفعوله ؛ وهو النساء .

﴿مُحْصِنِينَ﴾ هنا : أَعَقَّةٌ . ونُضِبُهُ على الحال من الفاعل في ﴿تَبْتَغُوا﴾ .
﴿غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ أي : غير زناةٍ . والسَّفَاح : هو الزنا .

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ ابنُ عباس وغيره : معناها :
إذا استمتعتم بالزوجة ، ووقع الوطء ، فقد وجب إعطاء الأجر ؛ وهو الصَّدَاق
كاملاً .

وقيل : إنها في نكاح المتعة ؛ وهو النكاح إلى أجلٍ من غير ميراث ، وكان
جائزاً في أول الإسلام ، فنزلت هذه الآية في وجوب الصداق فيه ، ثم حُرِّمَ
عند جمهور العلماء ؛ فالآية على هذا منسوخة :

بالخبر الثابت في تحريم نكاح المتعة .

وقيل : نسخها آية الفرائض ؛ لأن نكاح المتعة لا ميراث فيه .

وقيل : نسخها : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون : ٥] .

وروي عن ابن عباس جواز نكاح المتعة ، وروي أنه رجع عنه .

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَّيْتُمْ بِهِ﴾ مَنْ قَالَ : إن الآية المتقدمة في مهور
النساء ؛ فمعنى هذه : جواز ما يتراضون به من حَظٍّ من ^(١) الصداق ، أو تأخيرهِ
بعد استقرار الفريضة .

(١) لم يرد هذا الحرف في ج ، هـ ، د .

ومن قال: إن الآية في نكاح المتعة؛ فمعنى هذه: جواز ما يتراضون به من زيادة في مدة المتعة وزيادة في الأجر.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّئَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ معناها: إباحة تزوج الفتيات - وهنّ الإماء - للرجل إذا لم يجد طَوْلاً للمحصنات.

والطَّوْلُ: هو السعة في المال.

والمحصنات هنا: يراد به^(١) الحرائر غير المملوكات.

ومذهب مالك وأكثر أصحابه: أنه لا يجوز للحرِّ نكاح أمةٍ إلا بشرطين: أحدهما: عدم الطَّوْل؛ وهو أن لا يجد ما يتزوج به حرة^(٢).

والآخر: خوف العنت؛ وهو الزَّنا؛ لقوله بعد هذا: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾.

وأجاز ابن القاسم نكاحهن دون الشرطين؛ على القول بأن دليل الخطاب لا يعتبر.

واتفقوا على اشتراط الإسلام في الأمة التي تُتَزَوَّج^(٣)؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ فَيِّئَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، إلا أهل العراق فلم يشترطوه.

(١) في د: «بهن».

(٢) في ب، ج، هـ: «بما يتزوج حرة».

(٣) في ج، هـ: «لا تتزوج».

وإعراب ﴿طَوَّلًا﴾ :

[١-] مفعولٌ بالاستطاعة ، و﴿أَنْ يَنْكِحَ﴾ :

بدلٌ منه ، فهو في موضع نصبٍ .

(أو في موضع نصبٍ)^(١) بتقدير : «لأن يَنْكِحَ» .

[٢-] ويَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ﴿طَوَّلًا﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ ؛ وَالْعَامِلُ فِيهِ

الاستطاعة لأنهما بمعنى يتقارب ، و﴿أَنْ يَنْكِحَ﴾ عَلَى هَذَا مَفْعُولٌ :

بِالِاسْتِطَاعَةِ .

أَوْ بِالْمَصْدَرِ .

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ معناه : أنه يعلم بواطن الأمور ولكم ظواهرها ، فإذا كانت الأمة ظاهرة الإيمان ، فنكاحها صحيح ، وعِلْمُ باطنها إلى الله .

﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي : إماءكم منكم ؛ وهذا تأنيسٌ بنكاح الإماء ؛ لأن بعض العرب كان يأنف من ذلك .

﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي : بإذن ساداتهنَّ المالكيين لهنَّ .

﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي : صدقاتهن .

وهذا يقتضي أنهنَّ أحقُّ بصدقاتهنَّ من ساداتهنَّ ، وهو مذهب مالك .

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي : بالشرع على ما تقتضيه السنة .

(١) ما بين القوسين لم يرد في أ ، ب ، ج ، د ، ومثبت من هـ ، وهو موافق لما في المحرر الوجيز (٢/ ٥٢٠) .

﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ﴾ أي: عفيفات غير زانيات.

وهو منصوب على الحال؛ والعامل فيه: ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ﴾.

﴿وَلَا تُتَّخَذَاتِ أَحْدَانٍ﴾ جمع خِدْنٍ؛ وهو الخليل، وكان من نساء الجاهلية من تتخذ خِدْنًا تزني معه خاصة، ومنهن من كانت لا تردُّ يد لأمس.

﴿فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْكَ يَفْحَشًا فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ معنى ذلك: أن الأمة إذا زنت بعد أن أُحْصِنَتْ فعليها نصف حدِّ الحرة، فإن الحرة تُجلد في الزنا مئة جلدة، والأمة تجلد خمسين.

فـ ﴿إِذَا أُحْصِنَ﴾ يريد به هنا: تزوَّجَن، والفاحشة هنا: الزنا، و﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ هنا: الحرائر، و﴿الْعَذَابِ﴾ هنا: الحدُّ^(١).

فاقتضت الآية: حدَّ الأمة إذا زنت بعد أن تزوَّجت، ويؤخذ حدُّ غير المتزوجة من السنة؛ وهو مثل حدِّ المتزوجة.

وهذا على^(٢) قراءة ﴿أُحْصِنَ﴾ بضم الهمزة وكسر الصاد.

وقرئ بفتحهما، ومعناه:

أَسْلَمْنَ.

وقيل: تزوَّجَن.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ أَلَعَنَّ مِنْكُمْ﴾ الإشارة إلى تزوُّج الأمة؛ أي: إنما يجوز لمن حَشِيَ على نفسه الزنا، لا لمن يملك نفسه.

(١) في د: «الجلد».

(٢) في ب، ج، هـ: «وعلى هذا».

﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ المراد: الصبر عن نكاح الإماء، وهذا نَدْبٌ إلى تركه، وَعِلَّتُهُ: ما يؤدي إليه من استرقاق الولد.

[﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ لَكُمْ سُنَنِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾
 وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
 الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ
 ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ
 تَكُونَ بَحْرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾
 وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا
 ﴿٣٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا
 كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا
 اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ
 شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى وَمَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ
 عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَأَوْهَهُمْ نَصِيحُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾].

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ لَكُمْ﴾ قال الزمخشري: «أصله: أن يبين؛ فزيدت اللام
 مؤكدة، كما زيدت في: لا أبا لك»^(١).

وقال الكوفيون: اللام مصدرية؛ مثل: «أن».

﴿وَيُذْهِبُ لَكُمْ سُنَنِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: يهديكم مناهج من كان قبلكم
 من الأنبياء والصالحين؛ لتقتدوا بهم.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ كرر توطئة لفساد إرادة الذين يتبعون
 الشهوات، وهم هنا:
 الزناة عند مجاهد.

وقيل : المجوس ؛ لنكاحهم ذوات المحارم .

وقيل : عامٌ في كل متبع شهوة . وهو أرجح .

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ يقتضي سياق الكلام التخفيف الذي وقع في إباحة نكاح الإماء ، وهو مع ذلك عامٌ في كل ما خَفَّفَ الله عن عباده ، وجَعَلَ دينهم يُسرًا .

﴿وَحَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ قيل : معناه لا يصبر عن النساء ؛ وذلك مقتضى سياق الكلام .

واللفظ أعمُّ من ذلك .

﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ يدخل فيه : القمار ، والغصب ، والسرقة ، وغير ذلك .

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾ استثناء منقطع ، والمعنى : لكن إن كانت تجارة فكلوها .

وفي إباحة التجارة دليلٌ على أنه يجوز للإنسان أن يشتري بدرهم سلعة تساوي مئة ، والمشهور إمضاء البيع .

وحكي عن ابن وهب : أنه يُردُّ إذا كان الغبن أكثر من الثلث .

وموضع «أن» نصبٌ ، و﴿تِجَارَةً﴾ بالرفع : فاعل ﴿تَكُونَ﴾ ؛ وهي تامة .

وقرئ بالنصب : خبر ﴿تَكُونَ﴾ ؛ وهي ناقصة .

﴿عَنْ تَرَايٍ مِنْكُمْ﴾ أي : اتفاق .

وبهذا استدلل المالكية على تمام البيع بالعقد دون التفريق.

وقال الشافعي: إنما يتم بالتفريق بالأبدان؛ لقوله ﷺ: «المتبايعان بالخيار ما لم يتفرقا»^(١).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال ابن عطية: أجمع المفسرون أن المعنى: لا يقتل بعضكم بعضاً^(٢).

قلت: ولفظها يتناول قتل الإنسان لنفسه^(٣)، وقد حملها عمرو بن العاص على ذلك، ولم ينكره رسول الله ﷺ إذ سمعه^(٤).

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى:

القتل؛ لأنه أقرب مذكور.

وقيل: إليه، وإلى أكل المال بالباطل.

وقيل: إلى كل ما تقدم من المنهيات من أول السورة.

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ﴾ اختلف الناس في الكبائر ما هي؟

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣١).

(٢) المحرر الوجيز (٥٣٠/٢).

(٣) في ب، د: «نفسه».

(٤) أخرج أبو داود في سننه (٣٣٤) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت أن اغتسل فأهليك، فتيمنت، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟!» فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً.

فقال ابن عباس: الكبائر: كلُّ ذنب ختمه الله بنارٍ أو لعنةٍ أو غضبٍ.
وقال ابن مسعود: الكبائر هي الذُّنوب المذكورة من أول هذه السورة إلى هذه الآية.

وقال بعض العلماء: كل ما عَصِيَ الله به فهو كبيرةٌ.
وعدها بعضهم سبع عشرة.

وفي البخاري عن النبي ﷺ: «اتقوا السبع الموبقات: الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات»^(١) فلا شك أن هذه من الكبائر؛ للنص عليها في الحديث.

وزاد بعضهم عليها أشياء وردَ في الأحاديث^(٢) النصُّ على أنها كبائر، أو ورد في القرآن أو في الحديث وعيدٌ عليها؛ فمنها: عقوق الوالدين، وشهادة الزور، واليمين الغموس، والزنا، والسرقه، وشرب الخمر، والنُّهبة، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، ومنع ابن السبيل، الماء، والإلحاد في البيت الحرام، والنميمة، وترك التحرُّز من البول، والغُلُول، واستطالة المرء في عرض أخيه، والجور في الحكم.

﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وعُدُّ بغُفران الذنوب الصغائر إذا اجْتُنِبَت الكبائر.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٢) في ب، د: «الحديث».

﴿مَذْخَلًا كَرِيمًا﴾ اسم مكان؛ وهو هنا: الجنة.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ الآية؛ سببها: أن النساء قلن: ليتنا استويننا مع الرجال في الميراث، وشاركناهم في الغزو!، فنزلت نهياً عن ذلك؛ لأن في تمنّيهم ردّاً^(١) على حكم الشريعة.

فيدخل في النهي: تمنّي مخالفة الأحكام الشرعية كلّها.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾ الآية؛ أي: من الأجر والحسنات.

وقيل: من الميراث؛ ويردّه لفظ الاكتساب.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى﴾ الآية؛ في معناها وجهان:

أحدهما: لكل شيء من الأموال جعلنا مولى يرثونه؛ ف﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ -على هذا-: بيان لـ «كُلِّ».

والآخر: لكلٍّ أحد جعلنا مولى يرثون مما ترك الوالدان والأقربون؛ ف﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ -على هذا-: يتعلّق بفعل مضمر.

والموالي هنا: الورثة^(٢) والعصبة.

﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ اختُلف هل هي منسوخة أو مُحْكَمَة؟

فالذين قالوا إنها منسوخة قالوا: معناها:

الميراث بالحلْف الذي كان في الجاهلية.

(١) في ب: «لأن تمنّيهم ردّاً».

(٢) في ج، هـ: «الذرية»، والمثبت موافق لما في المحرر الوجيز (٥٣٧/٢).

وقيل : بالمؤاخاة التي آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه .

ثم نسخها : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] ؛ فصار الميراث للأقارب .

والذين قالوا إنها محكمة اختلفوا :

فقال ابن عباس : هي في المؤازرة والنصرة بالحلف ، لا في الميراث به .

وقال أبو حنيفة : هي في الميراث ؛ وأن الرجلين إذا والى أحدهما الآخر على أن يتوارثا صحَّ ذلك ، وإن لم تكن بينهما قرابة .



[الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَنِينَتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيَّ تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْعُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٦﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعُثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٧﴾ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِشَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٤٠﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٢﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤٣﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٤﴾].

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ قَوَّام: بناءً مبالغة؛ من القيام على الشيء والاستبداد بالنظر فيه.

قال ابن عباس: الرجال أمراء على النساء.

﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ الباء: للتعليل، و«ما» مصدرية.

والتفضيل: بالجهد، والإمامة، وملك الطلاق، وكمال العقل، وغير ذلك.

﴿وَيْمًا أَنْفَقُوا﴾ هو: الصَّدَاقُ، والنفقة المستمرة على الزوجات.
 ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ أي: النساء الصالحات في دينهن مطيعات
 لأزواجهن.

أو: مطيعات لله في حق أزواجهن.
 ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: تحفظ كل ما غاب عن علم زوجها، فيدخل في
 ذلك: صيانة نفسها، وحفظ ماله وبيته، وحفظ أسراره.

﴿يَمًا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي: بحفظ الله ورعايته.

أو: بأمره للنساء أن يُطعن الزوج ويحفظنه.

ف«ما»: مصدرية، أو بمعنى «الذي».

﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ قيل: الخوف هنا بمعنى اليقين.

وقيل: هو على أصله.

﴿فَعُظُّهُنَّ وَأَهْجُرُهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾ هذه أنواع من تأديب المرأة
 إذا نشزت على زوجها؛ وهي على مراتب:

فالوعظ في النشوز في الخفيف.

والهجران فيما هو أشد منه.

والضرب فيما هو أشد منه^(١).

ومتى انتهت عن النشوز بوجه من التأديب لم يُتعدَّ إلى ما بعده.

(١) لم ترد هذه الكلمة في ب، هـ.

والهجران هنا: هو ترك مضاجعتها، وقيل: ترك الجماع إذا ضاجعها.
والضرب: غير مُبرَّح.

﴿فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: إذا أطاعت المرأة زوجها
فليس له أن يؤذيها بهجران ولا ضرب.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ الشقاق: الشرُّ والعداوة.

وكان الأصل: «إن خفتم شقاقاً بينهما»، ثم أُضيف الظرف إلى الشقاق
على طريق الاتساع؛ كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرٌ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: ٣٣]؛
وأصله: «مكرٌ بالليل والنهار».

﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا﴾ الآية؛ ذكر تعالى الحُكْمَ في نشوز المرأة، والحكمَ في
طاعتها، ثم ذكر هنا حالةً أخرى؛ وهي: إذا ساء^(١) ما بين الزوجين ولم يُقدَّرْ
على الإصلاح بينهما، ولا عُلِمَ مَنْ الظالم منهما، فَيُبْعَثُ حَكَمَانِ مُسْلِمَانِ؛
لِيَنْظُرَا فِي أَمْرِهِمَا، وَيُنْفِذَا^(٢) ما ظهر لهما من تطليق وخُلْعٍ من غير إذن
الزوج.

وقال أبو حنيفة: ليس لهما الفراق إلا إن جُعِلَ^(٣) لهما.

وإن اختلفا لم يلزم شيءٌ إلا باتِّفاقهما.

ومشهور مذهب مالك: أن الحاكم هو الذي يبعث الحكمين.

(١) في ب: «وهي إساءة».

(٢) في ب، ج، هـ: «ويُنْفِذ».

(٣) في ب: «أن يجعل».

وقيل : يبعثهما الزوجان .

وجرت عادة القضاة أن يبعثوا امرأةً أمينة ، ولا يبعثوا حكمين ؛ قال بعض العلماء : هذا تغييرٌ لحكم القرآن والسنة الجارية .

﴿مَنْ أَهْلِهِ﴾ يجوز في المذهب أن يكون الحكمان من غير أهل الزوجين والأكمل أن يكونا من أهلها ؛ كما ذكر الله .

﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ الضمير في ﴿يُرِيدَا﴾ : للحكمين ، وفي ﴿بَيْنَهُمَا﴾ : للزوجين على الأظهر .

وقيل : الضميران للزوجين .

وقيل : للحكمين .

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ ابنُ عباس : الجارُ ذو القربى : هو القريب النسب ، والجار الجنب : هو الأجنبي .

وقيل : ذو القربى : القريب المسكن منك ، والجنب : البعيد المسكن عنك .

وحد الجوار^(١) عند بعضهم : أربعون دارًا من كل ناحية .

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ ابنُ عباس : الرفيق في السفر .

عليُّ بن أبي طالب : الزوجة .

(١) في د : «الجار» .

﴿مُحْتَالًا﴾ اسم فاعل؛ وزنه مُفْتَعِل؛ من الخيلاء، وهي^(١) الكبر وإعجاب المرء بنفسه.

﴿فَحُورًا﴾ شديد الفخر.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿مُحْتَالًا﴾.

أو نَضَبٌ على الذم.

أو رفعٌ بخبر ابتداء مضمَر.

أو مبتدأ وخبره محذوف؛ تقديره: «يُعَذِّبُونَ».

والآية في اليهود؛ نزلت في قوم منهم: كَرْدَمٌ، وحُيَي بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن الثَّابُوت، كانوا يقولون للأنصار: لا تُنْفِقُوا أموالكم في الجهاد والصدقات.

وهي - مع ذلك - عامةٌ فيمن فعل هذه الأفعال من المسلمين.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ عطفٌ على ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾.

وقيل: على: ﴿الْكَافِرِينَ﴾.

والآية في المنافقين الذين كانوا ينفقون في الزكاة والجهاد رياءً^(٢) ومُصَانَعَةً.

وقيل: في اليهود.

(١) في د: «وهو».

(٢) في د: «رياء الناس».

وقيل: في مشركي مكة الذين أنفقوا أموالهم^(١) في حرب المسلمين.

﴿قَرِينَا﴾ أي: مُلَازِمًا له يُغْوِيه.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا﴾ الآية؛ استدعاء لهم بملاطفة.

أو: توبيخ على ترك الإيمان والإنفاق؛ كأنه يقول: أيُّ مضرّة عليهم في ذلك.

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: وزنها؛ وهي النملة الصغيرة، وذلك تمثيلٌ بالقليل تنبيهًا على الكثير.

﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً﴾ بالرفع: فاعل، و﴿تَكُ﴾ تامة.

وبالنصب: خبر؛ على أنها ناقصة، واسمها مضمّر فيها.

﴿يُضَعِفُهَا﴾ أي: يكثرها^(٢)؛ واحدة بعشر^(٣)، إلى سبع مئة وأكثر.

﴿وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ﴾ أي: من عنده؛ تفضلاً وزيادةً على ثواب العمل.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا﴾ تقديره: كيف يكون الحال إذا جئنا!.

﴿شَهِيدٍ﴾ هو نبيهم؛ يشهد عليهم بأعمالهم.

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أي: تشهد على قومك.

ولما قرأ ابن مسعود هذه الآية على رسول الله ﷺ ذرّفت عيناه^(٤).

(١) في أ: «مالهم» وفي الهامش: «خ: أموالهم».

(٢) في أ: «يكررها» وفي الهامش: «خ: يكثرها».

(٣) في د: «بعشر أمثالها».

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٨٣)، ومسلم (٨٠٠).

﴿لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أي: يتمنون أن يدفنوا فيها، ثم تَسَوَّى بهم كما تَسَوَّى بالموتى.

وقيل: يتمنون أن يكونوا سواءً مع الأرض؛ كقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠]، وذلك لما يرون من أهوال يوم القيامة.

﴿وَلَا يَكْنُؤُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ استئناف، إخبار أنهم لا يكتُمون يوم القيامة عن الله شيئًا.

فإن قيل: كيف هذا مع قولهم: ﴿وَاللَّهُ رَيْنًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؟
فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن الكتم لا ينفعهم؛ لأنهم إذا كتموا تنطق جوارحهم، فكأنهم لم يكتُموا.

والآخر: أنهم طوائف مختلفة، ولهم أوقات مختلفة.

وقيل: إن قوله: ﴿وَلَا يَكْنُؤُونَ﴾ عطف على ﴿تَسَوَّى﴾؛ أي: يتمنون أن لا يكتُموا؛ لأنهم إذا كتموا افتضحوا.

[يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْجَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَايَةِ أَوْ لَمْ تَمْسُكُمُ النِّسَاءُ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنِينَ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَآ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرْكَبُونَ أَنْفُسَهُمْ بِلِ اللَّهِ يُرْكَبُ مِّن يَّسَاءٍ وَلَا يُظْلَمُونَ قَتِيلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾].

﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ سببها : أن جماعة من الصحابة شربوا الخمر قبل تحريمها ، ثم قاموا إلى الصلاة ، وأمهم أحدهم فخلط في القراءة .

فمعناها : النهي عن الصلاة في حال ^(١) السكر .

قال بعض الناس : هي منسوخة بتحريم الخمر ، وذلك لا يلزم ؛ لأنها ليس فيها ما يقتضي إباحة الخمر ، إنما هي نهى عن الصلاة في حال السكر ، وذلك

(١) في هامش أ : «حين» .

الحكم ثابت في حين إباحة الخمر وفي حين تحريمها .

وقال بعضهم : معناها : لا يكن منكم سكرٌ يمنع قرب الصلاة ؛ إذ المرءُ مأمورٌ بالصلاة ، فكأنها تقتضي النهي عن السكر ، وعن سببه وهو الشرب ، وهذا بعيدٌ من مقتضى اللفظ .

﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي : حتى تعود إليكم عقولكم فتعلمون ما تقرأون .

ويظهر من هذا : أن السكران (لا يعلمُ ما يقول ؛ فأخذ بعض الناس من ذلك : أن السكران)^(١) لا يلزمه طلاقه ولا إقراره .

﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ عطف ﴿وَلَا جُنْبًا﴾ على موضع : ﴿وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ ؛ إذ هو في موضع الحال .

والجنب هنا : غير الظاهر ؛ بإنزالٍ أو إيلاج ، وهو واقعٌ على جماعة ؛ بدليل استثناء الجمع منه .

واختلف في عابري السبيل :

فقليل : إنه المسافر ؛ ومعنى الآية على هذا : نهى أن يقرب الصلاة وهو جنب إلا في السفر ، فيصلّي بالتيمم دون اغتسال .

فمقتضى الآية : إباحة التيمم للجنب في السفر ، ويؤخذ إباحة التيمم للجنب في الحضر من الحديث .

(١) ما بين القوسين سقط من ب ، ج ، هـ .

وقيل: عابرُ السبيل: المارُّ في المسجد، والصلاة هنا يراد بها: المسجد؛ لأنه موضع الصلاة، فمعنى الآية على هذا: النهي أن يقرب الجنبُ المسجد إلا خاطراً عليه.

وعلى هذا أخذ^(١) الشافعي الآية؛ لأنه يُجيز للجنب أن يمرَّ في المسجد، ولا يجيز له أن يقعد فيه.

ومنع مالك المرور والقعود.

وأجازهما داود.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ الآية؛ سببها: عَدَمُ الصحابة للماء في غزوة المُرَيْسِيع، فأبيح لهم التيمم في عَدَمِ الماء.

ثم إنَّ عَدَمَ الماء على ثلاثة أوجه:

أحدها: عدمه في السفر.

والثاني: عدمه في المرض.

فيجوز التيمم في هذين الوجهين بإجماع؛ لأن الآية نصٌّ في المرض والسفر إذا عدم الماء فيهما؛ لقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ ثم قال: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾.

الوجه الثالث: عدم الماء في الحَضَر دون مرض؛ فاختلف الفقهاء فيه:

فمذهب أبي حنيفة: أنه لا يجوز فيه التيمم؛ لأن ظاهر الآية أنَّ عدم الماء إنما يعتبر مع المرض أو السفر.

(١) في د: «حمل».

ومذهب مالك والشافعي : أنه يجوز فيه التيمم .

فإن قلنا : إن الآية لا تقتضيه ، فيؤخذ جوازه من السنة .

وإن قلنا : إن الآية تقتضيه ، فيؤخذ جوازه منها^(١) .

وهذا هو الأرجح إن شاء الله ؛ وذلك أنه ذكر في أول الآية المرض والسفر ، ثم ذكر الأحداث دون مرض ولا سفر ، ثم قال بعد ذلك كله : ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً ﴾ ، فيرجع قوله : ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً ﴾ إلى المرض وإلى السفر وإلى مَنْ أَحْدَثَ في غير مرض ولا سفر ؛ فيجوز التيمم على هذا لَمَنْ عَدِمَ الماءَ في غير مرض ولا سفر ، فيكون في الآية حجةً لمالك والشافعي .

ويجوز التيمم أيضًا في مذهب مالك للمريض إذا وجد الماء ، ولم يَقْدِرْ على استعماله ؛ لضررِ بدنه .

فإن قلنا : إن الآية لا تقتضيه ، فيؤخذ جوازه من السنة .

وإن قلنا : إن الآية تقتضيه ، فيؤخذ جوازه منها^(٢) ؛ على أن يُتَأَوَّلَ قوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى ﴾ أن معناه : مرضى لا تقدرُونَ على مسِّ الماء .

وحدَّ المرض الذي يجوز فيه التيمم :

عند مالك : هو أن يَخَافَ الموتَ ، أو زيادةَ المرض ، أو تأخُرَ البُرءَ .

وعند الشافعي : خوفُ الموت لا غيرُ .

وحدَّ السفر : الغيبة عن الحضَر ، سواء كان مما تُقَصَّرُ فيه الصلاة أم لا .

(١) في د : «منهما» .

(٢) في د : «منهما» .

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم﴾ في «أو» هنا تأويلان :

أحدهما : أن تكون للتفصيل والتنويع على بابها .

والآخر : أنها بمعنى الواو .

فعلى القول بأنها على بابها : يكون قوله : ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾ راجعاً إلى المريض والمسافر ، وإلى مَنْ جاء مِنَ الغائط ، وإلى مَنْ لَامَسَ ، سواءً كانا مريضين أو مسافرين أم لا ؛ حسبما ذكرنا قبل هذا .

فيقتضي ذلك : جواز التيمم للحاضر الصحيح إذا عَدِمَ الماء ، وهو مذهب مالك والشافعي فيكون في الآية حجة لهما .

وعلى القول بأنها بمعنى الواو : يكون قوله : ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾ راجعاً إلى المريض والمسافر .

فيقتضي ذلك : أنه لا يجوز التيمم إلا في المرض والسفر مع عَدَمِ الماء ، وأنه لا يجوز للحاضر الصحيح إذا عَدِمَ الماء ، ولكن يؤخذ جواز التيمم له من موضع آخر .

والراجع : أن تكون «أو» على بابها ؛ لوجهين :

أحدهما : أن جعلها بمعنى الواو إخراجاً لها عن أصلها ، وذلك ضعيف .

والآخر : أنه ^(١) إذا كانت على بابها : كان فيها إفادة ^(٢) إباحة التيمم للحاضر الصحيح إذا عَدِمَ الماء على ما ظهر لنا فيها ، وإذا كانت بمعنى

(١) في د : «أنها» .

(٢) في ج ، د : «فائدة» .

الواو لم تُعْطِ^(١) هذه الفائدة .

وَحَجَّةٌ مَنْ جَعَلَهَا بِمَعْنَى الْوَائِي : أَنَّهُ لَوْ جَعَلَهَا عَلَى بَابِهَا لَا قَتَضَى الْمَعْنَى أَنَّ الْمَرَضَ وَالسَّفَرَ حَدَثٌ يُوجِبُ الْوُضُوءَ كَالْغَائِطِ ؛ لِعَطْفِهِ عَلَيْهِمَا .

وهذا لا يلزم ؛ لأن العطف بـ «أو» هنا للتنويع والتفصيل ، ومعنى الآية كأنه قال : يجوز لكم التيمم إذا لم تجدوا ماءً إن كنتم مرضى أو على سفر ، أو أحدثتم في غير مرض ولا سفر .

﴿الْغَائِطُ﴾ أصله : المكان المنخفض ، وهو هنا : كناية عن الحدث الخارج من المخرجين ، وهو العذرة ، والريح ، والبول ؛ لأن من ذهب إلى الغائط تكون منه هذه الأحداث الثلاثة .

وقيل : إنما هو كناية عن العذرة ، وأما البول والريح ، فيؤخذ وجوب الوضوء لهما من السنة ، وكذلك الودْيُ والمَذْيُ .

﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ اختلف في المراد بالملامسة هنا على ثلاثة أقوال : أحدها : أنها الجماع وما دونه ؛ من التقبيل واللمس باليد وغيرها . وهو قول مالك .

فعلى هذا : ينتقض الوضوء باللمس الذي هو دون الجماع على تفصيل في المذهب ، ويجب معه التيمم إذا عدم الماء ، ويكون الجنب من أهل التيمم .

والقول الثاني : أنها ما دون الجماع .

فعلى هذا : ينتقض الوضوء باللمس ، ولا يجوز التيمم للجنب ، وقد قال

(١) في هامش أ : «خ : تُفَدُّ» .

بذلك عمر بن الخطاب، ويؤخذ جوازه عند من أجازوه من الحديث.

والثالث: أنها الجماع لا غيرُ.

فعلى هذا: يجوز التيمم للجنب، ولا يكون ما دون الجماع ناقضاً للوضوء. وهو مذهب أبي حنيفة.

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ هذا يفيد وجوب طلب الماء^(١)، وهو مذهب مالك، خلافاً لأبي حنيفة.

فإن وجده بثمنٍ فاختلف: هل يجوز له التيمم أم لا؟

وإن وهب له فاختلف: هل يلزمه قبوله أم لا؟

﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ التيمم في اللغة: القصد.

وفي الفقه: الطَّهارة بالتراب، وهو منقولٌ من المعنى اللُّغوي.

﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ الصَّعِيد عند مالك: هو وجه الأرض، كان تراباً أو رملاً أو حجارة، فأجاز التيمم بذلك كله.

وهو عند الشافعي: التراب لا غيرُ.

والطَّيِّب هنا: الطاهر.

واختلف في التيمم بالمعادن كالذهب، وبالمِلح، وبالتراب المنقول كالمَجْعول في طبق، وبالأَجْر، وبالجِصَّ المطبوع، وبالجدار، وبالنبات الذي على وجه الأرض، وذلك كله على الاختلاف في معنى الصعيد.

(١) في ب، ج، هـ: «الطلب».

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ لا يكون التيمم إلا في هذين العضوين،
ويُقَدَّم الوجه على اليدين؛ لظاهر الآية، وذلك على الندب عند مالك،
ويستوعب الوجه بالمسح.

وأما اليدان فاختُلف هل يمسحهما إلى الكوعين، أو إلى المرفقين؟
ولفظ الآية مُحتمِلٌ؛ لأنه لم يُحدَّ.

وقد احتجَّ من قال: إلى المرفقين بأن هذا مطلق، فيُحمل على المقيّد،
وهو تحديدهما في الوضوء بالمرفقين.

﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ هم اليهود هنا، وفي الموضع الثاني.
قال السهيلي في الموضع الأول: نزل في رِفاعَةَ بن زيد بن الثَّابُوت، وفي
الثاني: نزل في كعب بن الأشرف^(١).

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَلَةَ﴾ عبارة عن إيثارهم الكفرَ على الإيمان، فالشِّراء
مجازٌ؛ كقوله: ﴿أَشْتَرُوا الضَّلَلَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦].
وفي تَكَرُّار قوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾ مبالغة.

﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ «مِن»:

راجعةٌ إلى: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا﴾، أو إلى: ﴿بِأَعْدَائِكُمْ﴾؛ فهي بيانٌ.
وقال الفارسي^(٢): هي ابتداء كلام؛ تقديره: «من الذين هادوا قومٌ».

(١) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي، ص: ٨١.

(٢) هو أبو علي الفارسي النحوي، تقدمت ترجمته في ٩٠/١.

وقيل : هي متعلّقة بـ ﴿نَصِيرًا﴾ ؛ وهو ضعيف .

ويوقف على ﴿نَصِيرًا﴾ على قول الفارسي .

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ يحتمل : تحريف اللفظ ، أو المعنى .

و﴿الْكَلِمَ﴾ هنا : التوراة ، وقيل : كلام النبي ﷺ .

﴿غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ معناه : لا سمعت .

﴿وَرَاعَنَا﴾ ذُكِرَ فِي «البقرة»^(١) .

﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ عوضٌ من قولهم : «سمعنا وعصينا» .

﴿وَأَسْمَعُ﴾ عوضٌ من قولهم : «اسمع غير مسمع» .

﴿وَأَنْظُرْنَا﴾ عوضٌ من قولهم : «راعنا» ؛ وهو من النَّظَر أو الانتظار .

فهذه الأشياء الثلاثة في مقابلة الأشياء الثلاثة التي ذمّهم على قولها ؛ لما فيها من سوء الأدب مع رسول الله ﷺ ، وأخبر أنهم لو قالوا هذه الثلاثة الآخر عوضاً من تلك لكان خيراً لهم ؛ فإن هذه ليس فيها سوء أدب .

﴿مُصَدِّقًا﴾ ذُكِرَ فِي «البقرة»^(٢) .

﴿أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ ابنُ عباس : طَمَسُهَا : أَنْ تُزَالَ الْعَيْنَانِ مِنْهَا ، وَتُرَدَّ فِي الْقَفَا ؛ فَيَكُونُ ذَلِكَ رَدًّا عَلَى الدُّبْرِ .

وقيل : طمسها : محو تخطيط صُورِهَا ؛ مِنْ أَنْفٍ وَعَيْنٍ وَحَاجِبٍ ، حَتَّى

(١) انظر صفحة ٣٦٤ / ١ .

(٢) انظر صفحة ٣٠٨ / ١ .

تصيرَ كالأدبار في خلوها عن الحواس.

﴿أَوْ نَلْعَنُهُمْ﴾ أي: نمسخهم كما مُسِخ^(١) أصحاب السبت، وقد ذُكروا^(٢) في «البقرة»^(٣).

أو يكون من اللعن المعروف.

والضمير يعود:

على الوجوه؛ والمراد أصحابها.

أو يعود على الذين أوتوا الكتاب؛ على الالتفات.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ هذه الآية هي الحاكمة في مسألة الوعيد، وهي المبيّنة لما تعارض فيها من الآيات، وهي الحجّة لأهل السنة، والقاطعة بالخوارج والمعتزلة والمرجئة.

وذلك أن مذهب أهل السنة: أن العصاة من المؤمنين في مشيئة الله، إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، وحجّتهم: هذه الآية؛ فإنها نصّ في هذا المعنى.

ومذهب الخوارج: أن العصاة يُعذبون ولا بدّ؛ سواء كانت ذنوبهم صغائر أو كبائر.

ومذهب المعتزلة: أنهم يعذبون على الكبائر ولا بدّ.

(١) في د: «مسخنا».

(٢) في ج، هـ: «ذكر».

(٣) انظر صفحة ١/٣٢٣.

وَيَرُدُّ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ قَوْلَهُ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾.

ومذهب المرجئة: أن العصاة كُلَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُمْ وَلَا بَدْ، وأنه لَا يَضُرُّ^(١) ذَنْبٌ مع الإيمان.

وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُ: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾؛ فإنه تخصيصٌ لبعض العصاة. وقد تأولت المعتزلة الآية على مذهبهم، فقالوا: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾: هو التائب، فإن التائب لا خلاف أنه لا يعذب.

وهذا التأويل بعيد؛ لأن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ في غير التائب من الشرك، وكذلك قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ في غير التائب من العصيان؛ ليكون أَوَّلُ الآية وآخرها على نسقٍ واحد.

وتأولتها المرجئة على مذهبهم، فقالوا: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ معناه: لمن يشاء أن يؤمن.

وهذا أيضًا بعيد، لا يتقضيه اللفظ.

وقد ورد في القرآن آيات كثيرة في الوعيد:

فحملها المعتزلة على العصاة.

وحملها المرجئة على الكفار.

وحملها أهل السنة على الكفار، وعلى مَنْ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْعَصَاةِ.

كما حملوا آيات الوعد على المؤمنين الذين لم يذنبوا، وعلى المذنبين

(١) في هامش أ: «خ: لَا يَضُرُّهُمْ».

التائبين ، وعلى مَنْ يغفر الله له من العصاة غير التائبين .

فعلى مذهب أهل السنة لا يبقى تعارضٌ بين آيات الوعد وآيات الوعيد ، بل يُجمَع بين معانيها ، بخلاف قول غيرهم ؛ فإن الآيات فيه تتعارض^(١) .

وتلخيص المذاهب :

أن الكافر إذا تاب من كفره عُفِرَ له بإجماع ، وإن مات على كفره لم يُغْفَرْ له ، وخُلِدَ في النار بإجماع .

وأن العاصي من المؤمنين إن تاب غفر له ، وإن مات دون توبة فهو الذي اختلف الناس فيه .

﴿الَّذِينَ يُرْكُونُ أَنْفُسَهُمْ﴾ هم اليهود ، وتركيتهم :

قولهم : «نحن أبناء الله وأحباؤه» .

وقيل : مدحهم لأنفسهم .

﴿فَنِيلًا﴾ الفئيل : هو الخيط الذي في شِقِّ نواة التمرة .

وقيل : ما يخرج بين إصبعيك وكفِّك إذا فتلتهما .

وهو تمثيلٌ وعبرة عن أقلِّ الأشياء ؛ فيدلُّ على الأكثر بطريق الأولى .

﴿يَقَرُّونَ﴾ دليلٌ على أن تركيتهم لأنفسهم بالباطل .

❦ ❦ ❦

(١) في أ : «فيها تعارض» وفي الهامش : «خ : فيه تعارض» .

[أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكُفِيَٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَندْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴿٥٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٦٠﴾] .

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ قال ابن عباس: الجبت هنا: حيي بن أخطب، والطاغوت: كعب بن الأشرف.

وقال عمر بن الخطاب: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان.

وقيل: الجبت: الكاهن، والطاغوت: الساحر.

وبالجملة هما: كل ما عُبد و^(١) أُطيع من دون الله.

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية؛ سببها: أن حيي بن أخطب أو كعب بن

(١) في أ، د، هـ: «أو».

الأشرف أو غيرهما من اليهود قالوا لكفار قريش: أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ الهمزة للاستفهام مع الإنكار.
 ﴿نَقِيرًا﴾ النقيير: هو النَّفْرةُ في ظهر النواة، وهو تمثيلٌ وعبرة عن أقل الأشياء.

والمراد: وصف اليهود بالبخل لو كان لهم نصيب من الملك، وأنهم حينئذٍ يبخلون بالنقيير الذي هو أقلُّ الأشياء، ويبخلون بما هو أكثرُ منه من باب أولى.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ وصفهم بالحسد مع البخل.
 والناس هنا يراد به: النبي ﷺ وأُمَّته، والفضل: النبوة، وقيل: النصر والعزة.

وقيل: الناس: العرب، والفضل: كون النبي ﷺ منهم.
 ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ المراد بآل إبراهيم: ذريته من بني إسرائيل وغيرهم؛ ممن آتاه الله الكتابَ التي أنزلها والحكمة التي علَّمها.
 والقصد بالآية: الردُّ على اليهود في حسدهم لمحمد ﷺ.

ومعناها: إلزامُ لهم بما عرفوه من فضل الله تعالى على آل إبراهيم، فلا شيء يخصُّون محمداً ﷺ بالحسد دون غيره ممن أنعم الله عليه.

﴿مُلْكًا عَظِيمًا﴾ الملك في آل إبراهيم: هو ملك يوسف، وداود، وسليمان ﷺ.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ الآية؛ قيل: المراد: من اليهود من آمن: بالنبي ﷺ.

أو بالقرآن المذكور في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾.

أو بما ذكر من حديث إبراهيم.

فهذه ثلاثة أوجه في ضمير ﴿بِهِ﴾.

وقيل: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: من آل إبراهيم من آمن بإبراهيم، ومنهم من كفر؛

كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦].

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ الآية؛ قيل: تُبدل لهم جلود بعد جلود آخر؛ إذ

نفوسهم هي المعذبة.

وقيل: تبديل الجلود: تغيير صفاتها بالنار.

وقيل: الجلود السراويل؛ وهو بعيد.

﴿أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ ذكر في «البقرة»^(١).

﴿ظِلًّا ظِلِيلًا﴾ صفة من لفظ «الظِّل» للتأكيد؛ أي: دائماً لا تنسخه

الشمس.

وقيل: يقي الحر والبرد.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ الآية؛ قيل: هي خطاب للولادة.

وقيل: للنبي ﷺ حين أخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة.

ولفظها عامٌّ، وكذلك حكمها.

﴿وَأُولَى الْأَمْرِ﴾ هم : الولاة ، وقيل : العلماء .

ونزلت في عبد الله بن حذافة ؛ بعثه رسول الله ﷺ في سرية .

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الردُّ إلى الله : هو النظر في كتابه ، والردُّ إلى

الرسول ﷺ : هو سؤاله في حياته ، والنظر في سنته بعد وفاته .

﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الشَّرْطُ رَاجِعًا :

إلى قوله : ﴿فَرُدُّوهُ﴾ .

أو إلى قوله : ﴿أَطِيعُوا﴾ .

والأول أظهر ؛ لأنه أقرب إليه .

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي : مآلاً وعاقبةً .

وقيل : أحسنُ نظرًا منكم .



[أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ۚ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَاتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾].

﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية؛ نزلت في المنافقين.

وقيل: في منافقٍ ويهودي؛ كان بينهما خصومة، فتحاكما إلى كعب بن الأشرف اليهودي، وقيل: إلى كاهن.

﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾ وضع الظاهر موضع المضمهر؛ ليدّمهم بالنفاق.

ودلّ ذلك على أن الآية المتقدمة نزلت في المنافقين.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَبْتَهُمْ مُصِيبَةً﴾ الآية؛ أي: كيف يكون حالهم إذا عاقبهم الله بذنوبهم!.

﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ يحتمل أن يكون هذا:

معطوفاً على ما قبله.

أو يكون معطوفاً على قوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾، ويكون قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَبْتَهُمْ﴾ اعتراضاً.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: عن معاقبتهم.

وليس المراد بالإعراض القطيعة؛ لقوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية؛ وعدٌ بالمغفرة لمن استغفر، وفيه استدعاءٌ للاستغفار والتوبة.

ومعنى ﴿جَاءُوكَ﴾: أتوك تائبين معتذرين من ذنوبهم، يطلبون أن تستغفر لهم الله.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ «لا» هنا: مؤكدةٌ للنفي الذي بعدها.

﴿شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: اختلطوا واختلفوا فيه.

ومعنى الآية: أنهم لا يؤمنون حتى يرضوا بحكم النبي ﷺ.

ونزلت بسبب:

المنافقين الذين تخاصموا.

وقيل: بسبب خصام الزبير مع رجل من الأنصار في الماء.

وحكمها عامٌ.

﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الآية؛ معناها: لو فرض عليهم ما فرض على من كان قبلهم من المشقات لم يفعلوها؛ لقلّة انقيادهم، إلّا القليل منهم الذين هم مؤمنون حقًا، وقد روي أن من هؤلاء القليل: أبا بكر وعمر وابن مسعود وعمار بن ياسر وثابت بن قيس.

﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ بالرفع: بدلٌ من الضمير.

وقرأ ابن عامر وحده بالنصب:

على أصل الاستثناء.

أو على: إلّا فعلًا قليلًا.

﴿مَا يُوعِظُونَ بِهِ﴾ من اتباع النبي ﷺ وطاعته والانقياد له.

﴿وَأَشَدُّ تَنَبُّيًّا﴾ أي: تحقيقًا لإيمانهم.

﴿وَإِذَا لَا تَنَبَّهُهُمْ﴾ جوابٌ لسؤال مقدّر عن حالهم لو فعلوا ذلك.

﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ثوابٌ على الطاعة؛ أي: هم معهم في الجنة.

وهذه الآية مفسّرة لقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

والصديق: فعيل؛ من الصدق، أو من التصديق، والمراد به المبالغة، والصديقون أرفع الناس درجةً بعد الأنبياء.

والشهداء: المقتولون في سبيل الله، ومن جرى مجراهم من سائر

الشهداء، كالغريق وصاحب الهدم؛ حسبما ورد في الحديث أنهم سبعة^(١).

﴿وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا﴾ الإشارة إلى الأصناف الأربعة المذكورة.

والرفيق: يقع على الواحد والجماعة؛ كالخليفة.

أو هو مفردٌ بين به الجنس.

ومعنى الكلام: إخباراً، واستدعاءً للطاعة التي يُنال بها مرافقة هؤلاء.

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ﴾ الإشارة إلى الثواب على الطاعة بمرافقة من ذكر في

الجنة.

﴿وَالْفَضْلُ﴾: صفة، أو خبرٌ.



(١) أخرج مالك في الموطأ (٩٣٥)، (٩٩٦)، وأبو داود (٣١١١)، والنسائي (١٨٤٧) في حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال: «الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغرق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجُمع شهيد» قال أبو داود: الجُمع: أن يكون ولدها معها.

[يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُدُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧٦﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطُلَنَّ فَإِنْ أَصَبَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالِ قَدْ اَنَعَمَ اللّٰهُ عَلٰى اِذْ لَمْ اَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٧﴾ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللّٰهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٨﴾ فَلْيَقْتُلِ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلِ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٩﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَالسَّيِّفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ اَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٨١﴾].

﴿خُدُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي: تحرّزوا من عدوكم واستعدّوا له.

﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ أي: اخرجوا للجهاد جماعاتٍ متفرّقين؛ وذلك كناية عن السرايا.

وقيل: إنّ الثّبة: ما فوق العشرة.

ووزنها فُعْلَةٌ - بفتح العين -، ولا مها محذوفة.

﴿أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين في الجيش^(١) الكثيف.

فخبرهم بين^(٢) الخروج إلى الغزو في قلة أو في كثرة.

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطُلَنَّ﴾ الخطاب للمؤمنين، والمراد بـ«مَنْ»: المنافقون،

(١) كذا في دوفي هامش أ ورمز له بـ«خ»، وفي بقية النسخ: «الجمع».

(٢) في ج، هـ، د: «في».

وعَبَّرَ عَنْهُمْ بِ﴿مَنْكُمْ﴾؛ إِذْ هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَقُولُونَ: آمَنَّا.
واللام:

فِي ﴿لَمَنْ﴾ لِلتَّأْكِيدِ.

وَفِي ﴿لَيُبْطِئَنَّ﴾ جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ.

ومعناه:

يُبطِئُ غَيْرَهُ - أي: يَشْطِطُهُ - عَنِ الْجِهَادِ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى التَّخَلُّفِ عَنِ الْغَزْوِ.
وقيل: يبطِئُ: يَتَخَلَّفُ هُوَ عَنِ الْغَزْوِ وَيَتَثَاقَلُ.

﴿فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أي: قَتْلٌ وَهَزِيمَةٌ.

والمعنى: أَنَّ الْمَنَاقِقَ تَسْرُهُ غَيْبَتُهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا هُزِمُوا.

و﴿شَهِيدًا﴾ معناه: حَاضِرًا مَعَهُمْ.

﴿وَلَيْنَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ﴾ أي: نَصْرٌ وَغَنِيمَةٌ.

والمعنى: أَنَّ الْمَنَاقِقَ يَنْدَمُ عَلَى تَرْكِ الْغَزْوِ مَعَهُمْ إِذَا غَنِمُوا؛ فَيَتِمَنَّى أَنْ
يَكُونَ مَعَهُمْ.

﴿كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ جَمَلَةٌ اعْتِرَاضِيَّةٌ بَيْنَ الْقَوْلِ وَمَعْمُولِهِ؛
فَلَا يَجُوزُ الْوَقْفُ عَلَيْهَا.

وهذه المودة في ظاهر المناق، لا في اعتقاده.

﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ أي: يبيعون.

﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ ذكر الحالتين للمقاتل، ووعد بالأجر على كل واحدة^(١) منهما.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ﴾ تحريض على القتال.

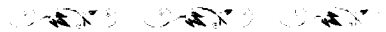
و«ما» مبتدأ والمجرور خبره، و﴿لَا تُقَاتِلُونَ﴾ في موضع الحال.

﴿وَالْمُسْتَضَعِّينَ﴾ هم: الذين حبسهم مشركو قريش بمكة؛ لِيَفْتَنُوهُمْ عن الإسلام.

وهو عطف على اسم ﴿اللَّهُ﴾، أو مفعول معه.

﴿الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ هي مكة حين كانت للمشركين.

﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وما بعده: إخبار، قصد به: تقوية قلوب المسلمين وتحريضهم على القتال.



(١) في ب، ج، هـ: «واحد».

[أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنِعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾] أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصَبِّهُمُ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهُمُ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيطًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرْدَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقِنِلسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِينًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّنْتُمْ بِنَجْوَى فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾] .

﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية؛ قيل: هي في قوم من الصحابة؛ كانوا قد أمروا بالكف عن القتال قبل أن يُفرض الجهاد، فتمنوا أن يؤمروا به، فلما أمروا به كرهوه، لا شكًا في دينهم، ولكن خوفًا من الموت.

وقيل : هي في المنافقين ؛ وهو أليقُ بسياق الكلام .

﴿مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ وما بعده : تحقيرُ للدنيا ؛ يتضمَّن (١) ردًّا عليهم في كراحتهم للموت .

﴿فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ أي : في حصون منيعة .

وقيل : المشيدة : المطوّلة .

وقيل : المبنية بالشّد ؛ وهو الجِصُّ .

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ الآية ؛ الحسنة هنا : النصر والغنيمة وشبه ذلك من المحبوبات ، والسيئة : الهزيمة والجوع وشبه ذلك .

والضمير في ﴿تُصِبْهُمْ﴾ وفي ﴿يَقُولُوا﴾ لـ ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ ، وهذا يدلُّ على أنها في المنافقين ؛ لأن المؤمنين لا يقولون للنبي ﷺ : إن السيئات من عنده .

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ردُّ على من نسب السيئة إلى رسول الله ﷺ ، وإعلامٌ أن السيئة والحسنة والخير والشر من عند الله ؛ أي : بقضائه وقدره .

﴿فَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ﴾ توبيخٌ لهم على قلة فهمهم .

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ خطابٌ للنبي ﷺ ، والمراد به : كل مخاطب على الإطلاق ؛ فدخل فيه غيره من الناس . وفيه تأويلان :

أحدهما : نسبةُ الحسنة إلى الله ، والسيئة إلى العبد ؛ تأدُّباً مع الله في

(١) في ب ، ج ، هـ : «تضمن» .

الكلام، وإن كان كلُّ شيء منه في الحقيقة؛ وذلك كقوله ﷺ: «والخير كله بيدك»^(١)، والشر ليس إليك»^(٢)، وأيضاً فنسبة^(٣) السيئة إلى العبد؛ لأنها بسبب ذنوبه؛ لقوله: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، فهي من العبد بتسببه^(٤) فيها، ومن الله بالخلق^(٥) والاختراع.

والثاني: أن هذا كلام القوم المذكورين قبل؛ والتقدير: يقولون كذا؛ فمعناها كمعنى التي قبلها.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ هذه الآية من فضائل رسول الله ﷺ، وإنما كانت طاعته طاعة الله؛ لأنه يأمر وينهى عن الله.

﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ أي: مَنْ أَعْرَضَ عَنْ طَاعَتِكَ فَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِحَفِيفٍ تَحْفَظُ أَعْمَالَهُ، بل حسابه وجزاؤه على الله.

وفي هذا مُتَارَكَةٌ ومُؤَادَعَةٌ منسوخة بالقتال.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي: أَمَرْنَا وَشَأْنُنَا طَاعَةٌ لَكَ.

وهي في المنافقين بإجماع.

﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ بَيَّتَ: أَي: دَبَّرَ الْأَمْرَ بِاللَّيْلِ.

(١) في ب، ج، د: «بيدك» والمثبت موافق لما في الصحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١).

(٣) في أ: «فُنُسِبَتْ».

(٤) في هـ: «بتسببه».

(٥) في هامش أ: «خ: بِالْخَلْق».

والضمير في ﴿تَقُولُ﴾ :

للمخاطب ؛ وهو النبي ﷺ .

أو للطائفة .

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي : لا تعاقبهم .

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ حضُّ على التفكر في معانيه ؛ لتظهر أدلته وبراهينه .

﴿أَخْلَفْنَا كَثِيرًا﴾ أي : تناقض ؛ كما في كلام البشر ، أو تفاوت في الفصاحة ، لكن القرآن منزّه عن ذلك ؛ فدلّ على أنه كلام الله .

وإن عرّضت لأحد شبهة وظنّ اختلافًا في شيء من القرآن فالواجب : أن يتّهم نظره ، ويسأل أهل العلم ، ويطالع تواليهم ؛ حتى يعلم أن ذلك ليس باختلاف .

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ قيل : هم المنافقون .

وقيل : قومٌ من ضعفاء المسلمين ؛ كانوا إذا بلغهم خبرٌ عن السرايا والجيوش أو غير ذلك أذاعوا به ، أي تكلموا به وشهروه قبل أن يعلموا صحته ، وكان في إذاعتهم له مفسدةٌ على المسلمين ، مع ما في ذلك من العجلة وقلة الثبّت ، فأنكر الله عليهم ذلك .

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾

أي : لو ترك هؤلاء القوم الكلام بذلك الأمر الذي بلغهم ، وردّوه إلى

رسول الله ﷺ وإلى أولي الأمر^(١)، وهم كبراء الصحابة وأهل البصائر منهم = لعلمه القوم الذين يستنبطونه - أي: يستخرجونه - من الرسول وأولي الأمر.

ف﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ على هذا: طائفة من المسلمين؛ يسألون عنه الرسول ﷺ وأولي الأمر.

وحرف الجر في قوله: ﴿يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ لا ابتداء الغاية؛ وهو^(٢) يتعلّق بالفعل.

والضمير المجرور يعود على: الرسول وأولي الأمر.

وقيل: إن ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ هم أولوا الأمر؛ كما جاء في الحديث عن عمر رضي الله عنه: أنه سمع أن رسول الله ﷺ طلق نساءه، فدخل عليه، فقال: أطلقت نساءك؟ فقال: «لا»، فقام على باب المسجد، فقال: إن رسول الله ﷺ لم يطلق نساءه^(٣). فأنزل الله هذه القصة، قال: وأنا الذي استنبطته.

فعلى هذا: ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ هم أولوا الأمر.

والضمير المجرور يعود عليهم، و﴿مِنْهُمْ﴾ لبيان الجنس.

واستنباطه على هذا:

هو بسؤالهم عنه النبي ﷺ.

(١) في زيادة: «منهم».

(٢) سقط من ب، ج، هـ.

(٣) أخرجه البخاري (٨٩)، ومسلم (١٤٧٩).

أو بالنظر والبحث.

واستنباطه على التأويل الأول: هو بسؤال الذين أذاعوه للرسول ﷺ ولأولي الأمر.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: هُداه وتوفيقه، أو بعثه للرسول^(١)، وإنزاله للكتاب^(٢).

والخطاب في هذه الآية للمؤمنين.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلا اتباعًا قليلًا؛ فالاستثناء من المصدر، والمعنى: لولا فضل الله ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا في أمور قليلة كنتم لا تتبعونه فيها.

وقيل: إنه استثناء من الفاعل في ﴿لَاتَبَعْتُمْ﴾؛ أي: إلا قليلًا منكم، وهم الذين كانوا قبل الإسلام غير متبعين للشيطان؛ كورقة بن نوفل.

والفضل والرحمة على هذا: بعث الرسول^(٣) وإنزال الكتاب^(٤).

وقيل: إن الاستثناء من قوله: ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾.

﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ لما تناقل بعض الناس عن القتال قيل هذا للنبي ﷺ؛ أي: إن أفردوك فقاتل وحدك؛ فإنما عليك ذلك.

(١) في أ، ج، هـ: «لرسل».

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «للكتب».

(٣) في ج: «الرسل».

(٤) في أ، ب، ج، هـ: «الكتب».

﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس عليك في شأن المؤمنين إلا التحريض.
 ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قيل: «عسى» من الله واجبة.
 و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هنا: قريش، وقد كفهم الله بهزيمتهم في بدر وغيرها، وافتح مكة.

﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي: عقابًا وعذابًا.
 ﴿شَفَعَةً حَسَنَةً﴾ هي الشفاعة في مسلم؛ لتُفَرَّجَ عنه كربته، أو تُدْفَعَ^(١) مظلمة، أو يُجَلَّبَ إليه خير^(٢)، والشفاعة السيئة بخلاف ذلك.

وقيل: الشفاعة الحسنة: هي الطاعة، والشفاعة السيئة: هي المعصية.
 والأول أظهر.

والكِفْل: هو النَّصِيب.

﴿مُقَيَّنًا﴾ قيل: قديرًا.

وقيل: حفيظًا.

وقيل: الذي يُقَيَّت الحيوان؛ أي: يرزقهم القوت.
 ﴿فَحْيُوا بِأَحْسَنِ مَهَيَّاءٍ أَوْ رُدُّوهُآ﴾ معنى ذلك: الأمر برّد السلام، والتخير
 بين أن يرّد بمثل ما سلّم عليه أو بأحسن منه، والأحسن أفضل؛ مثل أن يقال
 له: «سلام عليك»، فيردّ السلام ويزيد الرحمة، أو يزيد الرحمة والبركة.

(١) في د: «أو ترفع عنه».

(٢) في ب: «لِيُفَرَّجَ عنه كربته، أو يَدْفَعَ مظلمة، أو يَجَلَّبَ إليه خيرًا».

وردّ السلام واجب على الكفاية عند مالك والشافعي .

وقال بعض الناس : هو فرض عين .

واختلف في الردّ على الكفار :

ف قيل : يرّد عليهم ؛ لعموم الآية .

وقيل : لا يرّد عليهم .

وقيل : يقال لهم : «عليكم» ؛ حسبما جاء في الحديث ^(١) ، وهو مذهب مالك .

ولا يُبَدَّوْنَ بالسّلام .

﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ جواب قسم محذوف ، وتضمّن معنى الحشر ؛ ولذلك تعدّى بـ «إلى» .

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ لفظه استفهام ؛ ومعناه : لا أحد أصدق من الله .



(١) أخرجه البخاري (٦٢٥٨) ، ومسلم (٢١٦٣) .

[﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أْتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحُذَوْهُمْ وَأَقْلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقُولُوا أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَاطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلقَنَلُوكُمْ فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُواكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَارَدُّوْا إِلَىٰ الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَحُذَوْهُمْ وَأَقْلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ﴿٩١﴾].

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَتَيْنِ﴾ «ما» استفهامية بمعنى التوبيخ، والخطاب للمسلمين.

ومعنى ﴿فِتْنَتَيْنِ﴾ أي: طائفتين مختلفتين، وهو منصوب على الحال.
والمراد بالمنافقين هنا:

ما قال ابن عباس: إنها نزلت في قوم كانوا بمكة مع المشركين؛ فزعموا أنهم آمنوا ولم يهاجروا، ثم سافر قوم منهم إلى الشام بتجارا، فاختلف المسلمون هل يقاتلونهم ليغنموا تجارتهم؛ لأنهم لم يهاجروا؟ أو هل يتركونهم لأنهم مؤمنون؟

وقال زيد بن ثابت: نزلت في المنافقين الذين رجعوا عن القتال يوم أحد، فاختلف الصحابة في أمرهم.

ويرد هذا قوله: ﴿حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا﴾.

﴿أَزْكُسُهُمْ﴾ أي: أضلَّهُم وأهلكهم.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ الضمير للمنافقين؛ أي: تمنُّوا أن تكفروا.

﴿فَخَذُوهُمْ﴾ يريد به: الأسر.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ الآية؛ استثناء من قوله: ﴿فَخَذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ﴾.

ومعناها:

أن من وصل من الكفار غير المعاهدين إلى الكفار المعاهدين - وهم الذين بينهم وبين المسلمين عهدٌ ومهادنة - فحكمه ^(١) كحكمهم في المسالمة وترك قتاله ^(٢)، وكان ذلك في أول الإسلام، ثم نسخ بالقتال في أول سورة «براءة».

قال السهيلي وغيره: ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾: هم بنو مُدَلِّج بن كِنانة ﴿إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾: بنو خزاعة، فدخل بنو مدلج في صلح خزاعة مع رسول الله ﷺ ^(٣)، فمعنى: ﴿يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾: ينتهون إليهم، ويدخلون فيما دخلوا فيه من المهادنة.

وقيل: معنى ﴿يَصِلُونَ﴾: ينتسبون؛ وهذا ضعيف جدًا؛ بدليل قتال رسول الله ﷺ لقريش، وهم أقاربه وأقارب المؤمنين؛ فكيف لا يقاتل أقارب الكفار المعاهدين!

(١) في د: «فحكمهم».

(٢) في ج: «قتله»، وفي د: «القتال».

(٣) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي، ص: ٨٤.

﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ عطفٌ :

على ﴿يَصِلُونَ﴾ .

أو على صفة ﴿قَوْمٍ﴾ ؛ وهي : ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقٌ﴾ .

والمعنى يختلف على ذلك ، والأول أظهر .

و﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ في موضع الحال ؛ بدليل قراءة يعقوب :
«حَصِرَةً» ، ومعناه : ضاقت عن القتال وكرهته .

ونزلت الآية في قوم جاؤوا إلى المسلمين ، وكرهوا أن يقاتلوا المسلمين ،
وكرهوا أيضًا أن يقاتلوا قومهم - وهم أقاربهم الكفار - ، فأمر الله بالكفِّ
عنهم ، ثم نُسِخَ^(١) أيضًا ذلك بالقتال .

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ﴾ أي : سالموكم فلا تقاتلوهم ، و﴿السَّلَامُ﴾ هنا : الانقياد .

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ﴾ الآية ؛ نزلت في قوم مخادعين ، وهم من أسدٍ
وغطفان ، كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ؛ ليأمنوا المسلمين ،
فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا ؛ ليأمنوا قومهم .

و﴿الْفِتْنَةُ﴾ هنا : الكفر على الأظهر . وقيل : الاختبار .

(١) في ج : «أبيح» .

[وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ نزلت بسبب قتل عياش بن ربيعة للحارث بن زيد، وكان الحارث يُعَذِّبُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ، وَلَمْ يَعْلَمْ عِيَّاشُ بِإِسْلَامِهِ فَقَتَلَهُ.

وقيل: إِنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ هُنَا مَنْقُطِعٌ؛ وَالْمَعْنَى: لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا بوجه، لَكِنِ الْخَطَاُ قَدْ يَقَعُ.

والصحيح: أَنَّهُ مُتَّصِلٌ؛ وَالْمَعْنَى: لَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ وَلَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْخَطَاِ، مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّدٍ؛ إِذْ هُوَ مَغْلُوبٌ فِيهِ.

وانتصاب ﴿خَطَاً﴾ على أنه :

مفعولٌ من أجله .

أو حالٌ .

أو صفةٌ لمصدر محذوف .

﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمَنَةٍ وَدِيَةٌ﴾ هذا بيانٌ ما يجب على القاتل خطأً ، فأوجب الله عليه التَّحْرِيرَ والدية ، فأما التحرير ففي مال القاتل ، وأما الدية ففي مال عاقلته ، وجاء ذلك عن النبي ﷺ^(١) ، وهو بيانٌ للآية ؛ إذ لفظها يحتمل ذلك وغيره ، وأجمع الفقهاء عليه .

واشترط مالك في الرِّقبة التي تُعْتَقُ : أن تكون مؤمنةً ، ليس فيها عقدٌ من عقود الحرية ، سالمةٌ من العيوب .

فأما إيمانها : فنصُّ هنا ؛ ولذلك أجمع العلماء عليه هنا ، واختلفوا في رقبة الظَّهار وكفارة اليمين .

وأما سلامتها من عقود الحرية : فيظهر من قوله تعالى : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ؛ لأنَّ ظاهره أنه ابتداءً عتق عند التكفير بها .

وأما سلامتها من العيوب : فزعموا أن إطلاق الرقبة يقتضيه ؛ وفي ذلك نظر .

ولم يبين في الآية مقدار الدية ، وهي عند مالك : مئة من الإبل على أهل الإبل ، وألف دينار شرعية على أهل الذهب ، واثنان عشر ألف درهم شرعية على أهل الوَرِق ، وروي ذلك عن عمر بن الخطاب .

(١) أخرجه البخاري (٦٩١٠) ومسلم (١٦٨١) .

﴿مُسْلَمَةً إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أي: مدفوعة إليهم، والأهل هنا: الورثة.

واختلف في مدة تسليمها:

ف قيل: هي حالة عليهم.

وقيل: يؤدونها في ثلاث سنين.

وقيل: في أربع.

ولفظ التَّسْلِيم مطلق؛ وهو أظهر في الحلول لولا ما جاء من السنة في ذلك.

﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ الضمير يعود على أولياء المقتول؛ أي: إذا أسقطوا الدية سقطت.

وإذا أسقطها المقتول سقطت أيضًا عند مالك والجمهور، خلافاً لأهل الظاهر؛ وحبَّتهم: عود الضمير على الأولياء.

وقال الجمهور: إنما هذا إذا لم يُسَقِّطها المقتول.

﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾
معنى الآية: أنَّ المقتول خطأ إن كان مؤمناً وقومه كفاراً^(١) أعداء - وهم المحاربون -، فإنما في قتله التَّحْرِيرُ خاصةً دون الدية، فلا تُدفع لهم؛ لئلا يتقووا بها على المسلمين.

ورأى ابن عباس أن ذلك إنما هو فيمن آمن وبقي في دار الحرب لم يهاجر، وخالفه غيره.

(١) في ج، هـ: «كفاراً».

ورأى مالك أن الدية في هذا لبيت المال؛ فالآية عنده منسوخة.

﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ الآية؛ معناها: أن المقتول خطأً إن كان قومه كفاراً معاهدين ففي قتله تحرير رقبة والدية إلى أهله؛ لأجل معاهدتهم.

والمقتول على هذا مؤمن؛ ولذلك قال مالك: لا كفارة في قتل الذمي. وقيل: إن المقتول في هذه الآية كافر؛ فعلى هذا: تجب الكفارة في قتل الذمي.

وقيل: هي عامة في المؤمن والكافر.

ولفظ الآية مطلق؛ إلا إن قيده قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في الآية التي قبلها، وقرأ الحسن هنا: «وهو مؤمن».

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ أي: من لم يجد العتق ولم يقدر عليه فصيام الشهرين المتتابعين عوضاً منه.

﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ منصوبٌ على المصدر؛ ومعناه: رحمةٌ منه وتخفيفاً.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ الآية؛ نزلت بسبب مقيس بن صبابه؛ كان قد أخذ دية أخيه هشام المقتول خطأً، ثم قتل رجلاً من القوم الذين قتلوا أخاه وارتدّ مشركاً، فأمر رسول الله ﷺ بقتله.

والمتعمد عند الجمهور: هو الذي يقصد القتل بحديد أو حجر أو عصاً أو غير ذلك.

وهذه الآية مُعْضِلَةٌ على مذهب الأشعرية وغيرهم ممن يقول: لا يُخْلَدُ عصاةُ المؤمنين في النار.

واحتجَّ بها المعتزلة وغيرهم ممن يقول بتخليد العصاة في النار؛ لقوله: ﴿خُلِدَا فِيهَا﴾.

وتأولها الأشعرية بأربعة أوجه:

أحدها: أن قالوا: إنها في الكافر إذا قُتل مؤمناً.

والثاني: قالوا: معنى المتعمد هنا: المستحلُّ للقتل؛ وذلك يؤول إلى الكفر.

والثالث: قالوا: الخلود فيها ليست بمعنى الدوام الأبدي، وإنما هو عبارة عن طول المدة.

والرابع: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وأما المعتزلة: فحملوها على ظاهرها، ورأوا أنها ناسخة لقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، واحتجوا على ذلك: بقول زيد بن ثابت: «نزلت الشديدة بعد الهيئة»^(١)، وبقول ابن عباس: «الشرك والقتل من مات عليهما خُلِدَ»^(٢)، وبقول رسول الله ﷺ: «كلُّ ذنب عسى الله أن

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٤٩/٧).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وكذلك أورده ابن عطية في تفسيره (٦٣٤/٣) بغير إسناد، فقال: «وكان ابن عباس يقول: الشرك والقتل مبهمان، من مات عليهما خُلِدَ»، وعند الطبري (٣٤٧/٧) والخلال في جامعه (٩٤/١)، وابن أبي شيبة (٤٣٣/٥) بلفظ: =

يغفره، إِلَّا الرجلَ يموت كافرًا، أو الرجلَ يقتل المؤمنَ متعمدًا»^(١)،
وتقتضي الآية وهذه الآثار: أن للقتل حكمًا يخصه من بين سائر المعاصي^(٢).
واختلف الناس في القاتل عمدًا إذا تاب؛ هل تقبل توبته أم لا؟.

= «هما المبهمتان: الشرك والقتل»، قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على تفسير الطبري (٦٧/٩): «يعني بقوله: «المبهمتان»، يعني: الآيتان اللتان لا مخرج منهما، كأنها باب مبهم مصمت، أي: مستغلق لا يفتح، ولا مأتى له. وذلك أن الشرك والقتل، جزاؤه التخليد في نار جهنم، أعادنا الله منها».

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٠٧)، والنسائي في الكبرى (٤١٦/٣).

(٢) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله: (وهذه الآية مُعْضِلة على مذهب الأشعرية وغيرهم) إلخ، أقول: ما ذكره من أن هذه الآية معضلة، أي مشكلة إشكالا قويا، على مذهب الأشاعرة وغيرهم من القائلين بأن عصاة الموحدين لا يخلدون في النار، وأجاب من جهة الأشاعرة وغيرهم من القائلين بعدم خلود أهل الكبائر في النار بأربعة أجوبة؛ أقول: أجودها: تفسير الخلود بالمكث الطويل، وأجود منه تقييد الآية بما تواترت به السنة من خروج عصاة الموحدين من النار بشفاعاة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين.

وكذلك ما ذكره من احتجاج المعتزلة بهذه الآية على قولهم بتخليد أهل الكبائر في النار، أقول: ما ذكره من المذهبين في تخليد العصاة صحيح، ولكنه رحمه الله ذكر احتجاج المعتزلة على مذهبهم بأثر ابن عباس وزيد وبالحديث، ولم يجب عن ذلك، بل أيده بقوله: (وتقتضي الآية وهذه الآثار: أن للقتل حكمًا يخصه من بين سائر المعاصي). وهذا يجعل في كلامه نوع تناقض؛ لأنه قد أجاب عن الآية، وأما أثر ابن عباس وزيد والحديث فلا تقاوم دلالتها قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ في موضعين من سورة النساء. وهي التي ذكر فيها وعيد القاتل بالخلود في النار، ولا تقاوم دلالة السنة على خروج عصاة الموحدين من النار، وقد أجمع أهل السنة على ما دلت عليه آيات النساء، وما دل عليه حديث الشفاعاة. والله أعلم.

وكذلك حكى ابن رُشد الخلاف في القاتل إذا اقتُص منه ؛ هل يسقط عنه العقاب^(١) في الآخرة أم لا؟^(٢).

والصحيح : أنه يسقط عنه ؛ لقول رسول الله ﷺ : «من أصاب ذنباً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة»^(٣) ، وبذلك قال جمهور العلماء .

﴿ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي : سافرتُم في الجهاد .

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ من البيان .

وقرئ : بالثاء المثلثة ؛ من الثبات .

والتَّفَعُّلُ فيها بمعنى الاستفعال ؛ أي : اطلبوا^(٤) بيان الأمر أو^(٥) ثبوته .

﴿أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ بغير ألف ؛ أي : انقادَ وألقى بيده .

وقرئ : ﴿السَّلَامَ﴾ ؛ بمعنى التحية .

ونزلت في سريةٍ لقيت رجلاً فسَلَّمَ عليهم ، وقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فحمل عليه أحدهم فقتله ، فسَقَّ ذلك على رسول الله ﷺ .

وكان القاتل : مُحَلِّمُ بن جَثَّامة ، والمقتول : عامرُ بن الأَضْبَط .

وقيل : القاتل أسامة بن زيد ، والمقتول : مِرْدَاس بن نَهيْكَ .

(١) في أ : «العذاب» ، وفي الهامش : «خ : العقاب» .

(٢) انظر : المقدمات الممهّدات ، لأبي الوليد ابن رشد الجدّ (ت ٥٢٠هـ) (٣/٢٧٩) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٩٢) ، ومسلم (١٧٠٩) .

(٤) في أ : «يطلب» .

(٥) في ب ، د : «و» .

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ يعني : الغنيمة ، وكان للرجل المقتول غَنَمٌ .

﴿فَوَعَدَ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ وعدٌ ، وتزهيذٌ في غنيمة مَنْ أظهر الإسلام .
﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ قيل : معناه : كنتم كفَّارًا ، فهذاكم الله للإسلام .

وقيل : كنتم تخفون إيمانكم من قومكم ، فَمَنْ الله عليكم بالعزة والنصر حتى أظهرتموه .

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ الآية ؛ معناها : تفضيلُ المجاهدين على مَنْ لم يجاهد ؛ وهم القاعدون .

﴿غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ﴾ لما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم الأعمى ، فقال : يا رسول الله هل من رخصة ؛ فإني ضَرير البصر؟ فنزل : ﴿غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ﴾ .

وقرئ ﴿غَيْرَ﴾ بالحركات الثلاث :

فالرفع ؛ صفةٌ للقاعدين .

والنصب ؛ على الاستثناء ، أو الحال .

والخفض ؛ صفةٌ للمؤمنين .

﴿دَرَجَةً﴾ قيل : هي تفضيلٌ على القاعدين من أهل العذر ، والدرجات : على القاعدين بغير عذر .

وقيل : إن الدرجات مبالغةٌ وتأكيذٌ للدرجة .

﴿الْحُسْنَى﴾ الجنة .

﴿أَجْرًا﴾ منصوب :

على الحال من ﴿دَرَجَتٍ﴾^(١) .

أو على المصدرية من معنى ﴿فَضَّلَ﴾ .

وانتصب ﴿دَرَجَتٍ﴾ :

على البدل من الأجر .

أو بفعل مضمَر .

وانتصب ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ بإضمار فعليهما ؛ أي : غفر لهم ورحمهم مغفرةً ورحمةً .



(١) قال في الكشف (٥/ ١٢٩) : «وُنُصِبَ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ على أنه حالٌّ عن النكرة التي هي ﴿دَرَجَتٍ﴾ مقدَّمةٌ عليها» .

[﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغَالِيَةَ﴾ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاوْنُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠١﴾﴾].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغَالِيَةَ﴾ الآية؛ نزلت في قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا فلما كان يوم بدر خرجوا مع الكفار فقتلوا؛ منهم: قيس بن الفاكه، والحارث بن زُمة، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف. ويحتمل ﴿تَوَفَّيْنَاهُمْ﴾ أن يكون: ماضيًا، أو مضارعًا.

وانتصب ﴿ظَالِيَةَ﴾ على الحال.

﴿قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ﴾ أي: في أي شيء كنتم من أمر دينكم.

﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ اعتذار عن التوبيخ الذي وبَّخهم الملائكة؛ أي: لم تقدر^(١) على الهجرة، وكان اعتذارًا بالباطل.

﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً﴾ ردُّ عليهم، وتكذيبُ لهم في اعتذارهم.

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي: الذين كان استضعافُهم حقًا، قال ابن عباس: كنت أنا وأبي وأمي ممن عني الله بهذه الآية.

﴿مُرْغَمًا﴾ أي: متحوَّلًا وموضعًا يُرغمُ عدوَّه بالذهاب إليه.

(١) في أ: «تقدروا».

﴿وَسَعَةً﴾ أي: اتساع في الأرض.

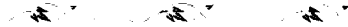
وقيل: في الرزق.

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ﴾ أي: ثبت وصح^(١).

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ﴾ الآية؛ حكمها على العموم.

ونزلت في ضَمْرَةَ بن العيس^(٢) وكان من المستضعفين بمكة، وكان مريضاً فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال: أخرجوني^(٣)، فهَيَّئْ له فراشاً فَوُضِعَ عليه وخرج، فمات في الطريق.

وقيل: نزلت في خالد بن حزام؛ فإنه هاجر إلى أرض الحبشة، فنهشته حية في الطريق فمات قبل أن يصل إلى أرض الحبشة.



(١) هكذا جاء موضع تفسير هذه الجملة من الآية، متقدماً على تفسير جملة (ومن يخرج من بيته) في جميع النسخ الخطية؛ وحقه أن يكون متأخراً عن تفسير جملة (ومن يخرج من بيته)؛ جرئاً على ترتيب الآية.

(٢) كذا في جميع النسخ الخطية «العيس» بالسين، والذي في تفسير الطبري (٧/٣٩٣)، والإصابة لابن حجر (٢/٢٥٩): «العيص» بالصاد.

(٣) في هامش أ: «خ: اخرجوا بي».

[وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٥٦﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥٧﴾ فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٥٨﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٥٩﴾].

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اختلف العلماء في تأويلها على خمسة أقوال :

الأول: أنها في قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين في السفر، وأن ذلك لا يجوز إلا في حال الخوف على ظاهر الآية، وهو قول عائشة وعثمان ابن عفان رضي الله عنهما.

الثاني: أن الآية تقتضي ذلك، ولكن يؤخذ القصر في السفر دون الخوف من السنة، ويؤيد هذا: حديث يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: إن الله يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ وقد آمن الناس؟ فقال: عجبْتُ مما عجبْت منه، فسألتُ رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقة تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا

صدقته»^(١)، وقد ثبت أن النبي ﷺ قصر في السفر وهو آمن^(٢).

الثالث: أن قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ﴾ الآية التي بعد ذلك، والواو زائدة، وهذا بعيد.

الرابع: أنها في صلاة الخوف؛ على قول من يرى أن تُصَلَّى كُلُّ طَائِفَةٍ ركعة خاصة، قال ابن عباس: فرضت الصلاة في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة.

الخامس: أنها في صلاة المسابقة؛ فالقصر على هذا هو من هيئات الصلاة؛ كقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩].

وإذا قلنا: إنها في القصر في السفر:

فظاهرها: أن القصر رخصة، والإتمام أفضل. وهو مذهب الشافعي.

وقال مالك: القصر أفضل.

وقيل: إنهما سواء.

وأوجب أبو حنيفة القصر.

وليس في لفظ الآية ما يدل على مقدار المسافة التي يقصر فيها؛ لأن قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ معناه: السفر مطلقاً؛ ولذلك أجاز الظاهرية القصر في كل سفر؛ طويل أو قصير.

(١) أخرجه مسلم (٦٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٨٣)، ومسلم (٦٩٦).

ومذهب مالك والشافعي: أن مسافة القصر ثمانية وأربعون ميلاً؛ واحتجوا بآثار عن ابن عمر وابن عباس.

وكذلك ليس في الآية ما يدلُّ على تخصيص القصر بسفر القُرْبَة، أو السفر المباح دون سفر المعصية؛ فإنَّ لفظها مطلقٌ في السفر، ولذلك أجاز أبو حنيفة: القصر في سفر القربة، وفي المباح، وفي سفر المعصية. ومنعه مالك: في سفر المعصية.

ومنعه ابن حنبل: في المعصية، وفي المباح^(١). وللقصر أحكامٌ لا تتعلق بالآية؛ فأضربنا عن ذكرها. والمراد بالفتنة في هذه الآية: القتال والتعرض بما يُكره.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ الآية؛ في صلاة الخوف، وظاهرها يقتضي: أنها لا تُصلَّى بعد رسول الله ﷺ؛ لأنه شرط كونه فيهم، وبذلك قال أبو يوسف. وأجازها الجمهور بعده ﷺ؛ لأنهم رأوا أن الخطاب له يتناول أمته، وقد فعلها الصحابة بعده ﷺ.

واختلف الناس في صفة صلاة الخوف على عشرة أقوال؛ لاختلاف الأحاديث فيها، ولسنا نضطرُّ إلى ذكرها؛ فإنَّ تفسيرها لا يتوقَّف على ذلك. وكانت صلاة رسول الله ﷺ لصلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع.

(١) معتمد المذهب عند الحنابلة: جواز القصر في السفر المباح، وهذه الرواية عن الإمام اختارها جماهير الأصحاب، وعن أحمد رواية أخرى: لا يقصر إلا في سفر الطاعة، اختارها بعض الأصحاب. انظر: المسائل الفقهية من الروايتين والوجهين، لأبي يعلى (١٧٦/١)، والمقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢٨/٥).

﴿فَلَنَقُومَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ﴾ يَقْسِمُ الإمام المسلمین علی طائفتین ؛ فیصلي بالأولی نصف الصلاة، وتقف الأخرى تحرس، ثم یصلي بالثانية بقية الصلاة، وتقف الأولی تحرس.

واختلف هل تُتِمُّ كلُّ طائفة صلاتها -وهو مذهب الجمهور-، أم لا؟
وعلى القول بالإتمام اختلف ؛ هل يُتِمُونَهَا في إثر صلاتهم مع الإمام أو بعد ذلك؟

﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ اختلف من المأمور بأخذ الأسلحة؟.
فقليل : الطائفة المصلية.

وقيل : الحارسة.

والأول أرجح ؛ لأنه قد قال بعد ذلك في الطائفة الأخرى : ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾.

ويدل ذلك على أنهم إن قوتلوا وهم في الصلاة جاز لهم أن يقاتلوا من قاتلهم ؛ وإلا لم يكن معنى لأخذ الأسلحة إذا لم يدفعوا بها من قاتلهم .

﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن رَّرَائِكُمْ﴾ الضمير في قوله : ﴿سَجَدُوا﴾ للمصلين ، والمعنى : إذا سجدوا معك في الركعة الأولى .

وقيل : إذا سجدوا في ركعة القضاء .

والضمير في قوله : ﴿فَلْيَكُونُوا مِن رَّرَائِكُمْ﴾ :

[أ-] يَحْتَمِلُ أن يكون للذين سجدوا ؛ أي : إذا سجدوا فليقوموا وليرجعوا

وراءكم .

وعلى هذا :

إن كان السجود هنا في الركعة الأولى : فيقتضي ذلك أنهم يقومون للحراسة بعد انقضاء الركعة الأولى ، ثم يحتمل بعد ذلك أن يقضوا بقية صلاتهم أو لا يقضونها .

وإن كان السجود ركعة القضاء : فيقتضي ذلك أنهم لا يقومون للحراسة إلا بعد القضاء ، وهو مذهب مالك والشافعي .

[ب -] ويحتمل أن يكون الضمير في قوله : ﴿ فَلْيَكُونُوا ﴾ للطائفة الأخرى ؛ أي : يقفون وراء المصلين يحرسونهم في حال سجودهم .
﴿ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى ﴾ يعني : الطائفة الحارسة .

﴿ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية ؛ إخبار عما جرى في غزوة ذات الرقاع من عزم الكفار على الإيقاع بالمسلمين إذا اشتغلوا بصلاتهم ، فنزل جبريل على النبي ﷺ ، وأخبره بذلك ، وشُرعت صلاة الخوف ؛ حذرًا من الكفار .
وفي قوله تعالى : ﴿ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ مبالغة ؛ أي : مُستأصلة لا يُحتاج معها إلى ثانية .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ ﴾ الآية ؛ نزلت بسبب عبد الرحمن بن عوف ، كان مريضًا فوضع سلاحه فعنفه ^(١) بعض الناس ، فرخص الله في وضع السلاح في حال المرض والمطر ، ويُقاس عليهما : كلُّ عذر يحدث في ذلك الوقت .

(١) في أ : « فعتبه » وفي الهامش : « خ : فعنفه » .

﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ إن قيل: كيف طابق الأمر بالحذر للعذاب المهين؟

فالجواب: أن الأمر بالحذر من العدو يقتضي توهُّم قوّتهم وعزّتهم، فنفي ذلك الوهم بالإخبار أن الله يُهينهم ولا ينصرهم؛ لتقوى قلوب المؤمنين. قال ذلك الزمخشري^(١).

وإنما يصحّ ذلك إذا كان العذاب المهين في الدنيا، والأظهر: أنه في الآخرة.

﴿فَإِذَا قُضِيَتُ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ﴾ الآية؛ أي: إذا فرغتم من الصلاة فاذكروا الله بألستكم.

وذكر القيام والقعود وعلى الجنوب؛ ليُعَمَّ جميع أحوال الإنسان. وقيل: المعنى: إذا تلبّستم بالصلاة فافعلوها قيامًا، فإن لم تقدروا فقعودًا، فإن لم تقدروا فعلى جنوبكم.

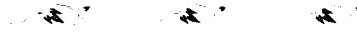
﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: إذا اطمأننتم من الخوف فأقيموا الصلاة على هيئتها المعهودة.

﴿كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ أي: محدودًا بالأوقات.

وقال ابن عباس: فرضًا مفروضًا.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي: لا تضعفوا في طلب الكفار.

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾ الآية؛ معناها : إن أصابكم ألمٌ من القتال فكذلك يصيب الكفار ألمٌ مثله، ومع ذلك فإنكم ترجون -إذا قاتلتموهم- النصرَ في الدنيا، والأجر في الآخرة، وذلك تشجيعٌ للمسلمين.



[إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَأْتُمْ هَوَآءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾].

﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ يحتمل أن يريد: بالوحي، أو بالاجتهاد أو بهما.

وإذا تَضَمَّنْتَ الاجتهاد؛ ففيها دليلٌ على إثبات النظر والقياس، خلافاً لمن منع ذلك من الظاهرية وغيرهم.

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ نزلت هذه الآية وما بعدها في قصة طُعْمَةَ ابن الأبيريق؛ إذ سرق طعاماً وسلاحاً لبعض الأنصار، وجاء قومه إلى النبي ﷺ وقالوا: إنه بريء، ونسبوا السرقة إلى غيره، وظنَّ رسول الله ﷺ أنهم صادقون، فجادل عنهم؛ ليدفع ما نُسِبَ إليهم، حتى نزل القرآن فافتضحوا.

فالخائنون في الآية: هم السُّرَّاق بنو الأبيريق، وقال السهيلي: هم بَشْرٌ

وَبُشِّرَ وَمُبَشَّرَ وَأُسِيرَ^(١).

ومعناها : لا تكن لأجل الخائنين مَخَاصِمًا لغيرهم .

﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ أي : مِنْ خِصَامِكَ عَنْ الْخَائِنِينَ ؛ عَلَى أَنَّهُ ﷺ إِنَّمَا تَكَلَّمَ عَلَى الظَّاهِرِ وَهُوَ يَعْتَقِدُ بَرَاءَتَهُمْ .

﴿إِذْ يُبَيِّنُونَ﴾ أي : يُدَبِّرُونَ لَيْلًا ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ التَّدْبِيرُ قَوْلًا ؛ لِأَنَّهُ كَلَامُ النَّفْسِ ، وَرَبَّمَا كَانَ مَعَهُ كَلَامٌ بِاللِّسَانِ .

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ قِيلَ : إِنْ الْخَطِيئَةُ تَكُونُ عَنْ عَمْدٍ وَعَنْ غَيْرِ عَمْدٍ ، وَالْإِثْمُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ عَمْدٍ .

وقيل : هما بِمَعْنَى^(٢) ؛ وَكُرِّرَ لِاخْتِلَافِ اللَّفْظِ .

﴿ثُمَّ يَرَوْهُ بَرِيًّا﴾ كَانَ الْقَوْمُ قَدْ نَسَبُوا السَّرْقَةَ إِلَى لَبِيدِ بْنِ سَهْلٍ .

﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ﴾ هُمُ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَبْرَأُوا ابْنَ الْأَبِيرِقِ مِنَ السَّرْقَةِ .

وهذه الآيات^(٣) ، وَإِنْ كَانَتْ إِنَّمَا نَزَلَتْ بِسَبَبِ هَذِهِ الْقِصَّةِ ؛ فَهِيَ أَيْضًا تَتَضَمَّنُ أَحْكَامَ غَيْرِهَا .

وبقية الآية تَشْرِيفٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَقْرِيرٌ لِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ .



(١) انظر : التعريف والإعلام ، للسهيلى ، ص : ٨٧ .

(٢) فى دزيادة : «واحد» .

(٣) فى ب : «الآية» .

[لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن
يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُؤْلِهِ مَا تَوَلَّى
وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ
إِلَّا إِنثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا اتَّخَذَنَّ
عِبَادَكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتَكُنْ ءَاذَانَ
الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْفِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ
فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ
اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن
يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَىٰ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ
الصَّالِحَاتِ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا
﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ مَُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾].

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ إن كانت النجوى هنا بمعنى: الكلام
الخفي؛ فالاستثناء الذي بعد هذا منقطع.

وقد يكون متصلًا؛ على حذف مضاف تقديره: إلا نجوى من أمر.

وإن كانت النجوى بمعنى: الجماعة؛ فالاستثناء متصل.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ أي: يُعَادِيهِ؛ والشِّقَاقُ: هو العداوة.

ونزلت الآية بسبب ابن الأبيرق؛ لأنه ارتدَّ وسار إلى المشركين ومات على الكفر، وهي عامةٌ فيه وفي غيره.

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ استدللَّ الأصوليون بهذا^(١) على صحة إجماع المسلمين، وأنه لا تجوز مخالفته؛ لأنَّ مَنْ خالفه اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ. وفي ذلك نظر.

﴿تُولَّيْهِ مَا تَوَلَّى﴾ أي: نتركه مع اختياره الفاسد.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ قد تقدَّم الكلام على نظيرتها^(٢).

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْثًا﴾ الضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ للكفار.

ومعنى ﴿يَدْعُونَ﴾: يعبدون.

واختلف في الإناث هنا:

ف قيل: هي الأصنام؛ لأن العرب كانت تسمي الأصنام بأسماء مؤنثة، كاللآت والعزى.

وقيل: المراد: الملائكة؛ لقول الكفار: إنهم إناث، وكانوا يعبدونهم؛ فذكر ذلك على وجه إقامة الحجة عليهم بقولهم الفاسد.

وقيل: المراد: الأصنام؛ لأنها لا تعقل، فيُخْبَر عنها كما يُخْبَر عن المؤنث.

(١) في ب، د: «بها».

(٢) انظر صفحة ٦٦.

﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ يعني: إبليس، وإنما قال: إنهم يعبدونه؛ لأنهم يطيعونه في الكفر والضلال.

والمريد: هو الشديد العتو والإضلال.

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ صفة للشيطان.

﴿وَقَالَ لَا اتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ الضمير في ﴿قَالَ﴾: للشيطان.

﴿مَفْرُوضًا﴾ أي: فرَضْتُهُ لنفسي؛ من قولك: فرَضَ للجند وغيرهم، والمراد بهم: أهل الضلال.

﴿وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ﴾ أي: أعدْهم الأمانِي الكاذبة.

﴿فَلْيَبْتَكَنْ إِذًا﴾ الْآنَعَمُ ﴿أَي: يُقَطِّعُونَهَا، والإشارة بذلك إلى البَحِيرَة وشبهها.

﴿فَلْيَعْرِزْ﴾ خَلَقَ اللَّهُ ﴿التَّغْيِير: هو الْخِصَاءُ وشبهه؛ وقد رَخَّص جماعة من العلماء في خِصَاء البهائم إذا كان فيه منفعة، ومنعه بعضهم؛ لظاهر الآية.

وقيل: التغير: هو الوَشْمُ وشبهه؛ ويدلُّ على هذا الحديث الذي لعن فيه الواشmates، والمستوشمات، والمتنمّصات، والمتفلّجات للحسن، المغيّرات خلق الله^(١).

﴿مَحِيصًا﴾ أي: معدلاً ومهرباً.

(١) أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥).

﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ مصدران :

الأول : مؤكّد للوعد الذي يقتضيه قوله : ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾ .

والثاني : مؤكّد لـ ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ .

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ الآية ؛ اسم «ليس» مضمّر ؛ تقديره : «الأمر» وشبهه .

والخطاب للمسلمين ، وقيل : للمشركين .

أي : لا يكون ما تتمنون^(١) ، ولا ما يتمنى أهل الكتاب ، بل يحكم الله بين عبادہ ، ويجازيهم بأعمالهم .

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ وعيدٌ حتمٌ في الكفار ، ومقيّدٌ بمشيئة الله في المسلمين .

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ دخلت «من» للتبعض ؛ رفقًا بالعباد ؛ لأن الصالحات على الكمال لا يطيقها البشر .

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تقييدٌ باشتراط الإيمان ؛ فإنه لا يقبل عملٌ إلا به .

﴿نَقِيرًا﴾ هو النُقْرة التي في ظهر نواة التمرة ، والمعنى : تمثيلٌ بأقلّ الأشياء .

﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي : دين الإسلام .

﴿حَنِيفًا﴾ حالٌ : من المتَّبِع ، أو من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ .

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي : صفيًا ؛ وهو مشتقٌّ من الخلّة بمعنى المودّة ، وفي ذلك تشريفٌ لإبراهيم ، وترغيبٌ في اتّباعه .

(١) في ب ، ج ، هـ ، د : «تتمنون» .

[وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُولَدْنَ لَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ يَكْتُمُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَيْنِ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَمَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا كَالْمِغْلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَنْفَرَا بَعْضُ اللَّهِ كُلاً مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾].

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ أي: يسألونك عما يجب عليهم في أمر النساء.
 ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ عطف على اسم ﴿اللَّهُ﴾؛ أي: يُفْتِيكُمْ اللَّهُ والمتلو^(١) في الكتاب؛ يعني: القرآن.

﴿فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُولَدْنَ لَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ كان الرجل من العرب يتزوج اليتيمة من أقاربه بدون ما تستحقه من الصداق.

فقوله: ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ يعني: ما تستحقه المرأة من الصداق.

(١) في ب، د زيادة: «عليكم».

وقوله: ﴿وَرَغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ يعني: لجمالهنَّ ومالهنَّ من غير توفية حقوقهنَّ، فنهاهم الله ﷻ عن ذلك في قوله أوَّل السورة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْتَى﴾ الآية، وهذه هي التي تليت عليهم في يتامى النساء.

﴿وَالسَّضْعَيْنِ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ عطف على: ﴿يَتَمَى النِّسَاءِ﴾؛ أي: والذي يتلى في المستضعفين من الولدان؛ وهو قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾؛ لأن العرب كانت لا تُورَثُ البنت ولا الابن الصغير، فأمر الله أن يأخذوا نصيبهم من الميراث.

﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَمَى بِالْقِسْطِ﴾ عطف على: ﴿وَالسَّضْعَيْنِ﴾؛ أي: والذي يتلى عليكم في أن تقوموا لليتامى بالقسط.

ويجوز أن يكون منصوباً^(١)؛ تقديره: ويأمركم أن تقوموا.

والخطاب في ذلك: للأولياء والأوصياء، أو للقضاة وشبههم. والذي تلى^(٢) عليهم في ذلك هو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَمَى ظُلْمًا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] إلى غير ذلك.

﴿وَإِنْ أَمْرَاهُ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصَالِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ معنى الآية: إباحة الصلح بين الزوجين إذا خافت النُّشُورُ أو الإعراض، وكما يجوز الصلح مع الخوف؛ كذلك يجوز بعد وقوع

(١) في زيادة: «بفعل محذوف».

(٢) في د: «يتلى».

النشوز أو^(١) الإعراض.

وقد تقدّم معنى النشوز^(٢)، وأما الإعراض فهو أخفّ منه.

ووجوه الصلح كثيرة؛ منها: أن يعطيها الزوج شيئاً، أو تعطيه هي، أو تسقط حقّها من النفقة أو الاستمتاع أو غير ذلك.

وسبب الآية: أن سودة بنت زمعة لما كبرت خافت أن يطلقها رسول الله ﷺ، فقالت له: أمسكني في نساءك ولا تقسم لي، وقد وهبت يومي لعائشة.

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ لفظ عام؛ يدخل فيه صلح الزوجين وغيرهما.

وقيل: معناه: صلح الزوجين خير من فراقهما؛ فـ ﴿خَيْرٌ﴾ على هذا للتفضيل، واللام في ﴿وَالصُّلْحُ﴾ للعهد.

﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ معناه: أن الشح جعل حاضراً مع النفوس لا يغيب عنها؛ لأنها جُبلت عليه.

والشح: هو أن لا يسمح الإنسان لغيره بشيء من حظوظ نفسه.

وشح المرأة من^(٣) هذا: هو طلبها لحقّها من النفقة والاستمتاع.

وشح الزوج: هو منع الصّدّاق، أو التضييق في النفقة، وزهده في المرأة؛ لكبر سنّها أو قُبْح صورتها.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ معناه: العدل التام الكامل في

(١) في ج، هـ، د: «و».

(٢) انظر صفحة ٥١.

(٣) في د: «على».

الأقوال والأفعال والمحبة وغير ذلك، فرفع الله ذلك عن عباده؛ فإنهم لا يستطيعونه، وقد كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ثم يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أملك؛ فلا تؤاخذني فيما^(١) لا أملك»^(٢) يعني: مئله بقلبه.

وقيل: إن الآية نزلت في مئله ﷺ بقلبه إلى عائشة.

ومعناها: اعتذار من الله تعالى عن عباده.

﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي: لا ذات زوج ولا مطلقة.

﴿وَإِنْ يَفْرَقَا﴾ الآية؛ معناها: إن تفرق الزوجان بطلاق أغنى الله كل واحد منهما من فضله عن صاحبه، وهذا وعدٌ بخيرٍ وتأنيس.

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا﴾ الآية؛ إخبار أن الله وصى الأولين والآخرين بأن يتقوه.

﴿وَيَأْتِ بِتَاخِرِينَ﴾ أي: بقوم غيركم، وروي أن النبي ﷺ لما نزلت ضرب بيده على كتف سلمان الفارسي، وقال: «هم قوم هذا»^(٣).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ الآية؛ تقتضي الترغيب في طلب ثواب الآخرة؛ لأنه خير من ثواب الدنيا.

وتقتضي -أيضاً- أن يطلب ثواب الدنيا والآخرة من الله وحده؛ فإن ذلك بيده لا بيد غيره.

(١) في أ، ب، ج، هـ: «بما»، والمثبت موافق لما في السنن والمسنند.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥١١١)، وأبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٣٩٥)، وابن ماجه (١٩٧١).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٥٨٢/٧).

وعلى أحد هذين الوجهين يرتبط الشرط بجوابه :

فالتقدير على الأول: من كان يريد ثواب الدنيا فلا يقتصر عليه خاصة ؛
فعند الله ثواب الدنيا والآخرة .

وعلى الثاني: من كان يريد ثواب الدنيا فليطلبه من الله ؛ فعنده ثواب
الدنيا والآخرة .



يكن المشهودُ عليه غنيًّا فلا يَمْتَنِعُ^(١) من الشهادة عليه تعظيمًا له، وإن كان فقيرًا فلا يَمْتَنِعُ^(٢) من الشهادة عليه إشفاقًا عليه؛ فإنَّ اللهَ أولى بالغني والفقير؛ أي: بالنظر لهما.

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ «أَنْ» مفعولٌ من أَجَلِه، ويَحْتَمِلُ أَنْ يكون المعنى:

مِنَ الْعَدْلِ؛ فالتقدير: إرادة أَنْ تَعْدِلُوا بين الناس.

أو من الْعُدُولِ؛ فالتقدير: كراهة أَنْ تَعْدِلُوا عن الْحَقِّ.

﴿وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا﴾ قيل: إِنَّ الْخَطَابَ لِلْحُكَّامِ.

وقيل: لِلشُّهُودِ.

واللفظ عامٌّ في الوجهين.

واللَّيْ: هو تحريف الكلام.

أي: إِنْ تَلَوْا عن الحكم بالعدل أو عن الشهادة بِالْحَقِّ، أو تُعْرِضُوا عن صاحب الحق، أو عن المشهود^(٣) له فَإِنَّ اللهَ يُجَازِيكُمْ؛ فإنه خبير بما تعملون.

وقرئ: ﴿وَإِنْ تَلَوْا﴾ بضم اللام؛ من الْوِلَايَةِ؛ أي: إِنْ وَلَّيْتُمْ إِقَامَةَ الشهادة، أو أَعْرَضْتُمْ عنها.

(١) في د: «تمتنع».

(٢) في د: «تمتنع».

(٣) في د: «الشهادة».

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ﴾ الآية؛ خطابٌ للمسلمين، معناه:

الأمر بأن يكون إيمانهم على الكمال بكلِّ ما ذُكر.

أو يكون أمرًا بالدَّوام على الإيمان.

وقيل: خطابٌ لأهل الكتاب الذين آمنوا بالأنبياء المتقدمين، معناه:

الأمر بأن يؤمنوا مع ذلك بمحمد ﷺ.

وقيل: خطابٌ للمنافقين، معناه: الأمر بأن يؤمنوا بألسنتهم وقلوبهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ الآية؛ قيل: هي في المنافقين؛ لترددهم بين

الإيمان والكفر.

وقيل: في اليهود والنصارى؛ لأنهم آمنوا بأنبيائهم ثم ^(١) كفروا

بمحمد ﷺ.

والأول أرجح؛ لأنَّ الكلام من هنا فيهم.

والأظهر: أنها فيمن آمن بمحمد ﷺ، ثم ارتدَّ، ثم عاد إلى الإيمان، ثم

ارتدَّ وزاد كفرًا.

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ذلك فيمن عَلِمَ الله أنه يموت على كفره، وقد

يكون إضلالهم عقابًا لهم بسوء أفعالهم.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الآية؛ إشارة إلى قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ

يُخَوِّضُونَ فِيْ ءَايَاتِنَا فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨] وغيرها.

(١) في د: «و».

وفي الآية دليلٌ على وجوب تجنُّب أهل المعاصي .
والضمير في قوله : ﴿مَعَهُمْ﴾ يعود على : ما يدلُّ عليه سياق الكلام من الكافرين والمنافقين .

﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ﴾ صفةٌ للمنافقين ؛ أي : ينتظرون بكم دوائر الزمان .
﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي : نغلب على أمركم بالنصرة لكم والحمية .
﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ قال علي بن أبي طالب وغيره :
ذلك في الآخرة .

وقيل : السبيل هنا : الحجة الغالبة^(١) .



(١) كذا في ب ، وهامش أ ورمز له بـ«خ» وهو موافق لما في المحرر الوجيز (٤٩/٣) ، وفي بقية النسخ : «البالغة» .

[إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٦﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٨﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥٠﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٥١﴾ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٥٢﴾ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٥٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٤﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥٥﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٦﴾].

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ ذَكَرَ فِي «البقرة» (١).

﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ تَسِيمَةُ لِلْعُقُوبَةِ بِاسْمِ الذَّنْبِ؛ لِأَنَّ وَبَالَ خِدَاعِهِمْ رَاجِعٌ عَلَيْهِمْ (٢).

﴿مُذَبِّدِينَ﴾ أَي: مُضْطَرِبِينَ مُتَرَدِّدِينَ، لَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَلَا إِلَى الْكَافِرِينَ.
﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أَي: حُجَّةً ظَاهِرَةً.

(١) انظر صفحة ١/ ٢٧٣.

(٢) انظر تعليق الشيخ عبد الرحمن البراك ١/ ٢٧٥، ١/ ٥٤٥، وصفحة ٤٢٢، و ٥١٢ من هذا الجزء.

﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ﴾ أي: في الطبقة السفلى من جهنم، وهي سبع طبقات.

وفي ذلك دليل على أنهم شر من الكفار.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثناء من المنافقين، والتوبة هنا: الإيمان الصادق في الظاهر والباطن.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ﴾ المعنى: أي حاجة أو منفعة لله بعذابكم وهو الغني عنكم!.

وقدّم الشكر على الإيمان؛ لأنّ العبد ينظر إلى النعم فيشكر عليها ثم يؤمن بالمنعم، فكأنّ الشكر سبب للإيمان متقدّم عليه.

ويحتمل أن يكون الشكر يتضمّن الإيمان، ثم ذكر الإيمان بعده توكيداً واهتماماً به.

والشّاکر اسم الله، ذُكر في «اللغات»^(١).

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: إلّا جَهَرَ المظلوم، فيجوز له من الجهر: أن يدعو على من ظلمه.

وقيل: أن يذكر ما فعل به من الظلم.

وقيل: أن يرُدّ عليه بمثل مَظلمته إن كان شتمه.

﴿إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ الآية؛ ترغيب في فعل الخير سرّاً وعلانية،

(١) انظر المادة (٥٤٠) في اللغات.

وفي العفو عن الظلم بعد أن أباح الانتصار؛ لأن العفو أحب إلى الله من الانتصار، وأكد ذلك بوصفه تعالى نفسه بالعفو مع القدرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ الآية؛ ^(١) في اليهود والنصارى؛ لأنهم آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمحمد ﷺ وغيره.

ومعنى التفريق بين الله ورسله: الإيمان به والكفر برسله.

وكذلك التفريق بين الرُّسل: هو الكفر ببعضهم والإيمان ببعضهم، فحكم الله على مَنْ كان كذلك بحكم الكفر الحقيقي الكامل.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية؛ في أمة محمد ﷺ؛ لأنهم آمنوا بالله وجميع رسله.



(١) في د زيادة: «نزلت».

[يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا بِمَا عَمِلْتُمْ سُلْطَنًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ بِمِثْقَلِهِمْ وَكُفِّرِهِمْ بَيَّانَتْ إِلَهُهُمُ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ بَيَّنَّتْ حَقَّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَيَكْفُرُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظْلَمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طِبَئَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلَاهُمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾].

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الآية؛ روي أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: لن نؤمن بك حتى تأتينا بكتابٍ من السماء جملةً كما أتى موسى بالتوراة.

وقيل: كتابٌ إلى فلان، وكتابٌ إلى فلان بأنك رسول الله.

وإنما طلبوا ذلك على وجه التعنت، فذكر الله سؤالهم من موسى، وسوء أدبهم معه؛ تسلياً للنبي ﷺ بالتأسي بغيره.

ثم ذكر أفعالهم القبيحة؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ كَفَرَهُمْ إِنَّمَا هُوَ عِنَادٌ، وقد تقدَّم في «البقرة»^(١) ذِكْرُ طَلِبِهِمُ لِلرَّوْيَةِ، واتخاذهم العجلَ، ورَفْعُ الطُّورِ فوقَهُم، واعتدائهم في السَّبْتِ وغير ذلك مما أُشير إليه هنا.

﴿فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ﴾ «ما» زائدة؛ للتأكيد، والباء تتعلّق:

بمحذوف؛ تقديره: بسبب نقضهم فَعَلْنَا بِهِمْ ما فعلنا.

أو تتعلّق بقوله: ﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ﴾، ويكون ﴿فِي ظُلُمٍ﴾ -على هذا- بدلاً من قوله: ﴿فِيمَا نَقَضُوا﴾.

﴿بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ هو أَنَّ رَمَوْا مَرْيَمَ بِالزَّنَا مع رؤيتهم الآية في كلام عيسى في المهد.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ عدّد الله في جملة قبائحهم قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾؛ لأنهم قالوها افتخاراً وجُراً مع أنهم كذبوا في ذلك، ولزِمهم الذنب وهم لم يقتلوه؛ لأنهم صلبوا الشخص الذي أُلْقِيَ شَبْهُه عليه، وهم يعتقدون أنه عيسى.

وروي أن عيسى قال للحواريين: أَيُّكُمْ يُلْقَى عليه شَبْهِي فيُقْتَل ويَكُون رفيقي في الجنة؟ فقال أحدهم: أنا، فأُلْقِيَ عليه شَبْهُ عِيسَى فُقْتِلَ على أنه عيسى.

وقيل: بل دَلَّ على عيسى يهوديٌّ، فأُلْقِيَ الله شَبْهَ عِيسَى على اليهودي،

(١) انظر صفحة ٣١٥/١ وما بعدها.

فَقُتِلَ الْيَهُودِيُّ، وَرُفِعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ حَيًّا، حَتَّى يَنْزَلَ إِلَى الْأَرْضِ فَيُقْتَلَ الدَّجَالُ.

﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ إِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالُوا فِيهِ ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِهِ وَيَسُبُّونَهُ؟
فَالْجَوَابُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّهْكُمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُمْ قَالُوهُ عَلَى حَسَبِ اعْتِقَادِ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ ؛ كَأَنَّهُمْ قَالُوا :
رَسُولُ اللَّهِ عِنْدَكُمْ أَوْ بَزْعِمِكُمْ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ لَا مِنْ قَوْلِهِمْ ؛ فَيُوقَفُ قَبْلَهُ ، وَفَائِدَتُهُ : تَعْظِيمُ
ذَنْبِهِمْ ، وَتَقْبِيحُ قَوْلِهِمْ : إِنْ أَمْنَاهُ .

﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ رَدُّ عَلَيْهِمْ وَتَكْذِيبُ لَهُمْ وَلِلنَّصَارَى أَيْضًا فِي
قَوْلِهِمْ : إِنَّهُ صُلِبَ ؛ حَتَّى عَبْدُوا الصَّلِيبَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ، وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ
مِنْ تَنَاقُضِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ : إِنَّهُ إِلَهٌ أَوْ ابْنُ إِلَهٍ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : إِنَّهُ صُلِبَ ! .
﴿وَلَكِنْ شَبَّهَهُمْ﴾ فِيهِ تَأْوِيلَانِ :

أَحَدُهُمَا : مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ إِقْدَاءِ شَبَّهَهُ عَلَى الْحَوَارِيِّ ، أَوْ عَلَى الْيَهُودِيِّ .

وَالْآخَرُ : أَنَّ مَعْنَاهُ : شَبَّهَهُ لَهُمُ الْأَمْرُ ؛ أَيِ : خَلَطَ لَهُمُ الْقَوْمُ الَّذِينَ حَافِلُوا
قَتْلَهُ ؛ فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا رَجُلًا آخَرَ وَصَلَبُوهُ وَمَنَعُوا النَّاسَ أَنْ يَقْرُبُوا مِنْهُ ، حَتَّى تَغَيَّرَ
بَحِثٌ لَا يُعْرَفُ ، وَقَالُوا لِلنَّاسِ : هَذَا عِيسَى ، وَلَمْ يَكُنْ عِيسَى ، فَاعْتَقَدَ النَّاسُ
صَدَقَهُمْ وَكَانُوا مُتَعَمِّدِينَ لِلْكَذِبِ .

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ لِفِي شَكِّ مَنَّهُ﴾ روي أنه لما رُفِعَ عيسى وألقيَ شَبْهه على غيره فقتلوه قالوا: إن كان هذا المقتولُ عيسى فأين صاحبنا؟، وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ فاختلفوا، فقال بعضهم: هو هو، وقال بعضهم: ليس هو، فأجمعوا أن شخصاً قُتِلَ، واختلفوا مَنْ كان.

﴿إِلَّا ابْنَاءَ الظَّنِّ﴾ استثناءٌ منقطع؛ لأنَّ العلمَ تحقيقٌ والظنُّ تردُّدٌ. وقال ابن عطية: هو متَّصلٌ؛ إذ الظنُّ والعلمُ يَجْمَعُهُمَا جنسُ المعتقدات^(١).

فإن قيل: كيف وصفهم بالشكِّ وهو تردُّدٌ بين احتمالين على السَّواء، ثم وصفهم بالظنِّ وهو ترجيحُ أحد الاحتمالين؟ فالجواب: أنهم كانوا على الشكِّ، ثم لَاحَتْ لهم أَمَارَةٌ فظنُّوا. قاله الزمخشري^(٢).

وقد يقال: الظنُّ بمعنى الشكِّ، وبمعنى الوَهْم الذي هو أضعف من الشكِّ.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: ما قتلوه قتلاً يقيناً؛ فإعراب ﴿يَقِينًا﴾ على هذا: صفةٌ لمصدر محذوف.

وقيل: هو مصدرٌ في موضع الحال؛ أي: ما قتلوه متيقِّنين. وقيل: هو تأكيدٌ للنفي الذي في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾؛ أي: تَيَقَّنَ نَفْيُ قَتْلِهِ، وهو على هذا منصوبٌ على المصدرية.

(١) المحرر الوجيز (٦٢/٣).

(٢) الكشاف (٢٢١/٥).

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى سمائه^(١)، وقد ورد في حديث الإسراء أنه في السماء الثانية^(٢).

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ فيها تأويلان:

أحدهما: أن الضمير في ﴿مَوْتِهِ﴾ لعيسى، والمعنى: أن كلَّ أحدٍ من أهل الكتاب يؤمن بعيسى حين ينزل إلى الأرض، قبل أن يموت عيسى، وتصير الأديان كلها حيثز دينًا واحدًا، وهو دين الإسلام.

والثاني: أن الضمير في ﴿مَوْتِهِ﴾ للكتابي الذي تضمَّنه قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، التقدير: وإن من أهل الكتاب أحدٌ إلا ليؤمننَّ بعيسى ويعلم أنه نبيُّ قبل أن يموت هذا الإنسان؛ وذلك حين معاينة الموت، وهو إيمان لا ينفعه، وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس وغيره.

وفي مصحف أبي بن كعب: «قبل موتهم»، وفي هذه القراءة تقوية للقول الثاني.

والضمير في ﴿بِهِ﴾: لعيسى على الوجهين.

وقيل: هو لمحمد ﷺ.

﴿وَبَصَدَّهِمْ﴾ يحتمل أن يكون:

بمعنى الإعراض؛ فيكون ﴿كَثِيرًا﴾ صفةً لمصدر محذوف؛ تقديره: صدًّا كثيرًا.

(١) انظر تعليق الشيخ عبد الرحمن البراك في صفحة ٥٤٦/١.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

أو بمعنى صدّهم لغيرهم؛ فيكون ﴿كَثِيرًا﴾ مفعولاً بالصد؛ أي: صدّوا كثيراً من الناس عن سبيل الله.

﴿لَكِنَّ الرّٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ هم عبد الله بن سلام، ومُخَيَّرِيق، ومَنْ جرى مجراهم.

﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ منصوبٌ على المدح بإضمارِ فعلٍ، وهو جائزٌ كثيرٌ في الكلام.

وقالت عائشة: هو من لحن كُتَاب المصحف^(١).

وفي مصحف ابن مسعود: «والمقيمون» على الأصل.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٦٨٠/٧)، والفراء في معاني القرآن (١٠٦/١) بإسنادهما عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلٰوةَ﴾، وعن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقُونَ﴾ وعن قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرِينَ﴾ فقالت: «يا ابن أخي، هذا عمل الكُتَّاب أخطؤوا في الكتاب»، وقال السيوطي في الإتيقان (٢٦٩/٢): «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين»، وقال الطبري تعليقاً على هذا الأثر (٦٨٤/٧): «فلو كان ذلك خطأً من الكاتب لكان الواجب أن يكون في كل المصاحف غير مصحفنا الذي كتبه لنا الكاتب الذي أخطأ في كتابه = بخلاف ما هو في مصحفنا، وفي اتفاق مصحفنا ومصحف أبي في ذلك ما يدل على أن الذي في مصحفنا من ذلك صوابٌ غيرُ خطإٍ، مع أن ذلك لو كان خطأً من جهة الخط لم يكن الذين أخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ يعلمون مَنْ علّموا ذلك من المسلمين على وجه اللحن، ولأصلحوه بالسنتهم، ولقنوه للأمة تعليماً على وجه الصواب، وفي نقل المسلمين جميعاً ذلك قراءةً على ما هو به في الخط مرسوماً أدلّ الدليل على صحة ذلك وصوابه، وأن لا صُنِعَ في ذلك للكاتب»، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٤٨/١٥) وما بعدها.

[﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاثَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ ١١٣] وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١١٤﴾ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١١٥﴾ لَئِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١١٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١١٩﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢٠﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٢١﴾﴾].

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الآية؛ ردُّ على اليهود الذين سألوا من النبي ^(١) ﷺ أن يُنَزَّلَ عليهم كتابًا من السماء، واحتجاجُ عليهم بأن الذي أتى به وحي، كما أتى مَنْ تقدَّم من الأنبياء بالوحي من غير إنزال كتابٍ من السماء، ولذلك أكثر من ذكر الأنبياء الذين كان شأنهم هذا؛ لتقوم بهم الحجة.

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ ﴾ منصوبٌ بفعل مضمر؛ أي: أرسلنا رسلًا.

(١) في أ: «سألوا النبي».

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ تصريحٌ بالكلام، مؤكِّدٌ بالمصدر، وذلك دليلٌ على بطلان قول المعتزلة: إِنَّ الشجرة هي التي كلمت موسى .
﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ﴾ منصوبٌ :

بفعل مضمر .

أو على البدل .

﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أي : بعثهم الله ليقطع حجة من يقول : لو أرسل إليَّ رسولٌ لآمنت .
﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ﴾ الآية ؛ معناها : أَنَّ الله يشهد بأن القرآن من عنده ، وكذلك تشهد الملائكة بذلك .

وسبب الآية : إنكار اليهود للوحي ، فجاء الاستدراك ؛ على تقدير أنهم قالوا : لن نشهد بما أنزل إليك ، ف قيل : لكن الله يشهد بذلك .
وفي الآية من أدوات البيان : التَّرديد ، وهو ذكر الشهادة أولاً ، ثم ذكرها في آخر الآية .

﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ في هذا دليلٌ لأهل السنة على إثبات علم الله ، خلافاً للمعتزلة في قولهم : إنه عالم بلا علم ، وقد تأولوا الآية بتأويلٍ بعيد .
﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ خطابٌ عام ؛ لأن النبي ﷺ بُعث إلى جميع الناس .
﴿فَتَأْمُرُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ انتصب ﴿خَيْرًا﴾ هنا ، وفي قوله : ﴿أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ :

بفعلٍ مضمر لا يظهر ؛ تقديره : اتتوا خيراً لكم . هذا مذهب سيويه .

وقال الخليل : انتصب بقوله : ﴿فَأَمِنُوا﴾ و﴿أَنْتَهُوا﴾ على المعنى .

وقال الفراء : فأمنوا إيماناً خيراً لكم ؛ فنصبه على النعت لمصدر محذوف .

وقال بعض الكوفيين : هو خبر «كان» المحذوفة ؛ تقديره : يكن الإيمان خيراً لكم .

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : هو غني عنكم ، لا يضره كفركم .

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ هذا خطاب للنصارى ؛ لأنهم غلوا في عيسى حتى كفروا ، فلفظ «أهل الكتاب» عمومٌ يراد به الخصوص في النصارى ؛ بدليل ما بعد ذلك .

والغلو : هو الإفراط وتجاوز الحد .

﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ أي : مكوّن عن كلمته التي هي «كن» ، من غير واسطة أب ولا نطفة .

﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي : ذو روح من الله ، ف «من» هنا : لابتداء الغاية ، والمعنى : من عند الله .

وجعله من عند الله ؛ لأن الله أرسل به جبريل عليه السلام إلى مريم .

﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ نهى عن التثليث الخبيث ، وهو مذهب النصارى .

وإعراب ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ : خبر ابتداءٍ مضمرة .

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ برهانٌ على تنزيهه تعالى عن الولد ؛ لأنه مالك كل شيء .

[لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبَرِ فَنَسْحَطُ لَهُمْ إِيَّاهُ جَمِيعًا ﴿١٧٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَخْدُون لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدْ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ مَنِ وَفَضَّلَ وَهَدَاهُمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٩﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُوا هَكَذَا لَيْسَ لَهُمْ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ إِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨٠﴾].

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ﴾ لن يأنف. وكذلك ^(١) حيث وقع.

﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فيه دليل لمن قال: إن الملائكة أفضل من الأنبياء؛ لأن المعنى: لن يستنكف عيسى ولا من فوقه.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ﴾ هو القرآن، وهو أيضًا النور المبين.

ويحتمل أن يريد بالبرهان: الدلائل والحجج، وبالنور: النبي ﷺ؛ لأنه سماء سراجًا.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يطلبون منك الفتيا.

ويحتمل أن يكون هذا الفعل:

طالبًا للكلالة، و﴿يُفْتِيكُمْ﴾ أيضًا طالبًا لها؛ فيكون من باب الإعمال،

(١) في د زيادة: «معناه».

وَأَعْمِلِ الْعَامِلَ الثَّانِي عَلَى اخْتِيَارِ الْبَصْرِيِّينَ .

أَوْ يَكُونُ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ مَقْطُوعًا عَنْ ذَلِكَ ؛ فَيُوقَفُ عَلَيْهِ .
وَالأَوَّلُ أَظْهَرُ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى الْكَلَالَةِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ^(١) .

وَالْمُرَادُ بِالْأَخْتِ وَالْأَخِ هُنَا : الشَّقَائِقُ ، وَالَّذِينَ لِلأَبِ إِذَا عَدِمَ الشَّقَائِقُ ،
وَقَدْ تَقَدَّمَ حُكْمُ الْإِخْوَةِ لِلأُمِّ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً﴾
الآيَةُ .

﴿إِنْ أَمْرُؤًا هَلَكَ﴾ ارْتَفَعَ بِفَعْلٍ مُضْمَرٍ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ .

وَلَا إِشْكَالَ فِيمَا ذَكَرْهُنَا مِنْ أَحْكَامِ الْمَوَارِيثِ .

﴿أَنْ تَضِلُّوا﴾ مَفْعُولٌ مِنْ أَجَلِهِ ؛ تَقْدِيرُهُ : كَرَاهَةٌ أَنْ تَضِلُّوا .



﴿ سورة المائدة ﴾

[يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَتُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَنْتَفِعُونَ فَضْلًا مِنْ رِزْقِهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حُلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِلْمِ وَالْعُدُونِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُرْدِيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِيمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلْلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَخَذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾].

﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قيل : إن العقود هنا : ما عقده الإنسان مع غيره من بيع

ونكاح وعتق وشبه ذلك .

وقيل : ما عقده مع ربّه من الطّاعات ، كالحج والصيام وشبه ذلك .

وقيل : ما عقده الله عليهم من التّحليل والتّحريم في دينه ؛ ذُكر مجملاً ثم فُصل بعد ذلك في قوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾ وما بعده .

﴿بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ هي : الإبل والبقر والغنم .

وإضافة البهيمة إليها من باب إضافة الشيء إلى ما هو أخصّ منه ؛ لأن البهيمة تقع على الأنعام وغيرها .

قال الزمخشري : هي الإضافة التي بمعنى «من» ، كخاتمٍ من حديد ؛ أي : البهيمة من الأنعام ^(١) .

وقيل : هي الوحش ؛ كالظباء ، وبقر الوحش .

والمعروف من كلام العرب : أن الأنعام لا يقع إلّا على الإبل والبقر والغنم ، وأن البهيمة تقع على كلّ حيوانٍ ما عدا الإنسان .

﴿إِلَّا مَا يَتَلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يريد : الميتة وأخواتها .

﴿غَيْرِ مُحْلِي الصَّيْدِ﴾ نُصب على الحال من الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ .

﴿وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ حالٌ من ﴿مُحْلِي الصَّيْدِ﴾ .

و﴿حُرُمٌ﴾ جمع حرام ؛ وهو المُحرّم بالحج .

(١) الكشف (٥/٢٥٥) .

فلاستثناء بـ «إلا» من البهائم المحللة، والاستثناء بـ «غير» من القوم المخاطبين.

﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قيل: هي مناسك الحج؛ كان المشركون يحجُّون ويعتَمرون، فأراد المسلمون أن يُغيروا عليهم، ف قيل لهم: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾؛ أي: لا تُغيروا عليهم ولا تصدُّوهم. وقيل: هي الحرَم، وإحلاله: الصيد فيه.

وقيل: هي ما يحرم على الحاج من النساء والصيد^(١) وغير ذلك، وإحلاله: فعله.

﴿وَلَا أَشْهَرُ الْحَرَامِ﴾ قيل: هو جنس الأشهر الحرم الأربعة؛ وهي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

وقيل: أشهر الحج؛ وهي: شوال، وذو قعدة، وذو الحجة.

وإحلالها: هو القتال فيها، وتغيير حالها.

﴿وَلَا أَلْهَدَى﴾ هو ما يُهدى إلى البيت الحرام من الأنعام، ويذبح تقرباً إلى الله، فنهى الله أن يُستحل؛ بأن يُغار عليه، أو يُصدَّ عن البيت.

﴿وَلَا أَلْقَيْدَ﴾ قيل: هي التي تُعلَّق في أعناق الهدى؛ فنهى عن التعرُّض لها.

وقيل: أراد: ذوات القلائد من الهدى؛ وهي البُدن، وجردَها بالذِّكر بعد دخولها في الهدى؛ اهتماماً بها وتأكيذاً لأمرها.

(١) في ب، د: «والطيب» بدل «والصيد»، وكذا في هامش أ ورمز له بـ «خ».

﴿وَلَا آمَنِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ أي: القاصدين إلى البيت لحجٍّ أو عمرة، نهى الله عن الإغارة عليهم أو صدّهم عن البيت.

ونزلت الآية - على ما قال السهيلي - بسبب الحُطَمِ البَكْرِيِّ - واسمه: شُريح بن ضُبَيْعَة - ^(١)، أخذته خيل رسول الله ﷺ وهو يَقْصِدُ إلى الكعبة ليعتمر ^(٢).

وهذا النهي عن إحلال هذه الأشياء عامٌّ في المسلمين والمشركين، ثم نُسخَ النهي عن قتال المشركين بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وبقوله: ﴿فَلَا يَفْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨]، وبقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧].

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ الفضل: الربح في التجارة، والرضوان: الرحمة ^(٣) في الدنيا أو ^(٤) في الآخرة.

(١) الحطم لقبٌ له، ومعناه: الراعي الذي يسوق ماشيته سوقًا عتيقًا، لقب بذلك لأنه غزا اليمن في جموع جمعها من ربيعة فغنم وسبى بعد حربٍ كانت بينه وبين كندة، ثم رجع وأخذ في طريقٍ مفازةٍ فضلَ بهم دليلهم ثم هرب منهم، فهلك أناسٌ كثيرٌ بالعطش، فجعل شريح يسوق بأصحابه سوقًا حثيثًا حتى نجوا ووردوا الماء، فقال فيه رشيد ابن رميض العنزي:

هذا أوانُ الشدِّ فاشتدِّي زَيْمٌ قد لفَّها الليلُ بسَوَاقِ حُطَمٍ

إلى آخر الأبيات. انظر: فوات الوفيات، للصفدي (١٦/ ٨٤).

(٢) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي، ص: ٩١.

(٣) في ب، د: «الريح».

(٤) في ب، د: «و».

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي : إذا حللتكم من إحرامكم بالحج فاصطادوا إن شئتم ؛ فالأمر هنا بإباحة بإجماع .

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ معنى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ : لا يُكْسِبَنَّكُمْ ؛ يقال : جَرَمَ فلانٌ فلاناً هذا الأمر : إذا أكسبه إِيَّاهُ وحمله عليه .

والشَنَاَنُ : هو البغض والحقد ؛ ويقال بفتح النون وإسكانها .

﴿وَأَنْ صَدُّوكُمْ﴾ مفعولٌ من أجله .

﴿وَأَنْ تَعْتَدُوا﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ .

ومعنى الآية : لا تحمِلَنَّكُمْ ^(١) عداوة قومٍ على أن تعتدوا عليهم من أجل أن صدوكم عن المسجد الحرام .

ونزلت عام الفتح ؛ حين ظفِر المسلمون بأهل مكة فأرادوا أن يستأصلوهم بالقتل ؛ لأنهم كانوا قد صدوهم عن المسجد الحرام عام الحديبية ، فنهاهم الله عن قتلهم ؛ لأن الله عَلِمَ أنهم يؤمنون .

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ وصيةٌ عامة .

والفرق بين البرِّ والتقوى :

أن البرَّ : عامٌّ في فعل الواجبات والمندوبات ، وترك المحرمات ، وفي كل ما يُقَرَّب إلى الله .

(١) في أ ، ب ، د : «لا تحمِلَنَّكُمْ» .

والتقوى : في الواجبات ، وترك المحرمات ، دون فعل المندوبات .

فالبرُّ أعم من التقوى .

﴿وَلَا تَعَاوُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَنَ﴾ الفرق بينهما :

أن الإثم : كلُّ ذنب بين العبد وبين الله (أو بينه وبين الناس)^(١) .

والعدوان : على الناس .

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِزْيِرِ﴾ تقدّم الكلام عليها في «البقرة»^(٢) .

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ هي التي تُخنق بحبلٍ وشبهه .

﴿وَالْمَوْفُوذَةُ﴾ هي المضروبة بعضًا أو حجرٍ وشبهه .

﴿وَالْمَرْدِيَّةُ﴾ هي التي تسقط من جبلٍ وشبهه^(٣) .

﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ هي التي نطحت بها بهيمةٌ أخرى .

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ أي : أكل بعضه ، والسَّبُعُ : كلُّ حيوانٍ مفترس ؛ كالذئب والأسد والنمر والثعلب والعقاب والنسر .

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ قيل : إنه استثناءٌ منقطع ؛ وذلك إذا أريد بالمنخنقة وأخواتها : ما مات من الاختناق والوقذ والتردي والنطح وأكل السَّبُع ، والمعنى : حُرِّمَتْ عليكم هذه الأشياء ، لكن ما ذكَّيْتُمْ من غيرها فهو حلال .

(١) سقط من ب ، ج ، هـ .

(٢) انظر صفحة ٣٩٤ / ١ .

(٣) في ب ، د : «وشبه ذلك» .

وهذا القول ضعيف؛ لأنها إذا ماتت بهذه الأسباب فهي ميتة؛ فقد دخلت في عموم الميتة، فلا فائدة لذكرها بعدها.

وقيل: إنه استثناء متصل؛ وذلك إن أُريد بالمنخقة وأخواتها: ما أصابته تلك الأسباب وأدركت ذكاته، والمعنى على هذا: إلا ما أدركتم ذكاته من هذه الأشياء فهو حلال.

ثم اختلف أهل هذا القول: هل يشترط أن تكون لم تُنفذ مقَاتِلُها أم لا؟ وأما إذا لم تُشرف على الموت من هذه الأسباب فذكاتها جائزة باتفاق.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ عطف على المحرمات المذكورة.

و﴿النُّصُبِ﴾ حجارة كان أهل الجاهلية يُعظمونها ويذبحون عليها، وليست بالأصنام؛ لأن الأصنام مصورة والنُّصُب غير مصورة، وهي الأنصاب، والمفرد: نِصاب.

وقد قيل: إن النُّصُب بضمين: مفرد، وجمعه: أنصاب.

﴿وَأَنْ تَسْقِسُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ عطف على المحرمات أيضا.

والاستقسام: هو طلب ما قُسم له.

والأزلام: هي السَّهَام؛ واحدها: زَلَمٌ - بضم الزاي وفتحها -، وكانت ثلاثة قد كُتب على أحدها: «افعل»، وعلى الآخر: «لا تفعل»، والثالث مهمل، فإذا أراد الإنسان أن يعمل أمرا جعلها في خريطة، وأدخل يده وأخرج أحدها، فإن خرج له الذي فيه «افعل» ففعل ما أراد، وإن خرج له

الذي فيه «لا تفعل» تركه، وإن خرج^(١) المهمل أعاد الضرب.

﴿ذَلِكُمْ فَسُقُ﴾ الإشارة:

إلى تناول المحرمات المذكورة كلها.

أو إلى الاستقسام بالأزلام، وإنما حرّمه الله وجعله فسقاً؛ لأنه دخولٌ في علم الغيب الذي انفرد الله به، فهو كالكهانة وغيرها مما يرام به الاطلاع على الغيوب.

﴿الْيَوْمَ يَيسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي: يتسوا أن يغلبوه أو يُبطلوه.

ونزلت بعد العصر من يوم الجمعة يوم عرفة في حجة الوداع؛ فذلك هو اليوم المذكور؛ لظهور الإسلام فيه وكثرة المسلمين.

ويحتمل أن يكون المراد باليوم: الزمان الحاضر، لا اليوم بعينه.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ هذا الإكمال يحتمل أن يكون:

بالنصر والظهور.

أو بتعليم الشرائع، وبيان الحلال والحرام.

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ راجعٌ إلى المحرمات المذكورة قبل هذا، أباحها الله عند الاضطرار.

﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ في مجاعة.

(١) في ج، د زيادة: «له».

﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ هو بمعنى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ وقد تقدّم في «البقرة»^(١).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قام مقام: «فلا جناح عليه»، وتضمن زيادة الوعد. ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ سببها: أن المسلمين سألوا رسول الله ﷺ عما يَحِلُّ لَهُمْ من المأكَل.

وقيل: لما أمر رسول الله ﷺ بقتل الكلاب سألوه: ماذا يحل لنا من الكلاب؟ فنزلت مبيّنة للصيد بالكلاب.

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ هي عند مالك: الحلال؛ وذلك ما لم يرد تحريمه في كتاب ولا سنة.

وعند الشافعي: الحلال المستلذ؛ فحرّم كل مستقذّر كالخنافس وشبهها؛ لأنها من الخبائث.

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ عطف على ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾؛ على حذف مضاف تقديره: وصيد ما علمتم.

أو: مبتدأ وخبره: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا أحسن؛ لأنه لا حذف فيه.

والجوارح: هي الكلاب ونحوها مما يُصاد به، وسُمّيت جوارح؛ لأنها كواسب لأهلها، فهو من الجرّح بمعنى الكسب.

ولا خلاف في جواز الصيد بالكلاب .

واختلف فيما سواها :

ومذهب الجمهور : الجواز ؛ للأحاديث الواردة في البُرْاة وغيرها .

ومنع بعضهم ذلك ؛ لقوله : ﴿مُكَلِّينَ﴾ ؛ فإنه مشتق من الكلب .

ونزلت الآية بسبب عدي بن حاتم ؛ فإنه كان له كلاب يصطاد بها ، فسأل رسول الله ﷺ عما يحل من الصيد .

﴿مُكَلِّينَ﴾ أي : معلّمين للكلاب^(١) الاصطياد .

وقيل : معناه : أصحاب كلاب .

وهو منصوبٌ على الحال من ضمير الفاعل في ﴿عَلَّمْتُمْ﴾ .

ويقتضي قوله : ﴿عَلَّمْتُمْ﴾ و﴿مُكَلِّينَ﴾ : أنه لا يجوز الصيد إلا بجارح معلّم ؛ لقوله : ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ﴾ ولقوله : ﴿مُكَلِّينَ﴾ على القول الأول ، ولتأكيد ذلك بقوله : ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ﴾ .

وحدّ التعلّم :

عند ابن القاسم : أن يفهم الجارح الإيساد^(٢) والزجر .

(١) في ج ، د : «معلمين الكلاب» .

(٢) في دهن وفي الموضوع التالي : «الإشلاء» . قال في لسان العرب (٤/٣٨) : «وَأَسَدَ الْكَلْبِ بالصيدِ إِيسَادًا : هَيَّجَهُ وَأَغْرَاهُ ، وَأَشْلَاهُ : دَعَاهُ» ، وقال الإمام ثعلب في كتاب الفصيح (ص : ١٥٥) : «وَتَقُولُ : أَشْلَيْتُ الْكَلْبَ وَغَيْرَهُ : إِذَا دَعَوْتُهُ إِلَيْكَ . وَقَوْلُ النَّاسِ : أَشْلَيْتُهُ عَلَى الصَّيْدِ خَطَأٌ . فَإِنْ أَرَدْتَ ذَلِكَ قُلْتَ : أَسَدْتُهُ عَلَى الصَّيْدِ ، وَأَوْسَدْتُهُ» .

وقيل : الإيساد خاصة .

وقيل : الزجر خاصة .

وقيل : أن يُجيب إذا دُعي .

﴿تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أي : تعلمونهنَّ من الحيلة في الاصطياد وتأتي تحصيل الصيد ، وهذا جزء مما علمه الله الإنسان ؛ ف «من» للتبعية .

ويَحتمل أن تكون لابتداء الغاية .

والجملة في موضع : الحال ، أو استئناف .

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ الأمر هنا إباحة .

ويَحتمل أن يريد : مما أمسكن سواء أكلت الجوارح منه أو لم تأكل ، وهو ظاهر إطلاق اللفظ ، وبذلك أخذ مالك .

ويَحتمل أن يريد : مما أمسكن ولم يأكلن منه ؛ وبذلك فسره رسول الله ﷺ بقوله : «فإن أكل منه فلا تأكل ؛ فإنه إنما أمسك على نفسه»^(١) ، وقد أخذ بهذا بعض العلماء .

وقد ورد في حديث آخر : «إذا أكل فكل»^(٢) ، وهو حجة لمالك .

﴿وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ هذا أمرٌ بالتسمية على الصيد ، ويجري الذبح مجراه .

(١) أخرجه البخاري (١٧٥) ، ومسلم (١٩٢٩) .

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٥٢) .

وقد اختلف الناس في حكم التسمية :

فقال الظاهرية : إنها واجبة ؛ حملاً للأمر على الوجوب ، فإن تركت التسمية عمداً أو نسياناً ، لم تؤكل عندهم .

وقال الشافعي : إنها مستحبة ؛ حملاً للأمر على الندب ، وتؤكل عنده ؛ سواء تركت التسمية عمداً أو نسياناً .

وجعل بعضهم الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائداً على الأكل ؛ فليس فيها - على هذا - أمرٌ بالتسمية على الصيد .

ومذهب مالك : أنه : إن تركت التسمية عمداً لم تؤكل ، وإن تركت نسياناً أكلت ؛ فهي عنده واجبة مع الذكر ، ساقطة مع النسيان .

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ معنى ﴿حِلٌّ﴾ : حلالٌ ، و﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ هم اليهود والنصارى .

واختلف في نصارى بني تغلب من العرب ، وفيمن كان مسلماً ثم ارتد إلى اليهودية أو النصرانية هل يحل لنا طعامهم أم لا ؟ .

ولفظ الآية يقتضي الجواز ؛ لأنهم من أهل الكتاب .

واختلف في المجوس والصابئين هل هم أهل كتاب أم لا ؟ .

وأما الطعام ؛ فهو على ثلاثة أقسام :

أحدها : الذبائح ؛ وقد اتفق العلماء على أنها مُراداة في الآية ، فأجازوا أكل ذبائح اليهود والنصارى .

واختلفوا فيما هو محرّم عليهم في دينهم ، هل يحل لنا أم لا ؟ .

على ثلاثة أقوال: الجواز، والمنع، والكراهة.

وهذا الاختلاف مبني على: هل هو من طعامهم أم لا؟

فإن أريد بطعامهم ما ذبحوه: جاز.

وإن أريد به ما يحل لهم: مُنِع.

والكراهة توسط بين القولين.

القسم الثاني: ما لا محاولة لهم فيه؛ كالقمح والفاكهة، فهو جائز لنا باتفاق.

والثالث: ما فيه محاولة؛ كالخبز، وتَعصير الزَّيت، وعَقْد الجُبْن، وشبه ذلك مما يمكن استعمال النجاسة فيه:

فمنعه ابن عباس؛ لأنه رأى أن طعامهم هو الذَّبائح خاصة، ولأنه يمكن أن يكون نجسًا.

وأجازه الجمهور؛ لأنهم رأوه داخلًا في طعامهم.

وهذا إذا كان استعمال النجاسة فيه محتملاً، فأما إذا تحقَّقنا استعمال النجاسة فيه كالخمر والخنزير والميتة فلا يجوز أصلاً، وقد صنف الطُّرطوشي^(١) في تحريم جُبْن النصارى، وقال: إنه يُنَجِّس البائع

(١) هو أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي نسبة إلى بلدة طرطوشة بالأندلس، الفقيه المالكي، توفي بالاسكندرية سنة (٥٢٠هـ). انظر: الديباج المذهب، لابن فرحون (٢/٢٤٤).

والمشتري والآلة ؛ لأنهم يُعْقِدُونَهُ بِإِنْفَاحِ^(١) الميتة^(٢) .

ويجري مجرى ذلك الزيت إذا عَلِمْنَا أنهم يجعلونه في ظروف الميتة .
﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ هذه إباحة للمسلمين أن يُطْعِمُوا أهلَ الكتاب من طعامهم .

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ عطفٌ على الطعام المحلل .
وقد تقدّم أن الإحصان له أربعة معان : الإسلام ، والتزوّج ، والعِفَّة ، والحرية .

فأما الإسلام فلا يصحُّ هنا ؛ لقوله : ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ .
وأما التزوّج فلا يصحُّ أيضًا ؛ لأن ذات الزوج لا تحلُّ لغيره .
ويَحْتَمِلُ هنا : العِفَّة والحرية .

فَمَنْ حَمَلَهُ على العفة أجاز نكاح المرأة الكتابية سواء كانت حرة أو أمة .
ومن حمله على الحرية أجاز نكاح الكتابية الحرة ومنع الأمة ، وهو مذهب مالك .

ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة : ٢٢١]
لأنه هذه في الكتابيات ، والأخرى في المشركين من العرب .

(١) قال في «القاموس» : «الإنْفَاحُ بكسر الهمزة ، وقد تشدد الحاء ، وقد تكسر الفاء : شيء يستخرج من بطن الجدي الرضيع ، أصفر ، فيُعَصَّرُ في صوفة ، فيغلظ كالجبين» .

(٢) انظر : رسالة في تحريم الجبن الرومي ، تحقيق : عبد المجيد التركي ، ط : دار الغرب الإسلامي ، سنة (١٤١٧هـ) ، صفحة (١٣١) .

وقد جعل بعضُ الناس هذه ناسخةً لتلك .

وقيل بالعكس .

وقد تقدّم معنى : ﴿فَتَأْتُهُنَّ أَجُورُهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤] ، ومعنى الأخدان^(١) .



(١) انظر صفحة ٤٢ .

[يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾] .

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ نزلت في غزوة المريسيع، حين انقطع^(١) عقد عائشة رضي الله عنها، فأقام الناس على التماسيه وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فنزلت الرخصة في التيمم، فقال أسيد بن حضير: ما هذه بأول بركاتكم يا آل أبي بكر^(٢)، ولذلك سُميت الآية آية التيمم، وقد كان الوضوء مشروعا قبلها، ثابتا بالسنة.

(١) في د: «تلف».

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٢)، ومسلم (٣٦٧).

وقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ معناه: إذا أردتم القيام إلى الصلاة فتوضؤوا.

ويقتضي ظاهرها: وجوب تجديد الوضوء لكل صلاة، وهو مذهب ابن سيرين وعكرمة.

ومذهب الجمهور: أنه لا يجب، واختلفوا في تأويل الآية على أربعة أقوال:

الأول: أن وجوب تجديد الوضوء لكل صلاة منسوخ بفعل رسول الله ﷺ؛ إذ صلى الصلوات الخمس يوم الفتح بوضوء واحد^(١).

والثاني: أن ما تقتضيه الآية من التجديد يُحمَل على الندب.

والثالث: أن تقديرها: إذا قمتم مُحدِّثين؛ فإنما يجب على من أحدث.

والرابع: أن تقديرها: إذا قمتم من النوم.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ ذكر في هذه الآية أربعة أعضاء:

اثنين محدودين؛ وهما اليدان والرجلان.

واثنين غير محدودين؛ وهما الوجه والرأس.

فأما المحدودان: فغُسل اليدان إلى المرفقين، والرجلان إلى الكعبين وجوباً بإجماع؛ فإنَّ ذلك هو الحدُّ الذي جعل الله لهما.

واختلف: هل يجب غُسل المرفقين مع اليدين، وغسل الكعبين مع

(١) أخرجه مسلم (٢٧٧).

الرجلين أم لا؟ وذلك مبني على معنى «إلى» :

فمن جعل «إلى» بمعنى «مع» في قوله: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ و﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ أوجب غسلهما.

ومن جعلها بمعنى الغاية لم يوجب غسلهما.

واختلف في الكعبين؛ هل هما اللذان عند مَعْقِدِ الشَّارِكِ؟ أو العظمان النَّائِثَانِ في طرف السَّاقِ؟ وهو أظهر؛ لأنه ذكرهما بلفظ التثنية، ولو كان اللذان عند معقد الشراك لذكرهما بلفظ الجمع كما ذكر المرافق؛ لأنه على ذلك في كل رجل كعب واحد.

وأما غير المحدودين: فاتفق على وجوب إيعاب الوجه.

وحده طولاً: من أول منابت الشعر إلى آخر الذَّقَنِ أو اللحية، وحده عرضاً: من الأذن إلى الأذن، وقيل: من العِذَارِ إلى العِذَارِ.

وأما الرأس: فمذهب مالك: وجوب إيعابه؛ كالوجه.

ومذهب كثير من العلماء: جواز الاقتصار على بعضه؛ لما ورد في الحديث: أن رسول الله ﷺ مسح على ناصيته^(١). ولكنهم اختلفوا في القدر الذي يُجزئ على أقوال كثيرة.

﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ اختلف في هذه الباء:

فقال قوم: إنها للتبعض؛ وبنوا على ذلك: جواز مسح بعض الرأس. وهذا القول غير صحيح عند أهل العربية.

(١) أخرجه أحمد (١٨١٣٤)، والنسائي (١٠٧).

وقال القرافي: إنها باء الاستعانة التي تدخل على الآلات، وإن المعنى: امسحوا أيديكم برؤوسكم^(١). وهذا ضعيف؛ لأن الرأس على هذا ماسح لا ممسوح، وذلك خلاف المقصود.

وقيل: إنها زائدة. وهو ضعيف؛ لأن هذا ليس موضع زيادتها.

والصحيح عندي: أنها باء الإلصاق التي توصِل الفعل إلى مفعوله؛ لأن المسح تارة يتعدى بنفسه، وتارة بحرف الجر؛ كقوله: ﴿فَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾، وكقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالْسُوفِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣].

﴿وَأَرْجَلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قرئ: ﴿وَأَرْجَلَكُمْ﴾ بالنصب؛ عطفاً على الوجوه^(٢) والأيدي، فيقتضي ذلك: وجوب غسل الرجلين. وقرئ بالخفض:

فحمله بعضهم على أنه عطف على قوله: ﴿رُءُوسِكُمْ﴾، فأجاز مسح الرجلين، روي ذلك عن ابن عباس.

وقال الجمهور: لا يجوز مسحهما، بل يجب غسلهما، وتأولوا قراءة الخفض بثلاثة تأويلات:

أحدها: أنه خفض على الجوار، لا على العطف.

والآخر: أنه يراد به المسح على الخفين.

والثالث: أن ذلك منسوخ بالسنة.

(١) انظر: شرح تنقيح الفصول، للقرافي (ص: ١٠٤).

(٢) في ب، ج، هـ: «الوجه».

والفرق بين الغسل والمسح :

أن المسح : إمرار اليدين بالبلل الذي يبقى من الماء .

والغسل : عند مالك : إمرار اليد بالماء ، وعند الشافعي : إمرار الماء ، وإن لم يذلك باليد .

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ تقدّم الكلام على نظيرتها في «النساء»^(١) .
﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي : من ضيقٍ ولا مشقّة ؛
كقول رسول الله ﷺ : «دين الله يسر»^(٢) .

وبقيّة الآية تفضّل من الله على عباده ورحمةً ، وفي ضمن ذلك ترغيبٌ في الطهارة وتنشيط عليها .

﴿وَمِثْلَهُ الَّذِي وَاتَّفَكُم بِهِ﴾ هو ما وقع في بيعة العقبة ، وبيعة الرضوان ، وكلّ موطن قال المسلمون فيه : سمعنا وأطعنا .

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ﴾ تقدّم الكلام على نظيرتها في «النساء»^(٣) .

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي : لا يحملنكم بغض قومٍ على ترك العدل فيهم .

﴿إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ في سببها أربعة أقوال :

الأول : أن النبي ﷺ ذهب إلى بني النضير من اليهود ، فهموا أن يصبوا عليه صخرةً يقتلونه بها ، فأخبره جبريل بذلك فقام من المكان ، ويقوّي هذا

(١) انظر صفحة ٥٩ .

(٢) أخرجه البخاري (٣٩) ، ولفظه : «إن الدين يسر» . . .

(٣) انظر صفحة ١٢٠ .

القول: ما ورد من الآيات بعد هذا في غدر اليهود.

الثاني: أنها نزلت في شأن الأعرابي الذي سلَّ السيف على رسول الله ﷺ حين وجده في سفر وهو وحده، وقال له: من يمنعك مني؟ قال: «الله»، فأغمد السيف وجلس^(١). واسمه: غَوْرَثُ بن الحارث الغطفاني.

الثالث: أنها فيما همَّ به الكفار من الإيقاع بالمسلمين حين نزلت صلاة الخوف.

الرابع: أنها على الإطلاق في دفع الله الكفار عن المسلمين.



(١) أخرجه البخاري (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣).

[﴿١٥٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٦٠﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِيَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيءُ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٦٢﴾ يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٦٣﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦٤﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٦٦﴾ يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٧﴾].

﴿أَتْنَى عَشَرَ نَفِيبًا﴾ النقيب: هو كبير القوم القائمُ بأمورهم.

﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بنصري.

والخطاب: لبني إسرائيل، وقيل: للنُّبَّاء.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ اختلَف: هل أُريد تحريفُ الألفاظ أو المعاني؟.

﴿وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي: على خيانة؛ فهو مصدر كالعاقبة.

وقيل: على طائفةٍ خائنة.

وهو إخبارٌ بامرٍ مُستقبل.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ منسوخٌ بالسيف والجزية.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُوكَ﴾ أي: ادَّعوا أنهم أنصار الله، وسَمَّوا

أنفسهم بذلك، ثم كفروا بالله، ووصفوه بما لا يليق به.

ويتعلق^(١) ﴿وَمِنَ الَّذِينَ﴾ بـ ﴿أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ﴾، والضمير عائد على

النصارى.

﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ أي: أثبتنا وألصقنا؛ وهو مأخوذٌ مِنَ الْغِرَاءِ.

﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ﴾ في الموضعين: يَعُمُّ اليهود والنصارى.

وقيل: إنها نزلت بسبب اليهود الذين كانوا بالمدينة؛ فإنهم كانوا يذكرون

رسول الله ﷺ ويصفونه بصفته، فلما حلَّ بالمدينة كفروا به.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ يعني: محمداً ﷺ، وفي الآية دلالةٌ على صحة

(١) في أ، ب، د: «وتتعلق».

نبوته ؛ لأنه بين لهم ما أخفوه مما في كتبهم ، وهو أمّي لم يقرأ كتبهم .

﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي : يتركه ولا يفضحكم فيه .

﴿نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ محمد ﷺ ، والقرآن .

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ الآية ؛ ردّ على الذين قالوا : إن الله هو

عيسى ، وهم فرقة من النصارى .

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إشارة إلى خَلْقِهِ^(١) عيسى من غير والد .

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَى﴾ أي : قالت كل فرقة عن نفسها : إنهم أبناء الله

وأحبّاءه .

والْبُنُوَّةُ هنا : بُنُوَّةُ الحنان والرأفة .

وقال الزمخشري : المعنى : نحن أشياعُ أبناءِ الله - عندهم - ، وهما

المسيح وعُزَيْر ، كما يقول حشَمُ الملوك : نحن الملوك^(٢) .

﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ﴾ ردّ عليهم ؛ لأنهم قد اعترفوا أنهم يدخلون النار أياماً

معدودات .

وقد أخذ الصوفية من الآية أن المحب لا يعذب حبيبَه^(٣) ، ففي ذلك إشارة

لمن أحبه الله .

(١) في ب : «خَلْقِهِ» .

(٢) الكشف (٣١٧/٥) .

(٣) قال ذلك أبو بكر الشبلي الصوفي لابن مجاهد المقرئ في محادثة جرت بينهما في مجلس ، أوردها الخطيب البغدادي بإسناده في تاريخ بغداد (١٦/٥٦٧) ، وابن الصلاح في طبقات الشافعية (١/٤٨٩) ، وفيها - كما عند الخطيب - : «ثم قال [الشبلي] له =

[وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَنْقُورِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُخِرمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾].

﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ قيل : جعل منكم ملوكًا ؛ أي : أمراء .

وقيل : الملك : من له مسكنٌ وامرأة وخادم .

﴿مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قيل : يعني : المنّ والسلوى والغمام وغير ذلك من الآيات ، وعلى هذا : يكون ﴿الْعَالَمِينَ﴾ خاصًا بأهل زمانهم ؛ لأن أمة محمد ﷺ قد أُوتيت من آياته مثل ذلك وأعظم .

وقيل : المراد : كثرة الأنبياء ، فعلى هذا : يكون عامًا ؛ لأن الأنبياء في

= [أي : لابن مجاهد] : قد أجمع الناس أنك مقرئ الوقت ، أين في القرآن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ قال : فسكت ابن مجاهد ، فقال له أبي : قل يا أبا بكر ، قال : قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قُلُوبَهُمْ فَلَمَّ يَعَذِّبْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ ، فقال ابن مجاهد : كأنني ما سمعتها قط! .

بني إسرائيل أكثر منهم في سائر الأمم .

﴿الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أرض بيت المقدس ، وقيل : الطُّور ، وقيل : دمشق .

﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي : قضَى أن تكون لكم .

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أن يريد :

الارتداد عن الدين والطاعة .

أو الرجوعَ إلى الطريق الذي جاؤوا منه ؛ فإنه رُوي أنه لما أمرهم موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسة خافوا من الجبارين الذين فيها ، وهمُّوا أن يُقدِّموا على أنفسهم رئيسًا ويرجعوا إلى مصر .

﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ هم العمالقة .

﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ هما : يُوشَعَ وكالِب .

﴿يَخَافُونَ﴾ أي : يخافون الله .

وقيل : يخافون الجبارين ، ولكن الله أنعم عليهم بالصبر والثبوت ؛ لصدق إيمانهما .

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أي : باب المدينة .

﴿فَازْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ إفراط في العصيانِ وسوءِ الأدب بعبارة تقتضي الكفر والاستهانة بالله ورسوله ، وأين هؤلاء من الذين قالوا الرسول الله ﷺ : لسنا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ، ولكن نقول لك : اذهب أنت

وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون! (١).

﴿لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ قاله موسى ﷺ؛ ليتبرأ إلى الله من قول بني إسرائيل، ويبدل جهده في طاعة الله، ويعتذر إلى الله.

وإعراب ﴿أَخِي﴾:

عطف على ﴿نَفْسِي﴾؛ لأن أخاه هارون كان يُطيعه.

وقيل: عطف على الضمير في ﴿أَمْلِكُ﴾؛ أي: لا أملك أنا إلا نفسي، ولا يملك أخي إلا نفسه.

وقيل: مبتدأ، وخبره محذوف؛ أي: أخي لا يملك إلا نفسه.

﴿فَأَفَرَّقْ بَيْنَنَا﴾ أي: فارق بيننا وبينهم؛ فهو من الفُرقة.

وقيل: افصل بيننا وبينهم بحكم.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ الضمير في ﴿قَالَ﴾ لله تعالى.

وحرّم الله على جميع بني إسرائيل دخول تلك المدينة أربعين سنة، وتركهم في هذه المدة يتيهون في الأرض؛ أي: في أرض التيه - وهو ما بين مصر والشام -، حتى مات كل من قال: «إن لن ندخلها»، ولم يدخلها أحد من ذلك الجيل إلا يوشع وكالب، ومات هارون في التيه، ومات موسى بعده في التيه أيضاً.

وقيل: إن موسى وهارون لم يكونا في التيه؛ لقوله: ﴿فَأَفَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

(١) قاله المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم بدر. أخرجه البخاري (٣٩٥٢)، (٤٦٠٩).

وخرج يوشع ببني إسرائيل بعد الأربعين سنة، وقاتل الجبارين، وفتح المدينة.

والعامل في ﴿أَزْبَعِينَ﴾ : ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ على الأصح ؛ فيجب وصله معه .

وقيل : العامل فيه : ﴿يَتِيَهُوتُ﴾ ، فعلى هذا يجوز الوقف على قوله : ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ ، وهذا ضعيف ؛ لأنه لا حامل على تقديم المعمول هنا ، مع أن القول الأول أكمل معنى ؛ لأنه بيان لمدة التحريم والتية .

﴿يَتِيَهُوتُ﴾ أي : يتحيرون ، وروي أنهم كانوا يسيرون الليل كله ، فإذا أصبحوا وجدوا أنفسهم في الموضع الذي كانوا فيه .

﴿فَلَا تَأْسُ﴾ أي : لا تحزن ، والخطاب : لموسى .

وقيل : لمحمد ﷺ ، ويراد بـ ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ : مَنْ كان في عصره من اليهود .



[﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىٰ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَعَتْ لهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيرِيَهُ كَيْفَ يُؤَدِّي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقُ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَدِّي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾].

﴿نَبَأَ ابْنَىٰ آدَمَ﴾ هما قابيل وهايل.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ روي أن قابيل كان صاحب زرع فقرب أرذل زرعه، وكان هايل صاحب غنم فقرب أحسن كبش عنده، وكانت العادة حينئذ أن يقرب الإنسان قربانه إلى الله ويقوم يصلي، فإذا نزلت نار من السماء وأكلت القربان فذلك دليل على القبول وإلا فلا قبول، فنزلت النار فأخذت كبش هايل ورفعته، وتركت زرع قابيل، فحسده قابيل فقتله.

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ استدلل بها المعتزلة وغيرهم على أن العاصي لا يُتَقَبَّلُ عمله .

وتأولها الأشعرية : بأن التقوى هنا يراد بها : تقوى الشرك^(١) .

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ ﴾ الآية ؛ قيل : معناها : لئن بدأتني بالقتل لم أبدأك به .

وقيل : لئن بدأتني بالقتل لم أدافعك ، ثم اختلف على هذا القول :

هل تركه لدفاعه عن نفسه تورع^(٢) وفضيلة ؟ وهو الأظهر والأشهر .

أو كان واجبا عندهم أن لا يدافع أحد عن نفسه ؟ وهو قول مجاهد .

وأما في شرعنا : فيجوز دفع الإنسان عن نفسه ؛ بل يجب .

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ يَأْتِي وَإِثْمَكَ ﴾ الإرادة هنا ليست بإرادة محبة وشهوة ، وإنما هو تخيير في أهون الشرين ؛ كأنه قال : إن قتلتي فذلك أحب إلي من

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك : قوله : (استدلل بها المعتزلة . .) إلخ ، أقول : ذكر المؤلف قول المعتزلة وقول الأشاعرة ، وظاهر كلامه أنه يرد قول المعتزلة ، ويرضى قول الأشاعرة ، وقول المعتزلة ظاهر الفساد ؛ لأنه مبني على أن العاصي ليس بمؤمن ، وشرط قبول العمل الإيمان ، وأما قول الأشاعرة فصحيح من جهة أن الشرك يحبط العمل ، لكن هذا القول يقتضي أن من لم يكن مشركا فالله يقبل عمله مطلقا ، وليس هذا بمستقيم ؛ فإن المؤمن الموحد قد يعرض له في العمل ما يبطله كالرياء ، والمن والأذى في الصدقة ، ومخالفة السنة ، ومن الخطأ في فهم الآية ظن بعض الناس أن المراد أن الله لا يتقبل إلا من تقى فاعل للمأمورات ، تارك للمعاصي ، وهذا يؤول إلى قول المعتزلة ، والصواب في الآية أن الله لا يتقبل إلا ممن اتقى الله في عمله ذلك ، بأن أتى به على الوجه المشروع ، خالصا صوابا ، ولم يأت بما يبطله . والله أعلم .

(٢) في د زيادة : « منه » .

أن أقتلك، كما ورد في الأثر: «كن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل»^(١).

وأما قوله: ﴿يَأْتِي وَإِيكَ﴾ فمعناه:

يأتي قتلي لك لو قتلتك، ويأتي قتلك لي، وإنما تحمّل القاتل الإثمين؛ لأنه ظالم، فذلك مثل قوله ﷺ: «المستبان ما قالا فهو على البادي»^(٢).

وقيل: ﴿يَأْتِي﴾ أي: تحمّل عني سائر ذنوبي؛ لأن الظالم تجعل عليه في القيامة ذنوب المظلوم، ﴿وَإِيكَ﴾ أي: في قتلك لي، وفي غير ذلك من ذنوبك.

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ يحتمل أن يكون:

من كلام هايل.

أو استئنافاً من كلام الله تعالى.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا﴾ الآية؛ روي أن غرابين اقتتلا حتى قتل أحدهما الآخر، ثم جعل القاتل يبحث عن التراب ويواري الميت.

وقيل: بل كان غراباً واحداً يبحث ويُلقي التراب على هايل.

﴿سَوْءَ أَخِيهِ﴾ أي: عورته، وخُصّت بالذكر؛ لأنها أحقّ بالسّر من سائر الجسد.

والضمير في ﴿أَخِيهِ﴾ عائذ على ابن آدم، ويظهر من هذه القصة أن هايل

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٠٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٧).

كان أول مَنْ دُفِنَ مِنْ بني آدم.

﴿قَالَ يَنْوَلِّتَى﴾ أصله: «يا ويلتي»، ثم أبدل من الياء ألف، وفتحت التاء.
وكذلك: ﴿يَتَأَسَفَى﴾، و﴿يَحْزَنَى﴾.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ أي: على ما وقع فيه من قتل أخيه.

واختلف في قابيل؛ هل كان كافراً أو عاصياً؟

والصحيح: أنه لم يكن كافراً؛ لأنه قصد التقرب إلى الله بالقربان، ولأنه لم يكن في تلك المدة كافراً.

و﴿أَصْبَحَ﴾ هنا وفي الموضع الأول: عبارة عن جميع الأوقات، لا مختصةً بالصباح.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ يتعلق بـ ﴿كُتِبْنَا﴾.

وقيل: بـ ﴿النَّادِمِينَ﴾؛ وهو ضعيف.

﴿كُتِبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: فرضنا عليهم، أو كتبناه في كتبهم.

﴿يَغْيِرُ نَفْسٍ﴾ معناه: من غير أن يقتل نفساً يجب عليه به القصاص.

﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: الفساد الذي يجب به القتل؛ كالحرابة.

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ تمثيل قاتل الواحد بقاتل الجميع يُتَصَوَّرُ

من ثلاث جهات:

إحداها: القصاص؛ فإن القصاص في قتل الواحد والجميع سواء.

والثاني: انتهاك الحرمة والإقدام على العصيان.

والثالث: الإثم والعذاب الأخرائي، قال مجاهد: أُوعد^(١) الله قاتل النفس بجهنم، والخلود فيها، والغضب، واللعنة، والعذاب العظيم، فلو قتل جميع الناس لم يزد على ذلك. وهذا الوجه هو الأظهر؛ لأن القصد بالآية تعظيم قتل النفس والتشديد فيه؛ ليزجر الناس عنه، وكذلك الثواب في إحيائها كثواب إحياء الجميع؛ لتعظيم الأمر والترغيب فيه.

وإحيائها: هو بإنقاذها من الموت؛ كإنقاذ الغريق والحريق وشبه ذلك.

وقيل: بترك قتلها.

وقيل: بالعفو إذا وجب القصاص.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ﴾ الضمير لبني إسرائيل، والمعنى: تقبيح أفعالهم، وفي ذلك إشارة إلى ما هموا به من قتل رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية؛ سببها عند ابن عباس: قوم من اليهود كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فنقضوا العهد وقطعوا السبيل.

وقال جماعة: نزلت في نفر من عُكْلٍ وعُرَيْنَةٍ، أسلموا، ثم إنهم قتلوا راعي النبي ﷺ وأخذوا إبله.

ثم حكمها بعد ذلك في كل مُحَارِبٍ.

والحرابة عند مالك: هي حمل السلاح على الناس في بلد أو في خارج بلد.

(١) في ج، د: «وعد».

وقال أبو حنيفة: لا يكون المحارب إلا خارج البلدان.

وقوله: ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ﴾ تغليظ ومبالغة.

قال بعضهم: تقديره: يحاربون رسول الله ﷺ. وذلك ضعيف؛ لأن الرسول ﷺ قد ذكر بعد ذلك.

وقيل: يحاربون عباد الله^(١). وهو أحسن.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بيان للحراية، وهي على درجات؛ فأدناها: إخافة الطريق، ثم أخذ الأموال، ثم قتل النفس.

﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ الصَّلب مضاف إلى القتل:

فقليل: يقتل ثم يصلب؛ ليراه أهل الفساد فيزدجروا. وهو قول أشهب.

وقيل: يصلب حيًا، ويقتل في الخشبة. وهو قول ابن القاسم.

﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلْفٍ﴾ معناه: أن تُقَطَّعَ يده اليمنى ورجله اليسرى، ثم إن عاد قُطِّعت يده اليسرى ورجله اليمنى.

وقُطِّعَ اليَدُ^(٢) عند مالك والجمهور: من الرُّسْغ، وقطع الرجل: من المَفْصِل، وذلك في الحراية وفي السرقة.

﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ مشهور مذهب مالك: أن يُنْفَى من بلد إلى بلد آخر، ويسجن فيه إلى أن تظهر توبته.

(١) في ب: «يحاربون الناس».

(٢) في د: «وتقطع اليد».

وروى عنه مطرف^(١): أنه يسجن في البلد بعينه ، وبذلك قال أبو حنيفة .

وقيل : ينفى إلى بلد آخر دون أن يسجن فيه .

ومذهب مالك : أن الإمام مخير في المحارب بين أن يقتله ويصلبه ، أو يقتله ولا يصلبه ، أو يقطع يده ورجله ، أو ينفيه ، إلا أنه قال : إن كان قتل فلا بد من قتله ، وإن لم يقتل فالأحسن أن يؤخذ فيه بأيسر العقاب .

وقال الشافعي وغيره : هذه العقوبات مرتبة ؛ فمن قتل وأخذ المال قُتل وُصِّل ، ومن قتل ولم يأخذ مالا^(٢) قُتل ولم يُصلب ، ومن أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله ، ومن أخاف السيل ولم يقتل ولم يأخذ مالا نُفي .

وحجة مالك : عطف هذه العقوبات بـ «أو» التي تقتضي التخيير .

﴿خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ هو العقوبة ، وعذاب الآخرة : النار .

وظاهر هذا : أن العقوبة في الدنيا لا تكون كفارة للمحارب ، بخلاف سائر الحدود .

ويحتمل أن يكون الخزي في الدنيا لمن عوقب (في الدنيا)^(٣) ، والعذاب في الآخرة لمن لم يعاقب .

(١) هو مطرف بن عبد الله بن مطرف الهلالي أبو مصعب ، مولى ميمونة وزوج النبي ﷺ ، وهو ابن أخت الإمام مالك ، ومن كبار أصحابه ، توفي سنة (٢٢٠) . انظر : الديباج المذهب (٢/ ٣٤٠) .

(٢) في ج : «المال» .

(٣) لم ترد في ج ، د ، هـ .

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ قيل : هي في المشركين . وهو ضعيف ؛ لأن المشرك لا يختلف حكم توبته قبل القدرة عليه وبعدها . وقيل : هي في المحاربين من المسلمين . وهو الصَّحيح ، وهم الذين جاءت فيهم العقوبات المذكورة ، فمن تاب منهم قبل أن يُقَدَّر عليه فقد سقط عنه حكم الحِرابَة ؛ لقوله : ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ . واختُلف هل يطالب بما عليه من حقوق الناس في الدماء والأموال أم لا ؟ .

فوجه المطالبة بها : أنها زائدة على حدِّ الحِرابَة الذي سقط ^(١) عنه بالتوبة . ووجه سقوطها : إطلاق ^(٢) قوله : ﴿عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ .

(١) في د : «التي سقطت» .

(٢) لم ترد في ج ، هـ .

[يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ مَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾ يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحَرْفٍ مِنَ الْكَلِمِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣١﴾ سَمَّعُوا لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّخْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٣٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ اللَّهُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٣﴾].

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي : ما يُتَوَسَّلُ بِهِ وَيُقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ ؛ من الأعمال الصالحة والدعاء وغير ذلك .

﴿لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ إن قيل : لم وَّحَّدَ الضمير وقد ذكر شيئين وهما : ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ و﴿وَمِثْلَهُ﴾ ؟

فالجواب :

أنه وَضَعَ المفرد موضعَ الاثنين .

أو أجرى الضمير مجرى اسم الإشارة ؛ كأنه قال : ليفتدوا بذلك .

أو تكون^(١) الواو بمعنى «مع»^(٢) .

﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي : دائمٌ ، وكذلك : ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة : ٢١] .

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ عموم الآية يقتضي قطع كل سارق ؛ إلا أن الفقهاء اشترطوا في القطع شروطًا خصّصوا بها العموم ، فمن ذلك :

أنَّ مَنْ اضطرَّه الجوع إلى السرقة لم يُقَطَّع عند مالك ؛ لتحليل الميتة له .
وكذلك مَنْ سرق مال ولده أو سيده .

أو من سرق من غير حرز .

أو سرق أقل من النصاب ؛ وهو عند مالك : ربع دينار من الذهب ، أو ثلاثة دراهم من الفضة ، أو ما يساوي أحدهما .

وأدلة التخصيص بهذه الأشياء في غير هذه الآية .

وقد قيل : إن الحرز مأخوذ من الآية ؛ لأن ما أهمل بغير حرز أو أوّتمن عليه فليس أخذه سرقةً ، وإنما هو اختلاس أو خيانة .

(١) في أ ، ب ، د : «يكون» .

(٢) انظر : الكشف (٣٤٩/٥) .

وإعراب ﴿وَالسَّارِقُ﴾ :

عند سيبويه : مبتدأ ، وخبره محذوف ؛ كأنه قال : فيما يتلى عليكم السارقُ والسارقة .

والخبر عند المبرد وغيره : ﴿فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ ، ودخلت الفاء ؛ لتضمن معنى الشرط .

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ الآية ؛ توبة السارق : هي أن يندم على ما مضى ، ويُقلع فيما يستقبل ، ويرد ما سرق إلى من يستحقه .

واختلف إذا تاب قبل أن يصل إلى الحاكم :

هل يسقط عنه القطع ؟ وهو مذهب الشافعي ؛ لظاهر الآية .

أو لا يسقط عنه ؟ وهو مذهب مالك ؛ لأن الحدود عنده لا تسقط بالتوبة ، إلا المحارب ؛ للنص عليه .

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ قَدَمُ العذاب على المغفرة ؛ لأنه قبل بذلك تقدّم^(١) السرقة على التوبة .

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ﴾ الآية ؛ خطاب للنبي ﷺ على وجه التسلية له .

﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ هم المنافقون .

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ يحتمل أن يكون :

عطفًا على ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ ، ثم يكون ﴿سَمَّعُونَ﴾ استئناف إخبار عن

(١) في د : «تقديم» .

الصَّنْفَيْنِ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ استثناءً منقطعاً مما قبله،
و﴿سَمْعُونَ﴾ راجعٌ إليهم خاصةً.

﴿سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أي: يسمعون^(١) كلام قوم آخرين من اليهود
الذين لا يأتون النبي ﷺ؛ لإفراط البُغْضَةِ والمجاهرة بالعداوة؛ فقوله:
﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ صفةٌ لـ ﴿قَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

والمراد بالقوم الآخرين: يهود خيبر، والسَّمَاعُونَ للكذب: بنو قُرَيْظَةَ.
﴿يُخْرِقُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: يبدّلونه من بعد أن وُضِعَ في
مَوَاضِعِهِ، وقُصِدَتْ به وجوهه القويمة، وذلك من صفة اليهود.

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ نزلت بسبب أن يهودياً زنى يهودية؛
فسأل رسول الله ﷺ اليهودَ عن حدِّ الزاني عندهم فقالوا: نجلدهما ونُحْمَمُ
وجوههما، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إِنْ فِي التَّوْرَةِ الرَّجْمُ»، فَأَنكَرُوا
ذلك، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَيَقْرَءُوهَا، وجعل أحدهم يده على آية الرجم،
فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك!، فَرَفَعَ، فإذا آية الرجم، فَأَمَرَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ بِالْيَهُودِيِّ وَالْيَهُودِيَةِ فَرُجِمَا^(٢).

فمعنى قولهم: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾: إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمْ مِنَ
الْجَلْدِ وَالتَّحْمِيمِ فَخُذُوهُ وَاعْمَلُوا بِهِ، ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾ وَأَفْتَاكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ
بغيره ﴿فَأَحْذَرُوا﴾.

(١) في د: «سماعون».

(٢) أخرجه البخاري (١٣٢٩)، ومسلم (١٦٩٩).

﴿فِتْنَتْهُ﴾ أي: ضلّالته^(١) في الدنيا، أو عذابه في الآخرة.
 ﴿فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: الذّلة، والمسكنة، والجزية^(٢).
 ﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ إن كان الأول في اليهود: فكُرّر هنا تأكيداً.
 وإن كان الأول في المنافقين واليهود: فهذا في اليهود خاصة.
 ﴿أَكَلُونَ لِلشُّحِّ﴾ أي: للحرام؛ من الرشوة والربا وشبه ذلك.
 ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ هذا تخيير للنبي ﷺ في أن يحكم بين اليهود أو يتركهم، وهو أيضاً يتناول الحكام.
 وقيل: إنه منسوخ بقوله: ﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.
 ﴿وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ﴾ الآية؛ استبعاداً لتحكيمهم النبي ﷺ وهم لا يؤمنون به،
 مع أنهم يخالفون حكم التوراة التي يدعون الإيمان بها.
 فمعنى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: يتولّون عن اتباع حكم الله
 في التوراة من بعد كون حكم الله فيها موجوداً عندهم، ومعلومًا في قضية^(٣)
 الرجم وغيرها.
 ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أنهم لا يؤمنون بالتوراة وبموسى ﷺ،
 وهذا إلزامٌ لهم؛ لأن من خالف كتاب الله وبدّله فدعواه الإيمان به باطلٌ.

(١) في ب، ج، هـ: «ضلّاله».

(٢) هذه الكلمة لم ترد في ج، هـ.

(٣) في ب، د: «قصة».

[إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾] وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾] وَفَقِينَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ يَعْنِي ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾] وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾] وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَقِيمُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٤٨﴾] وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَرْبُدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُورِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾] أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾] .

﴿النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ هم الأنبياء الذين بين موسى ومحمد ﷺ .

ومعنى ﴿أَسْلَمُوا﴾ هنا : أخلصوا لله ، وهي صفة مدح أُريد بها التعريض باليهود ؛ لأنهم بخلاف هذه الصفة .

وليس المراد هنا : الإسلام الذي هو ضد الكفر ؛ لأن الأنبياء لا يقال فيهم : أسلموا على هذا المعنى ؛ لأنهم لم يكفروا قط ، وإنما هو كقول

إبراهيم عليه السلام: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ متعلق بـ ﴿يَحْكُمُ﴾؛ أي: يحكم الأنبياء بالتوراة للذين هادوا، ويحملونهم عليها.

وقيل: يتعلق بقوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا﴾ أي: كُلُّفُوا حفظه، والباء هنا: سببية. قاله الزمخشري^(١).

ويحتمل أن تكون بدلاً من المجرور في قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا﴾.

﴿فَلَا تَخْشَوْا الْنَّكَاسَ﴾ وما بعده: خطاب لليهود.

ويحتمل أن تكون^(٢) وصية للمسلمين يراد بها التعريض باليهود؛ لأن ذلك من أفعالهم.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال ابن عباس: نزلت الثلاثة في اليهود؛ ﴿الْكَافِرُونَ﴾، و﴿الظَّالِمُونَ﴾، و﴿الْفَاسِقُونَ﴾. وقد روي في هذا أحاديث عن النبي ﷺ^(٣).

وقال جماعة: هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من اليهود والمسلمين وغيرهم، إلا أن الكفر في حق المسلمين كفر معصية لا يخرجهم عن الإيمان.

(١) الكشاف (٥/٣٦٧).

(٢) في ب، ج، هـ، د: «يكون».

(٣) أخرجه مسلم (١٧٠٠).

وقال الشعبي: ﴿الْكَافِرُونَ﴾: في المسلمين، و﴿الظَّالِمُونَ﴾: في اليهود، و﴿الْفَاسِقُونَ﴾ في النصارى.

﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ ﴿كُتِبْنَا﴾ بمعنى:

الكتابة في الألواح.

أو بمعنى الفرض والإلزام.

والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لبني إسرائيل، وفي قوله: ﴿فِيهَا﴾ للتوراة.

﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ أي: تُقْتَلُ النفس إذا قَتَلَتْ نَفْسًا، وهذا إخبارٌ عما في التوراة، وهو حكمٌ في شريعتنا بإجماع، إلا أن هذا اللفظ عام، وقد خَصَّصَ العلماء منه أشياء، فقال مالك: لا يقتل مؤمن بكافر؛ للحديث الوارد في ذلك^(١)، ولا يقتل حرٌّ بعبد؛ لقوله: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقد تقدَّم الكلام على ذلك في «البقرة»^(٢).

﴿وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ﴾ وما بعده: حُكِمَ الْقِصَاصُ فِي الْأَعْضَاءِ.

والقراءة بنصب ﴿وَالْعَيْنُ﴾ وما بعده: عَطِفَ عَلَى ﴿النَّفْسِ﴾.

وقرئ بالرفع، ولها ثلاثة أوجه:

أحدها: العطف على موضع ﴿النَّفْسِ﴾؛ لأن المعنى: قلنا لهم: النفس بالنفس.

والثاني: العطف على الضمير الذي في الخبر؛ وهو ﴿بِالنَّفْسِ﴾.

(١) أخرجه البخاري (١١١).

(٢) انظر صفحة ٤٠٠/١.

والثالث: أن يكون مستأنفاً مرفوعاً بالابتداء .

﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ بالنصب : عطفٌ على المنصوبات قبله .

وبالرفع : على الأوجه الثلاثة التي في رفع ﴿وَالْعَيْنَ﴾ .

وهذا اللفظ عامٌ، يراد به الخصوص في الجراح التي لا يُخاف على النفس منها .

﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : مَنْ تصدَّق من أصحاب الحق بالقصاص وعفا عنه فذلك كفارةٌ له ؛ يكفر الله ذنوبه ؛ لعفوه وإسقاطه حقه .

والثاني : مَنْ تصدق وعفا فهو كفارة للقاتل أو الجراح ؛ يعفو الله عنه في ذلك ؛ لأن صاحب الحق قد عفا عنه .

فالضمير في ﴿لَهُ﴾ :

على التأويل الأول : يعود على «مَنْ» التي هي كناية عن المقتول أو المجروح ، أو الولي .

وعلى الثاني : يعود على القاتل أو الجراح وإن لم يجر له ذكرٌ ؛ ولكن سياق الكلام يقتضيه .

والأول أرجح ؛ لعود الضمير على مذكور ؛ وهو «مَنْ» ، ومعناها واحد على التأويلين .

والصدقة بمعنى العفو على التأويلين :

إلا أن التأويل الأول : بيانٌ لأجر من عفا ، وترغيبٌ في العفو .

والتأويل الثاني: بيان لسقوط الإثم عن القاتل أو الجارح إذا عُفي عنه .

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قد تقدّم معنى ﴿مُصَدِّقًا﴾ في «البقرة»^(١).

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: التوراة؛ لأنها قبله، والقرآن مصدّق للتوراة والإنجيل، لأنهما قبله.

﴿وَمُصَدِّقًا﴾ عطف على موضع قوله: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾؛ لأنه في موضع الحال.

﴿وَمُهَيِّمًا﴾ ابن عباس: شاهدًا، وقيل: مؤتمنًا.

﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ تضمّن الكلام معنى: «لا تنصرف» أو «لا تنحرف» ولذلك تعدى بـ «عن».

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ابن عباس: سبيلًا وسنة.

والخطاب: للأنبياء، أو للأمم.

والمعنى: أن الله جعل لكلّ أمة شريعة يتبعونها.

وقد استدللّ بها من قال: إن شريعة من قبلنا ليس بشرع لنا؛ وذلك في الأحكام والفروع.

وأما الاعتقادات^(٢)؛ فالدين فيها واحدٌ لجميع العالم؛ وهو الإيمان بالله، وتوحيده، وتصديق رسله، والإيمان بالدار الآخرة.

(١) انظر صفحة ٣٠٨/١.

(٢) في أ، ب، د: «في الاعتقادات».

﴿فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ استدلالاً بها^(١) قومٌ على أن تقديم الواجبات أفضلُ من تأخيرها، وهذا متفق عليه في العبادات كلها، إلا الصلاة؛ ففيها خلاف: فمذهب الشافعي: أن تقديمها في أوّل وقتها أفضلُ.

وعكس أبو حنيفة.

وفي مذهب مالك خلافٌ وتفصيل.

واتفقوا أن تقديم المغرب أفضل.

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم﴾ عطفٌ:

على «الكتاب» في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾.

أو على «الحق» في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾.

وقال قوم: إن هذا وقوله قبله: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم﴾ ناسخٌ لقوله: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: ناسخٌ للتخير الذي في الآية.

وقيل: إنه ناسخٌ للحكم بالتوراة.

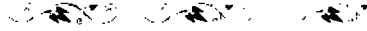
ونزلت الآية بسبب قوم من اليهود؛ طلبوا من رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم فأبى من ذلك، ونزلت الآية تقتضي أن يحكم بينهم.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ توبيخٌ لليهود.

وقرئ بالياء: إخباراً عنهم، وبالتاء: خطاباً لهم.

(١) في ج، هـ: «به».

﴿لَقَوْمٍ يُوقَتُونَ﴾ قال الزمخشري: اللام لليان؛ أي: هذا الخطاب لقوم يوقنون؛ فإنهم الذين يتبين لهم أنه لا أحسن من الله حكماً^(١).



(١) انظر: الكشف (٥/٣٨٥).

[﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْصِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ تَدْمِينٌ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّيْمَةً ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّهَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾] .

﴿ لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَآءَ ﴾ سببها : موالة عبد الله بن أبي بن سلول ليهود بني قينقاع ، وخلع عبادة بن الصامت الحلف الذي كان بينه وبينهم .
ولفظها عامٌ ، وحكمها باقٍ .

ولا يدخل فيه معاملتهم في البيع وشبهه .

﴿ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ تغليظ في الوعيد ، فمن كان يعتقد معتقدهم فهو منهم من كل وجه ، ومن خالفهم في اعتقادهم وأحبهم فهو منهم في المقت عند الله ، واستحقاق العقوبة .

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ هم المنافقون ؛ والمراد هنا : عبد الله بن أبي بن سلول ومن كان معه .

﴿ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ كان عبد الله بن أبي يوالي اليهود ويستكثر بهم ، ويقول : إني رجل أخشى الدوائر .

﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ الفتح : هو ظهور النبي ﷺ والمسلمين .

والأمر من عند الله :

هو هلاك الأعداء بأمر من عنده لا يكون فيه تسبب لمخلوق .

أو أمر من الله لرسوله ﷺ بقتل اليهود .

﴿فَيُضَيِّحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ تَدْمِينًا﴾ الضمير في ﴿فَيُضَيِّحُوا﴾ للمنافقين ، والذي أسروه : هو قصدهم الاستعانة باليهود على المسلمين ، وإضمارُ العداوة للمسلمين .

﴿يَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قرئ : ﴿يَقُولُ﴾ بغير واو ؛ استئناف إخبار .

وقرئ بالواو والرفع ؛ وهو عطف جملة على جملة .

وبالواو والنصب ؛ عطفًا على ﴿أَن يَأْتِيَ﴾ ، أو على ﴿فَيُضَيِّحُوا﴾ .

﴿أَمْثُلًا لِّلَّذِينَ أَقْسَمُوا﴾ الإشارة إلى المنافقين ؛ لأنهم كانوا يحلفون أنهم مع المؤمنين .

وانتصب ﴿جَهَدَ أَيْمَانَهُمْ﴾ على المصدر المؤكّد .

﴿حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ يحتمل أن يكون : من كلام المؤمنين ، أو من كلام الله .

ويحتمل أن يكون : دعاء ، أو خبرًا .

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُم عَن دِينِهِ﴾ خطابٌ على وجه التحذير والوعيد ، وفيه

إعلامٌ بارتداد بعض المسلمين، فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه، ثم وقع؛ فارتدَّ في حياة رسول الله ﷺ بنو حنيفة قومٌ مُسيلمَة الكذاب، وبنو مُدْلِج قوم الأسود العنسي الذي ادعى النبوة، وقُتِل في حياة رسول الله ﷺ، وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة ثم أسلم وجاهد، ثم كثر المرتدون، وفشا أمرهم بعد موت رسول الله ﷺ، حتى كفى الله أمرهم على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وكانت القبائل التي ارتدت بعد وفاة رسول الله ﷺ سبع قبائل: بنو فزارة، وعُظفان، وبنو سُليم، وبنو يربوع، وكندة، وبنو بكر بن وائل، وبعض بني تميم، ثم ارتدت غسان في زمان عمر بن الخطاب، وهم قوم جبلة بن الأيهم الذي تنصر من أجل اللطمة^(١).

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ روي أن رسول الله ﷺ قرأها، وقال: «هم قوم هذا»^(٢)، يعني: أبا موسى الأشعري، والإشارة بذلك - والله أعلم - إلى أهل اليمن؛ لأن الأشعريين من أهل اليمن.

وقيل: المراد أبو بكر الصديق وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة، ويقوي ذلك: ما ظهر من أبي بكر الصديق رضي الله عنه من الجِدِّ في قتالهم، والعزم عليه حين^(٣) خالفه في ذلك بعض الناس، فاشتدَّ عزمه حتى وافقوه وأجمعوا معه، فنصرهم الله على أهل الردة، ويقوي ذلك أيضًا: أنَّ الصفات التي وُصف

(١) انظر قصته في فتوح الشام، للواقدي (١/ ١٠٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ٥٢١).

(٣) في ب، ج، هـ: «حتى».

بها هؤلاء القوم هي أوصاف أبي بكر، ألا ترى قوله: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وكان أبو بكر ضعيفاً في نفسه، قوياً في الله، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ إشارة إلى من خالف أبا بكر ولأمه في قتال أهل الردة فلم يرجع عن عزمه.

﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ كقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وإنما تعدى ﴿أَذِلَّةٌ﴾ بـ «على»؛ لأنه تضمن معنى العطف والحنو.

فإن قيل: أين الراجع من الجزاء إلى الشرط؟

فالجواب: أنه محذوف؛ تقديره: من يتردد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم مكانهم، أو بقوم يقاتلونهم^(١).

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ ذكر الولي بلفظ المفرد؛ إفراداً لله تعالى بها، ثم عطف على اسمه تعالى الرسول ﷺ والمؤمنين على سبيل التبع، ولو قال: «إنما أولياؤكم» لم يكن في الكلام أصل وتبع.

﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ قيل: نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فإنه سأل سائل وهو راكع في الصلاة، فأعطاه خاتمه.

وقيل: هي عامة، وذكر الركوع بعد الصلاة؛ لأنه من أشرف أعمالها. فالواو:

على القول الأول: واو الحال.

(١) انظر: الكشاف (٥/٣٩٥).

وعلى الثاني: للعطف^(١).

﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾ هذا من إقامة الظاهر مقامَ المضمَر؛ معناه: فإنهم هم الغالبون.

(١) في د: «عطفٌ على (الذين)».

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مَّوْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُم إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابُ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَن ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءَوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَالَهُ أَغْلَرُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِتَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِحْسَانَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾].

﴿وَالْكَفَّارَ﴾ بالنصب: عطف على ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾.

وقرئ بالخفض: عطف على ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، ويعضده قراءة ابن مسعود: «ومن الكفار».

ويراد بهم: المشركون من العرب.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ الآية؛ روي أن رجلاً من النصارى كان بالمدينة إذا

سمع المؤذن يقول: «أشهد أن محمداً رسول الله» قال: حَرَّقَ الله الكاذبَ، فوقعت النار في بيته واحترق هو وأهلُه.

واستدلَّ بعضهم بهذه الآية على ثبوت الأذان من القرآن.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ جعل قِلَّةَ عقولهم علةً لاستهزائهم بالدين.

﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ أي: هل تَعِيبُونَ علينا وتُنْكِرُونَ مِنَّا إِلَّا إيماننا بالله، وبجميع كتبه ورسله!، وذلك أمرٌ لا ينكر ولا يعاب، ونظيرُ هذا في الاستثناء العجيب قول النابغة:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفهم بهنَّ فُلُولٌ من قِراعِ الكتائبِ^(١)

ونزلت الآية بسبب أبي ياسر بن أخطب، ونافع بن أبي نافع، وجماعة من اليهود؛ سألوا رسول الله ﷺ عن الرسل الذين يؤمن بهم، فتلا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] إلى آخر الآية، فلما ذكر عيسى قالوا: لا نؤمن بعيسى ولا بمن آمن به.

﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ قيل: إنه معطوف على ﴿أَنْ ءَامَنَّا﴾.

وقيل: على ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾.

وقيل: هو تعليلٌ معطوف على تعليلٍ محذوف؛ تقديره: هل تنقمون مِنَّا إِلَّا لِقلةِ إنصافكم ولأن أكثركم فاسقون!.

ويَحْتَمِلُ أن يكون ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ﴾ مبتدأً، وخبره محذوف تقديره: فسُقُكُمْ معلومٌ، أو ثابت.

(١) انظر: ديوان النابغة، بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (ص: ٤٤).

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ﴾ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَعْيُونَ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَرَسُولِهِ؛ ذَكَرَ عَيُوبَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي مَقَابِلَةِ ذَلِكَ؛ رَدًّا عَلَيْهِمْ. فَالْخُطَابُ فِي ﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾ لِلْيَهُودِ، وَالْإِشَارَةُ بِ﴿ذَلِكَ﴾ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هِيَ مِنَ الثَّوَابِ، وَوَضَعَ الثَّوَابَ مَوْضِعَ الْعِقَابِ؛ تَهْكُومًا بِهِمْ؛ نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ يَعْنِي: الْيَهُودَ، وَ«مَنْ»:

فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِخَبَرِ ابْتِدَاءٍ مُّضْمَرٍ؛ تَقْدِيرُهُ: هُوَ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ.

أَوْ فِي مَوْضِعِ خَفْضٍ عَلَى الْبَدَلِ مِنْ «شَرٍّ».

وَلَا بَدَّ فِي الْكَلَامِ مِنْ حَذْفِ مُضَافٍ؛ تَقْدِيرُهُ: «بِشَرٍّ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ»، أَوْ تَقْدِيرُهُ: «دِينِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ».

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ أَفْرَدَةً وَالْخَنَازِيرَ﴾ مُسِيخٌ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ قُرُودًا^(١) حِينَ اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ، وَمُسِيخٌ قَوْمٌ مِنْهُمْ خَنَازِيرٌ حِينَ كَذَّبُوا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ.

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الْقِرَاءَةُ بِفَتْحِ الْبَاءِ: فَعَلٌ مُّعْطُوفٌ عَلَى ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾.

وَقَرِئَ بِضَمِّ الْبَاءِ وَخَفْضِ ﴿الطَّاغُوتَ﴾؛ عَلَى أَنْ يَكُونَ «عَبْدٌ» اسْمًا عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ كـ «يَقْطِطُ»، أُضِيفَ إِلَى «الطَّاغُوتِ».

وَقَرِئَ: «وَعَابَدَ» «وَعُبادًا» =

(١) فِي د: «قُرْدَةٌ».

وهي في هذه الوجوه عطفٌ على ﴿الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ .

﴿شَرُّ مَكَانًا﴾ أي : منزلةً ، ونسب الشرِّ للمكان وهو في الحقيقة لأهله ؛ وذلك مبالغة في الذم .

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ نزلت في منافقين من اليهود .

﴿دَخَلُوا بِالْكَفْرِ﴾ تقديره : مُلتَبِسِينَ^(١) بالكفر ، والمعنى : دخلوا كفارًا وخرجوا كفارًا .

ودخلت «قد» على ﴿دَخَلُوا﴾ و﴿خَرَجُوا﴾ ؛ تقريبًا للماضي من الحال ؛ أي : ذلك حالهم في دخولهم وخروجهم على الدوام .

﴿فِي الْإِثْمِ﴾ الكذب ، وسائر المعاصي .

﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ الظلم .

﴿السَّحْتِ﴾ الحرام .

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمْ﴾ عرضٌ وتحضيضٌ وتقريعٌ .

﴿لَيْتَ﴾ اللام في الموضعين للقسم .

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ غَلُّ اليد : كناية عن البخل ، وبَسْطُهَا : كناية عن الجود ؛ ومنه : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ أي : لا تَبْخُلْ كُلَّ البخل ، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء : ٢٩] أي : لا تَجُدْ كُلَّ الجود .

وروي أنَّ اليهود أصابتهم سنةٌ جهِدَ فقالوا هذه المقالة الشنيعة ، وكان

(١) في ب ، د : «ملتبسين» .

الذي قالها فَنَحَاصُّ، ونُسِبت إلى جملة اليهود؛ لأنهم رضوا بقوله.

﴿عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ: دعاء أو خبرًا.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ: في الدنيا أو في الآخرة.

فَإِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا: فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ بِهِ: البُخْلُ، أَوْ غَلُّ أَيْدِيهِمْ فِي الْأَسْرِ.

وَإِنْ كَانَ فِي الْآخِرَةِ: فَهُوَ جَعْلُ الْأَغْلَالِ فِي جَهَنَّمَ.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ عبارة عن إنعامه وجوده.

وإنما تُنِيتَ اليَدَانِ هنا وأفردت في قول اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛ ليكون ردًا عليهم، ومبالغة في وصفه تعالى بالجود؛ كقول العرب: «فلان يعطي بكلتا يديه»؛ إذا كان عظيم السخاء^(١).

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ إيقاد النار: عبارة عن محاولة الحرب،

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾: (عبارة عن إنعامه وجوده) إلخ، أقول: إن أراد بذلك تفسير اليدين، فهذا تأويل يجري على طريقة أهل التأويل من نفاة الصفات؛ فإنهم يجمعون بين التعطيل والتحريف، وإن أراد ما يدل عليه بسط اليدين بكثرة الإنفاق فهو معنى صحيح، يؤيده قوله تعالى: ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، ولا يقتضي ذلك نفي حقيقة اليدين، وسياق كلام المؤلف يشعر بالنفي، وليرجع في معرفة حقيقة مذهبه إلى كلامه عند قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْكَ﴾؛ فإنه قال هناك «قوله: ﴿بِيَدَيْكَ﴾ من المتشابه الذي ينبغي الإيمان به، وتسليم علم حقيقته إلى الله، وقال المتأولون: هو عبارة عن القدرة» أه، وقال نظير ذلك عند قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيَاتِنَا أَنْعَمْنَا﴾. ويظهر من ذلك أن ابن جزى يذهب إلى التفويض، وحقيقته إجراء النصوص ألفاظا، من غير فهم لمعناها. والتفويض والتأويل مذهبان لنفاة الصفات، كلها أو بعضها.

وإطفأوها : عبارة عن خذلانهم وعدم نصرهم .

ويَحْتَمَلُ أن يراد بذلك :

أسلافهم .

أو يراد مَنْ كان معاصرًا للنبي ﷺ منهم ، وَمَنْ يَأْت بعدهم ، (فيكون على هذا إخبارًا بغيب ، وبشارة للمسلمين^(١) .

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا﴾ الآية ؛ يَحْتَمَلُ أن يريد :

أسلافهم .

أو المعاصرين للنبي ﷺ^(٢) ، فيكون على هذا ترغيبًا لهم في الإيمان والتقوى .

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ إقامتها : بالعمل .

وذكرُ الإنجيل دليلٌ على دخول النصارى في لفظ أهل الكتاب .

﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ قيل : ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ عبارة عن

المطر ، ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ عبارة عن النبات والزرع .

وقيل : ذلك استعارة في توسعة الرزق من كل وجه .

﴿أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ أي : معتدلة ، ويراد به :

مَنْ أسلم منهم ؛ كعبد الله بن سلام .

وقيل : مَنْ لم يُعادِ الأنبياء المتقدمين .

(١) في ب : «فهو على هذا إخبارٌ بغيب وبشارة للمسلمين» .

(٢) ما بين القوسين سقط من ج ، هـ .

[﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٧) قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّارِعُونَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٩) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (٧٠) وَحَسِبُوا أَنَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِيَّ إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثُلَاثٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥) قُلْ أَعْبُدُوا مَنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَفْعَلُوا وَلَا تَقْعَلُوا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٦) قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرِ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٧) ﴿].

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أمرٌ بتبليغ جميع ما أوحى إليه على الاستيفاء والكمال؛ لأنه كان قد بلغ، وإنما أمر هنا أن لا يتوقف عن شيء مخافة أحد.

﴿وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ رِسَالَاتِهِ﴾ هذا وعيدٌ على تقدير عدم التبليغ .

وفي ارتباط هذا الشرط مع جوابه قولان :

أحدهما : أن المعنى : إن تركت منه شيئاً فكأنك لم تبلغ شيئاً ، وصار ما بَلَغْتَ لا يُعتدُّ به ، فمعنى ﴿وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ﴾ : إن لم تستوفِ التبليغَ على الكمال .

والآخر : أن المعنى : إن لم تبلغ الرسالة وجب عليك عقابٌ مَنْ كَتَمَهَا ، ووضع السبب موضعَ المسبَّب .

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وعدٌ وضمانٌ للعصمة ، وكان رسول الله ﷺ يَخَافُ أَعْدَاءَهُ وَيَحْتَرِسُ مِنْهُمْ فِي غَزَوَاتِهِ وَغَيْرِهَا ، فلما نزلت هذه الآية قال : «يا أيها الناس ! ، انصرفوا فإن الله قد عصمني»^(١) وترك الاحتراس .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ الآية ؛ أي : لستم على دينٍ يُعتدُّ به يسمى شيئاً حتى تقيموا التوراة والإنجيل ، ومن إقامتها : الإيمانُ بمحمد ﷺ .

وقوله : ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ قال ابن عباس : يعني : القرآن .

ونزلت الآية بسبب رافع بن حارثة وسلام بن مشكم ورافع بن حريملة^(٢) وغيرهم من اليهود ؛ جاؤوا إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : إنا نتبع التوراة ولا نتبع غيرها ، ولا نؤمن بك ولا نتبعك .

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٤٦) .

(٢) في أ ، د كذا : «خرعة» وهو تصحيف ، والمثبت هو الصواب كما في سيرة ابن هشام (٥٦٨/١) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ تقدّم الكلام على نظيرتها في «البقرة»^(١).
 ﴿وَالصَّابُونَ﴾ قراءة السبعة بالواو؛ وهي مشكّلة، حتى قالت عائشة:
 «هي من لحن كتاب المصحف»^(٢).

وإعرابها:

عند أهل البصرة: مبتدأ وخبره محذوف؛ تقديره: والصابون كذلك، وهو
 مقدّم في نية التأخير.

وأجاز بعض الكوفيين فيه: أن يكون معطوفاً على موضع اسم «إِنَّ».
 وقيل: «إِنَّ» هنا بمعنى «نَعَمْ»، وما بعدها مرفوع بالابتداء. وهو ضعيف.
 ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أي: بلاء واختبار.
 وقرئ ﴿تَكُونَ»:

بالرفع؛ على أن تكون «أَنْ» مخففة من الثقيلة.
 وبالنصب؛ على أنها مصدرية.

﴿فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ عبارة عن تماديهم على المخالفة والعصيان.
 ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: إن هذه التوبة ردّ ملكهم ورجوعهم إلى بيت
 المقدس بعد خروجهم منه، ثم أخرجوا المرة الثانية فلم ينجبر حالهم أبداً.
 وقيل: التوبة: بعث عيسى.

(١) انظر صفحة ٣٢٢/١.

(٢) انظر تخريجه والتعليق عليه صفحة ١٣٢.

وقيل: بعث محمد ﷺ .

﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ بدلٌ من الضمير .

أو فاعلٌ؛ على لغة: «أكلوني البراغيث» .

والبديل أرجح وأفصح .

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ﴾ الآية؛ ردُّ على النصارى، وتكذيبٌ لهم .

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يحتمل أن يكون: من كلام المسيح، أو من كلام الله .

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ الآية؛ ردُّ على من جعله إلهاً .

﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ بناءٌ مبالغة؛ من الصَّدَق، أو من التَّصْدِيق .

ووصفُها بهذه الصفة دون النبوة يدفع قولَ من قال: إنها نبيَّةٌ .

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ استدلالٌ على أنهما ليسا بإلهين؛

لاحتياجهما إلى الغذاء الذي لا يحتاج إليه إلا مُحَدَّثٌ مُفْتَقِرٌ، ومن كان كذلك فليس بإله؛ لأن الإله منزَّهٌ عن صفات الحدوث^(١)، وعن كلِّ ما يلحق بالبشر .

وقيل: إن قوله: ﴿يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ عبارةٌ عن الاحتياج إلى الغائط .

ولا ضرورةً تدعو إلى إخراج اللفظ عن ظاهره؛ لأن الحجة قائمةٌ بالوجهين .

(١) انظر تعليق الشيخ عبد الرحمن البراك في المقدمة الثانية في اللغات عند المادة رقم (٤٩٥) .

﴿ثُمَّ أَنْظِرْ﴾ دخلت «ثم»؛ لتفاوت الأمرين، ولقصد التعجيب من كفرهم بعد بيان الآيات.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية؛ إقامة حجة على من عبد عيسى وأمه وهما لا يملكان ضرًا ولا نفعًا.

﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَقْلُوبُوا فِي دِينِكُمْ﴾ خطاب للنصارى، والغلو؛ الإفراط، وبسبب ذلك كفر النصارى.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ قيل: هم أئمتهم في دين النصرانية؛ كانوا على ضلال في عيسى، وأضلوا كثيرًا من الناس، ثم ضلُّوا بكفرهم بمحمد ﷺ. وقيل: هم اليهود.

والأول أرجح؛ لوجهين:

أحدهما: أن الضلال وصف لازم للنصارى، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾!

والآخر: أنه يبعد نهى النصارى عن اتباع اليهود، مع ما بينهم من الخلاف والشقاق.

[لِإِنِّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيَّ ذَلِكَ يَأَنَ مِنْهُمْ فَتَيْسِرَ لَهُمْ دُخَانًا وَأَنْهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَنْهَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾]

﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: في الزُّبور والإنجيل.

﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ أي: لا يَنْهَى بعضهم بعضاً عن منكر.

فإن قيل: لم وصف المنكر بقوله: ﴿فَعَلُوهُ﴾ والنهي لا يكون بعد الفعل؟

فالجواب: أن المعنى: لا يتناهون عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر^(١)
أرادوا فعله^(٢).

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾: إن أراد أسلافهم: فالرؤية بالقلب.

(١) في هامش أ زيادة: «خ: إن» أي: إن أرادوا فعله، والمثبت موافق لما في الكشاف.

(٢) انظر: الكشف (٥/٤٥٤).

وإن أراد المعاصرين للنبي ﷺ - وهو الأظهر - فهي رؤية عين .

﴿وَالنَّبِيُّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ يعني : محمداً ﷺ .

﴿مَا أَخَذُوا مِنْهُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي : ما اتخذوا الكفار أولياء .

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً﴾ الآية ؛ إخباراً عن شدة عداوة اليهود وعبدة الأوثان للمسلمين .

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ الآية ؛ إخباراً أن النصارى أقرب إلى مودة المسلمين .

وهذا الأمر باقٍ إلى آخر الدهر ، فكل يهوديٍّ شديد العداوة للإسلام والكيد لأهله .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكَ وَكُفَرُوا بِآيَاتِهِ﴾ تعليلٌ لقرب مودتهم ، والقسّيس : العالم ، والراهب : العابد .

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ الآية ؛ هي في النجاشي ، وفي الوفد الذين بعثهم إلى رسول الله ﷺ ، وهم سبعون رجلاً ، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن ، فبكوا كما بكى النجاشي حين قرأ عليه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه سورة «مريم» .

وقال السهيلي : نزلت في وفد نجران ، وكانوا نصارى عشرين رجلاً ، فلما سمعوا القرآن بكوا^(١) .

﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ «من» الأولى : سببية ، والثانية : لبيان الجنس .

(١) انظر : التعريف والإعلام ، للسهيلي ، ص : ٩٩ .

﴿ءَامَنَّا﴾ أي: بالقرآن من عند الله.

﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع المسلمين، وكذلك: ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ توقيف لأنفسهم، أو محاجة لغيرهم.

﴿وَنَطْمَعُ﴾ قال الزمخشري: الواو للحال^(١).

وقال ابن عطية: لعطف جملة على جملة، لا لعطف فعل على فعل^(٢).



(١) انظر: الكشف (٥/ ٤٦٠).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٢٣٦).

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُم بِمَا عَقَدْتُمُ الْاَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَنُورُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿٩١﴾ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رُسُولِنَا أَلْبَلَغُ الْعِلْمِ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾].

﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ سببها : أن قوماً من الصحابة غلب عليهم خوف الله إلى أن حرَّم بعضهم النساء، وبعضهم النوم بالليل، وبعضهم أكل اللحم، وهم بعضهم أن يَحْتَضُوا وَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ، فقال رسول الله ﷺ : «أَمَا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفِطِرُ، وَآتِي النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي : لا تُفْرِطُوا فِي التَّشْدِيدِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا شَرَعَ لَكُمْ.

﴿وَكُلُوا﴾ أي : تَمَتَّعُوا بِالْمَأْكَلِ الْحَلَالِ، وَبِالنِّسَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

وإنما خصَّ الأكل بالذكر؛ لأنه أعظم حاجات الإنسان.

﴿بِاللَّغْوِ﴾ تقدّم في «البقرة»^(١).

﴿بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَنَ﴾ أي: بما قصدتم عقده بالنية.

وقرئ ﴿عَقَدْتُمُ﴾ بالتخفيف، و﴿عَاقَدْتُمُ﴾ بالآلف.

﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ اشتراط المسكنة دليلٌ على أنه لا يُجزئ في الكفارة إطعام غنيٍّ، فإن أطعمه جهلاً لم يُجزئه على المشهور من المذهب. واشترط مالك أيضاً: أن يكونوا أحراراً مسلمين، وليس في الآية ما يدلُّ على ذلك.

﴿مَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْعُمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ اختلف في هذا التوسط؛ هل هو في القدر أو في الصنف؟ واللفظ يحتمل الوجهين. فأما القدر:

فقال مالك: يُطعم بالمدينة: مدٌّ بمدّ النبي ﷺ، وبغيرها: وسط من الشَّبع.

وقال الشافعي وابن القاسم: يُجزئ المدُّ في كل مكان.

وقال أبو حنيفة: إن غداهم وعشاهم أجزاء.

وأما الصنف: فاختلف هل يُطعم من عيش نفسه، أو من عيش أهل بلده؟ فمعنى الآية على التأويل الثاني: من أوسط ما تطعمون -أيها الناس-

(١) انظر صفحة ٤٤٢/١.

أهليكم على الجملة.

وعلى الأول: يختص الخطاب بالمكفر.

﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾ قال كثير من العلماء: يُجزئ ثوب واحد لمسكين؛ لأنه يقال فيه: كسوة.

وقال مالك: إنما يُجزئ^(١) ما تصح به الصلاة، فالرجل^(٢) ثوب واحد، والمرأة^(٣) قميص وخمار.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ اشترط مالك فيها: أن تكون مؤمنة؛ لتقيدها بذلك في كفارة القتل، فحمل هذا المطلق على ذلك المقيد.

وأجاز أبو حنيفة هنا: عتق الكافر؛ لإطلاق اللفظ هنا.

واشترط مالك أيضًا: أن تكون سليمة من العيوب. وليس في اللفظ ما يدل على ذلك.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي: مَنْ لم يملك ما يُعتق ولا ما يُطعم ولا ما يكسو؛ فعليه صيام ثلاثة أيام، فالخصال الثلاثة^(٤) على التّخيير، والصيام مرتب بعدها لمن عَدِمها.

وهو عند مالك: مَنْ لم يَفْضُل عن قوته وقوت عياله في يومه زيادةً.

(١) في د: «يجزئه».

(٢) في ج، د: «فللرجل».

(٣) في ج، د: «وللمرأة».

(٤) في أ: «الثلاث».

﴿ذَلِكَ كَفَرَةٌ أَيَمَنِيكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ معناه: إذ حلفتم وحيثتم، أو أردتم الحنث.

واختلف: هل يجوز تقديم الكفارة على الحنث أم لا؟.

﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أي: احفظوها فبرؤا فيها، ولا تحنثوا.

وقيل: احفظوها بأن تكفروها إن^(١) حنثتم.

وقيل: احفظوها؛ أي: لا تنسوها تهاوناً بها.

﴿الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ مذكوران في «البقرة»^(٢).

﴿وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَمُ﴾ مذكوران في أول هذه السورة^(٣).

﴿رَجَسٌ﴾ هو في اللغة: كلٌ مكروه مذموم، وقد يطلق بمعنى النجس، وبمعنى الحرام.

وقال ابن عباس هنا^(٤): ﴿رَجَسٌ﴾: سُخْطٌ.

﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ نصٌّ في التحريم، والضمير يعود على الرّجس؛ الذي هو خبرٌ عن جميع الأشياء المذكورة.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ تقبيحٌ للخمير والميسر، وذكر لبعض عيوبها، وتعليلٌ لتحريمها.

(١) في د: «إذا»، وكذا في هامش أ ورمز لها بـ«خ».

(٢) انظر صفحة ٤٣٦/١.

(٣) انظر صفحة ١٤٤.

(٤) في د: «معنى» بدل «هنا».

وقد وقعت في زمان الصحابة عداوة بين أقوام بسبب شربهم لها قبل تحريمها، ويقال: إن ذلك كان سبب نزول الآية.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ توقيفٌ يتضمَّن الرِّجْر والوعيد؛ ولذلك قال عمر لما نزلت: «انتھينا انتھينا»^(١).

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ فيها تأويلان: أحدهما: أنه لما نزل تحريم الخمر قال قومٌ من الصحابة: كيف بمن مات منّا وهو يشربها؟ فنزلت الآية مُعلِّمةً أنه لا جُنَاح على من شربها قبل التَّحريم؛ لأنه لم يعص الله بشربها حينئذٍ.

والآخر: أن المعنى: رفعُ الجُنَاح عن المؤمنين فيما طعموا من المطاعم إذا اجتنبوا الحرام منها، وعلى هذا أخذها عمر رضي الله عنه حين قال لِقْدَامَة: «إنك إذا اتَّقيتَ الله اجتنبت ما حرم عليك»، وكان قدامَة قد شربها واحتجَّ بهذه الآية على رفع الجناح عنه، فقال له عمر: «أخطأت التأويل»^(٢).

﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا﴾ الآية؛ قيل: كرَّر التقوى مبالغةً.

وقيل: الرُّتبة الأولى: اتقاء الشرك، والثانية: اتقاء المعاصي، والثالثة: اتقاء ما لا بأس به؛ حذرًا مما به البأسُ.

وقيل: الأولى: للزمان الماضي، والثانية: للحال، والثالثة: للمستقبل.

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٥٥٤٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤٧٢/٧).

﴿وَأَحْسِنُوا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ:

الإحسانَ إلى الناس.

أو الإحسانَ في طاعة الله؛ وهو^(١) المراقبة، وهذا أرجح؛ لأنه درجةٌ فوق التقوى، ولذلك ذكّره في المرة الثالثة وهي الغاية، ولذلك قالت الصوفية: المقامات ثلاثة: مقام الإسلام، ثم مقام الإيمان، ثم مقام الإحسان.



(١) في أ، ب، هـ: «وهي».

[يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْلُوكُمُ الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَلَّهُ مِنْكُمْ مُّتَعِدًّا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذِيَّا بَلِغِ الْكَعْبَةَ أَوْ كَفَرَةً طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّذَوْقٍ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُم صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلنَّاسِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَيْدَ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكِلُ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿٩٧﴾ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾].

﴿لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾ أي: يختبر طاعتكم من معصيتكم بما يظهر لكم من الصيد مع الإحرام، أو في الحرم.

وكان الصيد من معاش العرب ومستعملًا عندهم، فاخترُوا بتركه كما اختبر بنو إسرائيل بالحيوت في السبت.

وإنما قلله في قوله: ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾ إشعارًا بأنه ليس من الفتن العظام، وإنما هو من الأمور التي يمكن الصبر عنها.

﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال مجاهد: الذي تناله الأيدي: الفِراخ، والبيض، وما لا يستطيع أن يفرّ، والذي تناله الرماح: كبار الصيد.

والظاهر عدم هذا التخصيص.

﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ أي: يعلّمه علماً تقوم به الحجّة؛ وذلك إذا ظهر في الوجود.

﴿فَمَنْ أَعَدَّى﴾ أي: بقتل الصيد وهو مُحَرَّمٌ.

والعذاب الأليم هنا: في الآخرة.

﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ معنى ﴿حُرُمٌ﴾: داخلين في الإحرام، أو في الحرم.

و﴿الصَّيْدَ﴾ هنا: عامٌ، خَصَّصَ منه الحديث: الغراب، والجِذَاء، والفأرة، والعقرب، والكلب العقور^(١).

وأدخل مالك في الكلب العقور: كلّ ما يؤذي الناس من السّباع وغيرها.
وقاس الشافعي على هذه الخمسة: كلّ ما لا يؤكل لحمه.

ولفظ الصيد يدخل فيه: ما صيد، وما لم يُصَدَّ مما شأنه أن يصاد.
وورد النهي هنا عن القتل؛ قبل أن يصاد وبعد أن يصاد، وأما النهي عن الاصطياد فيؤخذ من قوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾.

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾ مفهوم الآية يقتضي: أن جزاء الصيد على المتعمّد لا على الناسي، وبذلك قال أهل الظاهر.

وقال جمهور الفقهاء: إن المتعمّد والناسي سواء في وجوب الجزاء، ثم اختلفوا في تأويل قوله: ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المتعمّد إنما ذكّر ليُناط به الوعيد الذي في قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ

(١) أخرجه البخاري (١٨٢٩)، ومسلم (١١٩٨).

فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴿١﴾ ؛ إِذْ لَا وَعِيدَ عَلَى النَّاسِي .

والثاني: أن الجزاء على الناسي بالقياس على المتعمد .

والثالث: أن الجزاء على المتعمد ثبت بالقرآن ، وأن الجزاء على الناسي ثبت بالسنة ^(١) .

﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ المعنى : فعليه جزاء .

وقرئ بإضافة ﴿جَزَاءٌ﴾ إلى ﴿مِثْلٍ﴾ ؛ وهو من إضافة المصدر إلى المفعول به .

وقيل : ﴿مِثْلٍ﴾ زائدة ؛ كقولك : «أنا أكرم مثلك» أي : أكرمك .

وقرئ ﴿فَجَزَاءٌ﴾ - بالتثوين - ﴿مِثْلٍ﴾ بالرفع ؛ على البدل ، أو الصفة .

و﴿النَّعَمِ﴾ : الإبل والبقر والغنم خاصة .

ومعنى الآية :

عند مالك والشافعي : أن من قتل صيداً وهو مُحَرَّمٌ أن عليه في الفدية ما يشبه ذلك الصيد في الخلقة والمنظر ، ففي النعامة بدنة ، وفي حمار الوحش بقرة ، وفي الغزالة شاة ، فالمثلية - على هذا - : هي في الصورة والمقدار ، فإن لم يكن له مِثْلٌ : أطعم أو صام .

(١) هذا من قول الزهري ، كما في مصنف عبد الرزاق (٤/ ١٧٠) : «عن الزهري قال : يُحَكَّمُ عليه في العمد ، وهو في الخطأ سنة» ، وليس المراد بالسنة هنا حديث معين وارد فيه ، وإنما المراد : أنه عليه عمل أهل العلم وطريقتهم ، ولذا قال عبد الرزاق معلقاً : «وهو قول الناس ، وبه نأخذ» .

ومذهب أبي حنيفة: أن المثلَ القيمة؛ يَقَوْمُ الصيدُ المقتول، ويخَيَّرُ القاتل بين أن يتصدَّقَ بالقيمة، أو يشتريَ بالقيمة من النعم ما يُهديه.

﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ هذه الآية تقتضي: أن التَّحْكِيمَ شرطٌ في إخراج الجزاء، ولا خلاف في ذلك، فإن أخرج أحدَ الجزاء قبل الحكم عليه فعليه إعادته بالحكم، إلَّا حمامَ مكة؛ فإنه لا يَحْتَاجُ إلى حَكَمين، قاله مالك.

ويجب عند مالك التَّحْكِيمُ فيما حَكَمْتَ فيه ^(١) الصحابة، وفيما لم يحكموا به؛ لعموم لفظ الآية.

وقال الشافعي: يُكْتَفَى في ذلك بما حكمت به الصحابة.

﴿هَذَا﴾ يقتضي ظاهره: أن ما يُخْرَجُ من النعم جزاءً عن الصيد يجب أن يكون مما يجوز أن يُهْدَى؛ وهو الجذع من الضأن والثَّيِّ مما سواه.

وقال الشافعي: يُخْرَجُ المثل في اللحم، ولا يُشْتَرَطُ السن.

﴿بَلِغِ الْكَعْبَةَ﴾ لم يُرد الكعبة بعينها، وإنما أراد الحرم.

ويقتضي: أن يصنع بالجزاء ما يصنع بالهدي؛ مِنْ سَوْقِهِ من الحلِّ إلى الحرم ^(٢).

وقال الشافعي وأبو حنيفة: إن اشتراه في الحرم أجزأه.

﴿أَوْ كَفَّرَهُ طَعَامَ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ عدَّد تعالى ما يجب في قتل المحرم للصيد، فذكر أوَّلَ الجزاء من النعم، ثم الطعام، ثم الصيام.

(١) في د: «به».

(٢) في أ، ب، هـ: «الحرام».

ومذهب مالك والجمهور: أنها على التَّخْيِير، وهو الذي يقتضيه العطف بـ «أو».

ومذهب ابن عباس: أنها على التَّرتِيب.

ولم يبين الله هنا مقدار الطعام، فرأى العلماء أن يُقَدَّر بالجزاء من النِّعم، إلا أنهم اختلفوا في كيفية التَّقدير:

فقال مالك: يُقَدَّر الصيد المقتول نفسه بالطعام، أو بالدراهم ثم تقوَّم الدراهم بالطعام، فيُنظر كم يساوي من طعام أو من دراهم وهو حيٌّ.

وقال بعض أصحاب مالك: تقدير الصيد بالطعام أن يقال: كم كان يُشبع الصيد من نفسٍ، ثم يُخرج قَدْر شَبَعِهِم طعامًا.

وقال الشافعي: لا يُقَدَّر الصيد نفسه، وإنما يُقَدَّر مثله، وهو الجزاء الواجب على القاتل له.

﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ تحتمل الإشارة بذلك أن تكون:

إلى الطعام، وهو أحسن؛ لأنه أقرب.

أو إلى الصيد.

واختلف في صفة تعديل الصيام بالطعام:

فقال مالك: يصوم مكان كل مدٍّ يومًا.

وقال أبو حنيفة: مكان كل مدين يومًا.

وقيل: مكان كل صاع يومًا.

ولا يجب الجزاء ولا الإطعام ولا الصيام إلا بقتل الصيد، لا بأخذه دون قتل؛ لقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ﴾.

وفي كل وجه يشترط حُكْم الحَكَمين، وإنما لم يذكره الله في الصيام والطعام؛ استغناءً بذكره في الجزاء.

﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهٖ﴾ الذَّوْقُ هنا: مستعار؛ لأن حقيقة بحاسة اللسان. والوبال: سوء العاقبة، وهو هنا: ما لزمه من التَّكْفِير.

﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي: عمَّا فعلتم في الجاهلية من قتل الصَّيد في الحرم.

﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أي: مَنْ عاد إلى قتل الصيد وهو مُحَرَّمٌ بعد النهي عن ذلك فينتقم الله منه بوجوب الكفارة عليه، أو بعذابه في الآخرة.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ أحلَّ الله بهذه الآية صيد البحر للحلال والمحرم.

والصيد هنا: المصيد، والبحر: هو الماء الكثير؛ سواءً كان مِلْحًا أو عَذْبًا، كالبرك ونحوها.

﴿وَطَعَامُهُ﴾ هو ما يطفو على الماء، وما قَذَف به البحر؛ لأنَّ ذلك طعامٌ وليس بصيد. قاله أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب.

وقال ابن عباس: طعامه: ما مُلِحَّ منه وبقي.

﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْسَّيَّارَةِ﴾ الخطاب بـ ﴿لَكُمْ﴾ للحاضرين في البحر، والسيارة: المسافرين.

أي: هو متاع^(١) تأتدُمون به.

(١) في دزيادة: «لكم».

﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ الصَّيْدُ هُنَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ بِهِ :
المصدر، أو الشيء المصيد، أو كلاهما .

فنشأ من هذا : أن ما صاده المحرم فلا يحلُّ له أكله بوجه .

ونشأ الاختلاف فيما صاد ^(١) غيره :

فإذا اصطاد حلالًا :

فقليل : يجوز للمُحَرَّمِ أكله .

وقيل : لا يجوز .

وقيل : لا يجوز إن اصطاده لمحرَّم .

والأقوال الثلاثة مروية عن مالك .

وإن اصطاد حرامًا : لم يَجْزُ لغيره أكله عند مالك ، خلافًا للشافعي .

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ أي : أمرًا يقوم للناس بالأمن
والمنافع .

وقيل : موضع قيام بالمناسك .

ولفظ «الناس» هنا : عامٌّ .

وقيل : أراد العربَ خاصةً ؛ لأنهم الذين كانوا يعظمون الكعبة .

﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يريد : جنس الأشهر الحرم الأربعة ؛ لأنهم كانوا يكفُّون
فيها عن القتال .

(١) في ب ، د : «صاده» .

﴿وَالْهَدَى﴾ يريد: أنه أمانٌ لمن يسوقه؛ لأنه يُعَلِّمُ أنه في عبادةٍ لم يأت لحرب.

﴿وَالْقَلْبَ﴾ كان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلّد شيئاً من السَّمُر، وإذا رجع تقلّد شيئاً من شجر الحرم؛ ليُعَلِّمُ أنه كان في عبادة، فلا يتعرّض له أحدٌ بِشَرٍّ^(١)؛ فالقلائد هنا: هو^(٢) ما يُقلّده^(٣) المحرم من الشجر. وقيل: أراد قلائد الهدى.

قال سعيد بن جبير: جعل الله هذه الأمور للناس في الجاهلية، وشدّدها في الإسلام^(٤).

﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا﴾ الإشارةُ إلى جعل الله هذه الأمور قياماً للناس. والمعنى: فعل^(٥) الله ذلك لتعلموا أنه يعلم تفاصيل الأمور. ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ لفظٌ عام في جميع الأمور؛ من المكاسب والأعمال والناس وغير ذلك.

(١) في ب، هـ: «بشيء» ولم ترد في ج.

(٢) في ج، هـ: «هي».

(٣) في د: «ما تقلّده».

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/٩).

(٥) في د: «جعل».

[يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٥٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٥٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَّلُوا كَان ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٥٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُو عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّن غَيْرِكُمْ إِن أَنْتُمْ ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَاصْبِرْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَاصْبِرْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِّن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَفُقِسْمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِ بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ ﴿١٥٦﴾ فَإِن عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقَّ مِن شَهِدَتِهِمَا وَمَا أَعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ذَلِكَ أَدَّىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٥٨﴾].

﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ قيل: سببها: سؤال عبد الله بن حذافة: مَنْ أَبِي؟، فقال له النبي ﷺ: «أبوك حذافة»، وقال آخر: أين أنا^(١)؟ قال: «في النار»^(٢).

وقيل: سببها: أن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب عليكم الحجَّ فحجوا»

(١) في هامش ب: «أين أبي»، والمثبت موافق لما في الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٩٤).

فقالوا: يا رسول الله أفي كلِّ عامٍ؟ فسكت، فأعادوا، قال: «لا، ولو قلتُ: نعم لوجبت»^(١).

فعلى الأول: ﴿تَسْأَلُكُمْ﴾ بالإخبار بما لا يعجبكم.

وعلى الثاني: ﴿تَسْأَلُكُمْ﴾ بتكليف ما يشقُّ عليكم، ويقوّي هذا قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي: سكت عن ذكرها ولم يطالبكم بها؛ كقوله ﷺ: «عفا الله عن الزكاة في الخيل»^(٢).

وقيل: إن معنى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ عفا عنكم فيما تقدّم من سؤالكم؛ فلا تعودوا إليه.

﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ بُدَّ لَكُمْ﴾ فيه معنى الوعيد على السؤال؛ كأنه قال: لا تسألوا، وإن سألتكم أبدي لكم ما يسؤوكم.

والمراد بـ ﴿حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ﴾: زمان الوحي.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ﴾ الضمير في ﴿سَأَلَهَا﴾ راجعٌ إلى المسألة التي دلَّ عليها ﴿لَا تَسْأَلُوا﴾، وهي مصدرٌ؛ ولذلك لم يتعدَّ بـ «عن» كما تعدَّى قوله: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا﴾.

وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء، فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا، فالكفر هنا: عبارة عن ترك ما أمروا به.

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٧٤)، والترمذي (٦٢٠)، والنسائي (٢٤٨٠) بلفظ: «قد عفوت عن صدقة الخيل...».

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ لما سأل قومٌ عن هذه الأمور التي كانت في الجاهلية هل تعظم كتعظيم الكعبة والهدي؟؛ أخبرهم الله أنه لم يجعل شيئاً من ذلك لعباده؛ أي: لم يشرعه لهم، وإنما الكفار جعلوا ذلك.

فأما البَحِيرَةُ: فهي فَعِيلَةٌ بمعنى مفعولة؛ مِنْ بَحَرَ إِذَا شَقَّ؛ وذلك أن الناقة إِذَا نُتِجَتْ^(١) عشرة أَبْطُنٍ شَقُّوا أُذْنَهَا، وتركوها ترعى ولا ينتفع بها.

وأما السَّائِبَةُ: فكان الرجل يقول: إِذَا قَدِمْتُ مِنْ سَفَرِي أَوْ بَرِئْتُ مِنْ مَرَضِي فَنَاقَتِي سَائِبَةٌ، وجعلها كالْبَحِيرَةِ في عدم الانتفاع بها.

وأما الوَصِيلَةُ: فكانوا إِذَا وَلَدَتِ الناقة ذَكَرًا وَأُنْثَى فِي بَطْنٍ وَاحِدٍ قَالُوا: وَصَلَتِ الناقةُ أَخَاهَا، فلم يذبحوه^(٢).

وأما الحَامِي: فكانوا إِذَا نُتِجَ مِنْ صَلْبِ الْجَمَلِ عشرةُ بَطُونٍ قَالُوا: قَدْ حَمَى ظَهْرَهُ، فلا يُرْكَب ولا يُحْمَل عليه شيءٌ.

﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: يكذبون عليه بتحريمهم ما لم يحرم.

(١) في أ، ب، د: «أنتجت» بالألف، والمثبت هو الفصح كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ الْإِمَامُ ثَعْلَبُ فِي كِتَابِهِ الْفَصِيح، يُقَالُ: «نُتِجَتِ النَّاقَةُ تُنْتَجُ، وَتَنْجُهَا أَهْلُهَا»، وانظر: شرح الفصح لابن درستويه (ص: ١٠٤).

(٢) في أ، د: «يذبحوها»، والمثبت هو الصواب، والضمير يعود على الذَّكَرِ، قال في الكشاف (٥/٥٠٨): «فَإِنْ وَلَدَتِ ذَكَرًا وَأُنْثَى قَالُوا: وَصَلَتْ أَخَاهَا، فلم يذبحوا الذَّكَرَ لِأَهْلَتِهِمْ»، وانظر أيضًا: المحرر الوجيز (٣/٢٧٧).

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الذي يفترون: هم الذين اخترعوا تحريم تلك الأشياء.

والذين لا يعقلون: هم أتباعهم المقلدون لهم.

﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: يكفينا دين آبائنا.

﴿أُولَئِكَ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ قال الزمخشري: الواو: واو الحال، دخلت عليها همزة الإنكار؛ كأنه قيل: أحسبهم هذا وآباؤهم لا يعقلون! (١).

وقال ابن عطية: «ألف التوقيف دخلت على واو العطف» (٢).

وقول الزمخشري أحسن في المعنى.

﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قيل: إنها منسوخة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقيل: إنها خطاب للمسلمين من ذرية الذين حرّموا البحيرة وأخواتها؛ كأنه يقول: لا يضرّكم ضلال أسلافكم إذا اهتديتم.

والقول الصحيح فيها: ما ورد عن أبي ثعلبة الخشني أنه قال: سألت عنها رسول الله ﷺ، فقال: «مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شُحًا مَطَاعًا، وَهُوَ مَتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ؛ فَعَلَيْكَ بِخَوِصَّةِ نَفْسِكَ وَذَرْ عَوَامَّهُمْ» (٤)، ومثل ذلك قول عبد الله بن

(١) انظر: الكشاف (٥/٥٠٩).

(٢) المحرر الوجيز (٣/٢٧٨).

(٣) في د: «رأيت».

(٤) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤).

مسعود ﷺ: «ليس هذا بزمان هذه الآية؛ قولوا الحق ما قبل منكم، فإذا رُدَّ عليكم^(١) فعليكم أنفسكم»^(٢).

﴿شَهَدَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ قال مكِّي: هذه الآية أشكلُ آيةٍ مِنَ القرآن؛ إعرابًا، ومعنى، وحكمًا^(٣).

ونحن نبين معناها على الجملة، ثم نبين أحكامها، وإعرابها على التفصيل.

وسببها: أن رجلين خرجا إلى الشام، وخرج معهما رجل آخر لتجارة^(٤)، فمرض في الطريق، فكتب كتابًا قيّد فيه كل ما معه، وجعله في متاعه، وأوصى الرجلين أن يؤدّيا رَحْلَهُ إلى ورثته، فمات، فَقَدِمَ الرجلان المدينة، ودفعا رَحْلَهُ إلى ورثته، فوجدوا فيه كتابه، وفقدوا منه أشياء قد كتبها، فسألوهما عنها فقالا: لا ندري، هذا الذي قبضناه، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فاستحلفهما رسول الله ﷺ، فبقي الأمر مدّة، ثم عُثِرَ على إناءٍ عظيم من فضة، فقيل لمن وُجِدَ عنده: من أين لك هذا؟، فقال: اشتريته من فلان وفلان، يعني الرجلين، فارتفع الأمر في ذلك إلى رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ رجلين من أولياء الميت أن يحلفا، فحلفا واستحقّا.

فمعنى الآية: إذا حضر الموت أحدًا في السفر فليُشْهِدَ عدلين بما معه، فإن

(١) سقطت هذه الكلمة من ب، ج، هـ.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٤٣/٩).

(٣) انظر: مشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب القيسي (١/٢٤٣).

(٤) في ج، د: «بتجارة».

وقعت ربيّة في شهادتهما حلفاً أنهما ما كذبا ولا بدّلاً ، فإن عُثِرَ بعد ذلك على أنهما كذبا أو خانا حلف رجلاّن من أولياء الميت ، و غَرِمَ الشّاهدان ما ظهر عليهما .

﴿شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ مرفوعٌ بالابتداء ، وخبره : ﴿أَنْتَانِ﴾ ، التقدير : شهادة بينكم شهادة اثنين .

أو : مقيمٌ شهادة بينكم اثنان .

﴿إِذَا حَضَرَ﴾ أي : إذا قارب^(١) الحضور ، والعامل في ﴿إِذَا﴾ : المصدرُ الذي هو ﴿شَهْدَةُ﴾ ، وهذا على أن يكون ﴿إِذَا﴾ بمنزلة «حين» ؛ لا تحتاج جواباً .

ويجوز أن تكون شرطيةً ، وجوابها محذوف ؛ يدلُّ عليه ما تقدّم قبلها ؛ فإنّ المعنى : إذا حضر أحدكم الموتُ فينبغي أن يُشهدَ .

﴿حِينَ أَلْوَصِيَّةِ﴾ ظرفٌ ؛ العامل فيه : ﴿حَضَرَ﴾ .

أو يكون بدّلاً من ﴿إِذَا﴾ .

﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ صفةٌ للشاهدين .

﴿مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قيل : معنى ﴿مِنْكُمْ﴾ : من عشيرتكم

وأقاربكم ، و ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ : من غير العشيرة والقراية .

وقال الجمهور : ﴿مِنْكُمْ﴾ أي : من المسلمين ، و ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي : من

الكفار إن لم يوجد مسلمٌ .

(١) في ج ، د : «قرب» .

ثم اختلف على هذا :

هل هي منسوخة بقوله : ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق : ٢] فلا تجوز شهادة الكفار أصلاً - وهو قول مالك والشافعي والجمهور - ؟ .

أو هي مُحْكَمَةٌ وأن شهادة الكفار جائزة على الوصية في السفر - وهو قول ابن عباس - ؟ .

﴿إِنَّ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : سافرتم ، وجواب ﴿إِنْ﴾ محذوف ؛ يدلُّ عليه ما تقدَّم قبلها ، والمعنى : إن ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت فشهادة بينكم شهادة اثنين .

﴿تَحْسِبُونَهُمَا﴾ قال أبو علي الفارسي : هو صفة لـ ﴿ءَاخِرَانِ﴾ ، واعتراض بين الصفة والموصوف بقوله : ﴿إِنَّ أَنْتُمْ﴾ إلى قوله : ﴿الْمَوْتِ﴾ ؛ ليفيد أن العدول إلى آخَرَيْنِ من غير الملة إنما يجوز لضرورة الضرب في الأرض ، وحلول الموت في السفر .

وقال الزمخشري : ﴿تَحْسِبُونَهُمَا﴾ استئناف كلام^(١) .

﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ قال الجمهور : هي صلاة العصر ؛ فاللام للعهد ؛ لأنها وقت اجتماع الناس ، وبعدها أمر النبي ﷺ باللعان ، وقال : «مَنْ حَلَفَ عَلَى سَلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ . .»^(٢) ، وكان التحليف بعدها معروفاً عندهم .

وقال ابن عباس : هي صلاة الكافرين في دينهما ؛ لأنهما لا يُعْظَمَانِ صلاةَ العصر .

(١) انظر : الكشف (٥/٥١٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٩) ، ومسلم (١٠٨) .

﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أي: يحلفان، ومذهب الجمهور: أن تحليف الشاهدين منسوخ.

وقد أحلفهما علي بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري.

﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ أي: إن شككتم في صدقهما، وأمانتهما.

وهذه الكلمة اعتراض بين القسم والمقسم عليه.

وجواب ﴿إِنْ﴾ محذوف؛ يدل عليه: ﴿فَيَقْسِمَانِ﴾.

﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ هذا هو المقسم عليه، والضمير في ﴿بِهِ﴾ للقسم،

وفي ﴿كَانَ﴾ للمقسم له؛ أي: لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضاً من الدنيا؛ أي: لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال؛ ولو كان من نفسه له قريباً لنا؛ وهذا لأن عادة الناس الميل إلى أقاربهم.

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ أي: الشهادة التي أمر الله بحفظها وأدائها،

وأضافها^(١) إلى الله؛ تعظيماً لها.

﴿فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي: إن اطلع بعد ذلك على أنهما فعلاً

ما أوجب إثماً.

فالإثم: الكذب، أو^(٢) الخيانة. واستحقاقه: الأهلية للوصف به.

﴿فَتَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي: اثنان من أولياء الميت يقومان مقام

الشاهدين في اليمين.

(١) في ج: «وأضافتها».

(٢) في د: «و».

﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي : من الذين استُحِقَّ عليهم الإثم ، أو المال .
ومعناه : من الذي جُنِيَ عليهم ؛ وهم أولياء الميت .
﴿الْأَوَّلِينَ﴾ تشنية «أُولَى» ؛ بمعنى : أحق ؛ أي : الأحقَّان بالشهادة ؛
لمعرفتهما ، أو الأحقَّان بالمال ؛ لقربتهما .
وهو مرفوعٌ ؛ على أنه :
خبر ابتداء ؛ تقديره : «هما الأوليان» .
أو مبتدأ مؤخرٌ ؛ تقديره : «الأوليان آخران يقومان» .
أو بدلٌ من الضمير في ﴿يَقُومَانِ﴾ .
ومنع الفارسيُّ أن يُسند ﴿اسْتُحِقَّ﴾ إلى ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ ، وأجازه ابن عطية ^(١) .
وأما على قراءة ﴿اسْتَحَقَّ﴾ - بفتح التاء والحاء - على البناء للفاعل :
فـ ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ فاعلٌ بـ ﴿اسْتَحَقَّ﴾ .
ومعنى ﴿اسْتَحَقَّ﴾ على هذا : أخذ المال وجعل يده عليه .
و﴿الْأَوَّلِينَ﴾ - على هذا - هما : الشَّاهدان اللذان ظهرت خيانتُهما ؛ أي :
الأوليان بالتَّحليف والتَّعنيف والفضيحة .
وقرئ ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ جمع أوَّلٍ ، وهو :
مخفوضٌ ؛ على الصفة لـ ﴿الَّذِينَ اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمْ﴾ .
أو منصوبٌ بإضمار فعلٍ .

(١) انظر : المحرر الوجيز (٣/ ٢٨٩) .

ووصفهم بالأولية؛ لتقدمهم على الأجانب في استحقاق المال، وفي صدق الشهادة.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا﴾ أي: يحلف هذان الآخران أن شهادتهما أحق - أي: أصح - من شهادة الشاهدين اللذين ظهرت خيانتهم.

﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن اعتدنا فإننا من الظالمين؛ وذلك على وجه التبري، ومثله قول الأولين: ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾.

﴿ذَلِكَ أَذْنُ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا﴾ الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الحكم الذي وقع في هذه القضية^(١).

ومعنى ﴿أَذْنُ﴾: أقرب، و﴿عَلَى وَجْهَيْهَا﴾ أي: كما وقعت من غير تبديل ولا تغيير.

﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: يخافوا أن يحلف غيرهم بعدهم فيقتضحوا.

(١) في ب: «القصة»، وفي د: «الوصية».

[﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ
 الْغُيُوبَ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ
 بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
 وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا
 بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي
 إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتَمِنٌ
 ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ
 ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ
 السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا
 وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا
 أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ
 الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ
 أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾].

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ هو يوم القيامة، وانتصابُ الظرف بفعل مضمر.
 ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي: ماذا أجابكم به الأمم؛ من إيمان وكفر وطاعة
 ومعصية؟

والمقصود بهذا السؤال: توبيخُ مَنْ كفر من الأمم، وإقامةُ الحجة عليهم.
 وانتصب ﴿مَاذَا﴾ بـ ﴿أُجِبْتُمْ﴾ انتصابٌ مصدره.
 ولو أريد الجواب لقليل: «بماذا أُجبتُمْ؟».

﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ إنما قالوا ذلك تأدُّبًا مع الله، فوكلوا العلم إليه.

قال ابن عباس : المعنى : لا علم لنا إلا ما علّمنا .

وقيل : معناه : علّمنا ساقط في جنب علمك ، ويقوّي ذلك قولهم : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ ﴾ ؛ لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ الْخَفِيَّاتِ لَمْ تَخَفْ ^(١) عليه الظواهر .

وقيل : ذَهَلُوا عن الجواب ؛ لهول ذلك اليوم . وهذا بعيد ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ آمِنُونَ .

وقيل : أرادوا بذلك توبيخ الكفار .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ ﴾ يَحْتَمَلُ :

أَنْ يَكُونَ ﴿ إِذْ ﴾ بَدَلًا مِنْ ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ﴾ ، وَيَكُونُ هَذَا الْقَوْلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .
أَوْ يَكُونُ الْعَامِلُ فِي ﴿ إِذْ ﴾ مُضْمَرًا ، وَيَحْتَمَلُ عَلَى هَذَا أَنْ يَكُونَ الْقَوْلُ :
فِي الدُّنْيَا .

أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِذَا جَعَلْنَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ فَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ ﴾ بِمَعْنَى : يَقُولُ .
وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ أَلْفَاظِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي « آل عمران » ^(٢) .

﴿ فَتَنْفَخُ فِيهَا ﴾ الضمير المؤنث عائِدٌ عَلَى الْكَافِ ؛ لِأَنَّهَا صِفَةُ الْهَيْئَةِ ،
وَكَذَلِكَ الضمير فِي ﴿ فَتَكُونُ ﴾ .

وكذلك الضمير المذكر فِي قَوْلِهِ فِي « آل عمران » : ﴿ فَانْفُخْ فِيهِ ﴾

[آل عمران : ٤٩] عائِدٌ عَلَى الْكَافِ أَيْضًا ؛ لِأَنَّهَا بِمَعْنَى : « مِثْلَ » .

وإن شئت أن تقول : هو فِي الْمَوْضِعَيْنِ عائِدٌ عَلَى الْمَوْصُوفِ الْمَحْذُوفِ

(١) فِي ب ، هـ : « يَخَفْ » .

(٢) انظر صفحة ٥٤٢ / ١ .

الذي وُصِفَ بقوله: ﴿كَهَيْئَةٍ﴾ فَتَقَدَّرُهُ^(١) في التَّائِيثِ: «صورة»، وفي التَّذْكِيرِ: «شخصًا» أو «خَلْقًا» وشبه ذلك.

وقيل: المؤنَّثُ يعود: على الهيئة، والمذكَّرُ^(٢): على الطَّير، أو الطَّين. وهو بعيدٌ في المعنى.

﴿يَاذِينِ﴾ كَرَّرَهُ مع كل معجزة؛ ردًّا على من نسب الربوبية لعيسى. وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾ يعني: اليهود؛ حين همُّوا بقتله فرفعه الله إليه.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾ معطوفٌ على ما قبله؛ فهو من جملة نعم الله على عيسى. والوحيُّ هنا يحتمل أن يكون: وحي إلهام، أو وحي كلام. وَأَشْهَدُ﴾ يحتمل أن يكون خطابًا: لله تعالى، أو لعيسى ﷺ.

﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُونَ يَإِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نداؤهم له باسمه دليلٌ على أنهم لم يكونوا يعظمونه كتعظيم المسلمين لمحمد ﷺ؛ فإنهم كانوا لا ينادونه باسمه، وإنما يقولون: يا رسول الله، يا نبي الله.

وقولهم: ﴿أَبْنُ مَرْيَمَ﴾ دليلٌ على أنهم كانوا يعتقدون فيه الاعتقادَ الصحيح من نسبته إلى أمِّ دون والد، بخلاف ما اعتقده النصارى.

﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ظاهرُ هذا اللفظ: أنهم شكُّوا في قدرة الله تعالى على إنزال المائدة. وعلى هذا أخذه الزمخشري، وقال: ما وصفهم الله

(١) في أ، ب: «فتقديره».

(٢) في د زيادة: «يعود».

بالإيمان، وإنما حكى دعواهم في قولهم: «آمنَّا»^(١).

وقال ابن عطية وغيره: ليس لأنهم شكوا في قدرة الله؛ لكنه بمعنى: هل يفعل ربك هذا؟، وهل يقع منه إجابة إليه؟^(٢).

وهذا أرجح؛ لأن الله أثنى على الحواريين في مواضع من كتابه، مع أن في اللفظ بشاعة تنكر.

وقرئ: ﴿تَسْتَطِيعُ﴾ - بناء الخطاب - ﴿رَبِّكَ﴾ بالنصب؛ أي: هل تستطيع سؤال ربك.

وهذه القراءة لا تقتضي أنهم شكوا، وبها قرأت عائشة رضي الله عنها، وقالت: «كان الحواريون أعرف برّبهم من أن يقولوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾»^(٣).

﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ موضع ﴿أَنْ﴾:

مفعول بقوله: ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ على القراءة بالياء.

ومفعول بالمصدر - وهو السؤال المقدّر - على القراءة بالتاء.

والمائدة: التي عليها طعام، فإن لم يكن عليها طعام فهي خوان.

﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قوله لهم: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يحتمل أن

يكون:

زجرًا عن طلب المائدة، واقتراح الآيات.

(١) انظر: الكشاف (٥/٥٣٣).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٣/٢٩٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/١٢٤٣).

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ زَجْرًا عَنِ الشَّكِّ الَّذِي يَقْتَضِيهِ قَوْلُهُمْ : ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ عَلَى مَذْهَبِ الزَّمْخَشَرِيِّ .

أَوْ عَنِ الْبِشَاعَةِ الَّتِي فِي اللَّفْظِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَكٌّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ :

هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ عَلَى مَذْهَبِ الزَّمْخَشَرِيِّ .

وَأَمَّا عَلَى مَذْهَبِ ابْنِ عَطِيَّةٍ وَغَيْرِهِ : فَهُوَ تَقْرِيرٌ لَهُمْ ؛ كَمَا تَقُولُ : «أَفْعَلْ كَذَا إِنْ كُنْتَ رَجُلًا» ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ رَجُلٌ .

وَقِيلَ : إِنَّ هَذِهِ الْمَقَالَةَ صَدَرَتْ مِنْهُمْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ، قَبْلَ أَنْ يَرَوْا مُعْجَزَاتِ عِيسَى .

﴿قَالُوا رَبُّدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ أَيُ : أَكَلًا نَتَشَرَّفُ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَلَيْسَ مَرَادُهُمْ شَهْوَةً الْبَطْنِ .

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ أَيُ : نَعَايِنُ الْآيَةَ ، فَيَصِيرُ إِيْمَانُنَا بِالضَّرُورَةِ وَالْمَشَاهِدَةِ فَلَا تَعْرِضُ لَنَا الشَّكُوكُ الَّتِي تَعْرِضُ فِي الْإِسْتِدْلَالِ .

﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقَتْنَا﴾ ظَاهِرُهُ يَقْوِي قَوْلَ مَنْ قَالَ : إِنَّهُمْ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ قَبْلَ تَمَكُّنِ إِيْمَانِهِمْ .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : نَعْلَمَ عِلْمًا ضَرُورِيًّا لَا يَحْتَمِلُ الشَّكَّ .

﴿وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أَيُ : نَشْهَدُ بِهَا عِنْدَ مَنْ لَمْ يَحْضُرْهَا مِنَ النَّاسِ .

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ أَجَابَهُمْ عِيسَى إِلَى سُؤَالِ الْمَائِدَةِ مِنَ اللَّهِ .

وروي أنه لبس جُبَّةَ شَعْرٍ ورداءَ شَعْرٍ، وقام يصلي ويدعو ويبكي .
﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ قيل : نَتَّخِذُ يَوْمَ نَزُولِهَا عِيدًا يدور كلَّ عامٍ ،
لأول الأمة ، ثم لمن بعدهم .

وقال ابن عباس : المعنى : تكون مجتمعًا لجميعنا أولنا وآخرنا في يوم
نزولها خاصة ، لا عيدًا ^(١) يدور .

﴿وَأَيَّةٌ مِنْكَ﴾ أي : علامةٌ على صدقي .
﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ أجابهم الله إلى ما طلبوا ، ونزلت المائدة عليها
خبز وسمك .

وقيل : زيتون وتمر ورمان .

وقال ابن عباس : كان طعام المائدة ينزل عليهم حيثما نزلوا .
وفي قصة المائدة قصص كثيرٌ غيرٌ صحيح .
﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنَّ أَعَذِّبُهُ﴾ عادةُ الله ﷻ عقابُ مَنْ كفر بعد اقتراحِ
آيةٍ فَأُعْطِيَتْهُ ، ولما كفر بعض هؤلاء مَسَخَهُمُ اللَّهُ خنازير .

قال عبد الله بن عمر : أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة مَنْ كفر من أصحاب
المائدة ، وآل فرعون ، والمنافقون ^(٢) .

(١) في أ ، ب ، ج ، هـ : «لا عيد» .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/١٣٢) .

[وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٣٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٣٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٠﴾].

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس والجمهور: هذا القول من الله يكون يوم القيامة على رؤوس الخلائق؛ ليرى الكفار تبرئة عيسى مما نسبوه إليه، ويعلمون أنهم كانوا على باطل.

وقال السُّدِّيُّ: لما رفع الله عيسى إليه قالت النصارى ما قالت، وزعموا أن عيسى أمرهم بذلك، فسأله الله حينئذ عن ذلك، فقال: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ الآية، فعلى هذا:

يكون ﴿إِذْ قَالَ﴾ ماضيًا في معناه؛ كما هو في لفظه.

وعلى قول ابن عباس: يكون بمعنى المستقبل.

﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ نفى يعضده دليل العقل؛ لأن المحدث لا يكون إلهاً.

﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ اعتذارٌ وبراءةٌ من ذلك القول، ووكل العلم إلى الله؛ لتظهر براءته؛ لأن الله عليم أنه لم يقل ذلك.

﴿تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي: تعلم معلومي ولا أعلم معلومك، ولكنه سلك باللفظ مسلك المشاكلة؛ فقال: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾؛ مقابلةً لقوله: ﴿فِي نَفْسِي﴾^(١).

وبقية كلامه تعظيمٌ لله، وإخبارٌ بما قال للناس في الدنيا.

﴿أَنْ أَعْبُدُوا﴾ ﴿أَنْ﴾ حرف عبارة وتفسير.

أو مصدرية؛ بدلٌ من الضمير في ﴿بِهِ﴾.

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيها سؤالان: الأول: كيف قال: ﴿وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ﴾ وهم كفار؛ والكفار لا يُغْفَرُ لهم؟

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله في تفسير الآية: «أي تعلم معلومي ولا أعلم معلومك» إلخ، أقول: هذا تفسير منه للموصول في الموضعين: ﴿مَا فِي نَفْسِي﴾ و﴿مَا فِي نَفْسِكَ﴾، فيكون المعنى تعلم الذي أعلمه، ولا أعلم الذي تعلمه، وهذا يشمل ما يُبْدَى وما يُخْفَى، وهذا أعم مما يدل عليه لفظ الآية، والله يعلم ما بيديه العبد وما يخفيه، ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي مُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوْهُ يَلْعَنَهُ اللَّهُ﴾، والعبد يعلم من معلوم الله ما أعلمه به، ولا يعلم العبد ما يخفيه سبحانه، فلا يعلم ما استأثر الله بعلمه، ولا كل ما أعلم به بعض عباده، فقول عيسى عليه السلام: ﴿تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ أي ما أخفيه، ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي ما تخفيه. ولم يذكر المؤلف بَيِّنَةً معنى النفس في الآية، وألحق معاني النفس في مثل هذا السياق أن يراد بها الذات، كما يقال: جاء محمد نفسه، وهذا الشيء نفسُ ذاك، أي هو هو، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِيدٍ عَنْ نَفْسِهَا﴾. والله أعلم.

والجواب: أن المعنى: تسليم الأمر لله، وأنه إن عذّب أو غفر فلا اعتراض عليه؛ لأن الخلق عباده، والمالك يفعل في ملكه ما يشاء، ولا يلزم من هذا وقوع المغفرة للكفار، إنما يقتضي جوازها في حكمة الله تعالى وعزته، وفرق بين الجواز والوقوع.

وأما على قول من قال: إن هذا الخطاب لعيسى عليه السلام حين رفعه الله إلى السماء، فلا إشكال؛ لأن المعنى: إن تغفر لهم بالتوبة، وكانوا حينئذ أحياء، وكل حيّ معرض للتوبة.

السؤال الثاني: ما مناسبة قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لقوله: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ والأليق مع ذكر المغفرة أن لو قيل: «فإنك أنت الغفور الرحيم»؟.

والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: يظهر لي: أنه لما قصد التسليم لله والتعظيم له، كان قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أليق؛ فإن الحكمة تقتضي التسليم له، والعزة تقتضي التعظيم له؛ فإن العزيز: هو الذي يفعل ما يريد، ولا يغلبه غيره، ولا يمتنع عليه شيء أراد، فافتضى الكلام تفويض الأمر إلى الله في المغفرة لهم أو عدم المغفرة؛ لأنه قادرٌ على كلا الأمرين؛ لعزته، وأيهما فعل فهو جميل؛ لحكمته.

الجواب الثاني: -قاله شيخنا الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير-: إنما لم يقل «الغفور الرحيم»؛ لئلا يكون في ذلك تعريضٌ بطلب المغفرة لهم، فاقصر

على التسليم والتفويض دون الطلب؛ إذ لا تطلب المغفرة لكافر^(١).
وهذا قريب من قولنا.

الثالث: حكى شيخنا الخطيب أبو عبد الله ابن رُشيد^(٢) عن شيخه إمام
البلغاء في وقته حازم ابن حازم^(٣) أنه كان يقف على قوله: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾،
ويجعل ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ استثناءً، وجواب ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ
عِبَادُكَ﴾؛ كأنه قال: إن تعذبهم وإن تغفر لهم فإنهم عبادك على كل حال.
﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ عمومٌ في جميع الصادقين، وخصوصٌ في
عيسى بن مريم؛ فإن في ذلك إشارةً إلى صدقه في الكلام الذي حكاه الله
عنه.

وقرأ غيرُ نافع: ﴿هَذَا يَوْمٌ﴾ بالرفع؛ على الابتداء والخبر.

وقرأ نافعٌ بالنصب؛ وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون ﴿يَوْمٌ﴾ ظرفاً لـ ﴿قَالَ﴾؛ فعلى هذا: لا تكون الجملة
معمولَ القول، وإنما معموله ﴿هَذَا﴾ خاصةً، والمعنى: قال الله هذا
القصاص أو^(٤) الخبر في يوم. وهذا بعيدٌ مُزِيلٌ لِرَوْنَقِ الكلام.

(١) انظر: ملاك التأويل (١/٤٠٨).

(٢) هو محمد بن عمر، ابنُ رُشيد الفهري السبتي، أبو عبد الله محب الدين، ولد سنة
(٦٥٧هـ)، وتوفي سنة (٧٢١هـ). انظر: بغية الوعاة، للسيوطي (١/١٩٩).

(٣) هو حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الأنصاري القرطبي النحوي،
أبو الحسن، شيخ البلاغة والأدب في عصره، له كتاب «سراج البلغاء» في البلاغة،
ولد سنة (٦٠٨هـ)، وتوفي سنة (٦٨٤هـ). انظر: بغية الوعاة، للسيوطي (١/٤٩١).

(٤) في ب، د: «و».

والآخر: أن يكون ﴿هَذَا﴾ مبتدأ، و﴿يَوْمَ﴾ في موضع خبره، والعامل فيه محذوف؛ تقديره: هذا واقع يوم ينفع الصادقين صدقهم.
ولا يجوز أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ مبنياً على قراءة نافع؛ لأنه أضيف إلى مُعَرَّبٍ. قاله الفارسي والزمخشري^(١).

❦ ❦ ❦

(١) انظر: الكشاف (٥/٥٤٩).

﴿سورة الأنعام﴾

قال كعب^(١): أول الأنعام هو أول التوراة^(٢).

[﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرَاطٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِي كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُوتَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْأَلْنَاهُ رِيسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾].

﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ «جعل» هنا بمعنى: خلق، والظلمات: الليل، والنور: النهار، والضوء الذي في الشمس والقمر وغيرهما.

(١) في د زيادة: «الأخبار».

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤٧/٩).

وإنما أفرد النور؛ لأنه أراد الجنس .

وفي الآية ردُّ على المجوس في عبادتهم النارَ وغيرها من الأنوار، وقولهم: إن الخيرَ من النور والشرَّ من الظلمة؛ فإن المخلوق لا يكون إلهاً ولا فاعلاً لشيءٍ من الحوادث .

﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يُسَوُّون ويُمَثِّلون؛ من قولك: عدلتُ فلاناً بفلان: إذا جعلته نظيره وقرينه .

ودخلت ﴿ثُمَّ﴾ لتدلَّ على استبعاد أن يعدلوا برَّبِّهم بعد وضوح آياته في خلق السموات والأرض، والظلمات والنور .

وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾؛ استبعاداً لأن يمتروا فيه بعدما ثبت أنه أحياهم وأماتهم .

وفي ضمن ذلك تعجيبٌ من فعلهم، وتوبيخٌ لهم .

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هنا: عامٌّ في كل مشرك .

وقد يختصُّ :

بالمجوس؛ بدليل الظلمات والنور .

أو بعبدة الأصنام؛ لأنهم المجاورون للنبي ﷺ، وعليهم يقع الردُّ في أكثر القرآن .

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ أي: خلق أباكم آدمَ من طين .

﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ الأجل الأول: الموت، والثاني: يومُ القيامة، وجعله عنده؛ لأنه استأثر بعلمه .

وقيل : الأول : النوم ، والثاني : الموت .

ودخلت ﴿ثُمَّ﴾ هنا لترتيب الإخبار ، لا لترتيب الوقوع ؛ لأن القضاء متقدّم على الخلق .

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ يتعلّق ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ بمعنى اسم الله ؛ فالمعنى كقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف : ٨٤] ، كما يقال : أمير المؤمنين الخليفة في المشرق والمغرب .

ويحتمل أن يكون المجرور في موضع الخبر ؛ فيتعلّق باسم فاعلٍ محذوف ، والمعنى على هذا قريبٌ من الأول .

وقيل : المعنى أنه في السموات والأرض بعلمه ؛ كقوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد : ٤] .

والأول أرجح وأفصح ؛ لأن اسم الله جامعٌ للصفات كلّها من العلم والقدرة والحكمة وغير ذلك فقصد جمّعها مع الإيجاز .

ويترجّح الثاني : بأن سياق الكلام في اطلاع الله تعالى وعلمه ؛ لقوله بعدها : ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ .

وقيل : يتعلّق بمحذوف ؛ تقديره : المعبود في السموات والأرض ، وهذا المحذوف صفة لـ ﴿اللَّهُ﴾ .

واسم ﴿اللَّهُ﴾ على هذا القول ، وعلى الأول : هو خبر المبتدأ .

وأما إذا كان المجرور الخبر : فاسم ﴿اللَّهُ﴾ بدلٌ من الضمير .

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ «مِنْ» الأولى : زائدة .

والثانية: للتَّبْعِيض، أو لبيان الجنس.

﴿بِالْحَقِّ﴾ يعني: ما جاء به محمد ﷺ.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمُ﴾ الآية؛ وعيد بالعذاب والعقاب على استهزائهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ حضُّ للكفار على الاعتبار بغيرهم.

والقُرْن: مئة سنة، وقيل: سبعون، وقيل: أربعون.

﴿مَكَتْنَهُمْ﴾ الضمير عائذ على القرن؛ لأنه في معنى الجماعة.

﴿مَا لَمْ تُمْكِنْ لَكُمْ﴾ الخطاب لجميع أهل ذلك العصر من مؤمن وكافر.

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ السماء هنا: المطر، أو السحاب، أو السماء حقيقة.

﴿وَمِدْرَارًا﴾: بناءً مبالغةً وتكثير؛ من قولك: درَّ المطر: إذا غُزِرَ.

﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَدُوبِهِمْ﴾ التقدير: فكفروا وعصوا فأهلكناهم، وهذا تهديدٌ

للكفار أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء على حال قوتهم وتمكينهم.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي فِرْطَاسٍ﴾ الآية؛ إخبارٌ أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم أوضح الآيات.

والمراد بقوله: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾^(١) لو بالغوا في مَيزِهِ وتقليبه ليرتفع الشك؛ لعاندوا بعد ذلك.

(١) في د «أي»، وكذا في هامش أ ورمز له بـ«خ».

وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ سَبَبُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلَ بَعْضِهِمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَا أَوْمنَ لَكَ^(١)
 حَتَّى تَأْتِيَنِي بِكِتَابٍ مِنَ السَّمَاءِ يَأْمُرُنِي بِتَصَدِيقِكَ، وَمَا أَرَانِي مَعَ هَذَا^(٢)
 أَصَدِّقُكَ.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ حكاية عن طلب بعض العرب، روي أن
 العاصي بن وائل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، والأسود بن
 عبد يغوث قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، لو كان معك ملك!

﴿وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قال ابن عباس: المعنى: لو أنزلنا ملكًا
 فكفروا بعد ذلك لعجل لهم العذاب، ففي الكلام على هذا حذف،
 وقضاء الأمر على هذا: تعجيل أخذهم.

وقيل: المعنى: لو أنزلنا ملكًا لماتوا من هول رؤيته، فقضاء الأمر على
 هذا: موتهم.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي: لو جعلنا الرسول ملكًا لكان في
 صورة^(٣) رجل؛ لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته.

﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيُشُونَ﴾ أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على
 أنفسهم وعلى ضعفائهم؛ فإنهم إذا رأوا الملك في صورة إنسان قالوا:
 هذا إنسان وليس بملك.

(١) في د: «بك».

(٢) في د: «بعد ذلك».

(٣) في د: «في صفة».

﴿وَلَقَدْ أَسْهَزَيْ﴾ الآية؛ إخبارٌ قُصِدَ به تسليَةُ النبي ﷺ عما كان يلقي من قومه .

﴿فَحَاقَ﴾ أي: أحاط بهم، وفي هذا الإخبارِ تهديدٌ للكفار.



[﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا﴾ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنْتُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةً لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي الْبَيْتِ نَارٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِ الْفَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَمِيمُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ؛ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ بَخِيرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْتَكُمْ لِتَشْهَدُونَ أَتَى مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية؛ حضُّ على الاعتبار بغيرهم إذا رأوا منازل الكفار الذين هلكوا قبلهم.

﴿ثُمَّ أَنْظَرُوا﴾ قال الزمخشري: إن قلت: أي فرق بين قوله: ﴿فَأَنْظَرُوا﴾ وبين قوله: ﴿ثُمَّ أَنْظَرُوا﴾؟

قلت: جعل النظر مسبباً عن السير في قوله: ﴿فَأَنْظَرُوا﴾؛ فكأنه قال: سيروا لأجل النظر، وأما قوله: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا﴾ فمعناه: إباحة السير للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجابُ النظر في الهالكين، ونَبَهَ على

ذلك بـ «ثم» ؛ لتباعد ما بين الواجب والمباح^(١) .

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ القصد بالآية : إقامة برهانٍ على صحة التوحيد وإبطال الشرك ، وجاء ذلك بصيغة الاستفهام ؛ لإقامة الحجة على الكفار ، فسأل أولاً : ﴿لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، ثم أجاب عن السؤال بقوله : ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ ؛ لأن الكفار يوافقون على ذلك بالضرورة ، فثبت بذلك أن الإله الحق هو الله الذي له ما في السموات والأرض .

وإنما يحسن أن يكون السائل مجيباً عن سؤاله ، إذا علم أن خصمه لا يخالفه في الجواب الذي به يقيم الحجة عليه .

﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي : قضاها ؛ وتفسير ذلك : بقول النبي ﷺ : «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض ، وفيه : إن رحمتي سبقت غضبي»^(٢) ، وفي رواية : «تغلب غضبي»^(٣) .

﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مقطوع مما قبله ، وهو جواب لقسم محذوف .
وقيل : هو تفسير للرحمة المذكورة ؛ تقديره : أن يجمعكم . وهذا ضعيف ؛ لدخول النون الثقيلة في غير موضعها ؛ فإنها لا تدخل إلا في القسم ، أو في غير الواجب .

﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ قيل : «إلى» هنا بمعنى «في» . وهو ضعيف .

والصحيح : أنها للغاية على بابها .

(١) انظر : الكشف (٦ / ٣٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٢) ، ومسلم (٢٧٥١) .

(٣) أخرجه البخاري (٣١٩٤) ، ومسلم (٢٧٥١) .

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ، وخبره: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ودخلت الفاء؛ لما في الكلام من معنى الشرط. قاله الزجاج، وهو حسن.

وقال الزمخشري: ﴿الَّذِينَ﴾ نَصَبٌ عَلَى الذَّمِّ، أَوْ رَفْعٌ بِخَبَرِ ابْتِدَاءِ مَضْمَرٍ^(١).

وقيل: هو بدلٌ من الضمير في ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ وهو ضعيف.

وقيل: منادى، وهو باطل.

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾.

ومعنى ﴿سَكَنَ﴾: حلٌّ؛ فهو من السُّكْنَى.

وقيل: هو من السُّكُون. وهو ضعيف؛ لأن الأشياء منها ساكنة ومتحركة؛ فلا يعمُّ، والمقصود عمومُ مُلْكِهِ تعالى لكل شيء.

﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَخْخَذُ وَلِيًّا﴾ إقامةُ حجةٍ على الكفار، وردُّ عليهم بصفات الله الكريمة التي لا يشاركه غيره فيها.

﴿أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: من هذه الأمة؛ لأن النبي ﷺ سابقُ أمته إلى الإسلام.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ في الكلام حذفٌ؛ تقديره: وقيل لي: ولا تكونن من المشركين.

(١) انظر: الكشاف (٦/٣٤).

أو يكون معطوفاً على معنى ﴿أُمِرْتُ﴾ فلا حذف، وتقديره: أُمِرْتُ بالإسلام، ونُهِيت عن الإشراك.

﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أي: مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَدْ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقرئ: ﴿يُصْرِفْ﴾ بفتح الياء، وفاعله: الله.

﴿وَذَلِكَ﴾ إشارة إلى: صَرْفِ الْعَذَابِ، أو إلى الرحمة.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْ﴾ معنى ﴿يَمْسَسْكَ﴾: يُصِيبُكَ، والضُّرُّ: المرض وغيره على العموم في جميع المضِرَّات، والخير: العافية وغيرها على العموم أيضاً.

والآية برهانٌ على الوحدانية؛ لانفراد الله تعالى بالضر والخير، وكذلك ما بعد هذا من الأوصاف؛ براهينُ وردُّ على المشركين.

﴿قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً﴾ سؤالٌ يقتضي جواباً ينبنى عليه المقصود.

وفيه دليلٌ على أن الله يقال فيه: شيء؛ ولكن ليس كمثله شيء.

﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿شَهِيدٌ﴾ خبره.

والآخر: أن يكون تمام الجواب عند قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾؛ بمعنى: أن الله أكبر شهادة، ثم يتدئ؛ على تقدير: هو شهيدٌ بيني وبينكم.

والأول أرجح؛ لعدم الإضمار.

والثاني أرجح؛ لمطابقته للسؤال؛ لأن السؤال بمنزلة من يقول: من أكبر الناس؟ فيقال في الجواب: فلان، وتقديره: فلان أكبر الناس.
والمقصود بالكلام: الاستشهاد بالله -الذي هو أكبر شهادة- على صدق رسوله ﷺ.

وشهادة الله بهذا:

هي علمه بصحة نبوة محمد ﷺ.

أو إظهاره لمعجزاته الدالة على نبوته.

﴿وَمَنْ بَلَغْ﴾ عطفٌ على ضمير المفعول في ﴿لَا تُذِرْكُمْ﴾، والفاعل بـ ﴿بَلَغْ﴾: ضميرُ ﴿الْقُرْآنُ﴾، والمفعول: محذوف يعود على «مَنْ»؛ تقديره: وَمَنْ بلغه.

والمعنى: أُوحيَ إليَّ هذا القرآنُ لأُنذِرَ به المخاطبين - وهم أهل مكة -، وأنذرَ كلَّ مَنْ بلغه القرآنُ من العرب والعجم إلى يوم القيامة، قال سعيد بن جبير: من بلغه القرآنُ فكأنما رأى محمدًا ﷺ^(١).

وقيل: المعنى: وَمَنْ بَلَغَ الْحُلُمَ. وهو بعيد.

﴿إِنِّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ الآية؛ تقريرٌ للمشركين على شُرُكهم، ثم تبرأ من ذلك بقوله: ﴿لَا أَشْهَدُ﴾، ثم شهد لله بالوحدانية.

(١) لم أفق عليه من قول سعيد بن جبير، ووقفْتُ عليه من قول محمد بن كعب القرظي، أخرجه الطبري في تفسيره (١٨٢/٩).

وروي أنها نزلت بسبب قوم من الكفار؛ أتوا رسول الله ﷺ فقالوا:
يا محمد!، أما تعلم مع الله إلهاً آخر؟.

﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ تقدّم في «البقرة»^(١).

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ، وخبره:
﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقيل: ﴿الَّذِينَ﴾ نعت لـ ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾، وهو فاسد؛ لأن
الذين أتوا الكتاب استشهد بهم هنا ليقيم الحجة على الكفار.

❦ ❦ ❦

(١) انظر ١/ ٣٧١.

[﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَا تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآئَهُ لَا يُؤْمِنُوا بِهَِا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُخَدِّلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ نَارُهَا وَلَا تَرْوُهَا وَلَا تُكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكُنُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لفظه استفهام، ومعناه: لا أحد أظلم ممن افترى على الله، وذلك تنصّل من الكذب على الله، وإظهار لبراءة رسول الله ﷺ مما نسبوه إليه من الكذب.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ: مَا نَسَبَ إِلَيْهِ الْكَفَارُ مِنَ الشُّرَكَاءِ وَالْأَوْلَادِ.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: علاماته، وبراهين دينه.

﴿إِنَّا سُرَّكَاؤُكُمْ﴾ يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ.

﴿تَزْعُمُونَ﴾ أي: تزعمون أنهم آلهة؛ فحذفه لدلالة المعنى عليه.

والعامل في ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ محذوف^(١).

(١) في هامش هنا زيادة: «تقديره: ويوم نحشرهم كان كَيْتٌ وكَيْتٌ، فترك لبقى على =

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ﴾ الفتنة هنا يحتمل أن تكون :

بمعنى الكفر ؛ أي : لم تكن عاقبة كفرهم إلا جحوده والتبري منه .

وقيل : ﴿فِتْنَتَهُمْ﴾ : معذرتهم .

وقيل : كلامهم .

وقرئ ﴿فِتْنَتَهُمْ﴾ :

بالنصب ؛ على خبر «كان» ، واسمها : ﴿أَنْ قَالُوا﴾ .

وقرئ بالرفع ؛ على اسم «كان» ، وخبرها : ﴿أَنْ قَالُوا﴾ .

﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ جحود لشركهم .

فإن قيل : كيف يجحدونه وقد قال الله : ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٤٢] ؟

فالجواب : أن ذلك يختلف باختلاف طوائف الناس واختلاف المواطن ، فيكتم قوم ويقر آخرون ، ويكتمون في موطن ويقرّون في موطن آخر ؛ لأن يوم القيامة طويل .

وقد قال ابن عباس - لما سئل عن هذا السؤال - : إنهم جحدوا طمعا في النجاة ، فحتم الله على أفواههم ، وتكلمت جوارحهم ؛ فلا يكتمون الله حديثا^(١) .

= الإبهام الذي هو أدخل في التخويف» ، وكتب بعدها : «صح منه» ، وهذه عبارة الزمخشري في الكشف (٥٠ / ٦) ، وليست موجودة في بقية النسخ ، فيظهر أنها حاشية ، وليست من عبارة التسهيل .

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩٤ / ٩) .

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الضمير عائذ على الكفار، وأفرد ﴿يَسْتَمِعُ﴾ وهو فعل^(١) جماعة؛ حملاً على لفظ «مَنْ».

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ ﴿أَكِنَّةٌ﴾ جمع كِنَان؛ وهو الغطاء، و﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ في موضع مفعول من أجله؛ تقديره: كراهة أن يفقهوه.

ومعنى الآية: أن الله حال بينهم وبين فهم القرآن إذا استمعوه، وعبر بالأكِنَّة والوَقْر؛ مبالغة، وهي استعارة.

﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: قَصَصُهُمْ وأخبارُهُمْ، وهو جمع أسْطَار وأسطورة. قال السهيلي: حيثما ورد^(٢) في القرآن ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ فإن قائلها هو النَّضْر بن الحارث، وكان قد دخل بلاد فارس، وتعلم أخبار ملوكهم، فكان يقول: حديثي أحسن من حديث محمد^(٣).

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ ﴿هُمْ﴾ عائذ على الكفار، والضمير في ﴿عَنْهُ﴾ يعود على القرآن، والمعنى: وهم ينهون الناس عن الإيمان به، وينأون هم عنه - أي يبعدون -، والنَّأْيُ: هو البُعْدُ^(٤).

وقيل: الضمير في ﴿عَنْهُ﴾ يعود على النبي ﷺ، ومعنى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: ينهون الناس عن إدايته، وهم مع ذلك يبعدون عنه، والمراد بالآية - على هذا -: أبو طالب ومن كان معه يحمي النبي ﷺ ولا يُسَلِّمُ.

(١) في ب: «اللفظ».

(٢) في د: «وقع».

(٣) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي (ص: ١٠١).

(٤) في د، هـ: «والنائي هو البعيد» وكذا في هامش أ، ورمز له بـ«خ».

وفي قوله: ﴿يَنْهَوْنَ﴾ و﴿يَنْتَوْنَ﴾ ضربٌ من ضرب التَّجْنِيسِ .
 ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ : جواب «لو» محذوفٌ هنا وفي قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ
 إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ، وإنما حُذِفَ ليكون أبلغ ما يُقَدَّرُه السَّامِعُ ؛ أي : لو ترى
 لرأيت أمرًا شنيعًا هائلًا .

ومعنى ﴿وَقَفُوا﴾ : حُسِّبُوا . قاله ابن عطية^(١) .

ويَحْتَمَلُ أن يريد بذلك :

إذا دخلوا النار .

أو إذا عاينوها وأشرفوا عليها .

ووضع «إذ» موضع «إذا» ؛ لتحقيق وقوع الفعل حتى كأنه ماضٍ .
 ﴿يَلَيِّنَا نُرْدُّ وَلَا نُكَذِّبُ﴾ قرئ برفع ﴿نُكَذِّبُ﴾ و﴿نُكُونُ﴾ ؛ على
 الاستئنافِ والقطعِ عن التمني ، ومثله سيبويه بقولك : دعني ولا أعود ؛
 أي : وأنا لا أعود .

ويَحْتَمَلُ أن يكون :

حالًا ؛ تقديره : نُرْدُّ غيرَ مكذِّبين .

أو عطفًا على ﴿نُرْدُّ﴾ .

وقرئ بالنصب ؛ بإضمار «أن» بعد الواو في جواب التمني .

﴿بَلْ بَدَأَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ المعنى : ظهر لهم يوم القيامة في

(١) انظر المحرر الوجيز (٣/ ٣٤١) .

صحائفهم ما كانوا يخفون في الدنيا من عيوبهم وقبائحهم.

وقيل: هي في أهل الكتاب؛ أي: بدا لهم ما كانوا يخفون من أمر محمد ﷺ.

وقيل: هي في المنافقين؛ أي: بدا لهم ما كانوا يخفون من الكفر. وهذان القولان بعيدان؛ فإن الكلام من أوله ليس في حق المنافقين ولا أهل الكتاب.

وقيل: إن الكفار كانوا إذا وعظهم النبي ﷺ خافوا وأخفوا ذلك الخوف؛ لئلا يشعر به^(١) أتباعهم، فظهر لهم ذلك يوم القيامة.

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾ إخبارٌ بأمر لا يكون، لو كان كيف كان يكون، وذلك مما انفرد الله بعلمه.

﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ يعني في قولهم: ﴿وَلَا نُكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولا يصح أن يرجع إلى قولهم: ﴿يَلَيِّنَا نُرَدُّ﴾؛ لأن التمني لا يحتمل الصدق ولا الكذب.

﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ حكاية عن^(٢) قولهم في إنكار البعث الآخر. أي: لا شيء من هذا إلا حياتنا الدنياه.

﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ تقريرٌ لهم وتوبيخٌ.

(١) في ب: «بهم».

(٢) سقط الحرف من ب، ج، هـ.

[قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَايِعَتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٥﴾ ۖ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتِ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٢٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَن يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ يَكُونُ لَكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَأْتِيَكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٠﴾ بَلْ إِنِّي تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾] .

﴿قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ الضمير في ﴿فِيهَا﴾ للحياة الدنيا ؛ لأن المعنى يقتضي ذلك وإن لم يَجْر لها ذكرٌ .

وقيل : للساعة ؛ أي : فرطنا في شأنها ، والاستعداد لها .

والأول أظهر .

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ كناية^(١) عن تحمُّل الذنوب ، وقال :

(١) في د : «عبارة» .

﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ ؛ لأن العادة حمل الأثقال على الظهر .

وقيل : إنهم يحملونها على ظهورهم حقيقةً ، وروي في ذلك أن الكافر يركبه عمله بعد أن يتمثل له في أقبح صورة ، وأن المؤمن يركب عمله بعد أن يتصور له في أحسن صورة .

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ إخبار عن سوء ما يفعلون من الأوزار .

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ قرأ نافع «يحزن» حيث وقع بضم الياء ؛ من «أحزن» ، إلا قوله : ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] .

وقرأ الباقر بفتح الياء ؛ من «حزن» الثلاثي ، وهو أشهر في اللغة .

و﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ : قولهم : إنه ساحرٌ ، شاعرٌ ، كاهنٌ .

﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ من قرأ بالتشديد فالمعنى : لا يكذبونك معتقدين لكذبك ، وإنما هم يجحدون الحق مع علمهم به .

ومن قرأه بالتخفيف :

ف قيل : معناه : لا يجدونك كاذباً ؛ يقال : أَكْذَبْتُ فلاناً ؛ إذا وجدته كاذباً ، كما يقال : أَحْمَدْتُهُ ؛ إذا وجدته محموداً .

وقيل : هو بمعنى التشديد ؛ يقال : كَذَّبَ فلان فلاناً وأَكْذَبَهُ بمعنى واحد ، وهو الأظهر ؛ لقوله بعد هذا : ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ، ويؤيد هذا : ما روي أنها نزلت في أبي جهل ؛ فإنه قال لرسول الله ﷺ : إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به ، وأنه قال للأحنس بن شريق : والله إن محمداً لصادق ، ولكنني أحسده على الشرف .

﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: ولكنهم، ووضع الظاهر موضع المضمَر؛ للدلالة على أنهم ظلموا في جحودهم.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية؛ تسليّة للنبي ﷺ، وحض له على الصبر، ووعده بالنصر.

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لمواعيدة لرسله؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُتَرَسِّلِينَ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٢]، وفي هذا تقوية للوعد.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: من أخبارهم، ويعني بذلك: صبرهم ثم نصرهم، وهذا أيضًا تقوية للوعد والحض على الصبر. وفاعل ﴿جَاءَكَ﴾ محذوف؛ تقديره: نبأ أو جلاء^(١).

وقيل: هو المجرور.

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الآية؛ مقصودها: حمل النبي ﷺ على الصبر، والتسليم لما أراد الله بعباده من إيمان أو كفر، فإنه ﷺ كان شديد الحرص على إيمانهم، فقليل له: إن استطعت أن تدخل في الأرض أو تصعد إلى السماء لتأتيهم^(٢) بآية يؤمنوا بسببها فافعل، وأنت لا تقدر على ذلك، فاستسلم لأمر^(٣) الله.

(١) في هامش ب: «خ: بيان»، وفي د: «خبر».

(٢) في د: «فتأتيهم».

(٣) في ب، ه: «بأمر».

والتَّفَقُّ في الأرض معناه: مَنَفَذُ تَنَفَّذَ فيه إلى ما تحت الأرض.

وحُذِفَ جواب «إن»؛ لفهم المعنى.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ حجة لأهل السنة على القدرية.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: من الذين يجهلون أن الله لو شاء لجمعهم على الهدى.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ المعنى: إنما يستجيب لك الذين يسمعون فيفهمون ويعقلون.

﴿وَالْمَوْتِ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: أن الموتى: عبارة عن الكفار؛ (لموت قلوبهم، والبعث يراد به: الحشر يوم القيامة، فالمعنى: أن الكفار في الدنيا كالموتى في قلة سمعهم وعدم فهمهم)^(١) فيبعثهم الله في الآخرة، وحينئذ يسمعون.

والآخر: أن الموتى: عبارة عن الكفار، والبعث: عبارة عن هدايتهم للْفَهْمِ وَالسَّمْعِ.

والثالث: أن الموتى على حقيقته، والبعث على حقيقته؛ فهو إخبار عن بعث الموتى يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الضمير في ﴿وَقَالُوا﴾ للكفار، و﴿لَوْلَا﴾ عَرَضٌ، والمعنى: أنهم طلبوا أن يأتي النبي ﷺ بآية على نبوته.

(١) سقط من ب.

فإن قيل : فقد أتى بآيات ومعجزات كثيرة فلم طلبوا آية؟

فالجواب من وجهين :

أحدهما : أنهم لم يعتدوا بما أتى به ؛ فكأنه لم يأت بشيء عندهم ؛
لعنادهم وجحدهم .

والآخر : أنهم إنما طلبوا آية تضطرُّ إلى الإيمان من غير نظر ولا تفكر^(١) .

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ جوابٌ على قولهم ، وقد حُكي هذا
القول عنهم في مواضع من القرآن ، وجُوبوا عليه بأجوبة مختلفة :

منها : ما يقتضي الردَّ عليهم في طلبهم للآيات ؛ فإنهم^(٢) قد أتاهم بآيات ،
وتحصيل الحاصل لا يُبتغى ؛ كقوله : ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ [البقرة : ١١٨] ،
وكقوله : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت : ٥١] .

ومنها : ما يقتضي الإعراض عنهم ؛ لأنَّ الخصم إذا تبين عناده سقطت
مكالمته ، ويَحتمل أن يكون من هذا قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ .

ويَحتمل أيضًا أن يكون معناه : قادرٌ على أن ينزل آية تضطرُّهم إلى الإيمان .

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حُذِفَ مفعول ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ، وهو يَحتمل

وجهين :

أحدهما : لا يعلمون أن الله قادر .

والآخر : لا يعلمون أن الله إنما منع الآيات التي تضطرُّ إلى الإيمان

(١) في د : «فكر» .

(٢) في ب ، هـ «بأنهم» .

لمصالح العباد؛ فإنهم لو رأوها ولم يؤمنوا لُعُوجِلُوا بالعذاب.
﴿بِحَنَاحِهِ﴾ تأكيد، وبيان، وإزالة للاستعارة المتعاهدة في هذه اللفظة؛
فقد يقال: طائرٌ للسَّعد والنَّحس.

﴿أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ أي: في الخلق والرزق والحياة والموت وغير ذلك.
ومناسبة ذِكر هذا لما قبله من وجهين:

أحدهما: أنه تنبيهٌ على مخلوقات الله تعالى؛ فكأنه يقول: تفكروا في
آياته في مخلوقاته، ولا تطلبوا غير ذلك من الآيات.

والآخر: أنه تنبيهٌ على البعث؛ كأنه يقول: جميع الدوابِّ والطَّير
يحشر يوم القيامة كما تحشرون أنتم، وهو أظهر؛ لقوله بعده: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما أغفلنا، والكتاب هنا:

اللوح المحفوظ، والكلام على هذا عام.

وقيل: هو القرآن، والكلام على هذا خاص؛ أي: ما فَرَطْنَا فيه من شيءٍ
فيه هدايتكم والبيان لكم.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: تُبعثُ الدوابُّ والطَّيُور^(١) يوم القيامة
للجزاء والفصل بينها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ الآية؛ لما ذُكر قدرته على بعث الخلق كلَّهم أتبعه بأن

(١) في د: «والطير».

وصف من كَذَّبَ بذلك بالصَّمِّمِ والبَكَمِ.

وقوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يقوم مقام الوصف بالعمى.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ معناه: أخبروني، والضمير الثاني للخطاب، ولا محلَّ له من الإعراب.

وجواب الشرط محذوف؛ تقديره: إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة مَنْ تَدْعُونَ؟، ثم وَقَّفَهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ حِينَئِذٍ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا يَدْعُونَ آلَهُتَهُمْ.

والآية احتجاجٌ عليهم، وإثباتٌ للتوحيد، وإبطالٌ للشرك.

﴿إِنْ شَاءَ﴾ استثناء؛ أي: يكشف ما نزل بكم إن أراد، ويصيبكم به إن أراد.

﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ يحتمل أن يكون من: النسيان، أو الترك.

[وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ أَنْظَرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾] .

﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ كان ذلك على وجه التَّخْوِيفِ والتَّأْدِيبِ .

﴿فَلَوْلَا﴾ هنا : عَرَضٌ وَتَحْضِيضٌ .

وفيه دليل على نفع التضرُّع حين الشدائد .

﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ الآية ؛ أي : لما تركوا الاتِّعَاضَ بما ذُكِّرُوا به من الشدائد فَتَحَ

عليهم أبواب الرزق والنَّعَمَ لِيَشْكُرُوا عليها ، فلم يشكروا ، فأخذهم الله .

﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من الخير .

﴿دَائِرُ الْقَوْمِ﴾ أي : آخِرُهُمْ ، وذلك عبارة عن استئصالهم بالكلية .

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكرٌ على إهلاك الكفار ؛ فإنه ^(١) نعمة على المؤمنين .

(١) في د : «لأنه» .

وقيل: إنه^(١) على ما تقدّم من ملاطفته في أخذه لهم بالشرّ ليزدجروا، أو^(٢) بالخير ليشكروا، حتى وجب عليهم العذاب^(٣) بعد الإنذار والإعذار.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ الآية؛ احتجاج على الكفار أيضًا.

﴿يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ الضمير عائذ على المأخوذ.

﴿يَصْدِفُونَ﴾ أي: يُعرضون.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ الآية؛ وعيد وتهديد، والبغته: ما لم يتقدّم لهم شعور به، والجهرة: ما بدت لهم مخايله.

وقيل: ﴿بَغْتَةً﴾ بالليل، و﴿جَهْرَةً﴾ بالنهار.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ الآية؛ أي: لا أدعي شيئاً ينكر ولا يُستبعد، إنما أنا نبيّ رسول كما كان غيري من الرسل.

﴿الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ مثال للضال والمهتدي.

(١) أي: الحمد. انظر: المحرر الوجيز (٣/٣٦٣).

(٢) في د، هـ «و».

(٣) في ب، د، هـ: «العقاب».

[وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتبين سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾].

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود على ﴿مَا يُوحَى﴾.

والإنذار عامٌ لجميع الناس، وإنما خُصَّص هنا بالذين يخافون؛ لأنه قد تقدَّم في الكلام ما يقتضي اليأس^(١) من إيمان غيرهم، فكأنه يقول: أنذر الخائفين؛ لأنهم ينفعهم الإنذار^(٢)، وأعرض عمن تقدَّم ذكره من الذين لا يسمعون ولا يعقلون.

﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿يُحْشَرُوا﴾.

أو استئناف إخبار.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يتعلق بـ ﴿أَنْذِرْ﴾.

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية؛ نزلت في ضعفاء المؤمنين، كبلال، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وخبَّاب، وصُهيب، وأمثالهم، وكان

(١) في أ: «الإيأس» وفي الهامش: «خ: اليأس».

(٢) في أ: «فكأنه أنذر الخائفين لأنه ينفعهم الإنذار».

بعض المشركين من قريش قد قالوا للنبي ﷺ: لا يمكننا أن نختلط مع هؤلاء؛ لَشَرَفِنَا فلو طردتهم لا تَبْعُنَاكَ، فنزلت الآية.

﴿بِالْغَدُوَّةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قيل: هي الصلاة بمكة قبل فرض الخمس، وكانت غُدُوَّةً وَعَشِيَّةً.

وقيل: هي عبارة عن دوام الفعل.

و﴿يَدْعُونَ﴾ هنا:

من الدعاء وذكّر الله.

أو بمعنى العبادة.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ إخبار عن إخلاصهم لله، وفيه تزكية لهم.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية؛ قيل: الضمير في ﴿حِسَابِهِمْ﴾ لـ ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾.

وقيل: للمشركين؛ والمعنى على هذا: لا تُحَاسِبُ عنهم، ولا يُحَاسِبُونَ عنك، فلا تهتمّ بأمرهم حتى تطرد هؤلاء من أجلهم.

والأول أرجح؛ لقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [هود: ٢٩]، وقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ [الشعراء: ١١٣]، والمعنى على هذا: أن الله هو الذي يحاسبهم فلاي شيء تطردهم!

﴿فَتَطْرُدْهُمْ﴾ هذا جواب النفي في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ﴾.

﴿فَتَكُونَ﴾ هذا جواب النهي في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدْ﴾.

أو عطف على ﴿فَتَطْرُدْهُمْ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ابتَلينا الكفار بالمؤمنين، وذلك أن الكفار كانوا يقولون: هؤلاء العبيد والفقراء من الله عليهم بالتوفيق للحق والسعادة دوننا، ونحن أشراف أغنياء!، وكان هذا الكلام منهم على جهة الاستبعاد لذلك.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ ردُّ على الكفار في قولهم المتقدم. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ هم الذين نُهي النبي ﷺ عن طردهم، أمر بأن يُسَلِّم عليهم؛ إكراماً لهم، وأن يُؤنِّسهم بما بعد هذا. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: حتمها، وفي الصحيح: «إن الله كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»^(١).

﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ الآية؛ وعدُّ بالمغفرة والرحمة لمن تاب وأصلح، وهو خطاب للقوم المذكورين قبل، وحكمه عامٌ فيهم وفي غيرهم. والجهالة قد ذكرت في «النساء»^(٢).

وقيل: نزلت بسبب أن عمر بن الخطاب أشار على رسول الله ﷺ أن يطرد الضعفاء عسى أن يُسلم الكفار، فلما نزلت ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ ندم عمر على قوله، وتاب منه؛ فنزلت الآية.

وقرئ ﴿أَنَّهُ﴾:

بالفتح؛ على البدل من ﴿الرَّحْمَةِ﴾.

(١) تقدم تخريجه في صفحة ٢٤٧.

(٢) انظر صفحة ٢٨.

وبالكسر؛ على الاستئناف.

وكذلك ﴿فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بالكسر: على الاستئناف.

وبالفتح:

خبرُ ابتداءٍ مضمر؛ تقديره: فأمره أنه غفور.

وقيل: تكررُ للأولى؛ لطول الكلام.

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ﴾ الإشارة إلى ما تقدّم من النهي عن الطرد وغير ذلك.

وتفصيلُ الآيات: شَرَحُهَا وبيانُها.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ بقاء الخطاب ونصب السبيل: على أنه

مفعول به.

وقرئ بقاء التأنيث ورفع السبيل: على أنه فاعلٌ مؤنَّث.

وبالياء والرفع: على تذكير السبيل؛ لأنه يجوز فيه التذكير والتأنيث.



[﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْبِئُكُمْ بِمَا أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ٥٦ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ ٥٧ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ ٥٨ ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ أَرْضٍ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ٥٩ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٦٠].

﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون.

﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم ضللت.

﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ أي: على أمرٍ بينٍ من معرفة ربي.

والهاء في ﴿بَيِّنَةٍ﴾: للمبالغة، أو للتأنيث.

﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ الضمير عائد على: الرب، أو على البيئة.

﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ﴾ أي: العذاب الذي طلبوه في قولهم: ﴿فَأَمْطَرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقيل: الآيات التي اقترحوها.

والأول أظهر.

﴿يَقْضُ الْحَقُّ﴾ من القَصَص.

وَقَرَأَ ﴿يَقْضِ﴾ بِالضَادِّ الْمَعْجَمَةِ؛ مِنَ الْقَضَاءِ، وَهُوَ أَرْجَحُ؛ لِقَوْلِهِ:
﴿خَيْرُ الْفَصِيلِينَ﴾ أَيِ: الْحَاكِمِينَ.

﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أَيِ: لَوْ كَانَ عِنْدِي الْعَذَابُ
- عَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ -، أَوْ الْآيَاتُ الْمَقْتَرَحَةُ - عَلَى التَّأْوِيلِ الْآخِرِ -؛ لَوَقَعَ
الانفصال وزال النزاع؛ لنزول العذاب، أَوْ لظهور الآيات.

﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ استعارةٌ وعبارَةٌ عن التوصل إلى الغيوب كما يُتَوَصَّلُ
بالمفاتيح إلى ما في الخزائن.

وهو جمع مِفْتَاحٍ - بكسر الميم -؛ بمعنى: مفتاح.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ جَمْعُ مَفْتَحٍ - بالفتح -؛ وهو المخزون.

﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ﴾ تَنْبِيهٌُ بِهَا عَلَى غَيْرِهَا؛ لِأَنَّهَا أَشَدُّ تَغْيِبًا مِنْ
كُلِّ شَيْءٍ.

﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ اللُّوحُ الْمُحْفُوظُ، وَقِيلَ: عِلْمُ اللَّهِ.

﴿يَتَوَفَّنُكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ أَيِ: إِذَا نَمْتُمْ، وَفِي ذَلِكَ عِتْبَارٌ وَاسْتِدْلَالٌ عَلَى الْبَعْثِ
الْآخِرَاوِيِّ.

﴿مَا جَرَحْتُمْ﴾ أَيِ: مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ.

﴿يَتَّبِعُكُمْ فِيهِ﴾ أَيِ: يَوْقُظُكُمْ مِنَ النَّوْمِ، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى النَّهَارِ؛ لِأَنَّ
غَالِبَ الْيَقَظَةِ فِيهِ، وَغَالِبُ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ.

﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَجَلُ الْمَوْتِ.

[وَهُوَ الْفَاحِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿١١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِسَكُمْ شِيعًا وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ نَفْسُكَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿١٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ بِكَافٍ لَكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٦﴾ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آبَائِنَا فَاعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُبْسِطَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُ ﴿١٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾] .

﴿حَفَظَةً﴾ جمع حافظ ؛ وهم الملائكة الكاتبون .

﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي : الملائكة الذين مع ملك الموت .

﴿ثُمَّ رُدُّوْا﴾ خروج من الخطاب إلى الغيبة ، والضمير لجميع الخلق .

﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ﴾ الآية ؛ إقامة حجة .

﴿وَالْبَحْرِ﴾ عبارة عن شدائدهما وأهوالهما ؛ كما يقال لليوم

الشديد : مُظْلَمٌ .

﴿عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ﴾ قيل : الذي من فوق : إِمطار الحجارة ومن تحت : الخسف .

وقيل : ﴿مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ : تسليط أكابرهم ، و﴿مِن تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ﴾ : تسليط سفلتكم ، وهذا بعيد .

﴿أَوْ يَلْسِكُمْ شِعَا﴾ أي : يخلطكم فرقا مختلفين .

﴿وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بالقتال .

واختلف هل الخطاب بهذه الآية للكفار أو للمؤمنين ؟ .

وروي أنه لما نزلت ﴿أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُم عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ ، قال رسول الله ﷺ :

«أعوذ بوجهك» ، فلما نزلت ﴿مِن تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال : «أعوذ بوجهك» ، فلما

نزلت ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ شِعَا﴾ ، قال النبي ﷺ : «هذه أهون»^(١) ، فقضى الله على

هذه الأمة بالفتن والقتال إلى يوم القيامة .

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ الضمير عائذ :

على القرآن .

أو على الوعيد المتقدم .

و﴿قَوْمُكَ﴾ هم قريش .

﴿لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي : بحفيظ ومتسلط ، وفي ذلك متاركة نسخها

القتال .

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٨) .

﴿لِكُلِّ نَبَرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: غاية يُعرفُ عندها صدقُه من كذبه.

﴿يَخُونُونَ فِيَّ إِيَّانَا﴾ في الاستهزاء بها، والطعن فيها.

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: قم ولا تجالسهم.

﴿وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ «إمّا» مرغبة من «إن» الشرطية و«ما» الزائدة،

والمعنى: إن أنساك الشيطان النهي عن مجالستهم فلا تقعد بعد أن تذكر النهي.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْفُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿الَّذِينَ يَنْفُونَ﴾: هم المؤمنون، والضمير في ﴿حِسَابِهِمْ﴾ للكفار المستهزئين، والمعنى: ليس على المؤمنين شيء من حساب الكفار على استهزائهم وضلالهم^(١).

وقيل: إن ذلك يقتضي إباحة جلوس المؤمنين مع الكافرين؛ لأنهم شقّ عليهم النهي عن ذلك؛ إذ كانوا لا بدّ لهم من مخالطتهم في طلب المعاش، وفي الطواف بالبيت وغير ذلك، ثم نُسِخت بآية «النساء»؛ وهي: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٠] الآية.

وقيل: إنها لا تقتضي إباحة القعود.

﴿وَلَكِنْ ذَكَرْنَاهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْفُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن المعنى: ليس على المؤمنين حساب الكفار، ولكن عليهم تذكير لهم، ووعظ^(٢).

(١) في أ: «وإضلالهم».

(٢) في د: «تذكيرهم ووعظهم».

وإعراب ﴿ذَكَرَ﴾ على هذا :

نَضْبٌ على المصدر ؛ وتقديره : يذكرونهم ذكرى .

أو رَفْعٌ على المبتدأ ؛ تقديره : عليهم ذكرى .

والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ عائِدٌ :

على الكفار ؛ أي : يذكرونهم رجاء أن يتقوا .

أو عائِدٌ على المؤمنين ؛ أي : يذكرونهم ليكون تذكيرهم ووعظهم تقوى لله .

والوجه الثاني : أن المعنى : ليس نهى المؤمنين عن القعود مع الكافرين بسبب أن عليهم من حسابهم شيء ، وإنما هو ذكرى للمؤمنين .

وإعراب ﴿ذَكَرَ﴾ على هذا :

خبرٌ ابتداءً مضمَرٌ ؛ تقديره : ولكن نهىهم ذكرى .

أو مفعولٌ من أجله ؛ تقديره : إنما نهوا ذكرى .

والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ على هذا : للمؤمنين لا غيرُ .

﴿وَذَرِ الَّذِينَ﴾ قيل : إنها متاركةٌ منسوخة بالسيف .

وقيل : بل هي تهديدٌ فلا^(١) متاركةٌ ؛ فلا نسخ فيها .

﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي : اتَّخَذُوا الدين الذي كان ينبغي لهم لعبًا ولهوًا ؛ لأنهم سخروا منه .

(١) في د : «بلا» .

أَوْ اتَّخَذُوا الدِّينَ الَّذِي يَعْتَقِدُونَهُ لَعِبًا وَلَهْوًا ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ فَهُمْ يَلْعَبُونَ وَيَلْهُونَ .

﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ الضمير عائد : على الدين ، أو على القرآن .

﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾ قيل : معناه : تُحْبَسَ ، وقيل : تُفْضَحَ ، وقيل : تَهْلِكَ .

وهو في موضع مفعولٍ من أَجَلَهُ ؛ أي : ذَكَّرْ بِهِ ؛ كراهةً أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ .

﴿وَإِنْ تَعَدَّلْ كُذِّبَ﴾ أي : وَإِنْ تُعْطِ كُلَّ فِدْيَةٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا .



[قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُذِرْ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُنْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأْمُرْنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْهِمُ الْغُيْبُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٨﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ رَأَى أَنَّهُ اتَّخَذَ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَ إِنْ أَرْنَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا رَأَى السَّمَاءَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٨٣﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٧﴾].

﴿قُلْ أَدْعُوا﴾ الآية؛ إقامة حجة، وتوبيخ للكفار.

﴿وَنُذِرْ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي: نرجع من الهدى إلى الضلال، وأصل الرجوع على العقب: في المشي، ثم استعير في المعاني.

وهذه الجملة معطوفة على ﴿أَدْعُوا﴾، والهمزة فيه للإنكار والتوبيخ.

﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ الكاف :

في موضع نصب على الحال من الضمير في ﴿نُرْدُّ﴾ ؛ أي : كيف نرجع مُشْبِهِينَ مَن استهوته الشياطين .

أو نعتٌ لمصدر محذوف ؛ تقديره : ردًّا كرد الذي .

ومعنى ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ : ذهبَتْ به في مَهَامِهِ الأرض ، وأخرجته عن الطريق ؛ فهو استفعال مِن هَوَى في الأرض : إذا ذهبَ فيها .

وقال الفارسي : استهوى بمعنى : أهوى ؛ مثل استزلَّ بمعنى أزلَّ .

و﴿حَيْرَانَ﴾ أي : ضال^(١) عن الطريق ، وهو نَصَبٌ على الحال من المفعول في ﴿اسْتَهْوَتْهُ﴾ .

﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا﴾ أي : لهذا المستهوي أصحابٌ - وهم رُفَقَةٌ - يدعونه إلى الهدى ؛ أي : إلى أن يَهْدُوهُ الطريق ، يقولون له : اتنا ، وهو قد تاهَ وَبَعَدَ عنهم فلا يُجِيبُهُمْ ، وهذا كُلُّهُ تمثيلٌ لمن ضلَّ في الدين عن الهدى ، وهو يُدْعَى إلى الإسلام فلا يجيب .

وقيل : نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق حين كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام ، وَيُبْطِلُ هذا قولُ عائشة : ما نزل في آل أبي بكر شيءٌ من القرآن إِلَّا براءتي^(٢) .

(١) في د : «أي : ضالًّا» .

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢٧) .

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا﴾ عطفٌ :

على ﴿لِنُسَلِّمَ﴾ .

أو على مفعول ﴿وَأَمْرَنَا﴾ .

﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ مرفوعٌ بالابتداء، وخبرُهُ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾، وهو مقدّم عليه،
والعامل فيه: معنى الاستقرار؛ كقولك: يومَ الجمعة القتالُ، واليومُ: بمعنى
الحين، وفاعل ﴿يَكُونُ﴾ مضمَر، وهو فاعل ﴿كُنْ﴾؛ أي: حين يقول لشيءٍ
كن: فيكون ذلك الشيء.

﴿يَوْمَ يَنْفَحُ فِي الصُّورِ﴾ ظرفٌ لقوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾؛ كقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ
الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦].

وقيل في إعراب الآية غير هذا مما هو ضعيفٌ أو تخليطٌ.

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ خبرٌ ابتداءً مضمِرٌ.

﴿لِأَيِّهِ أَزَرَ﴾ هو اسم أبي إبراهيم، فإعرابه: عطفٌ بيان، أو بدلٌ، ومُنْع
من الصَّرف للعُجْمَة والعَلَمِيَة، لا للوزن؛ فإن وزنه: فاعِلٌ؛ نحو: عابرٌ
وشالَخ.

وقرئ بالرفع؛ على النداء.

وقيل: إنه اسم صنم؛ لأنه ثبت أن اسم أبي إبراهيم تَارَح؛ فعلى هذا
يَحْتَمَلُ:

أن يكون لَقَبٌ به؛ لملازمته له.

أو أريد: عابد آزر، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وذلك بعيد.

ولا يبعد أن يكون له اسمان.

﴿نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قيل: إنه فرج له السموات والأرض حتى رأى ببصره الملك الأعلى والأسفل، وهذا يفتقر إلى صحة نقل.

وقيل: رأى ما يراه الناس من الملكوت، ولكنه وقع له بها من الاعتبار والاستدلال ما لم يقع لأحد من أهل زمانه.

﴿وَلْيَكُونَنَّ﴾ يتعلّق بمحذوف؛ تقديره: وليكون من الموقنين فعلاً به ذلك.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي: ستره؛ يقال: جنّ عليه الليل وأجنّه.

﴿رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ يحتمل أن يكون هذا الذي جرى لإبراهيم في الكوكب والقمر والشمس:

أن يكون قبل البلوغ والتكليف، وقد روي أن أمّه ولّدتَه في غار؛ خوفاً من نمرود؛ إذ كان يقتل الأطفال؛ لأن المنجمين أخبروه أن هلاكه على يد صبي.

ويحتمل أن يكون جرى له ذلك بعد بلوغه وتكليفه، وأنه قال ذلك لقومه على وجه الردّ عليهم والتوبيخ لهم، وهذا أرجح؛ لقوله بعد ذلك: ﴿إِنِّي بِرَبِّي مُّشْكِرٌ﴾.

ولا يُتَصَوَّرُ أن يقول ذلك وهو منفرد في الغار؛ لأن ذلك يقتضي حاجة وردًا على قومه .

وذلك أنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن يبين لهم الخطأ في دينهم، وأن يرشدَهم إلى أن هذه الأشياء لا يصح أن يكون واحدٌ منها إلهاً؛ لقيام الدليل على حدوثها، وأن الذي أحدثها ودبر طلوعها وغروبها وأقولها هو الإله الحق وحده، فقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ قول من يُنصِفُ خصمه مع علمه أنه مُبطلٌ؛ لأن ذلك أدعى إلى الحق وأقرب إلى رجوع الخصم، ثم أقام عليه الحجة بقوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾؛ أي: لا أحب عبادة المتغيّرين؛ لأن التغيّر دليل على الحدوث، والحدوث ليس من صفات الإله، ثم استمرّ على ذلك المنهاج في القمر وفي الشمس، فلما أوضح البرهان، وأقام عليهم الحجة، جاهرهم بالبراءة من باطلهم، فقال: ﴿إِنِّي بَرِيٌّ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، ثم أعلن بعبادته لله وتوحيده له فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، ووصف الله تعالى بوصف يقتضي توحيده وانفراده بالملك .

فإن قيل: لم احتجّ بالأفول دون الطُلوع، وكلاهما دليلٌ على الحدوث؛ لأنهما انتقالٌ من حال إلى حال؟

فالجواب: أنه أظهرٌ في الدلالة؛ لأنه انتقالٌ مع اختفاء^(١) واحتجاب^(٢).

(١) في ب، ج، هـ: «خفاء».

(٢) قال الشيخ عبد الرحمن البرّاك: قوله: «... ثم أقام عليه الحجة بقوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ أي: لا أحب عبادة المتغيّرين؛ لأن التغيّر دليلٌ على الحدوث»، إلخ =

﴿أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ﴾ أي: في الإيمان بالله وفي توحيده، والأصل: أتحاجوني - بنونين - .

وقرى:

بالتشديد؛ على إدغام إحداهما في الأخرى.

وبالتخفيف؛ على حذف إحداهما، واختلف هل حذفت الأولى أو الثانية؟.

﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ ﴿مَا﴾ هنا بمعنى: «الذي»، ويريد بها: الأصنام، وكانوا قد خوَّفوه أن تصيبه أصنامهم بضرٍّ، فقال: لا أخاف منهم؛ لأنهم لا يَقْدِرُونَ على شيء.

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء منقطع بمعنى: «لكن»؛ أي: إنما أخاف من ربي إن أراد بي شيئاً.

= أقول: عليه في هذا الكلام مأخذان:

أحدهما: تفسير الأفعال بالتغير، وهو من التفسير باللازم؛ فإن أفل في اللغة بمعنى غاب، والأقول هو الغياب بعد الظهور، فعليه يكون ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ أي: الغائبين بعد الظهور.

الثاني: جزمه بأن كل متغير محدث؛ فيقتضي ذلك نفي التغير عن الله، وابن جزي وأمثاله يطلقون نفي التغير عن الله بهذه الشبهة، والصواب أن التغير من الألفاظ المحدثة المجملة التي لا تجوز إضافتها إلى الله، لا نفياً ولا إثباتاً، إلا بعد الاستفصال عن مراد المتكلم بها؛ فإن أراد حقاً قبل، وإن أراد باطلاً رد، وإن أرادهما مميّز الباطل من الحق، فعلى هذا؛ إن أريد بالتغير قيام الأفعال الاختيارية به سبحانه، فالنفي باطل، والإثبات حق، وإن أريد بالتغير النقص بعد الكمال في ذاته تعالى وصفاته، فالنفي حق، والإثبات باطل، وابن جزي وأمثاله هم من نفاة الصفات الفعلية في الجملة.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي: كيف أخاف شركاءكم الذين لا يقديرون على شيء، وأنتم لا تخافون ما فيه كل خوف؛ وهو إشراككم بالله؟، فأنتم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف، ثم أوقفهم على ذلك بقوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ يعني: فريق المؤمنين، وفريق الكافرين، ثم أجاب عن السؤال بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية.

وقيل: إن ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية استئناف، وليس من كلام إبراهيم. ﴿وَلَمْ يَلْسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ لما نزلت هذه الآية أشفق منها أصحاب النبي ﷺ، فقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك كما قال لقمان لابنه: ﴿يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤).

[﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَهُ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾].

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ إشارة إلى ما تقدّم من استدلاله واحتجاجه .

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ الضمير : لنوح ، أو إبراهيم عليهما السلام ، والأول هو الصحيح ؛
لذكر لوط ؛ وليس من ذرية إبراهيم .

﴿دَاوُدَ﴾ عطف على ﴿نُوحًا﴾ ؛ أي : وهدينا داود .

﴿وَعِيسَى﴾ فيه دليل على أن أولاد البنات يقال لهم : ذرية ؛ لأن عيسى ليس له أب ؛ فهو ابن بنت نوح .

﴿وَمِن آبَائِهِمْ﴾ في موضع نصب ؛ عطفاً على ﴿كُلًّا﴾ ؛ أي : وهدينا بعض آبائهم .

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ أي : أهل مكة .

﴿وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ هم : الأنبياء المذكورون ، وقيل : الصحابة ، وقيل : كل

مؤمن .

والأول أرجح؛ لدلالة ما بعده على ذلك .
 ومعنى توكيلهم بها : توفيقهم للإيمان بها والقيام بحقوقها .
 ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ إشارة إلى الأنبياء المذكورين .
 ﴿فِيهِدْنَهُمْ أَقْدَهُ﴾ استدلال به من قال : إن شرع من قبلنا شرع لنا .
 فأما أصول الدين من التوحيد والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم
 الآخر ؛ فاتفقت فيه جميع الشرائع .
 وأما الفروع ففيها وقع الاختلاف بين الشرائع ، والخلاف : هل يقتدي
 النبي ﷺ فيها بمن قبله أم لا ؟ .
 والهاء في ﴿أَقْدَهُ﴾ للوقف ؛ فينبغي أن تسقط في الوصل ، ولكن من
 أثبتها فيه راعى ثبوتها في خط المصحف .

[﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾].

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عرفوه حق معرفته في اللطف بعباده والرحمة لهم؛ إذ أنكروا بعثه للرسول وإنزاله للكتب.

والقائلون هم: اليهود؛ بدليل ما بعده، وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار نبوة محمد ﷺ، وروي أن الذي قالها منهم مالك بن الصَّيْف، فردَّ الله عليهم بأن ألزمهم ما لا بدَّ لهم من الإقرار به؛ وهو إنزال التوراة على موسى.

وقيل: القائلون قريش، وألزموا ذلك؛ لأنهم كانوا مقرِّين بالتوراة.

﴿وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ الخطاب: لليهود، أو لقريش؛ على وجه إقامة الحجة والردَّ عليهم في قولهم: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾.

فإن كان لليهود: فالذي علَّموه: التوراة.

وإن كان لقريش: فالذي علَّموه: ما جاء به محمد ﷺ.

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ جواب: ﴿مَنْ أَنْزَلَ﴾ ، واسم ﴿اللَّهُ﴾ :

مرفوعٌ بفعل مضمر ؛ تقديره : أنزله الله .

أو مرفوع بالابتداء .

﴿وَلِنُنْذِرَ﴾ عطفتُ على صفة الكتاب .

﴿أَمْ أَلْقَى﴾ مكة ، وسميت أم القرى :

لأنها مكان أول بيت وضع للناس .

ولأنه جاء أن الأرض دُحيت منها .

ولأنها يحجُّ إليها أهل القرى من كل فجٍ عميق .

﴿أَوْ قَالَ أُوْحَىٰ إِلَىٰ﴾ هو مُسَيِّمَةٌ وغيره من الكذابين الذين ادَّعوا النبوة .

﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ هو النَّضْر بن الحارث ؛ لأنه عارض

القرآن ، واللفظ عام فيه وفي غيره من المستهزئين .

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ جوابه محذوف ؛ تقديره : لرأيت أمراً عظيماً .

﴿الظَّالِمُونَ﴾ :

مَنْ تقدَّم ذكره من اليهود والكذابين والمستهزئين ؛ فتكون اللام للعهد .

أو أعمُّ من ذلك ؛ فتكون للجنس .

﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي : تبسط الملائكة أيديهم إلى الكفار ، يقولون لهم :

﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ؛ وهذه عبارة عن التَّعْنِيف في السَّيَاق ، والشَّدة في

قبض الأرواح .

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ :

ذلك ^(١) الوقتَ بعينه .

أو الوقت الممتدَّ من حينئذٍ إلى الأبد .

﴿الْهَوْنِ﴾ الدَّلة .

﴿فَرْدَى﴾ منفردين :

عن أموالكم وأولادكم .

أو عن شركائكم .

والأول يترجَّح بقوله ^(٢) : ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ﴾ ؛ أي : ما أعطيناكم من الأموال والأولاد .

ويترجح الثاني بقوله : ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾ .

﴿تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ تَفَرَّقَ شَمْلُكُمْ .

ومن قرأه بالرفع :

أسند الفعل إلى الظرف واستعمله استعمال الأسماء .

أو يكون اليبين بمعنى الفُرقة ، أو بمعنى الوصل .

ومن قرأه بالنصب : فالفاعل :

مصدرُ الفعل .

أو محذوفٌ ؛ تقديره : تقطع الاتصال بينكم .

(١) في ب، د، هـ : «بذلك» .

(٢) في أ، ب، ج، هـ : «لقوله» .

[﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى دَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَفُوا لَهُ، يَنْبَنٍ وَبَنَتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْآبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾].

﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ أي: يفلق الحب تحت الأرض؛ لخروج النبات منها، ويفلق النوى؛ لخروج الشجر منها.

وقيل: أراد الشَّقِينَ اللذين في النواة والحِنطة.

والأول أرجح؛ لعمومه في أصناف الحبوب.

﴿يُخْرِجُ الْحَى﴾ تقدم في «آل عمران»^(١).

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ معطوف على ﴿فَالِقُ﴾.

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ أي: الصبح؛ فهو مصدر سُمِّي به الصبح، ومعنى فَلَقَهُ: إخراجُه من الظلمة.

وقيل: إن الظلمة هي التي تنفلق عن الصبح، فالتقدير: فالفُ ظلمة الإصباح.

﴿سَكَنًا﴾ أي: يُسَكِّنُ فيه عن الحركات وَيُسْتَرَأُ.

﴿حُسْبَانًا﴾ أي: يُعَلِّمُ بهما حساب الأزمان والليل والنهار.

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ما أحسنَ ذِكْرَ هذين الاسمين هنا!؛ لأن العزيز يغلب كل شيء ويقهره، وهو قد قهر الشمس والقمر وسخرهما كيف شاء، والعليم لما في تقدير الشمس والقمر والليل والنهار من العلوم والحكمة العظيمة وإتقان الصنعة.

﴿فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أي: في ظلمات الليل في البر والبحر، وأضاف الظلمات إليهما لملا بستها^(١) لهما.

أو شبه الطرق المشتبهة بالظلمات.

﴿فَسَتَرٌ وَمُتَوَدِّعٌ﴾ مَنْ كَسَرَ الْقَافَ مِنْ ﴿مُسْتَقِرٌّ﴾: فهو اسم فاعل، و﴿مُسْتَوْدَعٌ﴾ اسم مفعول، والتقدير: فمنكم مستقرٌّ ومستودعٌ.

وَمَنْ فَتَحَهَا: فهو اسم مكان أو مصدر، و﴿مُسْتَوْدَعٌ﴾ مثله، والتقدير على هذا: لكم مستقرٌّ ومستودعٌ.

والاستقرار: في الرَّجْمِ، والاستيداع: في الصُّلْبِ.

(١) في د: «لمناستها».

وقيل: الاستقرار: فوق الأرض، والاستيداع: تحتها.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ الضمير يعود على الماء.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ الضمير عائد على النبات.

﴿خَضِرًا﴾ أي: أخضر غصًا، وهو يتولد من أصل النبات من الفِراخ.

﴿نُخْرِجُ مِنْهُ﴾ الضمير عائد على الخضر.

﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ يعني: السُّنْبُل؛ لأنَّ حَبَّهُ بعضه على بعض، وكذلك الرُّمَان وشبهها.

﴿قِنَوَانٌ﴾ جمع قِنْو، وهو العنقود من التمر.

وهو مرفوع بالابتداء، وخبره ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾، و﴿مِنْ طَلْمِهَا﴾ بدل.

والطَّلَع: أول ما يخرج من التمر في أكمامه.

﴿دَائِنَةٌ﴾ أي: قريبة سهلة للتناول.

وقيل: قريب بعضها من بعض.

﴿وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ بالنصب؛ عطفاً على ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقرئ - في غير السبع - بالرفع؛ عطفاً على ﴿قِنَوَانٌ﴾.

﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِّهٍ﴾ نَضَبٌ على الحال:

مِنْ ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾.

أو من كلِّ ما تقدَّم من النبات.

والمشتبه والمتشابه بمعنى واحد؛ أي: مِنَ النبات ما يشبه بعضه بعضًا

في اللون والطعم والصورة، ومنه ما لا يشبه بعضه بعضًا، وفي ذلك دليلٌ قاطع على الصانع المختار القدير^(١) العليم المريد.

﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ أي: انظروا إلى ثمره أول ما يخرج ضعيفًا لا منفعة فيه، ثم يُنقل من حال إلى حال حتى يَنْعَ؛ أي: يَنْضَجَ ويطيب.

﴿شُرَكَاءَ الْجَنِّ﴾ نَصْبُ ﴿الْجَنِّ﴾ على أنه:

مفعول أول لـ ﴿جَعَلُوا﴾، و﴿شُرَكَاءَ﴾ مفعول ثانٍ، وقُدِّم لاستعظام الإشراك.

أو ﴿شُرَكَاءَ﴾ مفعول أول، و﴿لِلَّهِ﴾ في موضع المفعول الثاني، و﴿الْجَنِّ﴾ بدلٌ من ﴿شُرَكَاءَ﴾.

والمراد بهم هنا:

الملائكة؛ وذلك ردُّ على من عبدهم.

وقيل: المراد الجن، والإشراك بهم: طاعتهم.

﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ الواو للحال، والمعنى: الرَّدُّ عليهم؛ أي: جعلوا لله شركاء وهو خلقهم.

والضمير عائد: على الجن، أو على الجاعلين؛ والحجة قائمة على الوجهين.

(١) في ب، ج، هـ: «العزیز».

﴿وَحَرِّفُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ أي: اختلقوا وزوّروا، والبنين قول النصارى في المسيح، واليهود في عزيز، والبنات قول العرب في الملائكة.

﴿بَغْيَرٍ عَلِيمٍ﴾ أي: قالوا ذلك بغير دليل؛ بل مجرد افتراء.

﴿بَدِيعٌ﴾ ذَكَرَ معناه في «البقرة»^(١)، ورفع على أنه:

خبرُ ابتداءٍ مضمير.

أو مبتدأ وخبره: ﴿أَنِّي يَكُونُ﴾.

أو فاعلٌ ﴿تَعْلَى﴾.

والقصد به الردُّ على مَنْ نَسَبَ لله البنين والبنات؛ وذلك من وجهين:

أحدهما: أن الولد لا يكون إلا من جنس والده، والله تعالى متعالٍ عن الأجناس؛ لأنه مُبْدِعُهَا، فلا يصحُّ أن يكون له ولد.

والآخر: أن الله خلق السموات والأرض، ومن كان هكذا فهو غنيٌّ عن الولد وعن كل شيء.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ مسبَّبٌ عن مضمون الجملة؛ أي: مَنْ كان هكذا فهو المستحقُّ للعبادة وحده.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبَصَرُ﴾ يعني: في الدنيا، وأما في الآخرة؛ فالحقُّ أن المؤمنين يرون ربهم؛ بدليل قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُهَا نَاطِرَةً﴾ [القيامة: ٢٣]، وقد جاءت في ذلك أحاديثٌ صحيحةٌ صريحةٌ المعنى، لا تحتلُّ التأويل.

وقالت الأشعرية : إن رؤية الله تعالى في الدنيا جائزة عقلاً ؛ لأن موسى سألها من الله ، ولا يسأل موسى ما هو محال .

وقد اختلف الناس هل رأى رسول الله ﷺ ربه ليلة الإسراء أم لا ؟ .

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ﴾ قال بعضهم : الفرق بين الرؤية والإدراك : أن الإدراك يتضمن الإحاطة بالشيء والوصول إلى غايته ؛ فلذلك نفى أن تدرك أبصارُ الخلق ربهم ، ولا يقتضي ذلك نفى الرؤية ؛ وحسن على هذا قوله : ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ﴾ ؛ لإحاطة علمه تعالى بالخفيات .

﴿اللطيفُ الخبيرُ﴾ أي : لطف عن أن تدركه الأبصار ، وهو الخبير بكل شيء ؛ فهو يدرك الأبصار .

[قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٦٦﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٦٧﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٦٩﴾ وَلَا تَسْأَلُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْأَلُوكَ اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٠﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧١﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٧٢﴾ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَلَكَّمْهُمُ الْوَقْوَ وَحْشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١٧٣﴾] .

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ﴾ جمع بصيرة؛ وهي نور القلب، والبصر نور العين .
وهذا الكلام على لسان النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ .
﴿وَلَيَقُولُوا﴾ متعلق بمحذوف؛ تقديره: ليقولوا؛ صرفنا الآيات .
﴿دَرَسَتْ﴾ - بإسكان السين وفتح التاء-؛ أي: درست العلم وقرأته .
و﴿دَارَسَتْ﴾ - بالالف-؛ أي: دارست العلماء وتعلمت منهم .
و﴿دَرَسَتْ﴾ - بفتح السين وإسكان التاء-؛ بمعنى: قدّمت هذه الآيات
ودثرت .

﴿وَلَيُنَبِّئَنَّ﴾ الضمير للآيات، وجاء مذكراً؛ لأن المراد بها القرآن .
﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ إن كان معناه: أعرض عما يدعونك إليه، أو عن
مجادلتهم فهو مُحْكَم .

وإن كان: عن قتالهم وعقابهم فهو منسوخ.

وكذلك: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ و﴿بَوَكِيلٍ﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: لا تسبوا آلهتهم فيكون ذلك سبباً لأن يسبوا الله.

واستدلَّ المالكية بهذا على سدِّ الذرائع.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: هي بيد الله لا بيدي.

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ أي: ما يُدْرِيكُم؛ وهو من الشعور بالشيء.

و«ما»: نافية، أو استفهامية.

﴿أَنَّهَُا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مَنْ قرأ بفتح ﴿أَنَّهَُا﴾:

فهو معمولٌ ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾؛ أي: ما يدريكُم أن الآيات إذا جاءتهم لا يؤمنون بها؟!، نحن نعلم ذلك وأنتم لا تعلمونه.

وقيل: ﴿لَا﴾ زائدة؛ والمعنى: ما يُشْعِرُكم أنهم يؤمنون.

وقيل: «أَنَّ» هنا بمعنى «لعل».

وَمَنْ قرأ بالكسر: فهي استئنافٌ إخباري، وتَمَّ الكلام في قوله: ﴿وَمَا

يُشْعِرُكُمْ﴾؛ أي: ما يشعركم ما يكون منهم.

فعلى القراءة بالكسر: يوقف على ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾.

وأما على القراءة بالفتح:

فإن كانت «أَنَّ» مصدرية لم يوقف عليه؛ لأنه عاملٌ فيها.

وإن كانت بمعنى «لعلَّ»: فأجاز بعض الناس الوقف، ومنعه شيخنا أبو جعفر بن الزبير؛ لما في «لعلَّ» من معنى التعليل.

﴿وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ﴾ أي: نطبع عليها ونصدّها عن الفهم فلا يفقهون.

﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ الكاف للتعليل؛ أي: نطبع على أفئدتهم وأبصارهم؛ عقوبة لهم على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة.

ويحتمل أن تكون للتشبيه؛ أي: نطبع عليها إذا رأوا الآيات مثل ما طبّعنا عليها أول مرة.

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ الآية؛ ردّ عليهم في قسّمهم أنهم لو جاءتهم آية لآمنوا بها؛ أي: لو أعطيناهم هذه الآيات التي اقترحوها وكلّ آية لم يؤمنوا إلّا أن يشاء الله.

﴿قَبَلًا﴾ - بكسر القاف وفتح الباء -؛ أي: معاينةً، فنصّبهُ على الحال.

وقرئ بضمّتين؛ ومعناه: مواجهةً؛ كقوله: ﴿قَدْ مِنْ قُبُلٍ﴾ [يوسف: ٢٦].

وقيل: هو جمع قَبِيلٍ بمعنى كفيل؛ أي: كُفَلَاء بتصديق رسول الله ﷺ.

[وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٧٢﴾ وَلِنَصْغِي إِلَيْهِ أَفِئْدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١٧٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُكَلِّبُ يَكْمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٧٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٧٥﴾ وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٧٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١٧٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخِرَ إِلَى أُولِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُوهُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٨١﴾] .

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ الآية؛ تسليّة للنبي ﷺ بالتأسي بغيره .

﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ أي: المتمردين من الصنفين، ونصب

﴿شَيْطَانٍ﴾ :

على البدل من ﴿عَدُوًّا﴾؛ إذ هو بمعنى الجمع .

أو مفعول أول، و﴿عَدُوًّا﴾ مفعول ثان .

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: يوسوس ويلقي الشر .

﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ ما يزينه من القول .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ الضمير عائدٌ :

على وحيهم .

أو على عداوة الكفار .

﴿فَذَرَّهُمْ﴾ وعيدٌ .

﴿وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ «ما» في موضع نصب ؛ على أنها :

مفعولٌ معه .

أو عطفت على الضمير .

﴿وَلِنَصْنَعَنَّ﴾ أي : تميل ، وهو متعلق بمحذوف ، واللام لام الصيرورة .

﴿إِلَيْهِ﴾ الضمير لوجيهم .

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ يكتسبوا .

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ معمولٌ لقول محذوف ؛ أي : قل لهم .

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ أي : صَحَّتْ ، والكلمات : ما نزل على عباده

من كتبه .

﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي : صدقًا فيما أخبر ، وعدلًا فيما حَكَم .

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ القصد بهذا الأمر : إباحة ما ذُكِرَ اسم الله

عليه ، والنهي عما ذبح للنُصْب وغيرها ، وعن الميتة ، وهذا النهي يقتضيه

دليل الخطاب من الأمر ، ثم صرَّح به في قوله : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ

اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ .

وقد استدللّ بذلك مَنْ أوجب التسمية على الذبيحة، وإنما جاء الكلام في سياق تحريم الميتة وغيرها، فإن حملناه على ذلك لم يكن فيه دليلٌ على وجوب التسمية في ذبائح المسلمين، وإن حملناه على عمومه كان فيه دليل على ذلك.

وقال عطاء: هذه الآية أمرٌ بذكر الله على الذبح والأكل والشرب^(١).
﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ المعنى: أي غرض لكم في ترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه وقد بين لكم الحلال من الحرام؟
﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ استثناءٌ مما حرّم.
﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ لفظٌ يعمُّ أنواع المعاصي؛ لأن جميعها إما باطن وإما ظاهر.

وقيل: الظاهر: الأعمال، والباطن: الاعتقاد.
﴿وَإِنَّهُ لَفَسَقٌ﴾ الضمير لمصدر ﴿لَا تَأْكُلُوا﴾.
﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُوكُمْ﴾ سببها: أن قومًا من الكفار قالوا: إننا نأكل ما قتلنا، ولا نأكل ما قتل الله -يعنون الميتة-!.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/٥١١-٥١٢).

[﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ كَذَلِكَ زُينَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِیُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٤﴾ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنُّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٧﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَصَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٨﴾].

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ الموت هنا: عبارة عن الكفر، والإحياء: عبارة عن الإيمان، والنور: نور الإيمان، والظلمات: الكفر؛ فهي استعارات.

وفي قوله: ﴿مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ مطابقة؛ وهي من أدوات البيان.

ونزلت الآية في عمار بن ياسر، وقيل: في عمر بن الخطاب.

والذي في الظلمات: أبو جهل.

ولفظها أعم من ذلك.

﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ مثل هنا : بمعنى صفة ، وقيل : هوزائد ؛ والمعنى : كمن هو .
 ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا﴾ أي : كما جعلنا في مكة أكابرها
 ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية ، وإنما ذُكر الأكابر ؛ لأن غيرهم تبع لهم ،
 والمقصود : تسلية النبي ﷺ .

﴿مُجْرِمِيهَا﴾ إعرابه :

مضاف إليه عند الفارسي وغيره .

وقال ابن عطية وغيره : إنه مفعولٌ أول لـ ﴿جَعَلْنَا﴾ ، و﴿أَكْبَرًا﴾ مفعولٌ
 ثانٍ مقدّم^(١) ، وهذا جيدٌ في المعنى ضعيفٌ في العربية ؛ لأن ﴿أَكْبَرًا﴾
 جمع أكبر وهو من أفعَلَ ؛ فلا يستعمل إلا بـ «من» أو بالإضافة .
 ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ﴾ الآية ؛ قال^(٢) هذه المقالة أبو جهل .

وقيل : الوليد بن المغيرة ؛ لأنه قال : أنا أولى بالنبوة من محمد .

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ردُّ عليهم فيما طلبوه ، والمعنى : أن
 الله عليمٌ أن محمداً ﷺ أهلٌ للرسالة ، فخصَّه بها ، وعلم أنهم ليسوا بأهلٍ
 لها فحرمهم إيَّها .

وفي الآية من أدوات البيان : التريديد ؛ لكونه ختم كلامهم باسم الله ، ثم
 رده في أول كلامه .

﴿صَغَارٌ﴾ أي : ذلَّة .

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤٥٣) .

(٢) في د : «قائل» .

﴿يَشْرَحُ صَدْرُهُ﴾ شَرَحَ الصدر، وَضِيْقُهُ، وَحَرَجُهُ: ألفاظٌ مستعارة.

ومن قرأ ﴿حَرَجًا﴾ -بفتح الراء-: فهو مصدرٌ وُصِفَ به.

﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: كأنما يحاول الصعود في السماء، وذلك غير ممكن؛ فكذلك يصعب عليه الإيمان.

وأصل ﴿يَصْعَدُ﴾ المشدد: يتصعد، وقرئ بالتخفيف.

﴿دَارُ السَّلَامِ﴾ الجنة، والسَّلام هنا يَحْتَمِلُ أن يكون:

اسم الله، فأضافها إليه؛ لأنها مُلْكُهُ وَخَلْقُهُ.

أو بمعنى السلامة.

أو التحية.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾ محذوف؛ تقديره: اذكر.

أو تقديره: قلنا، ويكون -على هذا- عاملاً في ﴿يَوْمَ﴾ وفي ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ﴾.

﴿أَسْتَكَثَرْتُ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أي: أضللتهم منهم كثيراً، وجعلتهم أتباعكم؛ كما تقول: استكثر الأمير من الجيش.

﴿أَسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ استمتع الجن بالإنس: طاعتهم لهم، واستمتع الإنس بالجن: كقوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنَّ﴾ [الجن: ٦] فإن الرجل كان إذا نزل وادياً قال: أعوذ بصاحب هذا الوادي -يعني: كبير الجن-.

﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا﴾ هو الموت، وقيل: الحشر.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قيل: الاستثناء من الكاف والميم في ﴿مَتَّوْنَكُمْ﴾؛ فـ«ما» بمعنى «مَنْ»؛ لأنها وقعت على صنف من الجن والإنس، والمستثنى على هذا: مَنْ آمَنَ منهم.

وقيل: الاستثناء من مدّة الخلود، وهو الزمان الذي بين حشرهم إلى دخول النار.

وقيل: الاستثناء من النار، وهو دخولهم الزمهرير.

وقيل: ليس المراد هنا بالاستثناء الإخراج، وإنما هو على وجه الأدب مع الله، وإسناد الأمور إليه.

﴿تُوَلَّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ أي: نجعل بعضهم وليًا لبعض.

وقيل: تُتَّبَعُ بعضهم بعضًا في دخولهم النار.

وقيل: نَسَلَتْ بعضهم على بعض.

[يَمْعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُزِدُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾].

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ تقرير للجن والإنس؛ فقل: إن الجن بُعث فيهم رسلٌ منهم؛ لظاهر الآية.

وقيل: إنما الرسل من الإنس خاصة؛ وإنما قال: ﴿رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾؛ لأنه جمَعَ الثقيلين في الخطاب.

﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ لا تنافي بينه وبين قولهم: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ لما تقدّم هناك.

فإن قيل: لم كرّر شهادتهم على أنفسهم؟

فالجواب: أن قولهم: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ قولٌ قالوه هم، وقوله: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ ذمٌ لهم، وتقبيحٌ لحالهم.

﴿ذَلِكَ﴾ خبر ابتداء مضمر؛ تقديره: الأمر ذلك.

أو مفعولٌ بفعل مضمر؛ تقديره: فعلنا ذلك.

والإشارة إلى بعث الرسل .

﴿أَنْ لَّمْ يَكُنْ﴾ تعليلٌ لبعث الرسل .

وهو في موضع مفعول من أجله ، أو بدلٌ من ﴿ذَلِكَ﴾ .

﴿يُظْلَمُ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الله لم يكن ليُهلك القرى دون بعث رسل إليهم ، فيكون إهلاكهم ظلماً ؛ إذ لم يُنذِرهم ، فهو كقوله : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء : ١٥] .

والآخر : أن الله لا يهلك القرى بظلم إذا ظلموا دون أن يُنذِرهم ؛ ففاعل الظلم - على هذا - : أهل القرى ، وغفلتهم : عدم إنذارهم .

حكى الوجهين ابن عطية والزمخشري^(١) ، والوجه الأول صحيح^(٢) على مذهب المعتزلة ، ولا يصحُّ على مذهب أهل السنة ؛ لأن الله لو أهلك عباده بغير ذنب لم يكن ظالماً عندهم^(٣) .

(١) انظر : المحرر الوجيز (٣/٤٦٣) ، والكشاف (٦/٢٥٠) .

(٢) هذه الكلمة لم ترد في أ ، ب ، ج ، هـ .

(٣) قال الشيخ عبد الرحمن البراك : قوله : «ولا يصح على مذهب أهل السنة» ، يريد الأشاعرة ، فمن مذهبهم أن كلَّ ممكنٍ جائزٌ على الرب فعله ؛ فعندهم يجوز أن يعذب أوليائه ، وأن ينعم أعداءه ، فعليه : يجوز أن يعذب من شاء بغير ذنب ، أو يعذبه بذنب غيره ، ومنشأ هذا المذهب هو أن مردَّ أفعال الله تعالى وشرعه محضُ المشيئة ، فلا حكمة ولا غاية في مفعولاته ومأموراته ، والظلم عندهم هو المستحيل لذاته ، كالجمع بين النقيضين ، قال ابن القيم :

والظلمُ عندهم المحالُّ لذاته أنى ينزه عنه ذو السُّلطان =

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ﴾ أي: منازل في الجزاء على أعمالهم؛ من الثواب والعقاب.

﴿مِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: من ذرية أهل سفينة نوح، أو مَنْ كان قبلهم إلى آدم.
﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ﴾ الأمر هنا للتهديد، والمكانة: التمكن.
﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد.

﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ﴾ يحتمل أن تكون «مَنْ»:

موصولة في موضع نصبٍ على المفعولية.

أو استفهامية في موضع رفعٍ بالابتداء.

﴿عَقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي: الآخرة، أو الدنيا، والأول أرجح؛ لقوله: ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿جَنَّتْ عَدْنٌ﴾ [الرعد: ٢٢ - ٢٣].



= وأما الظلم عند أهل السنة والجماعة، فهو أن يعذب أحدا بغير ذنب، أو يعذبه بذنب غيره، وقد حرّم الله تعالى ذلك على نفسه، قال في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا»، وقد نزه الله نفسه عن الظلم في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، والظلم عند أهل السنة مقدور له، لكنه لا يفعله لكمال عدله وحكمته، وأما الظلم عند الأشاعرة فهو غير مقدور له، والمدح والكمال في ترك الظلم مع القدرة عليه.

[وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغِمِهِمْ وَهَذَا لَشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرْتُ حَجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرْغِمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ طُهْرُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُونِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلَيْهِمْ ﴿١٢٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٣٠﴾].

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الضمير في ﴿جَعَلُوا﴾ لكفار العرب.

قال السهيلي: هم حيٌّ من خَوْلَانٍ، يقال لهم: الأديم، كانوا يجعلون من زروعهم وثمارهم ومن أنعامهم نصيباً لله ونصيباً لأصنامهم^(١).

ومعنى ﴿ذَرَأَ﴾: خلق وأنشأ؛ ففي ذلك ردُّ عليهم؛ لأن الله الذي خلقها وذراها هو مالکها لا ربٌّ غيره.

﴿بِرْغِمِهِمْ﴾ أي: بدعواهم وقولهم من غير دليل ولا شرع، وأكثر ما يقال الزعم: في الكذب.

(١) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي (ص: ١٠٥).

وقرئ بفتح الزاي وضمها، وهما لغتان.

﴿فَمَا كَانَتْ إِشْرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية؛ كانوا إذا هبَّت
الريح فحملت شيئاً من الذي لله إلى الذي للأصنام أقرؤه، وإذا حملت شيئاً
من الذي للأصنام إلى الذي لله ردُّوه، وإذا أصابتهم سنة أكلوا نصيب الله،
وتحاموا نصيب شركائهم.

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ﴾
كانوا يقتلون أولادهم بالوَادِ، ويذبحونهم تقرُّباً إلى الأصنام.

و﴿شُرَكَائُهُمْ﴾ هنا: هم الشياطين، أو القائمون على الأصنام.

وقرأ الجمهور بفتح الزاي من ﴿زَيْنٌ﴾ على البناء للفاعل، ونُصِبَ
﴿قُتِلَ﴾ على أنه مفعول، وخَفُضَ ﴿أَوْلَادَهُمْ﴾ بالإضافة، ورَفَعَ
﴿شُرَكَائُهُمْ﴾ على أنه فاعل بـ ﴿زَيْنٌ﴾.

والشُرَكَاء على هذه القراءة: هم الذين زَيَّنوا القتل.

وقرأ ابن عامر^(١): بضم الزاي على البناء للمفعول، ورفع ﴿قُتِلَ﴾ على
أنه مفعول لم يسمَّ فاعله، ونُصِبَ ﴿أَوْلَادَهُمْ﴾ على أنه مفعول بـ ﴿قُتِلَ﴾،
وخَفُضَ ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ على الإضافة إلى ﴿قُتِلَ﴾ إضافة المصدر إلى فاعله،
وفُصِّلَ بين المضاف والمضاف إليه بقوله: ﴿أَوْلَادَهُمْ﴾، وذلك ضعيف في
العربية، وقد سُمِعَ في الشعر.

والشُرَكَاء على هذه القراءة: هم القاتلون للأولاد.

(١) في أ، ب، ج، هـ: «ابن عباس» والمثبت هو الصواب. انظر: المحرر الوجيز
(٤٦٨/٣).

﴿لِيُرَدُّوهُمْ﴾ أي: لِيُهْلِكُوهُمْ، وهو مِنَ الرَّدَى بمعنى الهلاك.

﴿أَنْفَعُ وَحَرَّتْ حِجْرُ﴾ أي: حرامٌ، وهو فِعْلٌ بمعنى مفعولٍ، نحو ذَبَحَ، فيستوي في الوصف به المذكرُ والمؤنثُ والواحد والجمع.

﴿لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ أي: لا يأكلها إِلَّا مَنْ شَاءُوا؛ وهم: القائمون على الأصنام، أو الرجال دون النساء.

﴿وَأَنْفَعُ حُرِمَتْ طُهُورُهَا﴾ أي: لا تُرَكَّبُ، وهي السائبة وأخواتها.
﴿وَأَنْفَعُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ قيل: معناه: لا يُحَجُّ عليها؛ فلا يُذكر اسم الله بالتلبية.

وقيل: لا يذكر عليها إذا ذُبِحت.

﴿أَفْتَرَاءَ عَلَيْهِ﴾ كانوا قد قَسَمُوا أنعامهم هذه الأقسام، ونسبوا ذلك إلى الله افتراءً وكذباً.

ونضبه: على الحال، أو مفعول من أجله، أو مصدر مؤكّد.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية؛ كانوا يقولون في أجنّة البحيرة والسائبة: ما وُلِدَ منها حيّاً فهو للرجال خاصة ولا يأكل منها النساء، وما وُلِدَ منها ميتاً اشترك فيه الرجال والنساء.

وَأَنْثُ ﴿خَالِصَةٌ﴾ للحمل على المعنى؛ وهي الأجنّة، وذَكَرٌ ﴿مُحَرَّمٌ﴾ حملاً على لفظ «ما».

ويجوز أن تكون التاء للمبالغة.

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: البحيرة والسائبة وشبههما.

﴿جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ﴾ مرفوعات على دعائم وشبهها، ﴿وَعَيْرَ مَّعْرُوشَاتٍ﴾ متروكات على وجه الأرض.

﴿مُخَلِّفًا أَكْلَهُ﴾ في اللون والطعم والرائحة والحجم ، وذلك دليلٌ على أن الخالق مختارٌ مُريد .

أحدهما: أن الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة.

والآخر : أن الزكاة لا تعطى يوم الحصاد، وإنما تعطى يوم^(١) ضمّ الحبوب والثمار.

وقيل : ﴿حَقَّهُ﴾ ما يتصدق به على المساكين يوم الحصاد، وكان ذلك واجباً ثم نُسِخ بالعُشر.

وقيل : هو ما يسقط من السُنبل، والأمر على هذا للندب.

﴿حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءٌ﴾ عطفٌ على ﴿جَنَّتِ﴾.

والحمولة : الكبار، والفَرَش : الصغار؛ كالعجائيل والفِضْلان.

وقيل : الحمولة : الإبل؛ لأنها يُحْمَل عليها، والفَرَش : الغنم؛ لأنها تُفَرَش للذبح، ويُفَرَش ما ينسج من صوفها.

﴿ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ﴾ بدلٌ من ﴿حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءٌ﴾، وسمّاها أزواجاً؛ لأن الذكر زوج للأنثى، والأنثى زوج للذكر.

﴿مِنَ الصَّكَّانِ اثْنَيْنِ﴾ يريد : الذكر والأنثى، وكذلك فيما بعده.

﴿قُلْ آلَذَكَرَيْنِ﴾ يعني : الذكر من الضأن والذكر من المعز، ويعني بالأنثيين : الأنثى من الضأن، والأنثى من المعز، وكذلك فيما بعده من الإبل والبقر.

والهمزة للإنكار.

﴿يَتَّبِعُونَ بَعْلَهُمْ﴾ تعجيزٌ وتوبيخ.

(١) في د : «بعده».

﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يعني: في تحريم^(١) ما لم يحرم الله، وذلك إشارة إلى العرب في تحريمهم أشياء كالبحيرة وغيرها.



(١) في د: «تحريمهم».

[﴿قُلْ لَا أَحَدٌ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِزْيِرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤٥) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٤٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَاءِ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٩) قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَايِنَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (٥٠)].

﴿قُلْ لَا أَحَدٌ﴾ الآية تقتضي حصر المحرمات فيما ذكر، وقد جاء في السنة تحريم أشياء لم تذكر هنا كالحوم الحُمْر؛ فذهب قوم إلى أن السنة نسخت هذا الحصر.

وذهب آخرون إلى أن الآية وردت على سبب؛ فلا تقتضي الحصر.

وذهب آخرون إلى أن ما عدا ما ذكر إنما نُهي عنه على وجه الكراهة، لا على وجه التحريم.

﴿أَوْ فِسْقًا﴾ معطوفٌ على المنصوبات قبله، وهو ما أُهْلَ به لغير الله،

سماء فسقًا؛ لتوغّله في الفسق، وقد تقدّم الكلام على هذه المحرمات في «البقرة»^(١).

﴿كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ هو ما له إصبع من دابة أو طائر. قاله الزمخشري^(٢). وقال ابن عطية: يراد به: الإبل والإوز والنعام ونحوه من الحيوان الذي هو غير منفرج الأصابع، و^(٣) له ظفر^(٤). وقال الماوردي مثله^(٥).

وحكى النقّاش عن ثعلب: أن كل ما لا يصيد فهو ذو ظفر، وما يصيد فهو ذو مِخْلَب، وهذا غير مطّرد؛ لأن الأسد ذو ظفر^(٦).

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ طُهُورُهُمَا﴾ يعني: ما في الظهور والجَنُوب من شحم. ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ هي المباعر^(٧).

وقيل: المصارين والحشوة ونحوهما مما يتحوّى في البطن. وواحد حوايا حَوِيَّة؛ على وزن فَعِيلَة؛ فوزن حوايا على هذا فَعَائِل؛ كصحيفة وصحائف.

(١) انظر: ٣٩٤/١.

(٢) انظر: الكشف (٢٧٨/٦).

(٣) في أ، ب: «أو».

(٤) انظر: المحرر الوجيز (٤٨٣/٣).

(٥) انظر: تفسير الماوردي «النكت والعيون» (١٨٣/٣).

(٦) انظر: المحرر الوجيز (٤٨٣/٣).

(٧) المباعر: جمع مَبْعَر، وهو مكان اجتماع البع في البطن من كل ذي أربع. لسان العرب (١٣٨/٥).

وقيل: واحدها حاوية؛ على وزن فاعلة؛ فحوايا - على هذا - فواعل؛ كضاربة وضوارب.

وهو معطوفٌ على ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾، فهو من المستثنى من التحريم.

وقيل: عطفتُ على الظهور؛ فالمعنى: إلا ما حملت الظهور، أو حملت الحوايا.

وقيل: عطفتُ على الشحوم؛ فهو من المحرّم.

﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يريد: في جميع الجسد.

﴿وَإِنَّا لَصَدُوقُونَ﴾ أي: فيما أخبرنا به من التحريم، وفي ذلك تعريضٌ بكذب مَنْ حرّم ما لم يحرم الله.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ أي: إن كذبوك فيما أخبرت به من التحريم فقل لهم: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾؛ إذ لا يعاجلكم بالعقوبة على شدة جرمكم، وهذا كما تقول عند رؤية معصية: ما أحلم الله!؛ تريد: لإمهاله عن مثل ذلك.

ثم أعقب وصفه بالرحمة الواسعة بقوله: ﴿وَلَا يَرُدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: لا تغتروا بسعة رحمته؛ فإنه لا يردُّ بأسه عن مثلكم إما في الدنيا أو في الآخرة.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ الآية؛ معناها: أنهم يقولون: إن شركهم وتحريمهم لما حرّموا كان بمشيئة الله، ولو شاء الله أن

لا يفعلوا ذلك ما فعلوه، فاحتجوا على صحة ذلك بإرادة الله له، وتلك نزغة جبرية، ولا حجة لهم في ذلك؛ لأنهم مكلفون مأمورون ألا يشركوا بالله، ولا يحرموا ما حلل الله، والإرادة خلاف التكليف.

ويحتمل عندي أن يكون قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قولاً يقولونه في الآخرة على وجه التمني أن ذلك لم يكن؛ كقولك إذا ندمت على شيء: لو شاء الله ما كان هذا؛ أي: تتمنى أن ذلك لم يكن، ويؤيد هذا: أنه حكى قولهم بأداة الاستقبال، وهي السين؛ فذلك دليل على أنهم يقولونه في المستقبل وهي الآخرة.

﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ توقيف لهم وتعجيز.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ﴾ لما أبطل حجَّتهم أثبت حجة الله؛ ليظهر الحق ويبطل الباطل.

﴿هَلَمْ﴾ قيل: هي بمعنى «هات»؛ فهي متعدية.

وقيل: بمعنى «أقبل»؛ فهي غير متعدية.

وهي عند بعض العرب: فعل يتصل به ضمير الاثنين والجماعة والمؤنث. وعند بعضهم: اسم فعل؛ فيخاطب بها الواحد والاثنان والجماعة والمؤنث على حد سواء.

ومقصود الآية: تعجيزهم عن إقامة الشهداء.

﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي: إن كذبوا في شهادتهم وزوروا فلا تشهد بمثل شهادتهم.

[﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَنَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥١)] وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَنَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَنَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾].

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أمر الله نبيه ﷺ أن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم عليهم.

وذكر في هذه الآيات المحرمات التي أجمعت عليها جميع الشرائع ولم تُنسخ قط في ملة.

وقال ابن عباس: هي الكلمات العشر التي أنزل الله على موسى^(١).

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ قيل: «أن» هنا: حرف عبارة وتفسير؛ فلا موضع لها من الإعراب، و«لا» ناهية جازمت الفعل.

وقيل: «أن» مصدرية في موضع رفع؛ تقديره: الأمر أن لا تشركوا؛ ف«لا» على هذا نافية.

(١) لم أقف على إسناده إلى ابن عباس، وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز (٣/ ٤٩٠) بقوله: «وقد قيل: إنها العشر... إلخ، ولم ينسبه لأحد.

وقيل : «أن» في موضع نصبٍ بدلًا من قوله : ﴿مَا حَرَّمَ﴾ ، ولا يصح ذلك إلا إن كانت «لا» زائدةً ، وإن لم تكن زائدةً فسَدَ المعنى ؛ لأن الذي حرم على ذلك يكون تركُ الإشراك .

والأحسن عندي : أن تكون «أن» مصدرية في موضع نصب على البدل و«لا» نافية ، ولا يلزم ما ذكر من فساد المعنى ؛ لأن قوله : ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ معناه : ما وصّاكم به ربكم ؛ بدليل قوله في آخر الآية : ﴿ذَلِكَهُ وَصَّكُمْ بِهِ﴾ فضمّن التحريم معنى الوصية ، والوصية في المعنى أعم من التحريم ؛ لأن الوصية تكون بتحريم وبتحليل ووجوب وندب ، ولا يُنكر أن يريد بالتحريم الوصية ؛ لأن العرب قد تذكر اللفظ الخاص وتريد به العموم ، كما تذكر اللفظ العام وتريد به الخصوص .

فإذ تقرر هذا ؛ فتقدير الكلام : قل تعالوا أتل ما وصّاكم به ربكم ، ثم أبدل منه على وجه التفسير له والبيان ؛ فقال : ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ؛ أي : وصّاكم أن لا تشركوا به شيئًا ، ووصّاكم بالإحسان بالوالدين ، ووصّاكم أن لا تقتلوا أولادكم ، فجَمَعَت الوصية تركُ الإشراك وفعل الإحسان بالوالدين وما بعد ذلك .

ويؤيد هذا التأويل الذي تأوّلنا : أن الآيات اشتملت على أوامر ؛ كالإحسان بالوالدين ، وقول العدل ، والوفاء في الوزن ، وعلى نواهي ؛ كالإشراك ، وقتل النفس ، وأكل مال اليتيم ، فلا بد أن يكون اللفظ المقدم في أولها لفظًا يجمع الأوامر والنواهي ؛ لأنها أُجْمِلَت فيه ، ثم فُسِّرَت بعد ذلك ، ويصلح لذلك لفظ الوصية ؛ لأنه جامع للأمر والنهي ، فلذلك

جعلنا التحريم بمعنى الوصية، ويدل على ذلك : ذكر لفظ الوصية بعد ذلك .
 وإن لم يتأول على ما ذكرناه : لزم في الآية إشكالٌ ؛ وهو عطف الأوامر
 على النواهي ، وعطف النواهي على الأوامر ، فإن الأوامر تُطلب فعلها ،
 والنواهي تُطلب تركها ، وواو العطف تقتضي الجمع بين المعطوف
 والمعطوف عليه ، ولا يصحُّ ذلك إلا على الوجه الذي تأولناه من عموم
 الوصية للفعل والترك .

وتَحتمل الآية ^(١) عندي تأويلاً آخر ؛ وهو : أن يكون لفظ التحريم على
 ظاهره ، ويعمُّ فعل المحرمات ، وترك الواجبات ؛ لأن ترك الواجب حرامٌ .
 ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ الإملاق : الفاقة ، و﴿مِنْ﴾ هنا للتعليل ؛
 تقديرها : من أجل إملاق .

وإنما نهى عن قتل الأولاد لأجل الفاقة ؛ لأن العرب كانوا يفعلون ذلك ،
 فخرج مخرج الغالب ، فلا يُفهم منه إباحة قتلهم لغير ذلك الوجه .
 ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ﴾ قيل : ﴿مَا ظَهَرَ﴾ : الزنا ، ﴿وَمَا بَطَنٌ﴾ :
 اتخاذ الأخدان .

والصحيح : أن ذلك عمومٌ في جميع الفواحش .

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فسره قولُ رسول الله ﷺ :
 « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : زنا بعد إحصان ، أو كفر بعد

(١) في د : «أيضاً» .

إيمان، أو قتل نفس بغير نفس»^(١).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النهي عن القرب يعمّ وجوه التصرف، وفيه سدّ الذريعة؛ لأنه إذا نهى عن أن يقرب^(٢) المال فالنهي عن أكله أولى وأحرى.

والتي هي أحسن: منفعة اليتيم وتشمير ماله.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ هو البلوغ مع الرشد، وليس المقصود هنا السنّ وحده، وإنما المقصود: معرفته بمصالحه.

﴿لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لما أمر بالقسط في الكيل والوزن، وقد علم أن القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجري فيه الحرج ولا يتحقق الوصول إليه؛ أمر بما في الوسع من ذلك، وعفا عما سواه.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: ولو كان المقول له أو عليه في شهادة أو غيرها من أهل قرابة القائل؛ فلا ينبغي أن يزيد ولا ينقص، بل يعدل.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي﴾ الإشارة بـ ﴿هَذَا﴾:

إلى ما تقدّم من الوصايا.

أو إلى جميع الشريعة.

و«أَنَّ» بفتح الهمزة والتشديد:

عطف على ما تقدّم.

(١) أخرجه أحمد (٤٣٧)، وأبو داود (٤٥٠٢)، والترمذي (٢١٥٨)، والنسائي (٤٠٢٤).

(٢) في د: «عن قرب».

أو مفعول من أجله ؛ أي : فاتبعوه ؛ لأن هذا صراطي مستقيماً .

وقرئ بالكسر ؛ على الاستئناف .

وبالفتح والتخفيف ؛ على العطف ، وهي على هذا مخففة من الثقيلة .

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الطرق المختلفة في الدين ؛ من اليهودية والنصرانية وغيرها من الأديان الباطلة ، ويدخل فيه أيضاً : البدع والأهواء المضلّة .

وفي الحديث : أن النبي ﷺ خطّ خطاً ، ثم قال : «هذا سبيل الله» ، ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله ، ثم قال : «هذه كلّها سبلٌ ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»^(١) .

﴿فَنَفَرَقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي : تُفَرِّقُكُمْ عن سبيل الله ، والفعل مستقبل ؛ حذفت منه تاء المضارعة ، ولذلك شدّده البرّي .

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا﴾ معطوفٌ على ﴿وَصَنَّاكُمْ بِهِ﴾ .

فإن قيل : فإن إيتاء موسى الكتاب متقدّم على هذه الوصية ، فكيف عطفه عليها بـ «ثم» ؟ .

فالجواب : أن هذه الوصية قديمة لكل أمة على لسان نبيها ، فصَحَّ الترتيب .

وقيل : إنها هنا لترتيب الإخبار والقول ، لا لترتيب الزمان .

﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن المعنى : تَمَامًا للنعمة على الذي أحسن من قوم موسى ،

(١) أخرجه أحمد (٤١٤٢) ، والنسائي في الكبرى (٩٥ / ١٠) .

ففاعل ﴿أَحْسَنَ﴾ ضمير يعود على ﴿الَّذِي﴾ ، و﴿الَّذِي أَحْسَنَ﴾ يراد به :
جنس المحسنين .

والآخر : أن المعنى : تمامًا ؛ أي : تفضُّلاً ، أو جزاءً على ما أحسن موسى
ﷺ من طاعة ربه وتبليغ رسالته ، فالفاعل على هذا ضمير موسى ﷺ ،
و﴿الَّذِي﴾ صفة لعمل موسى .

والثالث : تمامًا ؛ أي : إكمالاً على ما أحسن الله به إلى عباده ،
فالفاعل ^(١) على هذا ضمير الله تعالى .



(١) في أ ، ب ، هـ : «الفاعل» .

[وَهَذَا كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾] أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَرَأُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا يَشِيعَا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلِ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلِ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلِ أَغَيْرَ اللَّهِ أَنْبَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَارِدَهُ وَزُرْ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾] .

﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ في موضع مفعولٍ من أجله ؛ تقديره : كراهةً أَنْ تَقُولُوا .

﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ﴾ أهل التوراة والإنجيل .

﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ﴾ أي : لم ندرس مثل دراستهم ولم نعرف

ما درسوا من الكتب فلا حجة علينا ، ﴿وَإِنْ﴾ هنا مخففة من الثقيلة .

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ إقامة حجة عليهم .

﴿وَصَدَفَ﴾ أَعْرَضَ .

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ الآية ؛ تقدّمت نظيرتها في «البقرة»^(١) .

﴿بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ أشرائط الساعة ؛ كطلوع الشمس من مغربها ، فحينئذ لا يقبل إيمان كافر ، ولا توبة عاصٍ .

فقوله : ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا﴾ يعني : أن إيمان الكافر لا ينفعه حينئذ .

وقوله : ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ يعني : أن من كان مؤمناً ولم يكسب حسنات قبل ظهور تلك الآيات ، ثم تاب إذا ظهرت لم ينفعه ؛ لأن باب التوبة يغلق حينئذ .

﴿قُلْ أَنْظِرُوا﴾ وعيدٌ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ هم اليهود والنصارى .

وقيل : أهل الأهواء والبدع .

وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ قال : «افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافتترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» ، قيل : يا رسول الله ومن تلك الواحدة؟ قال : «من كان على ما أنا وأصحابي عليه»^(٢) .

وقرى ﴿فَارْقُوا﴾ ؛ أي : تركوا .

﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ جمع شِيعَةٍ ؛ أي : متفرّقين ، كلُّ فرقة تتشيع لمذهبها .

(١) انظر : ٤٢٧/١ .

(٢) تقدم تخريجه ٥٦٧/١ .

﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: أنت بريء منهم.

﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فضلٌ عظيم، على العموم في الحسنات، وفي العاملين، وهو أقلُّ التَّضْعِيفِ للحسنات؛ فقد ينتهي إلى سبع مئة وأزيد.

﴿دِينًا قِيمًا﴾ بدلٌ من موضع: ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ لأن أصله: هداني صراطًا؛ بدليل: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾، والقيَم: فيُعِل؛ من القيام، وهو أبلغ من قائم.

وقرئ ﴿فِيمَا﴾ بكسر القاف وتخفيف الياء وفتحها، وهو على هذا: مصدر وُصِفَ به.

﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ بدلٌ من ﴿دِينًا﴾، أو عطف بيان.

﴿وَسُكًى﴾ أي: عبادتي، وقيل: ذبحي للبهائم، وقيل: حَجِّي. والأول أعم وأرجح.

﴿وَحَيَاىَ وَمَمَافٍ﴾ أي: أعمالي في حين حياتي وعند موتي.

﴿لِلَّهِ﴾ أي: خالصًا^(١) لوجهه وطلب رضاه، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَّهُ﴾؛ أي: لا أريد بأعمالي غير الله؛ فيكون نفيًا للشرك الأصغر وهو الرياء.

ويحتمل أن يريد: لا أعبد غير الله؛ فيكون نفيًا للشرك الأكبر.

﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ الإشارةُ إلى الإخلاص الذي تقتضيه الآية قبل ذلك.

﴿أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ لأنه ﷺ سابقُ أمته.

(١) في د: «خالصة».

﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبْنِي رَبًّا﴾ تقريرٌ وتوبيخٌ للكفار.

وسببها : أنهم دَعَوْهُ إلى عبادة آلهتهم .

﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ برهانٌ على التوحيد، ونفيُ الربوبية عن غير الله .

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ ردٌّ على الكفار؛ لأنهم قالوا له : اعبُدْ آلهتنا ونحن نتكفل لك بكل تَبَاعَةٍ تتوقَّعُها في دنياك وأُخْرَاكَ^(١)، فنزلت هذه الآية ؛ أي : ليس كما قلتم ، وإنما كَسَبُ كُلِّ نَفْسٍ عليها خاصةً .

﴿وَلَا لِرِزْقِ وَازِرَةٍ وَزَرَ أُخْرَى﴾ أي : لا يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ ، وأصل الوزر : الثَّقلُ ، ثم استعمل في الذنوب .

﴿حَلِيفَ﴾ جمع خليفة ؛ أي : يَخْلُفُ بعضكم بعضًا في السُّكنى في الأرض .

أو خلائف عن الله في أرضه ، والخطاب على هذا : لجميع الناس .

وقيل : لأمة محمد ﷺ ؛ لأنهم خَلَفُوا الأُمَّمَ المتقدمة .

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ﴾ عمومٌ في المال والجاه والقوة والعلوم وغير ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد .

﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ ليختبرَ شُكْرَكُمْ على ما أعطاكم ، وأعمالكم فيما مَكَّنكم فيه .

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ جمعٌ بين التَّخْوِيفِ والتَّجْزِئَةِ .

(١) في د : «وآخرتك» .

وسُرْعَة عقابه تعالى :

إما في الدنيا لمن عَجَّلَ أَخْذَهُ .

أو في الآخرة ؛ لأن كلَّ آتٍ قَرِيبٌ .

ونسأل الله أن يغفر لنا ويرحمنا بفضلِهِ ورحمته^(١) .



(١) في زيادة: «تمت سورة الأنعام بعون الله وفضله، فله الحمد، وبتمامها كمل الكلام على الربع الأول من القرآن العظيم، صلى الله على سيدنا محمد الأمين المبلغ الهادي، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا».

﴿ سورة الاعراف ﴾

[﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾].

﴿الْمَصَّ ١﴾ تكلّمنا على حروف الهجاء في «البقرة»^(١).

﴿حَرَجٌ مِنْهُ﴾ أي: ضيقٌ من تبليغه مع تكذيب قومك.

وقيل: الحرج هنا: الشك؛ فتأويله كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْلَسِينَ﴾

[البقرة: ١٤٧].

﴿لِئُنذِرَ﴾ متعلق بـ ﴿أَنْزَلَ﴾.

﴿وَذِكْرَى﴾ منصوبٌ على المصدرية بفعل مقدّر^(٢)؛ تقديره: لتنذر وتذكّر

(١) انظر: ٢٦١/١.

(٢) في أ: «مضمّر».

ذكرى؛ لأن الذكرى بمعنى التذكير.

أو مرفوع؛ على أنه خبر ابتداءٍ مضمرة.

أو مخفوض؛ عطفًا على موضع ﴿لِنُنذِرَ﴾؛ أي: للإنذار والذكرى.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ انتصب ﴿قَلِيلًا﴾ بـ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تذكرون تذكُّرًا قليلًا.

و﴿مَّا﴾ زائدة؛ للتأكيد.

﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأُسْنًا﴾ قيل: إنه من المقلوب؛ تقديره: جاءها بأسنا فأهلكناها.

وقيل: المعنى: أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا؛ لأن مجيء البأس قبل الإهلاك، فلا يصحَّ عطفه عليه بالفاء.

ويَحتمل أن يكون ﴿فَجَاءَهَا بِأُسْنًا﴾ استثناءً؛ على وجه التفسير للإهلاك، فلا يحتاج إلى تكلف.

والمراد: أهلكنا أهلها فجاءهم، ثم حذف المضاف؛ بدليل: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾.

﴿بَيِّنَاتٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ مصدرٌ في موضع الحال؛ بمعنى: باثنين؛ أي: بالليل.

و﴿قَائِلُونَ﴾: من القائلة؛ أي: بالنهار.

وقد أصاب العذابُ بعض الكفار المتقدمين بالليل، وبعضهم بالنهار.

﴿أَوْ﴾ هنا : للتنويع .

﴿دَعَوْهُمْ﴾ أي : ما كان دعائهم واستغاثتهم إلا للاعتراف بأنهم ظالمون .

وقيل : المعنى : أن دعواهم هنا : ما كانوا يدعونه من دينهم ، فاعترفوا لما جاءهم العذاب أنهم كانوا ظالمين في ذلك .

﴿أَرْسِلْ إِلَيْهِمْ﴾ أسند الفعل إلى الجار والمجرور .

ومعنى الآية : أن الله يسأل الأمم عما أجابوا به رسلهم ، ويسأل الرسل عما أُجيبوا به .

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ على الرسل والأمم .

﴿وَالْوِزْنَ﴾ يعني : وزن الأعمال .

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي : يوم يُسأل الرسلُ وأمُّهم ؛ وهو يوم القيامة .

﴿بِأَيِّنَّا يَظِلُّونَ﴾ أي : يكذبون بها ظلماً .



[وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَفْعِدَنَّ لَهُمْ سِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَبَنَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾] .

﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ قيل : المعنى : أردنا خلقكم وتصويركم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .

وقيل : خلقنا أباكم ^(١) ، ثم صورناه .

وإنما احتيج إلى التأويل ؛ ليصحَّ العطف .

(١) في د ، وهامش أ زيادة : «آدم» .

﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ «لا» زائدة؛ للتأكيد.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ استدلال به بعض الأصوليين على أن الأمر يقتضي الوجوب والفور؛ ولذلك وقع العقاب على ترك المبادرة للسجود.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ تعليل علل به إبليس امتناعه من السجود، وهو يقتضي الاعتراض على الله تعالى في أمره بسجود الفاضل للمفضول على زعمه.
وبهذا الاعتراض كفر إبليس؛ إذ ليس كفره كفر جحود.

﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من السماء.

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي﴾ الباء للتعليل؛ وهي تتعلق^(١) بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم بالله - بسبب إغوائك لي - لأغوين بني آدم.
و«ما»: مصدرية.

وقيل: استفهامية؛ ويؤيده ثبوت الألف في «ما» مع حرف الجر.

﴿صِرَاطَكَ﴾ يريد: طريق الهدى والخير، وهو منصوب على الظرفية.
﴿ثُمَّ لَا يَنبَغُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية؛ أي: من الجهات الأربع، وذلك عبارة عن تسليطه على بني آدم كيفما أمكنه.

وقال ابن عباس: ﴿بَيْنَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: الدنيا، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: الآخرة،
﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: الحسنات، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾: السيئات.
﴿مَذْمُومًا﴾ من ذأمه - بالهمز - : إذا ذمه.

(١) في أ، ب، هـ: «وهو متعلق».

﴿مَذْحُورًا﴾ أي : مطروداً حيث وقع .

﴿فَوَسَّوَسَ﴾ إذا تكلم كلاماً خفياً يكرّره ؛ فمعنى ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا﴾ : ألقى لهما هذا الكلام .

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَ تَيْهَمَا﴾ أي : ليظهر ما ستر من عوراتهما .
واللام في قوله : ﴿لِيُبْدِيَ﴾ :

للتعليل ؛ إن كان في انكشافهما غرضٌ لإبليس .

أو للصّيرة ؛ إن وقع ذلك بغير قصدٍ منه إليه .

﴿الشَّجَرَةَ﴾ ذكرت في «البقرة»^(١) .

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي : كراهةً أن تكونا ملكين .

واستدلّ به من قال : إن الملائكة أفضلُ من الأنبياء .

وقرئ : «مَلَكَيْنِ» بكسر اللام ؛ ويقوِّي هذه القراءة قوله : ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾

[طه : ١٢٠] .

﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي : حلف لهما إنه لمن الناصحين .

وذكر قَسَمَ إبليس بصيغة المفاعلة التي تكون بين الاثنين :

لأنه اجتهد فيه .

أو لأنه أقسم لهما ، وأقسما له أن يقبلا نصيحته .

﴿نَدَلْنَهُمَا﴾ أي : أنزلهما إلى الأكل من الشجرة .

﴿يَعْرُورٌ﴾ أي : غرَّهما بحلفيه لهما ؛ لأنهما ظنَّا أنه لا يحلف كاذبًا .
 ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَ مُنْمًا﴾ أي : زال عنهما اللباس ، وظهرت عوراتُهما ، وكانا لا يريانها من أنفسهما ، ولا أحدهما ^(١) من الآخر .
 وقيل : كان لباسهما نورٌ يحول بينهما وبين النَّظر .
 ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي : يَصِلَان بعضه ببعض ليستترا بها .
 ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ يحتمل أن يكون هذا النداء : بواسطة ملك ، أو بغير واسطة .

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ اعترافٌ ، وطلبٌ للمغفرة والرحمة .
 وتلك ^(٢) الكلمات التي تاب الله عليه بها .
 ﴿أَهْبِطُوا﴾ وما بعده : مذكور في «البقرة» ^(٣) .
 ﴿فِيهَا حَيَوْنَ﴾ أي : في الأرض .

❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦

(١) في أ، ب، ج، هـ : «لأحدهما» .

(٢) في د زيادة : «هي» .

(٣) انظر : ٣٠٢ / ١ .

[يَبْنِيَّ ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ نِكَمٍ وَرِيثًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ
 مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْنِيَّ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ
 مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَيْمَافٍ إِنَّهُ يَرِثُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ
 إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا
 وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّا لِلَّهِ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَنْقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ
 رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا
 بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَبْنِيَّ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ
 وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾].

﴿لِبَاسًا﴾ أي: الثياب التي تستر؛ ومعنى ﴿أَنْزَلْنَا﴾: خلقنا.

وقيل: المراد: أنزلنا ما يكون عنه اللباس؛ وهو ^(١) المطر.

واستدل بعض الفقهاء بهذه الآية على وجوب ستر العورة.

﴿وَرِيثًا﴾ أي: لباس الزينة؛ وهو مستعار من ريش الطائر.

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ استعار للتقوى لباسًا؛ كقولهم: ألبسك الله قميص

تقواه.

وقيل: لباس التقوى: ما يتقوى به في الحرب من الدروع وشبهها.

وقرئ: بالرفع؛ على الابتداء، وخبره: الجملة؛ وهي: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ﴾ الإشارة إلى ما أنزل من اللباس.

(١) في أ، ب، هـ: «أي».

وهذه الآية واردة على وجه الاستطراد عَقِيب^(١) ما ذكر من ظهور السَّوآت وخَصَف الورق عليهما ؛ لِيُبينَ إنعامه بما^(٢) خَلَقَ من اللباس .

﴿نَزَعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ أي : كان سبباً في نزع لباسهما عنهما .

﴿مِنْ حَيْثُ لَا نَرَوْنَهُمْ﴾ يعني : في غالب الأمر .

وقد استدللَّ به من قال : إن الجن لا يُروْنَ .

وقد جاءت في رؤيتهم أحاديث صحيحة ، فتُحمَلُ الآية على الأكثر ؛ جمعاً بينها وبين الأحاديث .

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ قيل : هي ما كانت العرب تفعله من الطَّواف بالبيت عِراءَ ؛ الرجال والنساء .

ويَحتملُ العمومَ في الفواحش .

﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ اعتذروا بعذرين باطلين :

أحدهما : تقليد آبائهم .

والآخر : افتراءؤهم على الله .

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ قيل : المراد إحضار النية ، والإخلاص لله .

وقيل : فعل الصلاة والتوجه فيها .

﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي : في كل مكان سجود .

(١) في د : «عَقِب» .

(٢) في أ ، ب ، ج ، هـ : «على ما» .

أو: في وقت كل سجود.

والأول أظهر.

والمعنى: إباحة الصلاة في كل موضع؛ كقوله ^(١) ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا» ^(٢).

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ احتجاج على البعث الأخرائي بالبداة الأولى.

﴿فَرِيقًا﴾ الأول: منصوبٌ بـ ﴿هَذَى﴾.

والثاني: منصوبٌ بفعل مضمر؛ يفسره ما بعده.

﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ قيل: المراد به: الثياب الساترة، واحتجَّ به من أوجب ستر العورة في الصلاة.

وقيل: المراد به: الزينة زيادةً على السَّتر، كالتجمل للجمعة بأحسن الثياب وبالسواك والطيب.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الأمر فيهما للإباحة؛ لأن بعض العرب كانوا يحرمون أشياء من المأكَل.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي: لا تكثروا من الأكل فوق الحاجة.

وقال الأطباء: إن الطبَّ كله مجموعٌ في هذه الآية ^(٣).

وقيل: لا تسرفوا بأكل الحرام.

(١) في أ، ب، ج، هـ: «لقوله».

(٢) هو جزء من حديث: «نصرت بالرعب..» وقد تقدم تخريجه ٥٨٤/١.

(٣) انظر: الكشف (٣٧٢/٦).

[قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَبْنِي ءَادَمُ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءِتْيَا فَمَنْ أَنْفَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ أَذْخَلُوا فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَارِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولُهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ إنكاراً لتحريمها، وهي ما شرعه الله لعباده من الملابس والأكل.

وكان بعض العرب إذا حجُّوا يُحرِّمون^(١) الثياب ويطوفون عراةً، ويحرِّمون الشحم واللبن؛ فتزل ذلك ردًّا عليهم.

﴿خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: الزينة والطيبات في الدنيا: للذين آمنوا ولغيرهم، وفي الآخرة: خالصةٌ لهم دون غيرهم.

(١) في أ، ب، ج، هـ: «يجردون».

وقرئ ﴿خَالِصَةً﴾ :

بالنصب؛ على الحال.

والرفع؛ على أنه: خبر بعد خبر، أو خبر ابتداءٍ مضمّر.

﴿وَالْإِثْمَ﴾ عامٌ في كل ذنب.

﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: تفتروا عليه في التحريم وغيره.

﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هي «إن» الشرطية دخلت عليها «ما» الزائدة؛ للتأكيد، ولزمتها النون الشديدة المؤكدة.

وجواب الشرط: ﴿فَمَنِ اتَّقَى﴾ الآية.

﴿فَمَنَ أَظْلَمُ﴾ ذكر في «الأنعام»^(١).

﴿يَنَالُهُم نَصِيبُهُم مِّنَ الْكَلْبِ﴾ أي: يصل إليهم ما كُتِبَ لهم من الأرزاق وغيرها.

﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: غابوا عنا.

﴿أَدْخَلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي: ادخلوا النار في جملة أمم؛ أي: مع أمم.

﴿أَذَارَكُوا﴾ أي: تلاحقوا واجتمعوا.

﴿قَالَتْ أَخَرْنَهُمْ لِأُولَهُمْ﴾ المراد بـ ﴿أُولَهُمْ﴾: الرؤساء والقادة، و﴿أَخَرْنَهُمْ﴾: الأتباع والسفلة.

والمعنى : أن أخرهم طلبوا من الله أن يضاعف العذاب لأولاهم ؛ لأنهم أضلّوهم .

وليس المعنى : أنهم قالوا لهم ذلك خطاباً لهم ، إنما هو كقولك : قال فلان لفلان كذا ؛ أي : قاله عنه ، وإن لم يخاطبه به .

﴿وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي : لم يكن لكم علينا فضل في الإيمان والتقوى يوجب أن يكون عذابنا أشدّ من عذابكم ، بل نحن وأنتم متساوون .

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ من قول أولاهم لأخرهم ، أو من قول الله تعالى لجميعهم .



[إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَسْعَوْنَ فِي أَرْضٍ وَعُجَا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى غَيْرِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْزَرُونَ ﴿٥٣﴾].

﴿لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : لا يصعد عملهم إلى السماء .

والثاني: لا يدخلون الجنة؛ فإن الجنة في السماء.

والثالث: لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم - إذا ماتوا - كما تفتح لأرواح المؤمنين.

﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي: حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة.

والمعنى: لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبدًا، فلا يدخلونها أبدًا.

﴿مِهَادٌ﴾ فراش.

﴿غَوَاشٍ﴾ أغطية.

﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملة اعتراض بين المبتدأ والخبر؛ ليبين أنه إنما طلب من الأعمال الصالحة ما في الوسع والطاقة.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: من كان في صدره غلٌّ لأخيه في الدنيا نُزع منه في الجنة، وصاروا إخوانًا أحرابًا.

وإنما قال: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ بلفظ الماضي وهو مستقبل؛ لتحقيق وقوعه في المستقبل، حتى عبّر عنه بما يعبر عن الواقع.

وكذلك كلُّ ما جاء بعد هذا من الأفعال الماضية في اللفظ، وهي تقع في الآخرة؛ كقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾، ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وغير ذلك.

﴿هَدَنَّا لِهَذَا﴾ إشارة إلى الجنة، أو إلى ما أوجبها من الإيمان والتقوى.

﴿أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ﴾ و﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا﴾ ، و﴿أَنْ لَعْنَةُ﴾ ، و﴿أَنْ سَلَّمَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ
تَكُونَ ﴿أَنْ﴾ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا :

مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ ؛ فَيَكُونُ فِيهَا ضَمِيرٌ .

أَوْ حَرْفُ عِبَارَةٍ وَتَفْسِيرٌ لِمَعْنَى الْقَوْلِ .

﴿مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ حُذِفَ مَفْعُولُ ﴿وَعَدَ﴾ :

اسْتِغْنَاءٌ عَنْهُ بِمَفْعُولِ ﴿وَعَدْنَا﴾ .

أَوْ لِإِطْلَاقِ الْوَعْدِ ؛ فَيَتَنَاوَلُ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ .

﴿فَإِذْ مَوْذَنُ﴾ أَيُ : أَعْلَمُ مُعَلِّمٌ ؛ وَهُوَ مَلَكٌ .

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أَيُ : بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ .

أَوْ : بَيْنَ أَصْحَابِهِمَا ، وَهُوَ الْأَرْجَحُ ؛ لِقَوْلِهِ : ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بُرُوجًا﴾

[الحديد : ١٣] .

﴿الْأَعْرَافِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ تَلُّ^(١) بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ .

وَمَجَاهِدٌ : حِجَابٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ .

وَقِيلَ : سَوْرُ الْجَنَّةِ .

﴿رِجَالٌ﴾ هُمُ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ .

وَوُرِدَ فِي الْحَدِيثِ : «أَنَّهُمْ قَوْمٌ مِنْ بَنِي آدَمَ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ ،

(١) فِي د : «جبل» .

فلم يدخلوا الجنة ولا النار»^(١).

وقيل: هم قوم خرجوا إلى الجهاد بغير إذن آبائهم، فاستشهدوا، فمُنِعوا من الجنة؛ لعصيان آبائهم، ونَجُوا من النار؛ للشهادة.

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: يعرفون أهل الجنة بعلامتهم؛ من بياض وجوههم، ويعرفون أهل النار بعلامتهم؛ من سواد وجوههم، أو غير ذلك من العلامات.

﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا﴾ أي: سَلَّمَ أصحابُ الأعراف على أهل الجنة.

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي: أن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة، وهم يطمعون في دخولها من بعد.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ الضمير لأصحاب الأعراف؛ أي: إذا رأوا أصحاب النار دعوا الله أن لا يجعلهم منهم.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ يعني: من الكفار الذين في النار، قالوا لهم ذلك على وجه التوبيخ.

﴿جَمْعُهُمْ﴾ يَحْتَمَلُ أن يريد:

جمعكم للمال.

أو كثرتم.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٢١-٢٢٢).

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتَكَبَّرُونَ﴾ أي: استكباركم على الناس، أو استكباركم عن الرجوع إلى الحق؛ ف «ما» ها هنا مصدرية.

و«ما» في قوله: ﴿مَا أَغْنَى﴾: استفهامية، أو نافية.

﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ من كلام أصحاب الأعراف خطاباً لأهل النار.

والإشارة بـ ﴿هَوَلَاءَ﴾ إلى أهل الجنة؛ وذلك أن الكفار كانوا في الدنيا يُقْسِمُونَ أن الله لا يرحم المؤمنين ولا يعذب بهم؛ فظهر خلاف ما قالوا.

وقيل: هي من كلام الملائكة؛ خطاباً لأهل النار.

والإشارة بـ ﴿هَوَلَاءَ﴾ إلى أصحاب الأعراف.

﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ خطابٌ لأهل الجنة: إن كان من كلام أصحاب الأعراف؛

تقديره: قد قيل لهم ادخلوا الجنة.

وخطابٌ لأهل الأعراف: إن كان من كلام الملائكة.

﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ دليلٌ على أن الجنة فوق النار.

﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من سائر الأطعمة أو الأشربة.

﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ﴾ أي: نتركهم.

﴿كَمَا سُوءُ﴾ الكاف للتعليل.

﴿وَمَا كَانُوا﴾ عطفٌ على ﴿كَمَا سُوءُ﴾؛ أي: لنسيانهم وجحودهم.

﴿جَنَّتْهُمْ يَكْتَبِ﴾ يعني: القرآن.

﴿فَصَلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عَلِمْنَا كَيْفَ نُفَصِّلُهُ^(١).

﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: هل ينتظرون إلا عاقبة أمره، وما يؤول إليه؛ مِنْ ظُهور
ما نطق به من الوعد والوعيد؟.

﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: قد تبَيَّنَ وظُهر الآن أن الرسلَ جاؤوا
بالحق.



(١) في أ، ب، د: «تَفْصِيلُهُ».

[إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٦﴾ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا نَّفَخَا فِي سُقْنِهِ لِبَلَدٍ مَّيْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٩﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾].

﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ حيث وقع :

حمله قومٌ على ظاهره؛ منهم ابن أبي زيد^(١) وغيره.

وتأوله قوم بمعنى : قصد؛ كقوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩].

ولو كان كذلك لقال : ثم استوى إلى العرش.

وتأوله الأشعرية أن معنى استوى : استولى بالملك والقدرة.

والحق : الإيمان به من غير تكليف؛ فإن السلامة في التسليم، ولله درُّ مالك بن أنس الإمام في قوله للذي سأله عن ذلك : «الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة»^(٢).

وقد روي مثل قول مالك عن أبي حنيفة، وجعفر الصادق، والحسن البصري.

(١) هو ابن أبي زيد القيرواني، في مقدمة الرسالة في الفقه المالكي (ص : ١٠).

(٢) أخرجه اللالكاني في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤٤١/٢).

ولم يتكلم الصحابة ولا التابعون في معنى الاستواء، بل أمسكوا عنه؛ ولذلك قال مالك: «السؤال عنه بدعة»^(١).

﴿يُعْشَىٰ لَيْلَ النَّهَارِ﴾ أي: يلحق الليل بالنهار، أو يلحق النهار بالليل؛ يحتمل الوجهين، هكذا قال الزمخشري^(٢).

وأصل اللفظة: من الغشاء؛ أي: يجعل أحدهما غشاءً للآخر يغطيه، فتغطي ظلمة الليل نور النهار.

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله: ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ حيث وقع، إلخ، أقول: ذكر فيه مذاهب:

الأول: إجراؤه على ظاهره، لابن أبي زيد المالكي.

الثاني: مذهب أهل التأويل، ومنهم الأشاعرة، وبعضهم قال: استوى: قصد، وقالت الأشاعرة: استوى بالملك والقدرة.

الثالث: مذهب الصحابة والأئمة، وهو الإيمان به من غير تكيف، وقرر هذا القول بقوله: «والحق: الإيمان به من غير تكيف؛ فإن السلامة في التسليم».

وكلامه هنا متردد بين الإثبات من غير تكيف، وبين التفويض، ولذا استشهد بقول الإمام مالك وغيره: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول»، ولكنه قال: «ولم يتكلم الصحابة ولا التابعون في معنى الاستواء، بل أمسكوا عنه»، قال: «ولذا قال مالك: والسؤال عنه بدعة»، ومفهوم كلام المؤلف بحجة أن السؤال عن معنى الاستواء بدعة، وهذا خطأ فالذي سئل عنه مالك، وقال: «السؤال عنه بدعة» هو الكيفية؛ لأنه قال: «الاستواء معلوم» أي معناه، «والكيف مجهول»، والسؤال عنه أي السؤال عن الكيف.

وقد أخطأ ابن جزى بحجة أيضا في زعمه أن الصحابة والتابعين لم يتكلموا في معنى استوى. والصواب هو إثبات الاستواء لله على العرش بمعناه المعلوم، وهو علا وارتفع، مع نفي التمثيل، ونفي العلم بالكيفية. ومن يتدبر كلام ابن جزى يدرك أنه إلى التفويض أميل، أي تفويض معنى الاستواء، أو هو قوله الذي يقول به. والله أعلم.

(٢) انظر: الكشف (٦/٤٠٤).

﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾ أي: سريعاً، والجملة في موضع الحال من ﴿أَيْلَ﴾؛
أي: يطلب^(١) النهار فيُدركه.

﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ قيل: الخلق: المخلوقات، والأمر: مصدر أمر يَأْمُرُ.
وقيل: الخلق: مصدر خلق، والأمر: واحد الأمور؛ كقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ
تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

والكلُّ صحيحٌ.

﴿بَارَكَ﴾ من البركة؛ وهو فعل غير متصرف لم تنطق له العرب بمضارع.
﴿نَضْرَعًا وَخُفْيَةً﴾ مصدرٌ في موضع الحال، وكذلك: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.
﴿وَخُفْيَةً﴾ من الإخفاء.

وقرئ: «خَيْفَةً» من الخوف.

﴿الْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين للحدِّ.

وقيل هنا: هو رفع الصوت بالدعاء، والتشطُّط فيه.

﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ جمع الله الخوفَ والطمع؛ ليكون العبد خائفًا
راجيًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

فإن موجب الخوف: معرفة سَطَوَاتِ^(٢) الله وشدة عقابه.

وموجب الرجاء: معرفة رحمة الله وعظيم ثوابه؛ قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ

(١) في د زيادة: «الليل».

(٢) في د: «سطوة».

أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠].

وَمَنْ عَرَفَ فَضْلَ اللَّهِ رَجَاهُ، وَمَنْ عَرَفَ عَذَابَهُ خَافَهُ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لَوْ وُزِنَ خَوْفُ الْمُؤْمِنِ وَرَجَاؤُهُ لَا عَتَدَلَا»^(١).

إِلَّا أَنَّهُ يَسْتَحِبُّ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ طَوِيلَ عَمْرِهِ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْخَوْفُ؛ لِيَقُودَهُ إِلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ السَّيِّئَاتِ، وَأَنْ يَغْلِبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ عِنْدَ حُضُورِ الْمَوْتِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يَحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ تَعَالَى»^(٢).

★ واعلم أن الخوف على ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون ضعيفاً يخطر على القلب، ولا يؤثر في الباطن ولا في الظاهر، فوجود هذا كالعدم.

والثانية: أن يكون قوياً فيوقظ العبد من الغفلة ويحمله على الاستقامة.

والثالثة: أن يشتدَّ حتى يبلغ إلى القنوط واليأس، وهذا لا يجوز، وخير الأمور أوسطها.

★ والناس في الخوف على ثلاث مقامات:

فخوف العامة: من الذنوب.

وخوف الخاصة: من الخاتمة.

(١) لا يصحُّ حديثاً، قال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص: ٥٥٥): «لا أصل له في المرفوع، وإنما يؤثر عن بعض السلف»، وأخرجه أحمد في الزهد (ص: ٢٣٩) عن مطرف بن عبد الله بن الشَّخِير من قوله.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

وخوف خاصة الخاصة: من السابقة؛ فإن الخاتمة مبنية عليها.

★ والرجاء على ثلاث درجات:

الأولى: رجاء رحمة الله مع التسبب فيها بفعل طاعته وترك معصيته؛ فهذا هو الرجاء المحمود.

والثانية: الرجاء مع التفريط والعصيان؛ فهذا غرور.

والثالثة: أن يقوى الرجاء حتى يبلغ الأمن؛ فهذا حرام.

★ والناس في الرجاء على ثلاث مقامات:

فمقام العامة: رجاء ثواب الله.

ومقام الخاصة: رجاء رضوان الله.

ومقام خاصة الخاصة: رجاء لقاء الله حباً فيه وشوقاً إليه.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ حذفت تاء التانيث من ﴿قَرِيبٌ﴾ وهو خبر عن الرحمة:

على تأويل الرحمة بالرجم، أو الترحم، أو العفو.

أو لأن تانيث الرحمة غير حقيقي.

أو لأنه صفة موصوف محذوف تقديره: شيء قريب.

أو على تقدير النسب؛ أي: ذات قرب.

وقيل: ﴿قَرِيبٌ﴾ هنا ليس خبراً عن الرحمة^(١)، وإنما هو ظرف لها.

(١) قوله: «عن الرحمة» لم ترد في أ، ب، ج، هـ.

﴿الرِّيحُ نَشْرًا﴾ قرئ ﴿الرِّيحُ﴾ : بالجمع ؛ لأنها رياح المطر .
 وقد اُطرد في القرآن جمعُها إذا كانت للرحمة ، وإفرادها إذا كانت للعذاب
 ومنه ورد في الحديث : «اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا»^(١) .
 وقرئ بالإفراد ؛ والمراد : الجنس .
 وقرئ : ﴿نَشْرًا﴾ - بفتح النون وإسكان الشين - ؛ وهو على هذا مصدر في
 موضع الحال .

وقرئ بضمهما ؛ وهو جمع ناشر ، وقيل : جمع منشور .
 وقرئ بضم النون وإسكان الشين ؛ وهو تخفيف من الضم ؛ كرُسُلٍ ورُسُل .
 وقرئ بالباء في موضع النون ؛ من الإشارة .
 ﴿يَبْتَكَ يَدَى رَحْمَتِهِ﴾ أي : قَبْلَ المطر .
 ﴿أَقْلَّتْ﴾ حَمَلَتْ .
 ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ لأنها تحمل الماء فتثقل به .
 ﴿سُقْنَهُ﴾ الضمير للسحاب .
 ﴿لِلْكَرْمِ مَتِّتٍ﴾ يعني : لا نبات فيه من شدة القحط ، وكذلك معناه حيث
 وقع .

﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ الضمير :

للسحاب .

(١) أخرجه الشافعي في مسنده (١/١٧٥) ، والطبراني في المعجم الكبير (١١/٢١٣) .

أو البلد؛ على أن تكون الباء ظرفيةً.

﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ تمثيلٌ لإخراج الموتى من القبور بإخراج الزرع من الأرض.

وقد وقع ذلك في القرآن في مواضع؛ منها: ﴿كَذَلِكَ نُشَوِّرُ﴾ [فاطر: ٩]، ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١].

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ هو الكريم من الأرض، الجيد التراب^(١).

﴿وَالَّذِي حَبِطَ﴾ بخلاف ذلك؛ كالسَّبخة ونحوها.

﴿يَا ذَنْ رَبِّهِ﴾ عبارة عن السهولة والطيب، والنَّكِد بخلاف ذلك.

ويَحْتَمِل أن يكون المراد:

ما يقتضيه ظاهر اللفظ؛ فتكون متممةً للمعنى الذي قَبْلُهَا في المطر.

وأن يكون^(٢) تمثيلاً للقلوب:

فقليل - على هذا - : الطيب: قلب المؤمن، والخبيث: قلب الكافر.

وقيل: هما الفَهْمُ^(٣) والبليد.

(١) في ب، ج، هـ: «التراب».

(٢) في ج، د: «تكون».

(٣) في د: «الفهم».

[لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرُوكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِثْلِكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾].

﴿مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قرأ الكسائي: بالخفض - حيث وقع -؛ على اللفظ.

وقرأ غيره: بالرفع؛ على الموضع.

﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: يوم القيامة، أو يوم هلاكهم.

﴿الْمَلَأُ﴾ أشراف الناس.

﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ إنما قال ﴿ضَلَالَةٌ﴾ ولم يقل «ضلال» كقولهم؛ لأن الضلالة أخص من الضلال، كما إذا قيل لك: أعندك تمر؟ تقول: ما عندي تمر؛ فتعم بالنفي.

﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ قرئ بالتشديد والتخفيف، والمعنى واحد.

وهو في موضع صفة لـ ﴿رَسُولٌ﴾، أو استئناف.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من صفاته ورحمته وعذابه.

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف؛ كأنه قال: أكذبتكم وعجبتكم من أن جاءكم ذكرٌ.

﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ أي: على لسان رجل.

﴿ فِي الْفُلِّ ﴾ يتعلّق:

بـ ﴿ مَعَهُ ﴾ ؛ والتقدير: استقرُّوا معه في الفلك .

ويَحْتَمِلُ أن يتعلّق بـ ﴿ أَنْجَيْنَاهُ ﴾ .

﴿ عَمِينَ ﴾ جمع عَمٍ ؛ وهو مِنْ عَمَى القلب .



[﴿٦٥﴾ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوِّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْفَقُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ يَنْفَوِّمُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٨﴾ أَيْلَعُكُمْ رَسُولِي رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٩﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَضْبٌ أَنْجِدُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَيَّسَتْهُمَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَاَنْظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾] .

﴿أَخَاهُمْ﴾ أي: واحداً من قبيلتهم، وهو معطوف على ﴿نُوحًا﴾ .

و﴿هُودًا﴾ بدلٌ منه، أو عطف بيان .

وكذلك ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ وما بعده، وما هو مثله حيث وقع .

﴿الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قيّد هنا بالكفر؛ لأن في الملأ من قوم هود من آمن؛ وهو مَرْتَدُّ بن سعد، بخلاف قوم نوح؛ فإنهم لم يكن فيهم مؤمن، فأطلق لفظ الملأ .

﴿أَمِينٌ﴾ يَحْتَمِلُ أن يريد:

أمانته على الوحي .

أو أنهم قد كانوا عرفوه بالأمانة والصدق .

﴿خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي : خلفتموهم في الأرض ، أو جعلكم ملوكًا .

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ كانوا عظام الأجسام ؛ كان أقصرهم ستين ذراعًا ، وأطولهم مئة ذراع .

﴿إِنَّا اللَّهُ﴾ نِعْمُهُ حَيْثُ وَقَعَ .

﴿أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ استبعدوا توحيد الله مع اعترافهم بربوبيته ؛
ولذلك قال لهم هود : ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ﴾ أي : حَقَّ عليكم ووجب عذاب
من ربكم وغضب .

﴿أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ يعني : الأصنام ؛ أي : تجادلونني في
عبادة مسمياتِ أسماء ؛ ففي الكلام حذف .

وأراد بقوله : ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ :

جعلتم لها أسماء ؛ فدلَّ ذلك على أنها محدثة ، فلا يصحُّ أن تكون آلهة .
أو سَمَّيْتُمُوهَا آلهةً من غير دليل على أنها آلهة ؛ فقولكم باطل .

فالجidal :

على القول الأول : في عبادتها .

وعلى القول الثاني : في تسميتها آلهةً .

والمراد بالأسماء :

على القول الأول : المسمى .

وعلى القول الثاني : التَّسمية .

﴿دَائِرَ﴾ ذكر في «الأنعام»^(١) .



(١) انظر صفحة ٢٦٤ .

[وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آلِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِكَ أَرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنُكُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آتِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورِ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ رَسُولًا لَوْ لَبِثْتُمْ إِلَّا كَثِيرًا فَلَمْ تُحْسِنُوا إِلَى الْوَارِثِينَ فَالْقَحْشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾].

﴿بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: آية ظاهرة؛ وهي الناقة، وأضيفت إلى الله تشریفًا لها، ولأنه خلقها من غير فعلٍ.

وكانوا قد اقترحوا على صالح عليه السلام أن يخرجها لهم من صخرة، وعاهدوه أن يؤمنوا به إن فعل ذلك، فانشقت الصخرة وخرجت منها الناقة وهم ينظرون، ثم نُبِجَتْ ولدًا فأمن به قوم منهم وكفر آخرون.

﴿لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ أي: معجزة تدلُّ^(١) على صحة نبوة صالح.
 والمجرور في موضع الحال من ﴿ءَايَةٌ﴾؛ لأنه لو تأخر لكان صفةً.
 ﴿وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ﴾ أي: لا تضروها^(٢)، ولا تطردوها.
 ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ كانت أرضهم بين الحجاز والشام، وقد دخلها
 رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال لهم ﷺ: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين
 إلَّا وأنتم باكون؛ مخافة أن يصيبكم مثل الذي أصابهم»^(٣).
 ﴿تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنون قصورًا في الأرض البسيطة.
 ﴿وَنَنجُوْنَ الْجِبَالَ بَيُوتًا﴾ أي: تنجرون^(٤) بيوتا في الجبال، (وكانوا
 يسكنون القصور في الصيف، والجبال في الشتاء).
 وانتصب ﴿بَيُوتًا﴾ على الحال^(٥)؛ وهو كقولك: خِطْتُ هذا الثوب
 قميصًا.
 ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدلٌ من ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضِعُوا﴾.
 ﴿إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ﴾ إنما لم يقولوا: ﴿يَمَّا أُرْسِلَ بِهِ﴾ كما
 قال الآخرون؛ لئلا يكون اعترافًا برسالته.

(١) لم ترد في أ، ب، ج، هـ.

(٢) في ج، د: «لا تضربوها».

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠).

(٤) في أ: «تتخذون».

(٥) سقط من أ، ب، هـ.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ نَسَبُ الْعَقْرِ إِلَى جَمِيعِهِمْ ؛ لَأَنَّهُمْ رَضُوا بِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْهُمْ ؛ وَهُوَ الْأَحْمَرُ .

﴿الرَّجْفَةُ﴾ الصَّيْحَةُ حَيْثُ وَقَعَتْ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ جَبْرِيلَ فَصَاحَ صَيْحَةً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَمَاتُوا مِنْهَا .

﴿جَثِمِينَ﴾ حَيْثُ وَقَعَ : أَيِ : قَاعِدِينَ لَا يَتَحَرَّكُونَ .

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ الْآيَةُ ؛ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَوْلُهُ لَهُمْ :

حِينَ عَقَرُوا النَّاقَةَ ، قَبْلَ نَزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ رَوَى أَنَّهُ خَرَجَ حِينَئِذٍ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ .

أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ هَلَكُوا ؛ وَهُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ ، وَعَلَى هَذَا : خَاطَبَهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ عَلَى وَجْهِ التَّفَجُّعِ عَلَيْهِمْ .

وقوله : ﴿لَا تُحِبُّونَ التَّصَدِيقَ﴾ حِكَايَةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ .

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ الْعَامِلُ فِي ﴿إِذْ﴾ : «أَرْسَلْنَا» الْمَضْمُرُ ، أَوْ يَكُونُ بَدَلًا مِنْ ﴿لَوْطًا﴾ .

﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أَيِ : لَمْ يَفْعَلْهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ قَبْلَكُمْ .

و﴿مِنْ﴾ الْأُولَى : زَائِدَةٌ .

وَالثَّانِيَةُ : لِلتَّبْعِيضِ ، أَوْ لِلجِنْسِ .

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ الْآيَةُ ؛ أَيِ : أَنَّهُمْ عَدَلُوا عَنْ جَوَابِهِ عَلَى كَلَامِهِ إِلَى الْأَمْرِ بِإِخْرَاجِهِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ .

﴿أَنَاسٌ يَطْهَرُونَ﴾ أي: يتنزهون عن الفاحشة.

﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: من الهالكين.

وقيل: من الذين غبروا في ديارهم فهلكوا، أو من الباقين من أترابها؛
يقال: غبر: بمعنى مضى، وبمعنى بقي.

وإنما قال: ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ بجمع المذكر؛ تغليباً للرجال الغابرين.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ يعني: الحجارة؛ أُصيب بها من كان منهم
خارجاً عن بلادهم، وقُلبت البلاد بمن كان فيها.



[وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمِرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ نَكْمٌ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ فَارْزُقُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولُو كُنَّا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّنا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنَّتِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَقَوَّمِرُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي ربي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾] .

﴿يَسِّنُهُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: آية ظاهرة، ولم تُعَيَّن في القرآن آية شعيب .

﴿فَارْزُقُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ كانوا يَنْقُصُونَ في الكيل والوزن، فَبُعِثَ شعيب لينهاهم عن ذلك .

والكيل هنا : بمعنى المكيال الذي يكال به ؛ مناسبة للميزان ؛ كما جاء في «هود» : ﴿الْمِكْيَالُ وَالْمِيزَانُ﴾ [هود : ٨٤] .

ويجوز أن يكون ﴿الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ مصدرين .

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ قيل : هو نهْيٌ عن السَّلْبِ وقطع الطريق ؛ وكان ذلك مِنْ فِعْلِهِمْ .

وقيل : كانوا يقعدون على الطريق ؛ يردُّون الناس عن اتباع شعيب ويُوْعِدُونَهُمْ إِنْ اتَّبَعُوهُ .

﴿وَنَصَّدُّوكَ﴾ أي : تمنعون الناس من ^(١) سبيل الله ؛ وهو الإيمان .

والضمير في ﴿بِهِ﴾ : للضَّراط ، أو لله .

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ذُكِرَ فِي «آلِ عِمْرَانَ» ^(٢) .

﴿أَوْ لَتَعُولَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي : ليكوننَّ أحدُ الأمرين : إما إخراجُكم ، أو عَوْدُكم إلى ملة الكفر .

فإن قيل : إن العَوْدَ إلى الشيء يقتضي أنه قد كان فُعِلَ قبل ذلك ؛ فيقتضي قولهم : ﴿لَتَعُولَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أن شعيبًا ومن كان معه كانوا أولاً على ملة قومهم ، ثم خرجوا منها فطلب قومهم أن يعودوا إليها ، وذلك محالٌ ؛ فإن الأنبياء معصومون من الكفر قبل النبوة وبعدها ! .

فالجواب من وجهين :

أحدهما : قاله ابن عطية ؛ وهو أن «عاد» قد تكون بمعنى : صار ؛

(١) في ج ، د : «عن» .

(٢) انظر ١ / ٥٦٥ .

فلا تقتضي تقدُّم ذلك الحال الذي صار إليه^(١).

والثاني: قاله الزمخشري؛ وهو أن المراد بذلك: الذين آمنوا بشعيب دون شعيب، وإنما أدخلوه في الخطاب معهم بذلك؛ كما أدخلوه في الخطاب معهم في قولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ﴾؛ فغلبوا في الخطاب بالعود الجماعة على الواحد^(٢).

وبمثل ذلك يُجاب عن قوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾.

﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ الهمزة: للاستفهام والإنكار، والواو: للحال، تقديره: أعود في ملتكم^(٣) ونحن كارهون؟!.

﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ أي: إن عدنا فيها فقد وقعنا في أمرٍ عظيم من الافتراء على الله، وذلك تبرُّؤ من العود فيها.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ هذا استسلامٌ لقضاء الله على وجه التأدب مع الله وإسناد الأمور إليه؛ وذلك أنه لما تبرَّأ من ملتهم: أخبر أن الله يحكم عليهم بما يشاء من عودٍ وتركة؛ فإن القلوب بيده يقلبها كيف يشاء.

فإن قلت: إنَّ ذلك يصحُّ في حق قومه، وأما في حق نفسه فلا؛ فإنه معصوم من الكفر؟.

(١) انظر: المحرر الوجيز (٣/٦١٣).

(٢) انظر: الكشاف (٦/٤٧٣).

(٣) في أ، ب، هـ زيادة: «ويكون لنا أن نعود فيها».

فالجواب : أنه قال ذلك تواضعًا وتأدُّبًا مع الله تعالى ، واستسلامًا لأمره ؛
 كقول نبينا ﷺ : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(١) مع أنه قد علم أنه
 يثبتّه .

﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا﴾ أي : احكم .

﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي : كأن لم يقيموا في ديارهم .

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي : كيف أأحزنُ عليهم وقد استحقُّوا ما
 أصابهم من العذاب بكفرهم .



(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢١٠٧)، والترمذي (٢١٤٠).

[﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ
يَضُرَّعُونَ﴾ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ
وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا
عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٦)
أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٩٧) أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن
يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ
إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ
نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ
عَلَيْكَ مِن نَّبَايِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن
قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِن عَهْدٍ وَإِن
وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي
رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ
بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَارْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِثَابِتَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن
كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ
بِضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ﴾ (١٠٨)].

﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ قد تقدّم (١).

﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي: أبدلنا البأساء والضراء بالنعيم؛
اختباراً لهم في الحالتين.

﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي: كثُروا ونَمَوْا في أنفسهم وأموالهم.

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ أي: قد جرى ذلك لآبائنا ولم يضرَّهم؛ فهو بالاتفاق لا بقصد الاختبار.

﴿بَرَكَتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بالمطر، والزرع.

﴿أَوْ أَمِنَ﴾ مَن قرأ بإسكان الواو: فهي «أو» العاطفة.

ومن قرأ بفتحها: فهي واو العطف دخلت عليها همزة التوبيخ؛ كما دخلت على الفاء في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾.

﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ أي: استدراجَه وأخذه للعبد من حيث لا يشعر.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أو لم يَتَبَيَّنْ.

﴿لِّلَّذِينَ يَرْتُوبُ الْأَرْضِ﴾ أي: يسكنونها.

﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ﴾ هو فاعلُ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾، ومقصود الآية الوعيد.

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿أَصَبَتْهُمْ﴾؛ لأنه في معنى المستقبل.

أو منقطع؛ على معنى الوعيد.

وأجاز الزمخشري أن يكون عطفاً على ﴿يَرْتُوبُ الْأَرْضِ﴾، أو على ما دلَّ عليه معنى ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾؛ كأنه قال: يَغْفُلُونَ عن الهداية ونطْبَعُ على قلوبهم^(١).

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ﴾ الضمير لـ ﴿أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾، والمعنى:

وجدناهم ناقضين للعهود.

(١) انظر: الكشف (٦/٤٩١).

﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ من قرأ ﴿عَلَيَّ﴾ بالتشديد على أنها ياء المتكلم: فالمعنى ظاهر؛ وهو أن موسى قال: حقيق عليه أن لا يقول على الله إلا الحق.

وموضع ﴿أَنْ لَا أَقُولَ﴾ - على هذا - رفع؛ على أنه:
خبر ﴿حَقِيقٌ﴾، و﴿حَقِيقٌ﴾ مبتدأ.
أو بالعكس.

ومن قرأ ﴿عَلَيَّ﴾ بالتخفيف: فموضع ﴿أَنْ لَا أَقُولَ﴾ خفض بحرف الجر، و﴿حَقِيقٌ﴾ صفة لرسول.

وفي المعنى - على هذا - وجهان:

أحدهما: أن «على» بمعنى الباء؛ فمعنى الكلام: رسول حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق.

والثاني: أن معنى حقيق: حريص؛ ولذلك تعدى بـ «على».

﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: بمعجزة تدل على صدقي؛ وهي العصا، أو جنس المعجزات.

﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: خلّهم يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة موطن آبائهم.

وذلك أنه لما توفّي يوسف عليه السلام غلب فرعون على بني إسرائيل واستعبدهم حتى أنقذهم الله على يد موسى، وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى: أربع مئة عام.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾ وكان موسى عليه السلام شديد الأدمة ، فأظهر يده لفرعون ثم أدخلها في جيبه ، ثم أخرجها وهي بيضاء شديدة البياض كاللبن أو أشدُّ بياضًا .

وقيل : إنها كانت مُنيرةً شفافة كالشمس ، وكانت ترجع بعد ذلك إلى لون بدنه .

﴿لِلنَّظِيرِينَ﴾ مبالغة في وصف يده بالبياض ؛ كأنَّ الناسَ يجتمعون للنظر إليها ، والتعجب منها .



[﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٦٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٧٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٧١﴾ يَا نُؤُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١٧٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٧٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٧٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلُوكُ ﴿١٧٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٧٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١٧٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٨٠﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٨٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَادَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا لَنَنْقِمَ مِنْآ إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّأْ مُسْلِمِينَ ﴿١٨٦﴾﴾].

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٦٩) حكى هذا الكلام هنا عن الملأ، وفي «الشعراء» عن فرعون: فكانه قد قاله هو وهم.

أو قاله هو، ووافقوه عليه؛ كعادة جلساء الملوك في اتباعهم لما يقول الملك.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي: يخرجكم منها بالقتال^(١) أو بالحيل. وقيل: المراد إخراج بني إسرائيل، وكانوا خُدَّامًا لهم؛ فتخرب الأرض

(١) في أ، ب، هـ: «بالقتل».

بـخـروـج الخُـدَّام والعُـمَّار منها .

﴿فَمَآذَا تَأْمُرُونَ﴾ من قول الملا، أو من قول فرعون .

وهو من معنى :

المؤامرة؛ أي^(١) : المشاورة .

أو من الأمر وهو ضدُّ النهي .

﴿أَرْجِهْ﴾ من قرأه بالهمز : فهو من أرجأت الرجل : إذا أخرته ؛ فمعناه : أخرهما حتى ننظرَ في أمرهما .

وقيل : المراد بالإرجاء -هنا- : السَّجن .

ومن قرأ بغير همز : فتحتمل :

أن تكون بمعنى المهموز ؛ وسهَّلت الهمزة .

أو يكون بمعنى الرجاء ؛ أي : أطمعه .

وأما ضمُّ الهاء وكسرُها : فليغتنان .

وأما إسكانُها : فلعلَّه أجرى فيها الوصل مُجرى الوقف .

﴿حَشِيرِينَ﴾ يعني : الشُّرَط ؛ أي : جامعين للسَّحرة .

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ قبل هذا محذوفٌ يدلُّ عليه سياق الكلام ؛ وهو أنه بعث إلى السَّحرة .

﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ من قرأه بهمزتين : فهو استفهام .

(١) في أ، ج، هـ : «أو» .

ومن قرأه بهمزة واحدة: فيَحْتَمِلُ أن يكون خبرًا، أو استفهامًا حذفت منه الهمزة.

والأجر هنا: الأجرة؛ طلبوها من فرعون إن غلبوا موسى، فَأَنْعَمَ لَهُم فرعون بها، وزادهم التَّقْرِيبَ منه، والجاهَ عنده.

﴿وَإِنَّكُمْ لَيْنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عطفٌ على معنى ﴿نَعَمْ﴾؛ كأنه قال: نعطيكم أجرًا ونقربكم.

واختلف في عدد السحرة اختلافًا متباينًا من سبعين رجلًا إلى سبعين ألفًا؛ وكلُّ ذلك لا أصل له في صحة النقل.

﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ خيروا موسى بين أن يبدأ بالإلقاء أو يبدؤوا هم بالإلقاء سحرهم، فأمرهم أن يلقوا.

وانظر كيف عبَّروا عن إلقاء موسى بالفعل، وعن إلقاء أنفسهم بالجملة الاسمية؛ إشارةً إلى أنهم أهلُ الإلقاء المتمكِّنون فيه.

﴿وَأَسْرَهُوهُمْ﴾ أي: خوفوهم بما أظهروا لهم من أعمال السحر.

﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ لما ألقاها صارت ثعبانًا عظيمًا على قَدْرِ الجبل.

وقيل: إنه طال حتى جاوز النيل.

﴿تَلَقَّفْ﴾ أي: تبتلع.

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: ما صوّروا من إفكهم وكذبهم.

وروي: أن الثعبان أكل مِلءَ الوادي من حبالهم وعصيَّهم، ومدَّ موسى يده إليه فصار عصًا كما كان، فعَلِمَ السحرةُ أن ذلك ليس من السحر،

وليس في قدرة البشر، فأمنوا بالله وبموسى عليه السلام.

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية؛ وعيدٌ من فرعون للسحرة.

وليس في القرآن أنه أنفذ ذلك، ولكنه روي أنه أنفذه عن ابن عباس وغيره.

وقد ذكر معنى ﴿مَنْ خَلَفَ﴾ في «العقود»^(١).

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (١٢٥) أي: لا نبالي بالموت؛ لانقلابنا إلى ربنا.

﴿وَمَا نَنْقِمُ مِنْآ إِلَّا آتَاءَآمَنَّا﴾ أي: ما نعيب منآ إلا إيماننا.



[وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَأَهْلَكَ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿٢٧٦﴾ قَالَ مُوسَى
لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى
رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨٠﴾].

﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يُخربوا ملك فرعون وقومه ويخالفوا دينه.
﴿وَيَذَرَكَ﴾ معطوف على ﴿لِيُفْسِدُوا﴾، أو منصوب بإضمار «أن» بعد
الواو.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ قيل: إن فرعون كان قد جعل للناس أصنامًا يعبدونها،
وجعل نفسه الإله الأكبر؛ فلذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]؛
ف﴿وَأَهْلَكَ﴾ - على هذا - هي تلك الأصنام.

وقرأ علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس: «وَأَهْلَكَ»؛ أي:
عبادتك والتذلل لك.

﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ تعليلٌ للصبر الذي أمرهم به.

يعني: أرض الدنيا هنا وفي قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

وقيل: يعني: أرض فرعون.

فأشار لهم موسى أولاً بالنصر في قوله: ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ﴾، ثم صرح
به في قوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ﴾ الآية.

﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ حضٌ على الاستقامة والطاعة.

[وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٦﴾
 فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ
 أَلَّا إِنَّمَا طَلَيْهِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ
 لِيَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ
 وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٩﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا
 يَمْوَسَىٰ آدُعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيُنْزِلَ عَلَيْنَا مَاءً كَافً فَكَشَفَتْ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلِنُرْسِلَنَّ
 مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٤٠﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِلِقَاؤِهِ إِذَا هُمْ
 يَنْكُثُونَ ﴿١٤١﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ غَارِقَتُهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا
 غَافِلِينَ ﴿١٤٢﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي
 بَرَكَتْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا
 يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٤٣﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ
 فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ
 قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٤٤﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَنَطَّلُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٥﴾ قَالَ
 أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَيْكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٦﴾ وَإِذْ أُنْحِيطَ مِنْ آلِ
 فِرْعَوْنَ يُسْؤِمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ
 بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤٧﴾].

﴿بِالسِّنِينَ﴾ أي: بالجذب والقحوط^(١).

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ الآية؛ أي: إذ جاءهم الخصب والرخاء قالوا: هذا لنا وبسعدينا، ونحن مستحقون له، وإذ جاءهم الجذب والشدة ﴿يَطَّيَّرُوا﴾

(١) في د: «والقحط».

يُؤَسِّئُ ﴿٣٧٨﴾ أي: قالوا: هذا بشؤمه.

فإن قيل: لم قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ تَهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ بـ «إذا» وتعريف الحسنة، ﴿وَإِنْ نُصِبَتْ سَيِّئَةٌ﴾ بـ «إن» وتنكير السيئة؟.

فالجواب: أن الحسنة وقوعها كثير، والسيئة وقوعها نادر؛ فعرف الكثير الوقوع باللام التي للعهد، وذكره بـ «إذا»؛ لأنها تقتضي التحقيق، وذكر السيئة بـ «إن» لأنها تقتضي الشك، ونكرها للتقليل.

﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: إنما حظهم ونصيبهم الذي قُدر لهم من الخير والشر عند الله.

وهو مأخوذ من زجر الطير، ثم سُمي به ما يصيب الإنسان.

ومقصود الآية: الرّد عليهم فيما نسبوا إلى موسى من الشؤم.

﴿مَهْمَا﴾ هي «ما» الشرطية ضمت إليها «ما» الزائدة؛ نحو: «أينما»، ثم قلبت الألف هاء.

وقيل: هي اسمٌ بسيط غير مركّب.

والضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود على ﴿مَهْمَا﴾.

وإنما قالوا: ﴿مِنْ آيَةٍ﴾:

على تسمية موسى لها آية.

أو على وجه التهكم.

﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ روي: أنه كان مطرًا شديدًا دائمًا، مع فيض النيل

حتى هدم بيوتهم، وكادوا يهلكون، وامتنعوا من الزراعة.

وقيل: هو الطّاعون.

﴿وَالْجُرَادُ﴾ هو المعروف؛ أكل زرعهم وثمارهم حتى أكل ثيابهم وأبوابهم وسُقِفَ بيوتهم.

﴿وَالْقُمَّلُ﴾ قيل: هي صغار الجراد. وقيل: البراغيث. وقيل: السُّوس.

وقرئ «القُمَّل» - بفتح القاف والتخفيف -؛ فهي - على هذا - : القمل المعروف، وكانت تتعلّق بلحومهم وشعورهم^(١).

﴿وَالضَّفَادِعُ﴾ هي المعروفة؛ كثرت عندهم حتى امتلأت بها فُرُشهم وأوانيهم، وإذا تكلم أحدهم وثب الضفدع إلى فمه^(٢).

﴿وَالْدَّمَ﴾ صارت مياههم دمًا؛ فكان يستقي من البئر القبطي والإسرائيلي في إناء واحد، فيخرج ما يلي القبطي دمًا، وما يلي الإسرائيلي ماءً.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي: العذاب؛ وهي الأشياء المتقدمة، وكانوا مهما نزل بهم أمرٌ منها عاهدوا موسى على أن يؤمنوا به إن كشفه عنهم، فإذا^(٣) كشفه عنهم نقضوا العهد وتمادوا على كفرهم.

﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ أي: بِذِمَامِكَ إليه ووسائلك.

(١) هذه اللفظة لم ترد في أ، ب، ج، هـ.

(٢) في ب: «وقع الضفدع في فمه».

(٣) في أ، ب، ج: «فلما».

والباء تحتمل :

أن تكون للقسم، وجوابه ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾ .

أو تتعلق بـ ﴿أَدْعُ لَنَا﴾ ؛ أي : توسّل إليه بما عهد عندك .

﴿فِي الْيَمِّ﴾ البحر حيث وقع .

﴿الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل .

﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ الشام ومصر .

﴿بَرَكَاتٍ فِيهَا﴾ أي : بالخشب، وكثرة الأرزاق .

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي نفذت لهم واستقرت .

والكلمة هنا :

ما قضي لهم في الأزل .

وقيل : هي قوله : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾

[القصص : ٥] .

﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ أي : يبنون .

وقيل : هي الكروم وشبهها .

فهو على الأوّل : من العرش .

وعلى الثاني : من العريش .

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ أي : اجعل لنا صنماً نعبده كما يعبد هؤلاء

أصنامهم .

ولما تَمَّ خبر موسى مع فرعون: ابتداء خبره مع بني إسرائيل من هنا إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَنقَضْنَا الْجِبَلَ﴾ .

﴿مُتَبَّرٌ﴾ من التَّبار؛ وهو الهلاك.

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وما بعده: مذكور في «البقرة»^(١).

(١) انظر (١/٣١٢).

[﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرْنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا بَلَغَ رُبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَمْوَسَّى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَكُرُوا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَلَقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾] .

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ روي: أن الثلاثين: هي شهر ذي القعدة، والعشر بعدها: هي العشر الأول من ذي الحجة؛ وذلك تفصيل للأربعين المذكورة في «البقرة» .

﴿مِيقَتُ رَبِّهِ﴾ أي: ما وقَّت له من الوقت لمناجاته في الطُّور .

﴿أَخْلَفْنِي﴾ أي: كن خليفتي على بني إسرائيل مدة مغيبتي .

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي﴾ لما سمع موسى كلامَ الله طمع في رؤيته، فسألها،

كما قال الشاعر :

وأبرُح ما يكون الشُّوقُ يومًا إذا دنت الدِّيارُ من الديار^(١)
واستدلَّ الأشعرية بذلك على أن رؤية الله جائزة عقلاً ، وأنها لو كانت
محالاً لم يسألها موسى ؛ فإن الأنبياء ﷺ يعلمون ما يجوز على الله وما
يستحيل عليه .

وتأوَّل الزمخشري طلب موسى للرؤية بوجهين :

أحدهما : أنه إنما سأل ذلك تَبَكُّيًّا لمن خرج معه من بني إسرائيل ،
فهم^(٢) الذين طلبوا الرؤية ، فقالوا : أرنا الله جَهْرَةً ؛ فقال موسى ذلك
ليسمعوا الجواب في المنع فيتأدَّبوا .

والآخر : أن معنى ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ : عرَّفني نفسك تعريفاً واضحاً
جلياً^(٣) .

وكلا الوجهين بعيد ، والثاني أبعد وأضعف ؛ فإنه لو لم يكن المراد الرؤية
لم يقل له ﴿أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ الآية .

﴿قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾ قال مجاهد وغيره : إن الله قال لموسى : ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ ؛
لأنك لا تطيق ذلك ، ولكن سأتجلى للجبل الذي هو أقوى منك وأشد ،

(١) البيت لإسحاق بن إبراهيم الموصلي ، المعروف بإسحاق النديم ؛ لمنادمته لعدد من
الخلفاء العباسيين . انظر : الوافي بالوفيات (٢٥٥ / ٨) .

(٢) لم ترد في ب ، ج .

(٣) انظر : الكشف (٥٥١ / ٦) .

فإن استقرَّ وأطاق الصبر لهييتي أمكن أن تراني أنت، وإن لم يطق الجبل فأحرى أن لا تطيق أنت.

فعلى هذا؛ إنما جعل الله الجبل مثلاً لموسى.

وقال قوم: المعنى: سأتجلى لك على الجبل؛ وهذا ضعيف؛ يبطله قوله: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾.

فإذا تقرَّر هذا؛ فقوله تعالى: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ نفْيٌ للرؤية، وليس فيه دليلٌ على أنها محال؛ فإنه إنما جعل علَّةَ النفْي: عدمُ إطاقه موسى الرؤية لا استحالتها.

ولو كانت الرؤية مستحيلاً؛ لكان في الجواب زجرٌ وإغلاظ، كما قال الله لنوح: ﴿فَلَا تَسْتَلِنْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]. فهذا المنع من رؤية الله إنما هو في الدنيا؛ لضعف البنية البشرية عن ذلك. وأما في الآخرة: فقد صرَّح بوقوع الرؤية كتابُ الله وسنة رسوله ﷺ، فلا ينكرها إلا مبتدع.

وبين المعتزلة وأهل السنة في مسألة الرؤية نزاعٌ طويل.

وفي هذه القصة قصصٌ كثيرٌ تركته؛ لعدم صحته، ولما فيه من الأقوال الفاسدة.

﴿جَعَلَهُ دَكَّا﴾ أي: مذكوكًا؛ فهو مصدر بمعنى مفعول، كقولك: ضربُ الأمير.

والدَّكُّ والدَّقُّ: أخوان؛ وهو التفتُّ.

وقرى: ﴿دَكَّاءٌ﴾ - بالمد والهمز -؛ أي: أرضاً دكاءً:

قيل: ذهب أعلى الجبل وبقي أكثره.

وقيل: تفتت حتى صار غباراً.

وقيل: ساخ في الأرض، وأفصى إلى البحر.

﴿وَحَزَرَ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي: مغشياً عليه.

﴿تَبَّتْ إِلَيْكَ﴾ معناه: تبت من سؤال الرؤية في الدنيا وأنا لا أطيقها.

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أوّل قومه، أو أهل^(١) زمانه، أو على وجه

المبالغة في السبق إلى الإيمان.

﴿أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ عمومٌ يراد به الخصوص؛ فإنّ

جميع الرسل قد شاركوه في الرسالة.

واختلف: هل كلّم الله غيره من الرسل أم لا؟.

والصحيح: أنه كلم نبينا محمداً ﷺ ليلة الإسراء.

﴿فَخُذْ مَا آتَيْنَكَ﴾ تأديبٌ؛ أي: اقنع بما أعطيتك من رسالتي وكلامي،

ولا تطلب غير ذلك.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ﴾ أي: في ألواح التوراة.

وكانت: سبعة، وقيل: عشرة، وقيل: اثنان.

وقيل: كانت من زُمُرْد، وقيل: من ياقوت، وقيل: من خشب.

(١) في أ، ب، هـ: «أول».

﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ عمومٌ يراد به الخصوص فيما يحتاجون إليه في دينهم .

وكذلك : ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ .

وموضع ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ : نصبٌ ؛ على أنه مفعول ﴿كَتَبْنَا﴾ ،
و﴿مَوْعِظَةً﴾ : بدلٌ منه .

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي : بجِدٍّ وحزم^(١) . والضمير للتوراة .

﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي : فيها ما هو حسنٌ وأحسنٌ منه ؛ كالقصاص مع
العفو ، وكذلك سائر المباحات من المندوبات .

﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي : دار فرعون وقومه ؛ وهي مصر .

والمعنى : أريكم كيف أفقرت منهم لما هلكوا .

وقيل : منازل عاد وثمود ومن هلك من الأمم المتقدمة ؛ ليعتبروا بها .

وقيل : جهنم .

وقرأ ابن عباس : «سأورثكم» - بالثاء المثناة - ؛ من الوراثة .

وهي - على هذا - مصر ؛ لقوله ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء : ٥٩] .

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآياتُ : يحتمل - هنا - أن

يراد بها :

آيات القرآن وغيره من الكتب .

أو العلامات والبراهين .

(١) في أ : «وعزم» .

والصَّرْفُ يراد به : صَدُّهُمْ عَنْ فَهْمِهَا وعن الإيمان بها ؛ عقوبةٌ لهم على تكبُّرهم .

وقيل : الصَّرْفُ : مَنَعُهُمْ مِنْ إِبْطَالِهَا .

﴿وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ﴾ يجوز أن يكون :

من إضافة المصدر إلى المفعول به ؛ أي : ولقائهم الآخرة .

أو من إضافة المصدر إلى الظرف .



[وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُمْ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾] .

﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾ هم بنو إسرائيل .

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي : من بعد غييبته في الطور .

﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ - بضم الحاء والتشديد - : جمع حَلْيٍ ؛ نحو ثَدْيٍ وَثَدْيٍ .

وقرئ بكسر الحاء ؛ للإِتِّبَاع .

وقرئ بفتح الحاء وإسكان اللام .

والْحَلْيُ : هو ما يُتَزَيَّن به من الذهب والفضة .

﴿جَسَدًا﴾ أي : جسمًا دون روح . وانتصابه على البدل .

﴿لَهُمْ خُورٌ﴾ الخوار : هو صوت البقر .

وكان السَّامِرِيُّ قد قَبَضَ قبضة من تراب أثر فرس جبريل يوم قطع البحر ،
فقدَّفه في العجل فصار له خوارٌ .

وقيل : كان إبليس يدخل في جوف العجل فيصيح فيه ، فيُسمع له خوار .

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ ردُّ عليهم ، وإبطالٌ لمذهبهم الفاسد في عبادته .

﴿اتَّخَذُوهُ﴾ أي : اتَّخَذُوهُ إِلَهًا ؛ فحذف المفعول الثاني للعلم به .
وكذلك حذف من قوله : ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى﴾ .
﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي : نَدِمُوا ؛ يقال : سُقِطَ فِي يَدِ فُلَانٍ : إِذَا عَجَزَ عَمَّا
يريد ، أَوْ وَقَعَ فِيهِمَا يَكْرَهُ .
﴿أَسِفًا﴾ شديد الحزن على ما فعلوا .
وقيل : شديد الغضب ؛ كقوله : ﴿فَلَمَّا أَتَوْا﴾ [الزخرف : ٥٥] .
﴿يَنْسَمًا خَلَقْتُونِي﴾ أي : قُتِمْتُمْ مَقَامِي .
وفاعل «نَسَمٌ» مضمرٌ ؛ يفسره «ما» ، واسم المذموم محذوف .
والمخاطب بذلك :
إِذَا الْقَوْمَ الَّذِينَ عَبْدُوا الْعَجَلَ مَعَ السَّامِرِيِّ ؛ حَيْثُ عَبْدُوا غَيْرَ اللَّهِ فِي غَيْبَةِ
مُوسَى عَنْهُمْ .
أَوْ رُؤَسَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ حَيْثُ لَمْ يَكْفُوا الَّذِينَ عَبْدُوا الْعَجَلَ .
﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ معناه : أَعَجَلْتُمْ عَنْ أَمْرِ رَبِّكُمْ ، وَهُوَ أَنْتَظَارُ مُوسَى
حَتَّى يَرْجِعَ مِنَ الطُّورِ ؛ فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ تَمَّ ظَنُّوا أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ
مَاتَ فَعَبَدُوا الْعَجَلَ .
﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ طَرَحَهَا ؛ لِمَا لَحِقَهُ مِنَ الدَّهْشِ وَالضَّجَرِ ؛ غَضَبًا لِلَّهِ مِنْ
عِبَادَةِ الْعَجَلَ .
﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أي : بَشَعَرِ رَأْسِهِ يَجْرُهُ ؛ لِأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ فَرَطَ فِي كَفِّ الَّذِينَ
عَبَدُوا الْعَجَلَ .

﴿أَبْنِ أُمَّ﴾ كان هارون شقيقَ موسى ، وإنما دعاه بأُمَّه ؛ لأنه أدعى إلى العطف والحنو .

وقرئ : ﴿أَبْنِ أُمَّ﴾ :

بالكسر ؛ على الإضافة إلى ياء المتكلم ، وحذفت الياء .

وبالفتح ؛ تشبيهاً بخمسة عشر ؛ جعل الاسمان اسمًا واحدًا فبني .

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي : لا تظنّ أني منهم .

أو : لا تجد عليّ في نفسك ما تجدُ عليهم ؛ يعني : أصحاب العجل .



[إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٦﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ
مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٧﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا
هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٨﴾ وَأَخْبَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا
أَخَذْتُهُمُ الرِّجْفَةَ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلُوكَ بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا
إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ
الْغَافِرِينَ ﴿١٥٩﴾ وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدَّنَا إِلَيْكَ قَالَ
عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ
الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ
وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي
أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦١﴾].

﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾ أي: غضبٌ في الآخرة، وذِلَّةٌ في الدنيا .
﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ أي: سَكَنَ؛ وكذلك قرأ بعضهم .
وقال الزمخشري: قوله: ﴿سَكَتَ﴾ مثل؛ كأنَّ الغضب كان يقول له: أَلْقِ
الألواح وجِرَّ برأس أخيك، ثم سَكَتَ عن ذلك ^(١) .
﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي: فيما ينسخ منها، والنُّسخة: فُعْلَةٌ بمعنى مفعول .
﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي: يخافون .

ودخلت اللام؛ لتقدّم المفعول؛ كقوله: ﴿لِلرَّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].
وقال المبرّد: تتعلّق بمصدر تقديره: رهبتهم لربهم.

﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ أي: من قومه سبعين رجلاً، حملهم معه إلى الطور فسمِعوا^(١) كلام الله لموسى، فقالوا: أرنا الله جهرة، فأخذتهم الرجفة؛ عقاباً لهم على قولهم.

وقيل: إنما أخذتهم الرجفة لعبادتهم العجل، أو لسكوتهم عن^(٢) عبادته.

والأول أرجح؛ لقوله: ﴿فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾

[النساء: ١٥٣].

ويَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ رَجْفَةً:

موت.

أو إغماء.

والأول أظهر؛ لقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦].

﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ ﴿لَوْ﴾ هنا للتمني؛

أي: تمنّى أن يكون هو وهم قد ماتوا قبل ذلك؛ لأنه خاف من تشغيب بني إسرائيل عليه إن رجع إليهم دون هؤلاء السبعين.

ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَالَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَضَرُّعِ وَالِاسْتِسْلَامِ لِأَمْرِ اللَّهِ؛ كَأَنَّهُ

(١) في ب، ج، هـ: «فيسمعوا».

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «على».

قال : لو شئت أن تهلكنا قبل ذلك لفعلت ؛ فإننا عبيدك وتحت قهرك ، وأنت تفعل ما تشاء .

ويَحْتَمِلُ أن يكون قالها على وجه التضرُّع والرغبة ؛ كأنه قال : لو شئت أن تهلكنا قبل اليوم لفعلت ، لكنك عافيتنا وأبقيتنا فافعل معنا الآن كما عودتنا^(١) ، وأخي هؤلاء القوم الذين أخذتهم الرجفة .

﴿ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ أي : أتهلكني وتهلك بني إسرائيل بما فعل السفهاء الذين طلبوا الرؤية ، والذين عبدوا العجل .

فمعنى هذا : إدلاءً بحجته ، وبرؤً من فعل السفهاء ، ورغبةً إلى الله أن لا يعم الجميع بالعقوبة .

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أي : الأمور كلها بيدك تضلُّ من تشاء وتهدي من تشاء .

ومعنى هذا : اعتذار عن فعل السفهاء بأنه^(٢) كان بقضاء الله ومشيئته .

﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي : تَبَّنَا .

وهذا الكلام الذي قاله موسى ﷺ إنما هو كله استعطاف ورغبة إلى الله وتضرُّع إليه ، ولا يقتضي شيئاً مما توهم الجهال فيه من الجفاء في قوله : ﴿ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ ؛ لأننا قد بينا أنه إنما قال ذلك استعطافاً لله ، وبراءةً من فعل السفهاء .

(١) في أ ، ج ، د ، هـ : «وعدتنا» .

(٢) في د : «فإنه» .

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ قيل : الإشارة بذلك إلى الذين أخذتهم الرجفة .

والصحيح : أنه عمومٌ يندرجون فيه مع غيرهم .

وقرئ «من أساء» -بالسين وفتح الهمزة- ؛ من الإساءة ، وأنكرها بعض المقرئين وقال : إنها تصحيفٌ .

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يحتمل أن يريد رحمته في الدنيا ؛ فيكون خصوصاً في الرحمة ، وعموماً في كل شيء ؛ لأنَّ المؤمن والكافر والمطيع والعاصي تنالهم رحمة الله ونعمته في الدنيا .

ويحتمل أن يريد رحمة الآخرة ؛ فيكون خصوصاً في كل شيء ؛ لأنَّ الرحمة في الآخرة مختصة بالمؤمنين .

ويحتمل أن يريد جنس الرحمة على الإطلاق ؛ فيكون عمومياً في الرحمة ، وفي كل شيء .

﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَنْفُونَ﴾ إن كانت الرحمة المذكورة رحمة الآخرة : فهي -بلا شك- مختصةً بهؤلاء الذين كتبها الله لهم ، وهم أمة محمد ﷺ .

وإن كانت رحمة الدنيا : فهي -أيضاً- مختصة بهم ؛ لأن الله نصرهم على جميع الأمم ، وأعلى دينهم على جميع الأديان ، ومكّن لهم في الأرض ما لم يمكن لغيرهم .

وإن كانت على الإطلاق : فقله : ﴿فَسَاكُتُهَا﴾ تخصيصٌ للإطلاق .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي : يؤمنون بجميع الكتب والأنبياء ،

وليس ذلك لغير هذه الأمة .

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ هذا الوصف خَصَّصَ أمة محمد ﷺ .

قال بعضهم : لما قال الله : ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ طَمِعَ فيها كُلُّ أحد حتى إبليس ، فلما قال : ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ﴾ يَسُّس إبليس ، وبقيت اليهود والنصارى ، فلما قال : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ الآية : يَسُّس اليهود والنصارى ^(١) .

﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أي : الذي لا يقرأ ولا يكتب ، وذلك من أعظم دلائل نبوة محمد ^(٢) ﷺ ؛ لأنه أتى بالعلوم الجمة من غير قراءة ولا كتابة ، ولذلك قال تعالى : ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ يَمِينًا إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

قال بعضهم : الأميُّ منسوبٌ إلى الأمِّ ، وقيل : إلى الأمة ^(٣) .

﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ ضمير الفاعل في ﴿يَجِدُونَهُ﴾ لبني إسرائيل ، وكذلك الضمير في ﴿عِنْدَهُمْ﴾ .
ومعنى ﴿يَجِدُونَهُ﴾ : يجدون نعتَه وصفته .

★ ولنذكر هنا ما ورد في التوراة والإنجيل وأخبار المتقدمين من ذكر نبينا ﷺ :

فمن ذلك : ما ورد في البخاري وغيره أنَّ في التوراة من صفة النبي ﷺ :

(١) انظر : تفسير الطبري (١٠/٤٨٣-٤٨٤) .

(٢) في ج ، د : «نبوته» .

(٣) في أ ، ب ، هـ : «للأمة» .

يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأئمين، أنت عبيدي ورسولي، أسميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صحّاب^(١) في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح^(٢)، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به عيناً عمياً، وأذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً^(٣).

ومن ذلك: ما في التوراة مما أجمع عليه أهل الكتاب، وهو باق بأيديهم إلى الآن: «إِنَّ الْمَلِكَ نَزَلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لَهُ: فِي هَذَا الْعَامِ يُولَدُ لَكَ غُلَامٌ اسْمُهُ إِسْحَاقُ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشَ يَخْدُمَكَ، فَقَالَ اللَّهُ لإِبْرَاهِيمَ: ذَلِكَ لَكَ، قَدْ اسْتَجِيبَ لَكَ فِي إِسْمَاعِيلَ، وَأَنَا أَبَارِكُهُ وَأَنْمِيهِ وَأَكْبِرْهُ وَأَعْظِمْهُ بِمَا ذُوُّهُ».

وتفسير هذه الحروف: محمد.

ومن ذلك: في التوراة: «إِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى جَاءَ فِي طُورِ سَيْنَاءَ، وَطَلَعَ مِنْ سَاعِرَ، وَظَهَرَ مِنْ جِبَالِ فَارَانَ».

ويعني بطور سيناء: موضع مناجاة موسى ﷺ، وساعر: موضع عيسى ﷺ، وفاران: هي مكة موضع مولد نبينا محمد ﷺ ومبعثه.

ومعنى ما ذكر من مجيء الله وطلوعه وظهوره: هو ظهور دينه على يد

(١) الذي في الرواية: «سَحَاب» بالسين، وهما بمعنى واحد، قال في النهاية (٥/٢٢٨٩): «الصَّخْبُ وَالسَّخْبُ: الضَّجَّةُ واضطراب الأصوات للخصام».

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «ولا تجزي». تعفو وتصفح، والمبثت موافق لما في الرواية.

(٣) أخرجه البخاري (٢١٢٥)، (٤٨٣٨).

الأنبياء الثلاثة المنسويين لتلك المواضع .

وتفسير ذلك : ما في كتاب أشعيا خطابًا لمكة : «قومي فأزهرى مصباحك ، فقد دنا وقتك ، وكرامةُ الله طالعةٌ عليك ، فقد تجلَّل الأرضَ الظلامُ ، وغطَّى على الأمم المصاب ، والربُّ يشرق عليك إشراقًا ، ويُظهر كرامته عليك ، تسير الأمم إلى نورك ، والملوك إلى ضوء طلوئك ، ارفعي بصرك إلى ما حولك ، وتأملي فإنهم مستجمعون عندك ، وتحجُّ إليك عساكر الأمم» .

وفي بعض كتبهم : «لقد تقطَّعت السماء من بهاء محمد المحمود ، وامتلأت الأرض من حمده ، لأنه ظهر بخلاص أمته» .

ومن ذلك : في التوراة : «أن هاجر أم إسماعيل لما غضبت عليها سارة تراءى لها ملك فقال لها : يا هاجر أين تريدين ؟ ومن أين أقبلت ؟ فقالت : أهربُ من سيدتي سارة ، فقال لها : ارجعي إلى سارة وستحبلين وتلدن ولداً اسمه إسماعيل وهو يكون عين الناس ، وتكون يده فوق الجميع ، ويد الجميع مبسوطَةٌ إليه بالخضوع» .

ووجه دلالة هذا الكلام على نبوة محمد ﷺ : أن هذا الذي وعدَها به الملكُ من أن يد ولدها فوق الجميع وأن يد الجميع مبسوطَةٌ إليه بالخضوع إنما ظهرت بمبعث النبي محمد ﷺ وظهور دينه وعلو كلمته ، ولم يكن ذلك لإسماعيل ولا لغيره قبل محمد ﷺ .

ومن ذلك : في التوراة - أيضًا - : «أن الرب يقيم لهم نبياً من إخوتهم ،

وأَيُّ رجل لم يسمع الكلام الذي يؤديه ذلك النبي عن الله فينتقم^(١) الله منه». ودلالة هذا الكلام ظاهرة بأن أولاد إسماعيل هم إخوة أولاد إسحاق، وقد انتقم الله من اليهود الذين لم يسمعوا كلام محمد ﷺ كبني قريظة وبني قينقاع وغيرهم.

ومن ذلك: في التوراة: «إن الله أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: قد أجبتُ دعاءك في إسماعيل، وباركت عليك، وسيلد اثني عشر عظيمًا، وأجعله لأمة عظيمة».

ومن ذلك: في الإنجيل: «أن المسيح قال للحواريين: أنا ذاهب عنكم، وسيأتيكم البارقليط الذي لا يتكلم من قبل نفسه، إنما يقول كما يُقال له». وبهذا وصف الله سبحانه نبينا محمد ﷺ في قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤].

وتفسير البارقليط: أنه مشتق من الحمد، واسم نبينا ﷺ محمد وأحمد. وقيل: معنى البارقليط: الشافع المشفع.

ومن ذلك: في التوراة: «أن مولده بمكة، ومسكنه بطيبة، وأمه الحمادون».

وبيان ذلك: أن أمته يقرأون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في صلاتهم مرارًا كثيرة في كل يوم وليلة.

وعن شهر بن حوشب مثل ذلك في إسلام كعب الأحبار، وهو من اليمن

(١) في أ، ب، هـ: «ينتقم».

من حمير: أن كعباً أخبره بأمره وكيف كان ذلك، وقال كان أبوه من مؤمني أهل التوراة برسول الله ﷺ، وكان من عظمائهم وخيارهم، قال كعب: وكان من أعلم الناس بما أنزل الله على موسى من التوراة، وبكُتُب الأنبياء، ولم يكن يدّخر عني شيئاً مما كان يعلم، فلما حضرته الوفاة دعاني، فقال: يا بني قد علمت أني لم أكن أدّخر عنك شيئاً مما كنت أعلم، إلا أني حبست عنك ورقتين فيهما ذكر نبي يبعث، وقد أظللّ زمانه، فكرهت أن أخبرك بذلك، فلا آمن عليك بعد وفاتي أن يخرج بعض هؤلاء الكذّابين فتبعه، وقد قطعتهما من كتابك وجعلتهما في هذه الكؤّة التي ترى وطّنت عليهما، فلا تتعرّض لهما ولا تنظرهما زمانك هذا، وأقرّهما في موضعهما حتى يخرج ذلك النبي، فإذا خرج فاتّبعه وانظر فيهما؛ فإن الله يزيّدك بذلك خيراً.

فلما مات والذي لم يكن شيء أحبّ إلي من أن ينقضي المآثم حتى أنظر ما في الورقتين، فلما انقضى المآثم فتحت الكؤّة ثم استخرجت الورقتين فإذا فيهما: «محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين، لا نبي بعده، مولده بمكة، ومُهاجره بطيبة، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صحّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة، ويعفو ويغفر ويصفح، أمته الحمّادون الذي يحمّدون الله على كل شرف، وعلى كل حال، وتُذللّ^(١) ألسنتهم بالتكبير، وينصر الله نبيّهم على كل من ناوأه، يغسلون فروجهم بالماء، ويأتّزرون على أوساطهم، وأناجيلُهم في صدورهم، ويأكلون قُربانهم في بطونهم ويؤجرون عليها، وتراحمهم بينهم تراحم بني الأم

(١) في أ: «وتتذلّل».

والأب، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم، وهم السابقون المقربون، والشّافعون المشفع لهم».

فلما قرأتُ هذا قلت في نفسي: والله ما علّمني شيئاً خيراً لي من هذا، فمكثت ما شاء الله حتى بُعث النبي ﷺ وبيني وبينه بلاد بعيدة منقطعة لا أقدر على إتيانه، وبلغني أنه خرج في مكة فهو يظهر مرة ويستخفي مرة، فقلت: هو هذا، وتخوّفت ما كان والدي حذّرني وخوفني من ذكر الكذابين، وجعلت أحبُّ أن أتبيّن وأثبت، فلم أزل بذلك حتى بلغني أنه أتى المدينة، فقلت في نفسي: إنّي لأرجو أن يكون إياه، وجعلت ألتمس السبيل إليه، فلم يُقدّر لي حتى بلغني أنه توفي رسول الله ﷺ، فقلت في نفسي: لعلّه لم يكن الذي كنت أظن.

ثم بلغني أن خليفة قام مقامه، ثم لم ألبث إلّا قليلاً حتى جاءتنا جنودُه فقلت في نفسي: لا أدخل في هذا الدين حتى أعلم أهم الذين كنت أرجو وأنتظر، وأنظر كيف سيرتهم وأعمالهم، وإلى ما تكون عاقبتهم.

فلم أزل أدفع ذلك وأؤخّره لأتبيّن وأثبت حتى قدّم علينا عمر بن الخطاب، فلما رأيت صلاة المسلمين وصيامهم وبرّهم ووفاءهم بالعهد، وما صنع الله لهم على الأعداء علمت أنهم هم الذي كنت أنتظر، فحدّثت نفسي بالدخول في دين الإسلام، فوالله إني ذات ليلة فوق سطح لي إذا برجل من المسلمين يتلو كتاب الله حتى أتى على هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۚ﴾ [النساء: ٤٧]،

فلما سمعت هذه الآية خشيت والله ألا أصبح حتى يحوّل وجهي في قفائي، فما كان شيء أحبّ إليّ من الصباح، فغدوتُ على عمر فأسلمت حين أصبحت.

وقال كعبٌ لعمر عند انصرافه إلى الشام: يا أمير المؤمنين إنه مكتوب في كتاب الله: إن هذه البلاد، التي كان فيها بنو إسرائيل، وكانوا أهلها؛ مفتوحةً على يد رجل من الصالحين، رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين، سرّه مثل علانيته، وعلانيته مثل سرّه، وقوله لا يخالف فعله، والقريب والبعيد عنده في الحق سواء، وأتباعه رهبان بالليل أسدّ بالنهار، متراحمون متواصلون متباذلون.

فقال له عمر: ثكلتك أمك، أحقّ ما تقول؟ قال: إي والذي أنزل التوراة على موسى والذي يسمع ما نقول إنه لحق.

فقال عمر: الحمد لله الذي أعزّنا وشرفنا وأكرمنا ورحمنا بمحمد ﷺ، وبرحمته التي وسعت كل شيء^(١).

ومن ذلك: كتاب فروة بن عمرو الجذامي إلى رسول الله ﷺ، وكان من ملوك العرب بالشام، فكتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد رسول الله من فروة بن عمرو: إني مقرّ بالإسلام مصدّق، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وأنه الذي بشرّ به عيسى ابن مريم ﷺ»، فأخذه هرقل لما بلغه إسلامه وسجّنه فقال: والله لا أفارق دين محمد أبدًا

(١) أخرجه الواقدي في فتوح الشام (ص: ٢٣٣-٢٣٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦١/٥٠).

فإنك تعرف أنه النبي الذي بَشَّرَ به عيسى بن مريم، ولكنك حرصت على ملكك وأحببت بقاءه، فقال قيصر: صدق والإنجيل^(١).

ويشهد لهذا ما خرَّجه البخاري ومسلم من كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل، وسؤال هرقل عن أحواله وأخلاقه ﷺ، فلما أخبر بها علم أنه رسول الله، وقال: إنه يملك موضع قدمي، ولو خلصت إليه لغسلت قدميه^(٢).

ومن حديث زيد بن أسلم عن أبيه - وهو عندنا بالإسناد - أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج زمان الجاهلية مع ناس من قريش في التجارة إلى الشام، قال: فإني لفي سوق من أسواقها إذا أنا ببطريق قد قبض على عنقي، فذهبت أنازعه فقبل لي: لا تفعل فإنه لا نَصَفَ لك منه، فأدخلني كنيسة فإذا تراب عظيم ملقَى، فجاءني بزنبيل ومجرقة فقال لي: انقل ما هاهنا، فجعلت أنظرُ كيف أصنع، فلما كان من الهاجرة وافاني وعليه ثوبٌ أرى سائر جسده منه، فقال: أئنك على ما أرى ما نقلت شيئاً!، ثم جمع يديه فضرب بهما دماغي، فقلت: واثكل أمك يا عمر، أبلغت ما أرى؟، ثم وثبت إلى المجرقة فضربت بها هامته فنشرت دماغه ثم واريته في التراب وخرجت على وجهي لا أدري أين أسير، فسرت بقية يومي وليلتي من الغد إلى الهاجرة فانتهيت إلى ديرٍ فاستظلمت بفنائها، فخرج إليَّ رجل منه فقال لي: يا عبد الله ما يُعِدُّك هنا؟ فقلت: أضللت أصحابي، فقال لي: ما أنت على طريق وإنك لتتظر بعيني

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧٢/٤٨)، وابن الجوزي في المنتظم (٩/٤)

بمعناه، وذكره الكلاعي في «الاكتفاء» (٢٦/٢) بلفظه، وعزاه إلى الواقدي وأنه ذكره بإسناده، وقد ذكر الكلاعي في مقدمة كتابه أنه ينقل من كتاب المبعث للواقدي.

(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

خائف!، فادخل فأصب من الطعام واسترخ، فدخلت فأتاني بطعام وشراب وأطعمني، ثم صعد في النظر وصوبه، فقال: قد علم والله أهل الكتاب أو الكتب أنه ما على الأرض أعلم بالكتاب أو بالكتب مني، وإني لأرى صفتك الصفة التي تخرجنا من هذا الدير وتغلبنا عليه، فقلت: يا هذا لقد ذهبت بي في غير مذهب!، فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: عمر بن الخطاب، فقال: أنت والله صاحبنا، فاكتب لي على ديري هذا وما فيه، فقلت: يا هذا إنك قد صنعت إليّ صنعة فلا تكدرها، فقال: إنما هو كتاب في رَقٍّ، فإن كنت صاحبنا فذلك، وإلا لم يضرّك شيء، فكتب^(١) له على ديره وما فيه، فأتاني بشباب ودراهم فدفعها إليّ ثم أوّكف أتاناً فقال لي: أتراها؟ فقلت: نعم، قال: سرّ عليها، فإنك لا تمرّ بقوم إلا سقّوها وعلفوها وأضافوك، فإذا بلغت مأمنك فاضرب وجهها مدبرة فإنهم يفعلون بها كذلك حتى ترجع إليّ، قال: فركبتها فكان كما قال، حتى لحقت بأصحابي وهم متوجهون إلى الحجاز، فضربتها مدبرةً وانطلقت معهم.

فلما وافى عمر الشام في زمان خلافته جاءه ذلك الراهب بالكتاب وهو صاحب دير العرس، فلما رآه عرفه، فقال: قد جاء ما لا مذهب لعمر عنه، ثم أقبل على أصحابه فحدّثهم بحديثه، فلما فرغ منه أقبل على الراهب فقال: هل عندكم من نفع للمسلمين؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: إن أضفتم المسلمين ومرضتموهم وأرشدتموهم فعلنا ذلك، قال: نعم يا أمير المؤمنين فوقّي له عمر رضي الله عنه ورحمه^(٢).

(١) في د: «فكتب».

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/٤٤)، (٢٨٩/٦٤).

وعن سيف^(١) يرفعه إلى سالم بن عبد الله قال : لما دخل عمر الشام تلقاه رجل من يهود دمشق فقال : السلام عليك يا فاروق أنت صاحب إيلياء ؛ والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء^(٢) .

ومن ذلك أن عمرو بن العاص قدم المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ قد أرسله إلى عُمان واليًّا عليها ، فجاءه يومًا يهودي من يهود عمان فقال له : أنشدك بالله ، مَنْ أرسلك إلينا؟ فقال له : رسول الله ﷺ ، فقال اليهودي : والله إنك لتعلم أنه رسول الله؟ ، قال عمرو : نعم ، فقال اليهودي : لئن كان حقًا ما تقول لقد مات اليوم .

فلما سمع عمرو ذلك جمع أصحابه وكتب ذلك اليوم الذي قال له اليهوديُّ أن النبي ﷺ مات فيه ، ثم خرج فأخبر بموت النبي ﷺ وهو في الطريق ، ووجده قد مات في ذلك اليوم صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم وبارك وشرف وكرم^(٣) .

ومن ذلك : أن وفد غسان قدموا على رسول الله ﷺ فلقيهم أبو بكر الصديق فقال لهم : من أنتم؟ قالوا : رهط من غسان قدمنا على محمد لنسمع

(١) هو سيف بن عمر التميمي الضبي ، صاحب كتاب «الردة والفتوح» وغيره . انظر : تاريخ الإسلام للذهبي (٦٤١/٤)

(٢) لعله ذكر هذا في كتابه الردّة والفتوح ، والمطبوع منه ناقص ، يبدأ من قصة استشهاد عمر رضي الله عنه وحديث الشورى ، وقد أورده ابن كثير في البداية والنهاية (١٦١/٧) عن سيف بن عمر عن شيوخه عن سالم ، وأخرجه الطبري في تاريخه عن سالم بن عبد الله (٦٠٨/٣) .

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٥٨/٥) .

كلامه، فقال لهم: انزلوا حيث تنزل الوفود، ثم اتوا رسول الله ﷺ، فكلّموه، فقالوا: وهل نقدر على كلامه كما أردنا؟ فتبسّم أبو بكر وقال: إنه ليطوف بالأسواق، ويمشي وحده، ولا شرطة معه، ويرعب^(١) من يراه منه، فقالوا لأبي بكر: من أنت أيها الرجل؟ فقال: أنا أبو بكر ابن أبي قحافة، فقالوا: أنت تقوم بهذا الأمر بعده، فقال أبو بكر: الأمر إلى الله، فقال لهم: كيف تخذعون عن الإسلام وقد أخبركم أهل الكتاب بصفته، وأنه آخر الأنبياء؟ ثم لقوا رسول الله ﷺ فأسلموا^(٢).

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يحتمل أن يكون هذا:

من وصف النبي ﷺ في التوراة؛ فتكون الجملة في موضع الحال من ضمير المفعول في ﴿يَحْذَرُونَهُ﴾.
أو تفسير لما كُتِبَ من ذكره.

أو يكون استئناف وصف من الله تعالى غير مذكور في التوراة والإنجيل.
﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ مذهب مالك: أن الطيبات هي الحلال، وأن الخبائث هي الحرام.

ومذهب الشافعي: أن الطيبات هي المستلذات، إلا ما حرمه الشرع منها؛ كالخمر والخنزير، وأن الخبائث هي المستقذرات؛ كالخنافس والعقارب وغيرها.

(١) في أ، د: «ويرغب».

(٢) ذكره الكلاعي في الاكتفاء (٦١٧/١) عن الواقدي.

﴿وَيَصْنَعُ عَنْهُمْ إِضْرَهُمْ﴾ هي مثل ما ^(١) كُلفوا في شرعهم من المشقَّات؛ كقتل الأنفس في التوبة ^(٢)؛ وقطع موضع النجاسة من الثوب.

وكذلك ﴿الْأَغْلَلِ﴾ عبارة عما منعت منه شريعتهم؛ كتحرим الشُّحوم، وتحریم العمل يوم السبت، وشبه ذلك.

﴿وَعَزَّزُوهُ﴾ أي: منعه بالنَّصر؛ حتى لا يقوى عليه عدوُّ.

﴿وَاتَّبَعُوا التَّوْرَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ هو القرآن، أو الشرع كله.

ومعنى ﴿مَعَهُ﴾: مع بعثه ورسالته.



(١) في ج، د: «هو مثل لما».

(٢) في أ، ب، هـ: «التوراة».

[﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٨﴾ وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ
بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ
اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ صَرْبٍ يَعْصَاكَ الْحَجَرُ فَأَنْجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا
فَدَعَلِمَ كُلُّ أَنَاسٍ مَشْرِبُهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى
كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ
﴿٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفْعِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا
كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿٦٢﴾﴾].

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ تفسيره: قوله ﷺ: «وكان كل نبي يبعث
إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة»^(١).

فإعراب ﴿جَمِيعًا﴾: حال من الضمير في ﴿إِلَيْكُمْ﴾.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نعت لله.

أو منصوب على المدح بإضمار فعل.

أو مرفوع على أنه خبر ابتداء مضمرة.

﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ﴾ هي الكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من

الأنبياء.

(١) هو جزء من حديث: «نصرت بالرعب..» وقد تقدم تخريجه في ٥٨٤/١.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ﴾ هم الذين ثبتوا حين تزلزل غيرهم في عصر موسى .
(أو الذين آمنوا بمحمد ﷺ في عصره) ^(١) .

﴿وَقَطَعْنَهُمْ﴾ أي : فرقناهم ^(٢) .

﴿أَسْبَاطًا﴾ السُّبُط في بني إسرائيل : كالقبيلة في العرب .

وانتصابه :

على البدل من ﴿أَثْنَتَى عَشْرَةَ﴾ ، لا على التمييز ؛ فإن تمييز ﴿أَثْنَتَى عَشْرَةَ﴾ لا يكون إلا بمفرد .

وقال الزمخشري : على التمييز ؛ لأن كل قبيلة أسباط لا سبط ^(٣) .

﴿فَأَنْبَجَسَتْ﴾ أي : انفجرت ؛ إلا أن الانبجاس أخف من الانفجار .

وقال الغزنوي : الانبجاس : أول الانفجار ^(٤) .

﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ وما بعده إلى قوله : ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ :
مذكور في «البقرة» ^(٥) .

تنبيهه : وقع اختلاف في اللفظ بين هذا الموضع من هذه السورة وبين ^(٦)

(١) سقط من أ ، ب ، ج ، هـ .

(٢) في أ ، ب : «مَرَّقْنَاهُمْ» .

(٣) انظر : الكشاف (٦ / ٦٢٠) .

(٤) انظر : عين المعاني «مخطوط» (ل : ٢٦٩) ، للغزنوي السجاوندي ، تقدمت ترجمته في ٩٢ / ١ .

(٥) انظر : ٣١٧ / ١ .

(٦) في أ ، ب ، هـ : «وفي» .

سورة «البقرة»؛ كقوله: ﴿فَأَنْفَجَرْتُمْ﴾ و﴿فَأَنْبَجَسْتُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَدْخُلُوا﴾، ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا﴾، وقوله: ﴿وَكُلُوا﴾ و﴿فَكُلُوا﴾ بالفاء: فقال الزمخشري: لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هنالك تناقض^(١).

وعللها شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير في كتاب: «ملاك التأويل»^(٢) وصاحبُ الدُّرة^(٣) بتعليلات؛ منها قوية وضعيفة فيها طول فتركناها؛ لطولها.

(١) انظر: الكشاف (٦/٦٢٦).

(٢) انظر: ملك التأويل (١/٢٠٣) وما بعدها.

(٣) يعني به: أبا عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني، المعروف بالخطيب الإسكافي، انظر كتابه «درة التنزيل وغرة التأويل» (١/٢٣٣) وما بعدها.

[وَسَأَلْنَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدَرَةٌ إِلَّا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ ﴿١٦٧﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزِّهِمْ يَوْمَ يَكُونُ لِمَن يَفْسُقُ ﴿١٦٨﴾ فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُ لِبَعْنٍ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٠﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧١﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخَذُوهُ لَيُؤْخَذَ عَلَيْهِمْ مِثْقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧٢﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٣﴾ وَإِذْ نُنَقِّنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٤﴾].

﴿وَسَأَلْنَهُمْ﴾ أي: أسأل اليهود على جهة التقرير والتوبيخ.

﴿عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ قيل: هي أيلة، وقيل: هي طبرية، وقيل: مدين.

﴿حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قريبة منه، أو على شاطئه.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي: يتجاوزون حدَّ الله فيه؛ وهو اصطيادهم يوم السبت وقد نُهوا عنه.

وموضع ﴿إِذْ﴾ :

بدلٌ من ﴿الْقَرْيَةِ﴾ ؛ والمراد: أهلها، وهو بدل اشتمال.

أو منصوبٌ بـ ﴿كَانَتْ﴾ ، أو بـ ﴿حَاضِرَةً﴾ .

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا﴾ كانت الحيتان تخرج من البحر يوم السبت حتى تصل إلى بيوتهم ؛ ابتلاءٌ لهم ؛ إذ كان صيدها محرماً عليهم في السبت ، وتغيّب عنهم في سائر الأيام .

و﴿سَبْتِهِمْ﴾ مصدرٌ من قولك : سَبَتَ اليهودي يَسِبْتُ : إذا عَظُمَ يوم السبت .

ومعنى ﴿شُرَعًا﴾ : ظاهرةٌ قريّةٌ منهم ؛ يقال : شرع منا فلان : إذ دنا .

و﴿إِذْ﴾ في قوله : ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ :

منصوبٌ بـ ﴿يَعْدُونَ﴾ .

أو بدلٌ من ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ .

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ الآية ؛ افرقت بنو إسرائيل ثلاث فرق :

فرقة عصت بالصيد يوم السبت .

وفرقة نهت عن ذلك واعتزلت .

وفرقة سكنت واعتزلت ، فلم تنه ولم تعص .

وإن هذه الفرقة لما رأت مجاهرة الناهية وطغيان العاصية قالوا للفرقة الناهية : لم تعظون قوماً يريد الله أن يهلكهم أو يعذبهم ، فقالت الناهية :

ننهاهم معذرةً إلى الله ولعلهم يتقون .

فهلكت الفرقة العاصية، ونجت الناهية، واختلف في الثالثة: هل هلكت؛ لسكوتها؟ أو نجت؛ لاعتزالها وتركها العصيان؟ .

﴿بِعَذَابٍ يَبْسُ﴾ أي: شديد .

وقرئ بالهمز، وتركه، وقرئ على وزن «فَعِيل»، وعلى وزن «فَيْعَل»؛ وكلُّها من معنى البؤس .

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: لما تكبروا عن ما نهوا عنه .

﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ذكر في «البقرة»^(١) .

والمعنى: أنهم عُذِّبُوا أولاً بعذاب شديد، فَعَتَوْا بذلك، فمُسِّخُوا قردة .

وقيل: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ تكرارٌ لقوله: ﴿فَلَمَّا سُوا﴾، والعذاب البيسُ: هو المسخ .

﴿تَأَذَّتْ رُءُوبُكَ﴾ عَزَمَ؛ وهو من الإيذان بمعنى الإعلام .

﴿لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ الآية؛ أي: يسلِّط عليهم، ومن ذلك: أخذ الجزية، وهوانهم في جميع البلاد .

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فرَّقناهم في البلاد، ففي كل بلدة فرقة منهم، فليس لهم إقليم يملكونه .

(١) انظر (١/٣٢٣) .

﴿مَنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾ هم من أسلم؛ كعبد الله بن سلام، أو ^(١) من كان صالحًا من المتقدمين منهم.

﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: بالنعم والنقم.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: حدث بعدهم قومٌ سوءٌ.

والخلف بسكون اللام: ذمٌّ، وبفتحها: مدحٌ.

والمراد: من حدث من اليهود بعد المذكورين.

وقيل: المراد: النصارى.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي: عرض الدنيا.

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ذلك اغترارٌ منهم وكذب.

﴿وَإِنْ يَأْنِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ مَا أَخَذُوا﴾ الواو للحال؛ أي: يرجون المغفرة وهم يعودون إلى مثل فعلهم.

﴿مِثْقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ إشارةٌ إلى كذبهم في قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

وإعراب ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا﴾:

عطفٌ بيانٍ على ﴿مِثْقُ الْكِتَابِ﴾.

أو تفسيرٌ له.

أو تكون «أن» حرف عبارة وتفسير.

(١) في أ، ب، هـ: «و».

﴿وَالَّذِينَ يُسَكِّنُونَ بِالْكِتَابِ﴾ قرئ بالتشديد والتخفيف ؛ وهما بمعنى واحد.

وإعراب ﴿الَّذِينَ﴾ :

عطفٌ على ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ .

أو مبتدأ وخبره : ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ ؛ وقام ذِكْرُ المصلحين مقامَ الضمير ؛ لأن المصلحين هم الذين يمسون بالكتاب .

﴿وَإِذْ نَنفَخْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي : اقتلعنا الجبل ورفعناه فوق بني إسرائيل وقلنا لهم : خذوا التوراة حين أبوا من أخذها .

وقد تقدّم في «البقرة» تفسير الظلة^(١) ، و﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾^(٢) .



(١) انظر : (١/٤٢٧) .

(٢) انظر : (١/٣٢٣) .

[وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٦﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٧﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٨﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَارِضِينَ ﴿١٧٩﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَشَبَّهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٨٠﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٨١﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىَّ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا وَلِيكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٨٢﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٨٣﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٤﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨٥﴾].

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الآية؛ في معناها قولان:

أحدهما: أن الله لما خلق آدم أخرج ذُرِّيَّتَهُ من صلبه وهم مثل الذرِّ، وأخذ عليهم العهد بأنه ربُّهم، فأقروا بذلك والتزموه.

روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من طرق كثيرة، وقال به جماعة من الصحابة وغيرهم.

والثاني: أن ذلك من باب التمثيل، وأن أخذ الذرية عبارة عن إيجادهم

في الدنيا ، وأما إشهداهم فمعناه : أن الله نَصَبَ لبني آدم الأدلة على ربوبيته ، وشهدت بها عقولهم ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم ، وقال لهم : أَلست بربكم وكأنهم قالوا^(١) بلسان الحال : بلى أنت ربُّنا .

والأول هو الصحيح ؛ لتواتر الأخبار به ، إِلَّا أن ألفاظ الآية لا تطابقه بظاهرها ، فلذلك عدل عنه مَنْ قال بالقول الآخر ، وإنما تُطابقه بتأويل ؛ وذلك أن أخذ الذرية إنما كان من صلب آدم ، ولفظ الآية يقتضي أن أخذ الذرية من بني آدم ! .

والجمع بينهما : أنه ذكر بني آدم في الآية والمراد آدم ؛ كقوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] الآية ، على تأويل : لقد خلقنا أباكم آدم ثم صورناه .

وقال الزمخشري : إن المراد ببني آدم : أسلاف اليهود ، والمراد بذريتهم : من كان في عصر النبي ﷺ منهم^(٢) .

والصحيح المشهور : أن المراد جميع بني آدم حسبما ذكرنا .

﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ قولهم ﴿بَلَىٰ﴾ : إقرارٌ منهم بأن الله ربهم ؛ فإن تقديره : أنت ربنا ؛ فإن «بلى» بعد التقرير تقتضي الإثبات ، بخلاف «نعم» ؛ فإنها إذا وردت بعد الاستفهام تقتضي الإيجاب ، وإذا وردت بعد التقرير تقتضي النفي ، ولذلك قال ابن عباس في هذه الآية : لو قالوا : «نعم» لكفروا .

(١) في أ ، ج ، هـ : «وقالوا» .

(٢) انظر : الكشف (٦/٦٤٩) .

وأما قولهم: ﴿شَهِدْنَا﴾ فمعناه: شهدنا بربوبيتك؛ فهو تحقيقٌ لربوبية الله، وأداءٌ لشهادتهم بذلك عند الله.

وقيل: إن ﴿شَهِدْنَا﴾ من قول الله والملائكة؛ أي: شهدنا على بني آدم باعترافهم.

﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ في موضع مفعول من أجله؛ أي: فعلنا ذلك كراهةً أن تقولوا، فهو من قول الله، لا من قولهم.

وقرئ:

بالتاء؛ على الخطاب لبني آدم.

وبالياء؛ على الإخبار عنهم.

﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ قال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل، بعثه موسى عليه السلام إلى ملك مدين داعيًا إلى الله، فرشاه الملك، وأعطاه الملك على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ففعل، وأضل الناس بذلك.

وقال ابن عباس: هو رجل من الكنعانيين اسمه بلعام، كان عنده اسم الله الأعظم، فلما أراد موسى قتال الكنعانيين - وهم الجبارون - سألوا من بلعام أن يدعو باسم الله الأعظم على موسى وعسكره فأبى، فألحوا عليه حتى دعا عليه (أن لا يدخل المدينة، ودعا موسى عليه) (١).

(١) سقط من أ، ب، هـ.

فآليات التي أُعطيها :

على هذا القول : هي اسم الله الأعظم .

وعلى قول ابن مسعود : هي ما علّمه موسى من الشريعة .

وقيل : كان عنده من صحف إبراهيم .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : هو أمية بن أبي الصلت ، وكان قد أوتي علماً وحكمةً ، وأراد أن يسلم قبل غزوة بدر ، ثم رجع عن ذلك فمات كافراً ، وفيه قال النبي ﷺ : «كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم»^(١) .

فآليات على هذا : ما كان عنده من العلم .

والانسلاخ : عبارة عن البُعد والانفصال منها ، كالانسلاخ من الثياب والجلد .

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي : لرفعنا منزلته بالآيات التي كانت عنده .
 ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ عبارة عن فعله لما سقطت به منزلته عند الله .
 ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ أي : صِفَتُهُ كصفة الكلب ؛ وذلك غايةً في الخسّة والرداءة^(٢) .

﴿إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ﴾ اللَّهْتُ : هو تنفّسٌ بسرعة ، وتحريك أعضاء الفم وخروج اللسان ، وأكثر ما يعتري ذلك الحيوانات

(١) أخرجه البخاري (٣٨٤١) ، ومسلم (٢٢٥٦) .

(٢) في د : «والردالة» .

مع الحرِّ والتعب، وهي حالة دائمة للكلب.

ومعنى ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ : إن تفعل معه ما يشقُّ عليه من طرد أو غيره،
﴿أَوْ تَرُكْهُ﴾ دون أن تحملَ عليه : فهو يلهث على كل حال.

ووجه تشبيه ذلك الرجل به :

أنه إن وعظته فهو ضالٌّ، وإن لم تعظه فهو ضالٌّ، فضلالته على كل حال؛
كما أن لهث الكلب على كل حال.

وقيل : إن ذلك الرجل خَرَجَ لسانه على صدره، فصار مثل الكلب في
صورته ولهثه حقيقةً.

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي : صفة المكذبين كصفة الكلب
في لهثه، أو كصفة الرجل المشبه به ؛ لأنهم إن أنذروا لم يهتدوا، وإن تركوا
لم يهتدوا.

أو شبههم بالرجل في أنهم رأوا الآيات والمعجزات فلم تنفعهم، كما أن
الرجل لم ينفعه ما كان عنده من الآيات.

﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ أي : مثلُ القوم.

﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ قدَّم هذا المفعول ؛ للاختصاص والحصر.

﴿كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ﴾ هم الذين عَلِمَ الله أنهم يدخلون النار
بكفرهم، فأخبر أنه خلقهم لذلك، كما جاء في قوله : «هؤلاء إلى الجنة
ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي»^(١).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦٦٠).

﴿لَا يُصِرُّونَ بِهَا﴾ ليس المعنى نفي الفهم والسمع والبصر جملةً؛ وإنما المعنى: نفيها عما ينفع في الدين.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة»^(١).

وسبب نزول الآية: أن أبا جهل سمع بعض الصحابة يقرأ، فيذكر الله مرةً، والرحمن أخرى، فقال: يزعم محمد أن الإله واحد وها هو يعبد آلهة كثيرة؛ فنزلت الآية مبينة أن تلك الأسماء الكثيرة هي لمسمى واحد.

و﴿الْحُسْنَى﴾ مصدر وُصِفَ به، أو تأنيث «أحسن».

وحُسْنُ أسماء الله: هي أنها صفات مدحٍ وتعظيم وتمجيد^(٢).

﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: سَمُّوهُ بأسمائه، وهذا إباحةٌ لإطلاق الأسماء على الله^(٣) تعالى:

فأما ما ورد منها في القرآن أو في الحديث: فيجوز إطلاقه على الله إجمالًا.

وأما ما لم يرد، وفيه مدحٌ لا تتعلَّق به شبهة:

فأجاز أبو بكر ابن الطيب إطلاقه على الله.

ومنع ذلك أبو الحسن الأشعري وغيره، ورأوا أن أسماء الله موقوفةٌ على

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) في ب، هـ: «وتحميد».

(٣) في أ، هـ: «الإله».

ما ورد في القرآن والحديث .

وقد ورد في «كتاب الترمذي» عِدَّتْهَا ؛ أعني : تعيين التسعة والتسعين^(١) ،
واختلف المحدثون هل تلك الأسماء المعدودة فيه مرفوعة إلى النبي ﷺ
أو موقوفة على أبي هريرة ؟ .

ولأنما الذي ورد في الصحيح كونها تسعة وتسعين من غير تعيين .
﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قيل : معنى «ذرُوا» : اتركوهم
لا تحاجُّوهم ولا تتعرَّضوا لهم ؛ فالآية -على هذا- منسوخة بالقتال .
وقيل : معنى «ذرُوا» : الوعيد والتهديد ؛ كقوله : ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾
[المزمل : ١١] ، وهو الأظهر ؛ لما بعده .

والحادثهم في أسماء الله :
هو ما قال أبو جهل ، فنزلت الآية بسببه .
وقيل : تسميته بما لا يليق به .
وقيل : تسمية الأصنام باسمه ، كاشتقاقهم اللات من الله ، والعزرى من
العزير .

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً﴾ الآية ؛ روي أن النبي ﷺ قال : «هذه الآية لكم ، وقد
تقدَّم مثلها لقوم موسى»^(٢) .

(١) سنن الترمذي (٣٥٠٧) .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٦٠٠/١٠) .

[﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٨٧ ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ٨٨ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ٨٩ ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَيَأْتِي حَاضِرُهُمْ بَعْدَ مَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٩٠ ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ٩١ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٩٢ ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ٩٣].

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ الاستدراج: استفعالٌ من الدَّرَجَة؛ أي: نسوقهم إلى الهلاك شيئاً بعد شيء وهم لا يشعرون.
والإملاء: هو الإمهال مع إرادة العقوبة.

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ سَمَّى فعله بهم كيداً؛ لأنه شبيه بالكيد في أن ظاهره إحسانٌ وباطنه خذلان^(١).

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ﴾ يعني بصاحبهم: النبي ﷺ، فنفي عنه ما نسب له المشركون من الجنون.

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله «سَمَّى فعله بهم كيداً» إلخ، يتضمن أن ما يفعله الرب ﷻ بالكافرين من الاستدراج ليس بكيد حقيقة، بل مجرد تسلية، فهو كيد لفظاً لا معنى، وهذا خطأ؛ لأنه صرف للفظ عن ظاهره بلا موجب، كيف وقد أكد الله بالمصدر المؤكّد بقوله: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾؟! فهو تعالى يكيد الكافرين ويمكر بهم، جزاءً على كيدهم ومكرهم، جزاءً وفاقا.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ :
معمولاً لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا﴾ فيُوصَلُ بِهِ ، والمعنى : أو لم يتفكروا
فيعلموا أنه ما بصاحبهم من جنة .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ قَدْ تَمَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا﴾ ، ثم ابتداء
إخباراً مستأنفاً بقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ .
والأول أحسن .

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ يعني : نظر استدلال .
﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ عطفٌ على الملكوت .
ويعني بقوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ : جميع المخلوقات ؛ إذ جميعها دليلٌ على
وحدانية خالقها .

﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ﴾ «أن» الأولى : مخففة من الثقيلة ، وهي
عطف على الملكوت .

و«أن» الثانية : مصدرية ؛ في موضع رفع بـ ﴿عَسَى﴾ .
و﴿إِلَيْهِمْ﴾ يعني : موتهم .

والمعنى : لعلمهم يموتون عن قريب ، فينبغي لهم أن يسارعوا إلى النظر
فيما يخلصهم عند الله قبل حلول الأجل .

﴿فِي آيٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ الضمير للقرآن .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ السائلون : اليهود ، أو قریش .

وُسُمِّيَتِ الْقِيَامَةُ سَاعَةً ؛ لسرعة حسابها ؛ كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ

إِلَّا كَلَّمَجِ الْبَصَرِ ﴿[النحل: ٧٧]﴾.

﴿أَيَّانَ مُرْسِنَهَا﴾ معنى ﴿أَيَّانَ﴾: متى.

و﴿مُرْسِنَهَا﴾: وقوعها وحدوثها، وهي من الإرساء؛ بمعنى الثبوت.

﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي: استأثر الله بعلم وقت وقوعها، ولم يطلع عليه أحد.

﴿لَا يُجَلِّيَهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ معنى ﴿يُجَلِّيَهَا﴾: يُظْهِرُهَا؛ فهو من الجلاء ضدّ الخفاء.

واللام في ﴿لَوْفَهَا﴾ ظرفية؛ أي: عند وقتها.

والمعنى: لا يُظْهِرُ السَّاعَةَ عند مجيء وقتها إِلَّا اللهُ.

﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في معناه ثلاثة أقوال:

الأول: ثقلت على أهل السموات والأرض؛ لهيبتها عندهم، وخوفهم منها.

والثاني: ثقلت على^(١) السموات والأرض أنفسها؛ لتفطر السماء فيها، وتبديل الأرض.

والثالث: معنى ﴿ثَقُلْتُ﴾: ثقل علمها؛ أي: خفي.

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ الحفيُّ بالشيء: هو المُهْتَبِلُ به المعتبر به.

(١) في أ، ب، ج، هـ زيادة: «أهل»، والصواب عدم ذكرها كما في المحرر الوجيز (١٠٥/٤) وكما يقتضيه السياق.

والمعنى : يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بعلمها .

وقيل المعنى : يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بهم ؛ لقرابتك منهم .

﴿عَنْهَا﴾ - على هذين القولين - يتعلّق بـ ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ .

وقيل المعنى : يسألونك كأنك حفيٌّ بالسؤال عنها .

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ براءةٌ من علم الغيب ، واستدلالٌ على عدم علمه .

﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ عطفت على : ﴿لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ ؛ أي : لو علمت الغيب لاستكثر من الخير ، واحترست من السوء^(١) ، ولكن لا أعلمه ؛ فيصيبني ما قدّر لي من الخير والشر .

وقيل : إن قوله : ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ استئنافٌ إخباريٌّ ؛ والسوء - على هذا - : هو الجنون .

وأتّصّاله بما قبله أحسن .

﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يجوز أن يتعلّق بـ ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ معاً ؛ أي : أبشر المؤمنين وأنذرهم .

وخصّ بهم البشارة والنذارة ؛ لأنهم الذين ينتفعون بهما .

ويجوز أن يتعلّق بالبشارة وحدها ، ويكون المتعلّق بـ ﴿نَذِيرٌ﴾ محذوف ؛ أي : نذير للكافرين .

والأول أحسن .

(١) في د : «الشر» .

[﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٦﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨٧﴾ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٨٨﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٨٩﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٠﴾ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩١﴾ أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٢﴾ إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٣﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٤﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٥﴾﴾].

﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني : آدم .

﴿زَوْجَهَا﴾ يعني : حواء .

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ يميل إليها ويستأنس بها .

﴿تَغَشَّاهَا﴾ كناية عن الجماع .

﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ أي : خفت عليها ، ولم تلق منه ما يلقي بعض الحبالى من حملهن من الأذى والكرب .

وقيل : الحمل الخفيف : المني في فرجها .

﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قيل معناه : استمرت به إلى حين ميلاده .

وقيل : قامت وقعدت .

﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ أي : ثَقُلَ حملُها وصارت به ثَقِيلَةً .

﴿ لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَاحِبًا ﴾ أي : وَلَدًا صَالِحًا سَالِمًا فِي بدنِهِ .

﴿ فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شِرْكَآ فِيمَا ءَاتَيْنَاهُمَا ﴾ أي : لَمَّا آتَاهُمَا وَلَدًا صَالِحًا كَمَا طَلَبَا : جَعَلَ أَوْلَادُهُمَا لَهُ شُرَكَاءَ .

فالكلام على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وكذلك : ﴿ فِيمَا ءَاتَيْنَاهُمَا ﴾ ؛ أي : فِيمَا آتَى أَوْلَادَهُمَا وَذُرِّيَّتَهُمَا .

وقيل : إن حواء لما حملت جاءها إبليس فقال لها : إن أطعني وسميت ما في بطنك عبد الحارث فسأخلّصه لك - وكان اسم إبليس الحارث - ، وإن عصيتني في ذلك قتلته . فأخبرت بذلك آدم ، فقال لها : إنه عدوُّنا الذي أخرجنا من الجنة ، فلما وَلَدَتْ مات الولد ، ثم حملت مرة أخرى فقال لها إبليس مثل ذلك ، فعصته فمات الولد ، ثم حملت مرة ثالثة فسمّياه عبد الحارث ؛ طمعًا في حياته .

فقوله : ﴿ جَعَلَا لَهُ شِرْكَآ فِيمَا ءَاتَيْنَاهُمَا ﴾ أي : فِي التَّسْمِيَةِ لَا غَيْرَ ، لَا فِي عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ .

والقول الأول أصحُّ ؛ لِثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ :

أحدها : أَنَّهُ يَقْتَضِي بَرَاءَةَ آدَمَ وَزَوْجِهِ مِنْ قَلِيلِ الشِّرْكِ وَكَثِيرِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ حَالُ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ .

والثاني : أنه يدلُّ على أن الذين أشركوا هم أولاد آدم وذريته : قوله^(١) تعالى : ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بضمير الجمع .

والثالث : أن ما ذكروا من قصة آدم وتسمية الولد عبد الحارث يفتقر إلى نقل بسند صحيح ، وهو غير موجود في تلك القصة .

وقيل : ﴿مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ : هو قصي بن كلاب وزوجته ، و﴿جَعَلَا لَهُ شِرْكًا﴾ أي : سميا أولادهما عبد العزى وعبد الدار وعبد مناف .

وهذا القول بعيدٌ ؛ لوجهين :

أحدهما : أن الخطاب - على هذا - خاصٌّ بذرية قصيٍّ من قريش ، والظاهر أن الخطاب عام لبني آدم .

والآخر : قوله : ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ، فإن هذا يصح في حواء ؛ لأنها خلقت من ضِلَعِ آدم ، ولا يصحُّ في زوجة قصي .

﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ (١٩١) هذه الآية ردُّ على المشركين من بني آدم .

والمراد بقوله : ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ : الأصنامُ وغيرها مما عُبد من دون الله . والمعنى : أنها مخلوقة غير خالقة ، والله تعالى خالق غير مخلوق ؛ فهو الإله وحده .

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٩٢) المعنى : أن الأصنام لا ينصرون مَنْ عبدهم ، ولا ينصرون أنفسهم ؛ فهم في غاية العجز والدَّلة ،

(١) في د : «بدليل قوله» .

فكيف يكونون آلهة؟! .

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ المعنى: أن الأصنام لا تجيب إذا دعيت إلى أن تهدي، أو إلى أن تهدي^(١)؛ لأنها جمادات.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ تأكيد وبيان لما قبلها.

فإن قيل: لم قال: ﴿أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾؛ فوضع الجملة الاسمية موضع الجملة الفعلية؟ وهلاً قال: أو صمتم؟ .

فالجواب: أن صمّتهم عن دعاء الأصنام كانت حالة مستمرة، فعبر عنها بجملة اسمية؛ لتقتضي الاستمرار على ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَالِكُمْ﴾ ردّ على المشركين؛ فإن آلهتهم عباد، فكيف يُعبد العبد مع ربه؟! .

﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾ أمرٌ على جهة التعجيز.

﴿أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْسُونَ بِهَا﴾ وما بعده؛ معناه: أن الأصنام جماداتٌ عادمة للحسّ والجوارح والحياة، وما كان كذلك لا يكون إلهاً؛ فإنّ من وصف الإله: الإدراك والحياة والقدرة.

وإنما جاء هذا البرهان بلفظ الاستفهام؛ لأن المشركين مقرّون أن أصنامهم لا تمشي ولا تبطش ولا تبصر ولا تسمع؛ فلزمتهم الحجة.

والهمزة في قوله: ﴿أَلَهُمْ﴾ للاستفهام مع التوبيخ.

(١) في ب: «إذا دعيت أن تهدي أو إلى أن تهدي».

و﴿أَمْ﴾ في المواضع الثلاثة: تضمّنت معنى الهمزة ومعنى «بل»، وليست عاطفة.

﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ المعنى: استجدوا^(١) أصنامكم لمضرّتي والكيد عليّ، ولا تؤخّروني؛ فإنكم وأصنامكم لا تقدرّون على مضرّتي.

ومقصود الآية: الردّ عليهم ببيان عجز أصنامهم، وعدم قدرتها على المضرة.

وفيها -أيضاً- إشارة إلى أن التوكل: على الله، والاعتصام به وحده، وأن غيره لا يقدر على شيء، ثم أفصح بذلك في قوله:

﴿إِنْ وَلِيََ اللَّهُ﴾ الآية؛ أي: هو ناصري وحافظي منكم، فلا تضروني، ولو حرصتم أنتم وآلهتكم على مضرّتي.

ثم وصف الله بأنه: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾، وبأنه: ﴿يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، وفي هذين الوصفين استدلالٌ على صدق النبي ﷺ؛ بإنزال الكتاب عليه، وبأن الله تولى حفظه، ومن تولى الله حفظه فهو من الصالحين، والصالح لا بد أن يكون صادقاً في قوله؛ لا سيما فيما يقوله على الله.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ﴾ الآية؛ ردّ على المشركين، وقد تقدّم معناه.

(١) في د، ه: «استجدوا».

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾ يَحْتَمِلُ :

أن يريد الأصنام؛ فيكون تحقيرًا لها، وردًا على من عبدها؛ فإنها جمادٌ مواتٌ لا تسمع شيئًا، فيكون المعنى كالذي تقدّم.

أو يريد الكفار، ووصفهم بأنهم لا يسمعون يعني: سمعًا ينتفعون به؛ لإفراط نفورهم، أو لأن الله طبع على قلوبهم.

﴿وَتَرَبَّيْهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إن كان هذا من وصف الأصنام: فقلوبهم لا يبصرون، وقوله: ﴿يَنْظُرُونَ﴾ مجاز، وقوله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ حقيقة؛ لأن لهم صورة الأعين وهم لا يرون بها شيئًا.

وإن كان من وصف الكفار: ف﴿يَنْظُرُونَ﴾ حقيقة، و﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ مجاز على وجه المبالغة؛ كما وصفهم بأنهم لا يسمعون.



[﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْنَاهَا قُلْ إِنَّمَا اتَّبِعُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾].

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن المعنى: خذ من الناس في أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما تيسر لا ما يشق عليهم؛ لئلا ينفروا.

فالعفو - على هذا - بمعنى: السهل والسَّمَح عنهم^(١)، وهو ضد الجَهْد^(٢) والتكَلِّف^(٣)، كقول الشاعر:

خذي العفو مني تستديمي مودتي^(٤)

والآخر: أن المعنى: خذ في الصدقات ما سهل على الناس في أموالهم،

(١) في أ، ب، هـ: «عندهم».

(٢) في ب، ج، هـ: «الجهل».

(٣) في أ، ب، ج، هـ: «والتكليف».

(٤) هذا صدر بيت لأسماء بن خارجة الفزاري، أحد الأجواد المعدودين، وهو في طبقة

التابعين، وعجزه: «ولا تنطقي في سورتني حين أغضب». انظر: فوات الوفيات

(١٦٩/١).

أو ما فضّل لهم، وذلك قبل فرض الزكاة.

فالعفو - على هذا - بمعنى: السّهل، أو بمعنى الكثرة.

﴿وَأُمِّرُ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف؛ وهو أفعال الخير.

وقيل: العرف: الجاري بين الناس من العوائد.

واحتجّ المالكية بذلك على الحكم بالعوائد.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: لا تكافئ السفهاء بمثل قولهم أو فعلهم، واحلّم عنهم.

ولما نزلت هذه الآية سأل رسول الله ﷺ جبريل عنها، فقال: لا أدري حتى أسأل، ثم رجع فقال: «يا محمد إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»^(١).

وعن جعفر الصادق: أمر الله نبيه ﷺ فيها بمكارم الأخلاق^(٢).

وهي - على هذا - ثابتة الحكم؛ وهو الصحيح.

وقيل: كانت مداراةً للكفار، ثم نُسخت بالقتال.

﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ نزغ الشيطان: وسوسته بالتشكيك في الحق، والأمر بالمعاصي، أو تحريك الغضب.

فأمر الله بالاستعاذة منه عند ذلك، كما ورد في الحديث: «أن رجلاً اشتد غضبه، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما به:

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٦٤٣/١٠).

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٣١٨/٤) عن جعفر الصادق بدون إسناد.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»^(١).

﴿طَیِّفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ معناه: لِمَّةٌ منه، كما جاء: «إن للشيطان لمة، وللملك لمة»^(٢).

ومن قرأ ﴿طَیِّفٌ﴾ - بالألف - : فهو اسم فاعل.

ومن قرأ ﴿طَیْفٌ﴾ - بياء ساكنة - : فهو مصدر، أو تخفيف من طَیْف المشدّد؛ كَمِيتٌ ومِيتٌ.

﴿تَذَكَّرُوا﴾ حُذِفَ مفعوله ليعمَّ كلَّ ما يُتَذَكَّرُ من خوف عقاب الله، أو رجاء ثوابه، أو مراقبته، أو الحياء منه، أو عداوة الشيطان والاستعاذة منه، أو النظر والاعتبار وغير ذلك.

﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ هو من بصيرة القلب.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يُمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ الضمير في ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ لـ ﴿الشَّيْطَانِ﴾، وأريد بقوله: ﴿طَیِّفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ الجنس؛ فلذلك أعيد عليه ضمير الجماعة، و﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ هم الكفار.

ومعنى ﴿يُمُدُّونَهُمْ﴾: يكونون مددًا لهم؛ أي: يعضدونهم.

وضمير المفعول في ﴿يُمُدُّونَهُمْ﴾ للكفار، وضمير الفاعل لـ ﴿الشَّيْطَانِ﴾.

ويحتمل أن يريد بالإخوان: الشياطين، ويكون الضمير في ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ للكفار.

(١) أخرجه البخاري (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٨٨)، والنسائي في الكبرى (٣٧/١٠).

والمعنى على الوجهين: أن الكفار يمدهم الشيطان.

وقرئ ﴿يُمِدُّوَنَّهُمْ﴾: بضم الياء، وفتحها؛ والمعنى واحد.

و﴿فِي الْفَلَكِ﴾: يتعلّق بـ ﴿يُمِدُّوَنَّهُمْ﴾.

وقيل: يتعلّق بـ ﴿إِخْوَانُهُمْ﴾؛ كما تقول: إخوة في الله، أو في الشيطان.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي: لا يُقْصِر الشياطين عن إمداد إخوانهم من الكفار.

أو: لا يُقْصِر الكفار عن غيِّهم.

وفي الآية من أدوات البيان: لزوم ما لا يلزم؛ لالتزام الصاد قبل الرء في

﴿مُبْصِرُونَ﴾ و﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِنَايَةٍ قَالُوا لَوْلَا أَعْجَيْتَهُمَا﴾ الضمير في ﴿لَمْ تَأْتِهِمْ﴾ للكفار.

و﴿لَوْلَا﴾ هنا عرضٌ.

وفي معنى ﴿أَعْجَيْتَهُمَا﴾ قولان:

أحدهما: اخترعتها من قبل نفسك.

فالآية -على هذا-: من القرآن، وكان النبي ﷺ يتأخّر عنه الوحي أحياناً،

فيقول الكفار: هلاً جئت بقرآن من قولك!

والآخر: أن معناها: طلبتها من الله، وتخيرتها عليه.

فالآية -على هذا-: معجزة؛ أي: يقولون: اطلب المعجزة من الله.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ معناه:

لا اخترع القرآن؛ على القول الأول.

ولا أطلب آية من الله ؛ على القول الثاني .

﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾ أي : علامات هدى ، والإشارة إلى القرآن .

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ فيها ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الإنصات المأمور به : هو لقراءة الإمام في الصلاة .

والثاني : أنه الإنصات للخطبة .

والثالث : أنه الإنصات لقراءة القرآن على الإطلاق ، وهو الرجّاح ؛

لوجهين :

أحدهما : أن اللفظ عام ، ولا دليل على تخصيصه .

والثاني : أن الآية مكية ، والخطبة إنما شرعت بالمدينة .

﴿لَعَلَّكُمْ تُحْمُونَ﴾ قال بعضهم : الرّحمة أقرب شيء إلى مستمع القرآن ؛

لهذه الآية .

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ يحتمل أن يريد :

الذكر بالقلب دون اللسان .

أو الذكر باللسان سرّاً .

فعلى الأول : يكون قوله : ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ عطفًا مغايرًا ؛ أي :

حالة أخرى .

وعلى الثاني : يكون بيانًا وتفسيرًا للأول .

﴿بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ أي : في الصباح والعشي .

و«الآصال»: جمع أُصِل؛ والأُصْل جمع أُصِيل.

وقيل: المراد: صلاة الصبح والعصر.

وقيل: صلاة المسلمين.

وقيل: فرض الخمس.

والأظهر الإطلاق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ هم الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وفي ذكْرهم تحريضٌ للمؤمنين وتعريضٌ بالكفار.

﴿وَلَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ قدّم المجرور لمعنى الحصر؛ أي: لا يسجدون إلا له

وحده.



﴿ سورة الأنفال ﴾

نزلت هذه السورة في غزوة بدر وغنائمها .

[﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَايَهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾].

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ، والسائلون : هم الصحابة .

و﴿ الْأَنْفَالِ ﴾ : هي الغنائم .

وذلك أن الصحابة كانوا يوم بدر ثلاث فرق :

فرقة مع النبي في العريش تحرسه وتؤنسه .

وفرقة اتبعوا المشركين فقتلوهم وأسروهم .

وفرقة أحاطوا بأسلاب العدو وعسكرهم لما انهزموا .

فلما انجلت الحرب واجتمع الناس رأت كلُّ فرقة أنها أحق بالغنيمة من غيرها، واختلفوا فيما بينهم، فنزلت الآية.

ومعناها: يسألونك عن حكم الغنيمة ومن يستحقها.

وقيل: الأنفال هنا: ما ينقله الإمام لبعض الجيش من الغنيمة زيادةً على حظّه.

وقد اختلف الفقهاء هل يكون ذلك التّنفيل^(١) من الخمس - وهو قول مالك -؟ أو من الأربعة الأخماس؟ أو من رأس الغنيمة قبل إخراج الخمس؟.

﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي: الحكم فيها لله وللرسول، لا لكم.

﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: اتّفقوا وائتلفوا، ولا تنازعوا.

و﴿ذَاتَ﴾ هنا بمعنى: الأحوال؛ قاله الزمخشري^(٢).

وقال ابن عطية: يراد بها في هذا الموضع: نفسُ الشيء وحقيقته^(٣).

وقال الزّبيدي^(٤): إن إطلاق الذات على نفس الشيء وحقيقته ليس من كلام العرب^(٥).

(١) في أ، ب، هـ: «المتنقل».

(٢) انظر: الكشف (١٠/٧).

(٣) انظر: المحرر الوجيز (١٣٣/٤).

(٤) هو أبو بكر محمد بن الحسن الزّبيدي الأندلسي الإشبيلي النحوي، صاحب «مختصر

العين» و«طبقات النحويين»، و«لحن العوام» وغيرها من المصنفات، توفي سنة (٣٧٩هـ).

انظر: معجم الأدباء، لياقوت الحموي (٢٥١٨/١)، وبغية الوعاة، للسيوطي (١/٨٤).

(٥) انظر: لحن العوام (ص: ١٢).

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يريد: في الحكم في الغنائم.

قال عبادة بن الصامت: نزلت فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا، فتنزع الله الأنفال من أيدينا، وجعلها لرسوله ﷺ فقسمها على السَّوَاء، فكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين^(١).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية؛ أي: الكاملون بالإيمان، ف﴿إِنَّمَا﴾ هنا للتأكيد والمبالغة، لا للحصر^(٢).

﴿وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت، وقرأ أبي بن كعب: «فَرَعَتْ».

﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي: قَوِيَ تصديقهم ويقينهم، خلافاً لمن قال: إن الإيمان لا يزد، وإن زيادته إنما هي بالعمل.

﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ يعني: في الجنة.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فيه ثلاث تأويلات^(٣):

أحدها: أن تكون الكاف في موضع رفع؛ على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه الحال كحال إخراجك؛ يعني: أن حالهم في كراهة تنفيل الغنائم كحالهم في كراهة^(٤) خروجك للحرب.

والثاني: أن يكون موضع الكاف نصباً؛ على أنه صفة لمصدر الفعل

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/١١).

(٢) في أ، ب، هـ: «والحصر»، والمثبت الصواب كما في المحرر الوجيز (٤/١٣٥).

(٣) في ج، د: «ثلاثة أوجه».

(٤) في أ، ب، هـ: «حالة».

المقدّر في قوله: ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي: استقرّت الأنفال لله والرسول استقراراً مثل استقرار خروجك.

والثالث: أن تتعلّق الكاف بقوله: ﴿يُجَدِّدُكَ﴾.

﴿مِنْ بَيْتِكَ﴾ يعني: مَسْكَنُهُ بالمدينة إذ أخرجه الله منه لغزوة^(١) بدر.

﴿وَإِنْ قَرِيبًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ أي: كرهوا قتال العدو، وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام فيها أموال عظيمة، ومعها أربعون راكباً، فأخبر بذلك جبريلُ النبي ﷺ، فخرج بالمسلمين، فسمع بذلك أهل مكة، فاجتمعوا وخرجوا في عدد كثير؛ ليمنعوا عيرهم، فنزل جبريل ﷺ فقال: يا محمد إن الله قد وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير وإما قريش، فاستشار النبي ﷺ أصحابه فقالوا: العير أحبُّ إلينا من لقاء العدو، فقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقال له سعد بن عباد: امض لما شئت فإنك متبعوك، وقال سعد بن معاذ: والذي بعثك بالحق لو خضت هذا البحر لخضناه معك؛ فسير بنا على بركة الله^(٢).

﴿يُجَدِّدُكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ كان جدالهم في لقاء قريش؛ لإيثارهم لقاء العير؛ إذ كانت أكثر أموالاً وأقلّ رجالاً.

وتبيّن الحق: هو إعلام رسول الله ﷺ بأنهم يُنصرون.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ تشبيه لحالهم في إفراط جزعهم من لقاء قريش.

(١) في أ، ب، هـ: «بغزوة».

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣١-٣٥).

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ يعني : قريشاً أو غيرهم .

والعامل في «إذ» محذوف تقديره : اذكروا .

﴿أَنَّهُمَا لَكُمْ﴾ بدلٌ من ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ .

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ الشَّوْكَةُ : عبارة عن السلاح سميت بذلك لحِدَّتِها .

والمعنى : تحبون أن تلقوا الطائفة التي لا سلاح لها ؛ وهي العير .

﴿أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ يعني : يُظهر الإسلام ؛ بقتل الكفار وهلاكهم يوم بدر .

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ذلك ، وليس تكراراً للأول ؛ لأن الأول مفعولٌ ﴿يُرِيدُ﴾ ، وهذا تعليلٌ لفعل الله تعالى .

ويَحتمل أن يريد بـ ﴿الْحَقَّ﴾ الأول : الوعد بالنصرة ، وبـ ﴿الْحَقَّ﴾ الثاني :

الإسلام ؛ فيكون المعنى : أنه نصرهم ؛ ليظهر الإسلام ، ويؤيد هذا قوله : ﴿وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ﴾ أي : يبطل الكفر .



[إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَتَى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَتَىٰ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَمُ

فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾].

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ ﴿إِذْ﴾ بدلٌ من ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾.

وقيل : تتعلق بقوله : ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ ، أو بفعل مضمَر .

واستغاثتهم : دعاؤهم بالغوث والنصر .

﴿مُمِدُّكُمْ﴾ أي : مُكثِّرُكُمْ .

﴿مُرَدِّفِينَ﴾ من قولك : رَدِّفَه : إِذَا تَبِعَهُ ، وَأَرَدَفْتَهُ إِيَاهُ : إِذَا أَتَبَعْتَهُ إِيَاهُ .

والمعنى : يتبع بعضهم بعضًا .

فمن قرأه بفتح الدال : فهو اسم مفعول .

ومن قرأه بالكسر : فهو اسم فاعل .

وصحَّ معنى القراءتين ؛ لأن الملائكة المنزلين تَبَعَ بعضهم بعضًا ، فمنهم

تابعون ومتبوعون .

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ الضمير عائد:

على الوعد.

أو على الإمداد بالملائكة.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ ﴿إِذْ﴾ بدلٌ من ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ﴾.

أو منصوبٌ: بـ ﴿النَّصْرُ﴾، أو بما في ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ من معنى النصر، أو بإضمار فعل تقديره: اذكر.

ومن قرأ ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ -بضم الياء والتخفيف-: فهو من أغشى.

ومن قرأ بالضم والتشديد: فهو من غشى المشدد.

وكلاهما يتعدى إلى مفعولين؛ فنَضَبُ ﴿النُّعَاسِ﴾ على أنه المفعول الثاني.

والمعنى: يغطيكم به؛ فهو استعارةٌ من الغشاء.

ومن قرأ بفتح الياء والشين: فهو من غشي المتعدي إلى واحد؛ أي: ينزل عليكم النعاسُ.

﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي: أماناً.

والضمير المجرور يعود على الله تعالى، وانتصاب ﴿أَمَنَةً﴾ على أنه مفعول من أجله.

قال ابن مسعود: النعاس عند حضور القتال علامة أَمْنٍ من العدو^(١).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/٥٩-٦٠).

﴿وَنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ تعديداً لنعمة أخرى؛ وذلك أنهم عَدِمُوا الماءَ في غزوة بدر قبل وصولهم إلى بدر -وقيل: بعد وصولهم-، فَأَنْزَلَ اللهُ لَهُمُ الْمَطَرَ حَتَّى سَالَتِ الْأَوْدِيَةَ.

﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ كان منهم من أصابته جنابة فتطهَّرَ بماءِ المطر، وتوضأَ به سائرهم، وكانوا قبله ليس عندهم ماءٌ لِلظُّهُورِ^(١) ولا لِلوُضُوءِ.

﴿وَيَذْهَبَ عَنْكُمُ رِجْزُ الشَّيْطَانِ﴾ كان الشيطان قد ألقى في نفوس بعضهم وسوسةً بسبب عدمهم الماء، فقالوا: نحن أولياء الله وفينا رسوله فكيف نبقى بلا ماء؟، فَأَنْزَلَ اللهُ الْمَطَرَ، وَأَزَالَ عَنْهُمْ وسوسةَ الشيطان.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يثبَّتَها بزوال ما وسوس لها الشيطان، وبتنشيطها وإزالة الكسل عنها.

﴿وَوُثِّتَ بِهِ الْأَقْدَامُ﴾ الضمير في ﴿بِهِ﴾ عائِدٌ على الماء؛ وذلك أنهم كانوا في رَمَلَةٍ دَهْسَةٍ^(٢) لا يثبت بها قدم، فلما نزل المطر تلبَّدت وتَدَمَّثَ الطريق، وسهل للمشي والوقوف.

وروي: أن ذلك المطر بعينه صَعَّبَ الطريق على المشركين؛ فتبيَّن أن ذلك من لطف الله.

﴿إِذْ يُوحَى﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ:

بدلاً من «إِذْ» المتقدمة، كما أنها بدل من التي قبلها.

(١) في أ، ب: «للطهر».

(٢) الدَّهْسَةُ: الأرض السهلة اللينة التي يثقل فيها المشي، وتغيب فيها القوائم. لسان العرب (٣٩٢/٧).

أو يكون العامل فيه ﴿يُثَبِّتُ﴾ .

﴿فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا) ^(١) التَّثْبِيتُ :

بقتال الملائكة مع المؤمنين .

أو بأقوال مُؤَنِّسَةٍ مَقْوِيَةٍ للقلب قالوها إذ تصوَّروا في صور بني آدم .

أو بإلقاء في نفوس المؤمنين .

﴿سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ :

من خطاب الله للملائكة في شأن غزوة بدر؛ تكميلاً لتثبيت المؤمنين .

أو استئناف إخبارٍ عما يفعله الله في المستقبل .

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ يَحْتَمِلُ - أَيْضًا - أَنْ يَكُونَ : خطاباً للملائكة ،

أو للمؤمنين .

ومعنى ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ : أَعَالِي الْأَعْنَاقِ ؛ حيث المفصل بين الرأس

والعُنُق ؛ لأنه مَذْبَحٌ ، والضرب فيها يطير الرأس .

وقيل : المراد الرؤوس ؛ لأنها فوق الأعناق .

وقيل : المراد الأعناق ، و﴿فَوْقَ﴾ زائدةٌ .

﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ قيل : هي المفاصل .

وقيل : الأصابع ؛ وهو أشهر في اللغة .

(١) سقط من ب، ج، هـ .

وفائدة ذلك : أن المُقاتِل إذا ضُرِبَت أصابعه تعَطَّل من القتال فأمكن أسرُه وقتله .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الإشارة إلى ما أصاب الكفار يوم بدر، والباء للتعليل .

﴿شَاقُوا﴾ : من الشَّقَاق ؛ وهو العداوة والمقاطعة .

﴿ذَلِكَ﴾ فَذُوْقُوهُ ﴿الخطاب -هنا- للكفار .

﴿ذَلِكَ﴾ مرفوع تقديره : ذلكم العقاب أو العذاب .

ويَحتمل أن يكون منصوبًا بقوله : ﴿فَذُوْقُوهُ﴾ ، كقولك : زيدًا فاضربه .

﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ﴾ عطفٌ على ﴿ذَلِكَ﴾ على تقدير رفعه ، أو نصبه .

أو : مفعول معه ، والواو بمعنى «مع» .



[يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ وَيَنُكِسُ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدُّ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾].

﴿زَحَفًا﴾ حالٌ من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أو من الفاعل في ﴿لَقِيتُمُ﴾.

ومعناه: متقابلِي الصفوف والأشخاص.

وأصل الزحف: الاندفاع.

﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ نهْيٌ عن الفرار، مقيدٌ بأن لا يكون^(١) الكفار أكثر من مثلي المسلمين حسبما يُذكر في موضعه.

﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ اللقاء، في أي عصرٍ كان.

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ﴾ هو الكرُّ بعد الفر؛ لِيُرِيَ عدوه أنه منهزم، ثم يَعِطِف عليه، وذلك من الخِدَاع في الحرب.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ أي: منحازًا إلى جماعة من المسلمين.

فإن كانت الجماعة حاضرةً في الحرب: فالتحيزُ إليها جائز باتفاقٍ.

واختلف في التحيز إلى المدينة والإمام والجماعة إذا لم يكن شيءٌ من

(١) في أ، ب، د: «بأن يكون».

ذلك حاضرًا، ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: «أنا فئة لكل مسلم»^(١)، وهذا إباحة لذلك.

والفرار من الذنوب الكبائر.

وانتصب قوله: ﴿مُتَحَرِّفًا﴾:

على الاستثناء من قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ﴾.

وقال الزمخشري: انتصب على الحال، و«إِلَّا» لغو^(٢).

ووزن «متحيز»: مُتَفَاعِلٌ، ولو كان على متفعل لقال: «متحوز»، لأنه من حاز يحوز.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي: لم يكن قتلهم في قدرتكم؛ لأنهم أكثر منكم وأقوى، وَلَكِنْ أَلَّهَ قَتْلَهُمْ بتأييدكم عليهم وبالملائكة.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ كان رسول الله ﷺ قد أخذ يوم بدر قبضةً من تراب أو حصى ورمى بها وجوه الكفار فانهزموا.

فمعنى الآية: أن ذلك من الله في الحقيقة.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٨٠-٨١).

(٢) انظر: الكشف (٧/ ٥١)، وقال أبو حيان في «البحر المحيط» (٥/ ٢٩٣): «ولا يريد الزمخشري بقوله «و(إلا) لغو» أنها زائدة، إنما يريد أن العامل الذي هو (يولهم) وصل إلى العمل فيما بعدها، كما قالوا في «لا» من قولهم: «جئتُ بلا زاد» إنها لغو، وفي الحقيقة هو استثناء من حالة محذوفة والتقدير: ومن يولهم ملتبسًا بأية حالة إلا في حال كذا».

﴿بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ يعني : الأجر والنصر والغنيمة .

﴿مُوْهَنْ﴾ من الوَهْن ؛ وهو الضَّعف .

وقرئ بالتشديد والتخفيف ؛ والمعنى واحدٌ .

﴿إِنْ تَسْتَغِيْهُوْا﴾ الآية ؛ خطاب لكفار قريش ، وذلك أنهم كانوا قد دعوا الله أن ينصر أحبَّ الطائفتين إليه - وروي أن الذي دعا بذلك أبو جهل - ، فنصر الله المؤمنين ، وفتح لهم .

ومعنى ﴿إِنْ تَسْتَغِيْهُوْا﴾ : تطلبوا الفتح .

ويَحتمل الفتح الذي طلبوه أن يكون :

بمعنى النصر .

أو بمعنى الحُكم .

وقيل : إن الخطاب للمؤمنين .

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ إن كان الخطاب للكفار : فالفتح هنا بمعنى الحكم ؛ أي : قد جاءكم الحكم الذي حَكَمَ الله عليكم بالهزيمة والقتل والأسر .

وإن كان الخطاب للمؤمنين : فالفتح هنا يَحتمل أن يكون :

بمعنى الحكم ؛ لأن الله حكم لهم .

أو بمعنى النصر .

﴿وَإِنْ تَنهَوْا﴾ أي: ترجعوا عن الكفر، وهذا يدلُّ على أن الخطاب للكفار.

﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ أي: إن تعودوا للاستفتاح أو للقتال نعدُّ لقتالكم والنصر عليكم.



[يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿١٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠﴾ وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمْتُمْ مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١﴾ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَذَوِّبَكُمْ وَآيَتَكُمْ بِنُصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾].

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ الضمير:

لِلرَّسُولِ ﷺ.

أو للأمر بالطاعة.

﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: تسمعون القرآن والمواعظ.

﴿كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ هم الكفار؛ أي: سمعوا بأذانهم

دون قلوبهم، فسماعهم كلا سماع.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي: كل من يدب، والمقصود: أن الكفار شرُّ الخلق.

قال ابن قتيبة: نزلت هذه الآية في بني عبد الدار؛ فإنهم جدُّوا في القتال

مع المشركين.

﴿لَمَّا يُحْيِكُمُ﴾ أي: للطاعة، وقيل: للجهاد؛ لأنه يُحيي^(١)؛ بالنصر.
 ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قيل: يُمِيتُه.

وقيل: يصرف قلبه كيف يشاء؛ فينقلب من الإيمان إلى الكفر، ومن الكفر إلى الإيمان، وشبه ذلك.

﴿فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ أي: لا تصيب الظالمين وحدثهم، بل تصيب معهم من لم يغير المنكر ولم ينه عن الظلم؛ وإن كان لم يظلم.

وحكى الطبري أنها نزلت في علي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، وطلحة والزبير، وأن الفتنة: ما جرى لهم يوم الجمل^(٢).

ودخلت النون في ﴿تُصِيبَنَّ﴾؛ لأنه بمعنى النهي.

﴿إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ الآية؛ أي: حين كانوا بمكة، و﴿فَأَوَّكَكُمْ﴾ بالمدينة، و﴿وَأَبَدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ في بدر وغيرها.

﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ نزلت في قصة أبي لبابة، حين أشار إلى بني قريظة أن ليس عند رسول الله ﷺ إلا الذبح.

وقيل: المعنى: لا تخونوا بغلول الغنائم.

ولفظها عام.

﴿وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ﴾ عطف على ﴿لَا تَخُونُوا﴾، أو منصوب.

(١) في د: «يجي».

(٢) انظر: تفسير الطبري (١١/١١٣).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/١٣٤).

﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ قيل: نزلت في النضر بن الحارث؛ كان قد تعلم من أخبار فارس والروم، فإذا سمع القرآن وفيه أخبار الأنبياء قال: لو شئت لقلت مثل هذا.

وقيل: هي في سائر قريش.

﴿أَسْطَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أخبارهم المسطورة.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ﴾ الآية؛ قائلها^(١): النضر بن الحارث، أو سائر قريش؛ لما كذبوا النبي ﷺ دعوا على أنفسهم إن كان أمره هو الحق. والصحيح أن الذي دعا بذلك أبو جهل. رواه البخاري ومسلم في كتابيهما^(٢).

وانتصب ﴿الْحَقَّ﴾؛ لأنه خبر كان.

وقال الزمخشري: معنى كلامهم جحود؛ أي: إن كان هذا هو الحق فعاقبنا على إنكاره، ولكنه ليس بحق فلا نستوجب عقاباً، وليس مرادهم الدعاء على أنفسهم، إنما مرادهم نفي العقوبة عن أنفسهم^(٣).

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ إكرام للنبي ﷺ.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: لو آمنوا واستغفروا فإن الاستغفار أمان من العذاب.

(١) في د: «قالها».

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٤٨)، ومسلم (٢٧٩٦).

(٣) انظر: الكشاف (٨٧/٧).

قال بعض السلف : كان لنا أمانان من العذاب ؛ وهما : وجود النبي ﷺ ، والاستغفار ، فلما مات النبي ﷺ ذهب الأمان الواحد ، وبقي الآخر ^(١) .

وقيل : الضمير في ﴿مُعَذِّبُهُمْ﴾ للكفار ، وفي ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ للمؤمنين الذين كانوا بين أظهرهم .

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ المعنى : أي شيء يمنع من عذابهم وهم يصدون المؤمنين من المسجد الحرام ! .

والجملة في موضع الحال ، وذلك هو ^(٢) الموجب لعذابهم .

﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ الضمير : للمسجد الحرام ، أو لله تعالى .

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ المكاء : التصفير بالفم ، والتصدية : التصفيق باليد ، وكانوا يفعلونهما إذ صلى المسلمون ؛ ليخلطوا عليهم صلاتهم .

﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ الآية ؛ نزلت في إنفاق قريش في غزوة أحد .

وقيل : إنها نزلت في أبي سفيان بن حرب ؛ فإنه استأجر ألفين من الأحابيش ^(٣) فقاتل بهم النبي ﷺ يوم أحد .

(١) أخرجه الطبري في تفسير (١/١٥١-١٥٣) من قول ابن عباس وأبي موسى الأشعري وأبي العلاء عليهم السلام .

(٢) في أ ، ب : «من» .

(٣) في أ : «الأحابش» ، وفي ب ، ج ، هـ : «الأحابش» ، وفي سيرة ابن هشام (١/٣٧٣) : «قال ابن إسحاق : والأحابيش : بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والهؤن ابن خزيمة ابن مدركة ، وبنو المصطلق من خزاعة . قال ابن هشام : تحالفوا جميعا ، فسموا الأحابيش ؛ لأنهم تحالفوا بوادٍ يقال له الأَحْبَش بأسفل مكة» .

﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: يتأسفون على إنفاقها من غير فائدة،
أو يتأسفون في الآخرة.

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ إخبار بالغيب.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ معنى ﴿لِيَمِيزَ﴾: يفرق بين الخبيث
والطيب.

والخبيث هنا: الكفار، والطيب: المؤمنون.

وقيل: الخبيث: ما أنفقه الكفار، والطيب: ما أنفقه المؤمنون.

واللام في ﴿لِيَمِيزَ﴾ - على هذا - تتعلق بـ ﴿يُغْلَبُونَ﴾.

وعلى الأول: بـ ﴿يُحْشَرُونَ﴾.

﴿فَيَرْكُمُهُ﴾ أي: يضمه ويجعل بعضه فوق بعض.



[﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٨) وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِذَا انْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ﴾ (٤٠) ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١) إِذَا أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينِيَّةِ وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْفُضُوءِيَّةِ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيْعَدِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٢) إِذَا يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْسَلْنَاهُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٤٣) وَإِذَا يُرِيكُهُمُ إِذِ التَّقَاتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَقَلِيلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤٤)].

﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ يعني: عن الكفر؛ لأن الإسلام يَجِبُ ما قبله، ولا تصح المغفرة إلا به.

﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ يعني: إلى القتال.

﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ تهديد بما جرى لهم يوم بدر، وبما جرى للأمم السالفة.

﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ الفتنة هنا: الكفر؛ فالمعنى: قاتلوهم حتى لا يبقى كفر، فهو كقوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٤)، ومسلم (٢٠).

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لفظه عامٌ يراد به الخصوص ؛ لأن الأموال التي تؤخذ من الكفار :

منها ما يخمس ؛ وهو ما أُخذ على وجه الغلبة بعد القتال .
ومنها ما لا يخمس ، بل يكون جميعه لمن أخذه ؛ وهو ما أخذه من كان ببلاد الحرب من غير إيجابٍ ، وما طرحه العدو خوف الغرق .
ومنها ما يكون جميعه للإمام يأخذ منه حاجته ، ويصرف سائرَه في مصالح المسلمين ؛ وهو الفيةُ الذي لم يُوجَف عليه بخيل ولا ركاب .
﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الآية ؛ اختلف في قَسَم الخُمس على هذه الأصناف :
فقال قوم : يصرف على ستة أسهم : سهم الله ^(١) في عمارة الكعبة ، وسهم النبي ^(٢) ﷺ في مصالح المسلمين - وقيل : للوالي ^(٣) بعده - ، وسهم لذوي القربى الذين لا تحلُّ لهم الصدقة ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل .

وقال الشافعي : على خمسة أسهم ، ولا يجعل لله سهماً مختصاً ، وإنما بدأ - عنده - بالله ؛ لأن الكلَّ مُلكه .

وقال أبو حنيفة : على ثلاثة أسهم : لليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .
وقال مالك : الخمس إلى اجتهاد الإمام ، يأخذ منه كفايته ، ويصرف الباقي في المصالح .

(١) في أ ، ب : «الله» .

(٢) في أ ، ب : «للنبي» .

(٣) في أ ، ب ، ج ، هـ : «للموالي» .

﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ راجعٌ إلى ما تقدم، والمعنى: إن كنتم مؤمنين فاعلموا ما ذكر الله لكم من قسمة الخمس، واعملوا بحسب ذلك ولا تخالفوه.

﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ يعني: النبي ﷺ. والذي أنزل عليه: القرآن أو النصر.

﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي: التفرقة بين الحق والباطل، وهو يوم بدر.

﴿الَّتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ يعني: المسلمين والكفار.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ العامل في ﴿إِذْ﴾: ﴿الَّتَقَى﴾.

والعدوة: شفير الوادي، وقرئ بالضم والكسر؛ وهما لغتان.

﴿الدُّنْيَا﴾: القرية من المدينة، و﴿الْقُصُوصِ﴾: البعيدة.

﴿وَالرَّكْبُ أَهْلَ مَنْكِبِكُمْ﴾ يعني: العير التي كان فيها أبو سفيان، وكان قد نكب عن الطريق؛ خوفاً من النبي ﷺ، وكان جمع قريش المشركين قد حال بين المسلمين وبين العير.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَةِ﴾ أي: لو تواعدتم مع قريش ثم علمتم كثرتهم وقلتكم لاختلفتم ولم تجتمعوا معهم.

أو: لو تواعدتم لم يتفق اجتماعكم مثل ما اتفق بتيسير الله ولطفه.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: يموت من مات بيدٍ عن إظهار وإقامة حجة عليه، ويعيش من عاش بعد البيان له.

وقيل: ﴿لِيَهْلِكَ﴾: يكفر، ﴿وَيَحْيَى﴾: يؤمن.

وَقَرَأَ ﴿مَنْ حَيٍّ﴾ بِالْإِظْهَارِ وَالْإِدْغَامِ؛ وَهُمَا لَغَتَانِ.

﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ﴾ الْآيَةُ؛ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ رَأَى الْكُفَّارَ فِي نَوْمِهِ قَلِيلًا، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ أَصْحَابَهُ فَقَوَّيْتُ أَنْفُسَهُمْ.

﴿لَفَسَلْتُمْ﴾ أَيِ: جَبْنْتُمْ عَنِ الْلِقَاءِ.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الْآيَةُ؛ مَعْنَاهَا: أَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ كُلَّ طَائِفَةٍ قَلِيلَةً فِي عَيْنِ الْأُخْرَى؛ لِيَقَعَ التَّجَاسُرُ عَلَى الْقِتَالِ.



[يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٦﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَّوْا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٩﴾].

﴿رِيحُكُمْ﴾ أي: قوتكم ونشاطكم؛ وذلك استعارة.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني: قريشًا الكفار حين خرجوا لبدر.

﴿بَطَرًا﴾ أي: اعتداء^(١) وتكبرًا.

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ الآية؛ لما خرجت قريش إلى بدر تصوّر لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك، فقال لهم: إني جار لكم من قومي -وكانوا قد خافوا من قومه-، ووعدهم النصر^(٢).

﴿نَكَصَ﴾ أي: رجع إلى وراء.

﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ رأى^(٣) الملائكة تقاتل.

(١) في هامش أ: «عتوا».

(٢) في أ، ب: «بالنصر».

(٣) في أ، ب، ج: «أي».

[إِذْ يَكْفُلُ الّٰمْنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرْ هَتُولَاءِ دِيْنُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الّٰلَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَّابِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذْنُوبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُعْزِرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذْنُوبُهُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالِ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الّٰلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الّٰلَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُضُونَ ﴿٥٦﴾ فَاِمَّا تَشَقَّقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَدَّ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَاِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾] .

﴿يَكْفُلُ الّٰمْنَفِقُونَ﴾ الذين كانوا بالمدينة .

وقيل : الذين كانوا مع الكفار ، وهم نفرٌ من قريش ؛ منهم : قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن ربيعة بن الأسود ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاصي بن منبه بن الحجاج ؛ وكانوا قد أسلموا ولم يهاجروا وخرجوا يوم بدر مع الكفار فقالوا هذه المقالة .

﴿غَرْ هَتُولَاءِ دِيْنُهُمْ﴾ أي : اغترَّ المسلمون بدينهم ، فأدخلوا أنفسهم فما لا طاقة لهم به .

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الّٰلَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ ذلك فيمن قُتِل يوم بدر .

﴿وَأَدْبَرَهُمْ﴾ أي : أَسْتَاهَهُمْ ، وقيل : ظهورهم .

﴿وَذُوقُوا﴾ هذا من قول الملائكة لهم ؛ تقديره : ويقولون لهم : ذوقوا .

والقول المحذوف ومعموله معطوف على ﴿يَضْرِبُونَ﴾ .

ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَهُ :

من قول الملائكة .

أو يكون مستأنفاً .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ﴾ تقديره عند سيبويه : الأمر ذلك ، والباء سببية .

والمعنى : أن الله لا يغيّر نعمةً على عبده حتى يغيروا هم بالكفر والمعاصي .

﴿كَذَابٍ﴾ ذَكَرَ فِي «آلِ عِمْرَانَ»^(١) .

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ يريد : بني قريظة .

﴿فَشَرِدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ أي : افعَلْ بِهِمْ مِنَ النِّقْمَةِ مَا يَزْجُرُ غَيْرَهُمْ .

﴿وَأَيُّهَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ أي : نقضاً للعهد .

﴿فَأَنبَذَ إِلَيْهِمْ﴾ أي : ردَّ العهد الذي بينك وبينهم .

والمفعول محذوف ؛ تقديره : فأنبذ إليهم عهدهم .

﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي : على مُعْدَلَةٍ .

وقيل : معناه : أن تستوي معهم في العلم بنقض العهد .

[وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِصِرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾].

﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي : لا تظنَّ أنهم فاتوا ونجوا بأنفسهم .

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي : لا يفوتون في الدنيا ، ولا في الآخرة .

﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ﴾ الضمير :

للذين يُنْبَذُ إليهم العهد .

أو للذين لا يُعْجِزُونَ .

وحكمه عامٌ في جميع الكفار .

﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ قال رسول الله ﷺ : «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِي» (١) .

﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ الزمخشري : الرباط : اسم للخيل التي تربط في

سبيل الله (٢) .

(١) أخرجه مسلم (١٩١٧) .

(٢) انظر : الكشف (١٤١/٧) .

ابن عطية: رباط الخيل: جمع رِبْط، أو مصدر^(١).

﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني: الكفار.

﴿وَأَخْرَيْنَ﴾ يعني: المنافقين، وقيل: بني قريظة، وقيل: الجن؛ لأنها تنفر من صهيل الخيل، وقيل: فارس.

والأول أرجح؛ لقوله: ﴿مَرَدُّوْا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ مَخُنٌ نَّعْلَمُهُمْ﴾

[التوبة: ١٠١].

قال السهيلي: لا ينبغي أن يقال فيهم شيء؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا نَعْلَمُونَهُمْ﴾، فكيف يعلمهم أحد!^(٢).

وهذا لا يلزم؛ لأن معنى قوله: ﴿لَا نَعْلَمُونَهُمْ﴾: لا تعرفونهم؛ أي: لا تعرفون آحادهم وأعيانهم، وقد يُعرف صنفهم من الناس، ألا ترى أنه قال مثل ذلك في المنافقين.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ السَّلَم هنا: المهادنة.

والآية منسوخة بآية^(٣) القتال في «براءة»؛ لأن مهادنة كفار العرب لا تجوز.

﴿وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ قيل: المراد: بين قلوب الأوس والخزرج؛ إذ كانت بينهما عداوة فذهبت بالإسلام.

(١) انظر: المحرر الوجيز (٤/٢٢٧).

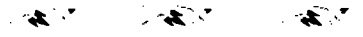
(٢) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي (ص: ١٢٠).

(٣) في ب، ج، هـ: «بآيات».

واللفظ عام.

﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على اسم الله.

وقال الزمخشري: مفعول معه، والواو بمعنى «مع»؛ أي: حسبك وحسب من اتبعك الله^(١).



(١) انظر: الكشاف (١٤٦/٧).

[يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْخِجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ فَاكْلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾].

﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ﴾ الآية؛ إخبارٌ يتضمن:

وعداً، بشرط الصبر.

ووجوب ثبوت الواحد للعشرة، ثم نسخ بوجوب ثبوت^(١) الواحد لل اثنين.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: يقاتلون على غير دين ولا بصيرة؛ فلا يشبتون.

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ لما أخذ الأسرى يوم بدر أشار أبو بكر بحياتهم، وأشار عمر بقتلهم، فنزلت الآية؛ عتاباً على استبقائهم.

﴿حَتَّى يَشْخِجَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يبالغ في القتل.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ عتابٌ لمن رغب في فداء الأسارى.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ الكتاب:

ما قضاه الله في الأزل من العفو عنهم.

(١) في أ، ب: «ثبوت».

وقيل : ما قضاء من تحليل الغنائم لهم .

﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ يراد به : الأسارى ، أو فداؤهم .

ولما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ : «لو نزل عذاب ما نجا منه غيرك يا عمر»^(١) .

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ إباحة للغنائم ، ولفداء الأسارى .



(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/٢٨٣) .

[يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبُ لَمَنَ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾].

﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ أي: إن علم في قلوبكم إيمانًا جبر عليكم ما أخذ منكم من الفدية.

قال العباس: في نزلت؛ وكان افتدى يوم بدر، ثم أعطاه رسول الله ﷺ من المال ما لم يقدر أن يحمله، فقال: قد أعطاني الله خيرًا مما أخذ مني، وأنا أرجو أن يغفر لي^(١).

﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ الآية؛ تهديد لهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلى آخر السورة؛ مقصدها: بيان منازل المهاجرين، والأنصار، والذين آمنوا ولم يهاجروا بعد الحديبية.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨٥/١١).

فبدأ أولاً بالمهاجرين، ثم ذكر الأنصار - وهم الذين آووا ونصروا - ، وأثبت الولاية بينهم، وهي ولاية التعاون والتناصر.

وقيل: هي ولاية الميراث، ثم نُسِخت بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ﴾ لما نفى الولاية بين المؤمنين الذين هاجروا وبين المؤمنين الذين لم يهاجروا: أمر بنصرهم إن استنصروا بالمؤمنين، إلا إذا استنصروا على قوم بينهم وبين المؤمنين عهد، فلا ينصرونهم عليهم. ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿إِلَّا﴾ هنا مركبة من «إن» الشرطية و«لا» النافية.

والضمير في ﴿تَفْعَلُوهُ﴾:

لولاية المؤمنين ومعاونتهم.

أو لحفظ الميثاق الذي في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾.

أو للنصر الذي في قوله: ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾.

والمعنى: إن لم تفعلوا ذلك تكن فتنة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ الآية؛ ثناء على المهاجرين والأنصار، ووعد لهم.

والرزق الكريم: في الجنة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ﴾ يعني: الذين هاجروا بعد الحديبية وبيعة الرضوان.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ قيل: هي ناسخة للتوارث بين المهاجرين والأنصار.

وقال مالك: ليست في الميراث.

وقال أبو حنيفة: هي في الميراث؛ وأوجب بها ميراث الخال والعمة وغيرهما من ذوي الأرحام.

﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في القرآن، وقيل: في اللوح المحفوظ.



﴿ سورة براءة ﴾

وتسمَّى : سورة التوبة، وتسمى - أيضًا - الفاضحة؛ لأنها كشفت أسرار المنافقين.

واتفقت المصاحف والقراء على إسقاط البسملة من أولها.

واختلف في سبب ذلك :

فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : أشبهت معانيها معاني «الأنفال»، وكانت تدعى ^(١) القريتين في زمان رسول الله ﷺ ؛ فلذلك قرنتُ بينهما ووضعتهما ^(٢) في السبع الطوال ^(٣).

وكان الصحابة قد اختلفوا : هل هما سورتان أو سورة واحدة؟ فتركتُ البسملةُ بينهما لذلك.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : البسملة أمان، و«براءة» نزلت بالسيف، فلذلك لم تبدأ بالأمان ^(٤).

(١) في هامش أ: «تدعيان».

(٢) في أ، د: «ووضعتهما» والمثبت موافق لما في الرواية.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٩)، وأبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦)، والنسائي في الكبرى (٢٥٣/٧).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٦٠/٢).

[﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ❶ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ ❷ وَأَذِّنْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ إِن بُئِيتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ❸ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ❹ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ❺ وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ❻].

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ المراد بالبراءة: التبرؤ من المشركين.

وارتفاع ﴿بَرَاءَةٌ﴾ على أنه: خبر ابتداء، أو مبتدأ.

﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تقدير الكلام: براءة واصله من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، ف«مِن» و«إِلَى» متعلقان بمحذوف لا بـ ﴿بَرَاءَةٌ﴾.

وإنما أسند العهد إلى المسلمين في قوله: ﴿عَاهَدْتُمْ﴾؛ لأن فعل الرسول ﷺ لازم للمسلمين، فكانهم هم الذين عاهدوا المشركين.

وكان النبي ﷺ قد عاهد المشركين إلى آجالٍ محدودة:

فمنهم من وقى، فأمر الله أن يَتِمَّ عهده إلى مدته.

ومنهم من نقض ، أو قارب النقض ، فجعل له أجلٌ أربعة أشهر ، وبعدها لا يكون له عهد .

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي : سيروا آمنين أربعة أشهر ، وهي الأجل الذي جعل لهم .

واختلف في وقتها :

ف قيل : هي شوال وذو قعدة وذو حجة والمحرم ؛ لأن السورة نزلت حينئذ ، وذلك عام تسعة .

وقيل : هي من عيد الأضحى إلى تمام العشر الأول من ربيع الآخر ؛ لأنهم إنما علموا بذلك حينئذ ، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث تلك السنة أبا بكر الصديق فحجَّ بالناس ، ثم بعث بعده علي بن أبي طالب فقرأ على الناس سورة براءة : يوم عرفة ، وقيل : يوم النحر .

﴿غَيْرُ مُعْجِزٍ اللَّهِ﴾ أي : لا تفوتونه .

﴿وَأَذِّنْ﴾ أي : إعلام بتبرؤ الله تعالى ورسوله من المشركين .

﴿إِلَى النَّاسِ﴾ جعل البراءة مختصةً بالمعاهدين من المشركين^(١) ، وجعل الإعلام بالبراءة عامًا لجميع الناس ؛ من عاهد ، ومن لم يُعاهد ، وللمشركين وغيرهم .

﴿الْحَجَّ الْأَكْبَرِ﴾ هو يوم عرفة ، أو يوم النحر .

(١) سقط من أ ، ب ، ج ، هـ .

وقيل : أيام الموسم كلها ؛ وعبر عنها بيوم ؛ كقولك : يوم صفين والجمل وكانت أيامًا كثيرة .

﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ﴾ تقديره : أذان بأن الله بريء ، وحذفت الباء تخفيفًا .

وقرئ : ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بالكسر ؛ لأن الأذان في معنى القول .

﴿وَرَسُولُهُ﴾ ارتفع :

بالعطف على الضمير في ﴿بَرِيءٌ﴾ .

أو بالعطف على موضع اسم ﴿أَنَّ﴾ .

أو بالابتداء ، وخبره محذوف .

وقرئ بالنصب ؛ عطفًا على اسم ﴿أَنَّ﴾ .

وأما الخفض :

فلا يجوز فيه العطف على ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ ؛ لأنه معنى فاسد .

ويجوز على الجوار ، أو على القسم ، وهو - مع ذلك - بعيد ، والقراءة به شاذة .

﴿فَإِنْ تَبَتُّمُ﴾ يعني : التوبة من الكفر .

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ يريد : الذين لم ينقضوا .

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ يعني : الأشهر الأربعة التي جعلت لهم :

فمن قال : إنها شوال وذو قعدة وذو حجة والمحرم : فهي الحرم المعروفة زاد فيها شوال ، ونقص رجب ، وسميت حُرُمًا ؛ تغليبًا للأكثر .

ومن قال : إنها إلى ربيع الثاني : فسَمِيَتْ حرماً ؛ لحرمتها ومنع القتال فيها حينئذ .

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ ناسخة لكل موادة في القرآن .

وقيل : إنها نسخت أيضاً : ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤] .

وقيل : بل نسختها هي ؛ فيجوز المنُّ والفداء .

﴿وَحَذُّهُمْ﴾ معناه : الأسر ، والأخيد : هو الأسير .

﴿كُلَّ مَرَصِدٍ﴾ كلَّ طريق ، ونصبه على الظرفية .

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ يريد : من الكفر ، ثم قرن بالإيمان الصلاة والزكاة ؛ فذلك

دليل على قتال تارك الصلاة والزكاة ، كما فعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

والآية في معنى قوله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، ويسيّموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة»^(١) .

﴿فَحَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ تأمينٌ لهم .

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ هو من الجوار ؛ أي : استأمنك

فأمنه حتى يسمع القرآن ؛ ليرى هل يُسلم أم لا .

﴿ثُمَّ أُنْذِرْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي : إن لم يُسلم فردّه إلى موضعه .

وهذا الحُكم ثابت عند قوم ، وقال قوم : نُسخ بالقتال .

[كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ
عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾
كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى
قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْتَرُوا بِعَاقِبَةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ
إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ
فَقَاتِلُوا أَلِئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقَاتِلُونَ
قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
أَتَخْشَوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَهْوَىٰ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ
بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ صُدُورِ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ
غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا
وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ
وَلِجَهً وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾].

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ لفظه ^(١) استفهام، ومعناه: استنكار
واستبعاد.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قيل: المراد قريش، وقيل:
قبائل بني بكر.

﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا﴾ «ما» ظرفية.

(١) في أ، ب، ج، هـ: «اللفظ».

﴿كَيْفَ﴾ تأكيد للأولى ، وحذف الفعل بعدها ؛ للعلم به ، تقديره : كيف يكون لهم عهد؟ .

﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ أي : لا يراعوا .

﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ﴾ الإلّ : القرابة ؛ وقيل : الحلف . والذمة : العهد .

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ استثنى ^(١) من قضى له منهم بالإيمان .

﴿أَيُّمَةَ الْكُفْرِ﴾ أي : رؤساء أهلِه ؛ قيل : إنهم أبو جهل ، وأمّية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، وسهيل بن عمرو . حكى ذلك الطبري ^(٢) ، وهو ضعيف ؛ لأن أكثر هؤلاء كان قد مات قبل نزول هذه السورة .

والأحسن أنها على العموم .

﴿لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ أي : لا أيمان لهم يوفون بها .

وقرئ : ﴿لَا إِيْمَنَ﴾ بكسر الهمزة .

﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾ يتعلق بـ ﴿فَقَاتِلُوا﴾ .

﴿وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ قيل : يعني : إخراجه من المدينة حين قاتلوه بالخذق وأحد .

وقيل : يعني إخراجه من مكة إذ تشاوروا فيه بدار الندوة ، ثم خرج هو بنفسه .

(١) في ب ، ج ، د : «استثناء» .

(٢) انظر : تفسير الطبري (١١/٣٦٣) .

﴿وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً﴾ يعني : إِذَايَتَّهُمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ بِمَكَّةَ .
 ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ يريد^(١) : بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ، وَفِي ذَلِكَ وَعْدٌ
 لِلْمُسْلِمِينَ بِالظَّفَرِ .

﴿قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل : إِنَّهُمْ خَزَاعَةٌ . وَالْإِطْلَاقُ أَحْسَنُ .
 ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ﴾ اسْتِنَافُ إِخْبَارٍ بِأَنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَى بَعْضِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ
 فَيُسَلِّمُ .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ الْآيَةُ ؛ مَعْنَاهَا : أَنَّ اللَّهَ لَا يَتْرُكُهُمْ دُونَ تَمْحِيطٍ يَظْهَرُ فِيهِ
 الطَّيِّبُ مِنَ الْخَبِيثِ .

و﴿أَمْ﴾ هُنَا بِمَعْنَى : بَلْ وَالْهَمْزَةُ .

و﴿يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ أَيِ : يَعْلَمُ ذَلِكَ مَوْجُودًا ؛ لِتَقُومَ بِهِ الْحُجَّةُ .

﴿وَلِيَجْزِيَ أَيِ : بِطَانَةٍ .

(١) فِي أ ، ب ، ج ، هـ : «اللَّهُ» .

[مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَهَدِّينَ ﴿٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿١١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٢﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَإِبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرُسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤﴾].

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ أي: ليس لهم ذلك بالحق والواجب، وإن كانوا قد عمروها تغلباً^(١) وظلماً.

ومن قرأ ﴿مَسْجِدَ﴾ بالجمع: أراد جميع المساجد.

ومن قرأ بالتوحيد: أراد المسجد الحرام.

﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ أي: أن أحوالهم وأقوالهم تقتضي الإقرار بالكفر.

(١) في أ، ب، هـ: «تغليباً».

وقيل : الإشارة إلى قولهم في التلبية : « لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك » .
﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ الآية ؛ سببها : أن قومًا من قريش افتخروا بسقاية
الحاج ، وبعمارة المسجد الحرام ؛ فبين الله أن الجهاد أفضل من ذلك .

ونزلت الآية في علي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وطلحة
ابن شيبة ، افتخروا ؛ فقال طلحة : أنا صاحب البيت وعندي مفاتيحه ،
وقال العباس : أنا صاحب السقاية ، وقال علي : لقد أسلمت قبل الناس ،
وجاهدت مع رسول الله ﷺ .

﴿ لَا تَتَّخِذُواْ آبَاءَكُمْ ﴾ الآية ؛ قيل : نزلت فيمن تثبّط عن الهجرة ، ولفظها
عام ، وكذلك حكمها .

﴿ فَتَرْبِضُواْ ﴾ وعيد لمن آثر أهله أو ماله أو مسكنه على الهجرة والجهاد .
﴿ بِأَمْرِئِهِ ﴾ قيل : يعني : فتح مكة ، وقيل : هو إشارة إلى عذاب أو عقوبة .

[لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدِيرِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٧﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٨﴾ قُلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٦٩﴾].

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ عطف على ﴿مَوَاطِنَ﴾.

أو منصوبٌ بفعل مضمر، وهذا أحسن؛ لوجهين:

أحدهما: أن قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ مختصٌ بحنين، ولا يصح في غيره من المواقن؛ فيضعف عطف (يوم حنين على المواقن؛ للاختلاف الذي بينهما في ذلك.

والآخر: أن ﴿مَوَاطِنَ﴾ ظرف مكان، و﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ ظرف زمان؛ فيضعف عطف^(١) أحدهما على الآخر، إلا أن يريد بالمواقن الأوقات.

وحنين: اسم علم لموضع عُرف برجل اسمه حنين، وانصرف لأنه مذكّر.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ كانوا يومئذ اثني عشر ألفاً، فقال بعضهم: لن

(١) سقط من أ، ب، ج، هـ.

نُغَلِبَ اليوم من قَلَّةٍ، فأراد الله إظهار عجزهم، ففرَّ الناس عن رسول الله ﷺ حتى بقي على بَغْلته في نفر قليل، ثم استنصر بالله، وأخذ قبضة من تراب فرمى بها وجوه الكفار وقال: «شاهت الوجوه»^(١)، ونادى بأصحابه^(٢) فرجعوا إليه، وهزم الله الكفار.

وقصة حنين مذكورة في السَّيَر.

﴿يَمَّا رَحِبَتْ﴾ أي: ضاقت على كثرة اتساعها، و«ما» هنا: مصدرية.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: الملائكة.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى إسلام هوازن الذين قاتلوا المسلمين بحنين.

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ قيل: إن نجاستهم بكفرهم، وقيل: بالجنابة.

﴿فَلَا يَفْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ نصٌّ على منع المشركين - وهم عبدة

الأوثان - من المسجد الحرام، فأجمع العلماء على ذلك.

وقاس مالك على المشركين: سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم،

وقاس على المسجد الحرام: سائر المساجد، فمنع جميع الكفار من جميع المساجد.

وجعلها الشافعي عامة في الكفار، خاصةً بالمسجد الحرام، (فمنع جميع

الكفار من دخول المسجد الحرام خاصة)^(٣)، وأباح لهم دخول غيره.

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٧).

(٢) في أ، ب، هـ: «أصحابه».

(٣) سقط من ب، ج، هـ.

وقصرها أبو حنيفة على موضع النص؛ فمنع المشركين خاصة من دخول المسجد الحرام خاصة، وأباح لهم دخول سائر المساجد، وأباح دخول أهل الكتاب في المسجد الحرام وغيره.

﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ يريد: عام تسعة من الهجرة؛ حين حج أبو بكر بالناس، وقرأ عليهم عليّ سورة «براءة».

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقراً.

كان المشركون يجلبون الأطعمة إلى مكة، فخاف الناس قلة القوت بها إذ مُنِعَ المشركون منها، فوعدهم الله بأن يغنيهم من فضله، فأسلمت العرب كلها، وتمادى جلب الأطعمة إلى مكة ثم فتح الله للمسلمين^(١) سائر الأمصار.

﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَتُوبُونَ الْآخِرَ﴾ أمرٌ بقتال أهل الكتاب. ونفى عنهم الإيمان بالله؛ لقول اليهود: عزيز ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، ونفى عنهم الإيمان باليوم الآخر؛ لأن اعتقادهم فيه فاسد، فإنهم لا يقولون بالمعاد الجسماني^(٢).

﴿وَلَا يَحْرِمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ لأنهم يستحلون الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك.

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ أي: لا يدخلون في الإسلام.

(١) في أ، ب، هـ: «ثم فتح المسلمون».

(٢) في أ، ج، هـ: «الحسابي».

﴿مَنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بيان للذين أُمر بقتالهم ، وحين نزلت هذه الآية خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك ؛ لقتال النصارى .

﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ اتفق العلماء على قبول الجزية من اليهود والنصارى ويلحق بهم المجوس ؛ لقوله ﷺ : «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»^(١) .

واختلفوا في قبولها من عبدة الأوثان والصابئين .

ولا تؤخذ من النساء والصبيان والمجانين .

وقدّرها عند مالك : أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأربعون درهماً على أهل الورق ، ويؤخذ ذلك من كل رأس .

﴿عَنْ يَدٍ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : دفع الذمّي لها بيده ، لا يبعثها مع أحد ولا يَمُطِّلُ بها ؛ كقولك : يدًا بيد .

الثاني : عن استسلام وانقياد ؛ كقولك : ألقى فلان بيده .

﴿وَهُمْ صَغُرُونَ﴾ أي : أذلاء .

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٧٤٢) .

[وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنْفَ يُؤْفِكُونَ ﴿٢٥﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٢٨﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُضْذَوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ يُخْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتِزُونَ ﴿٣٠﴾ إِنَّ عَذَابَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ أَثَنًا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقِمْتُمْ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ إِنَّمَا السَّبْتُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِعُوا عَذَابَ اللَّهِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس : إن هذه المقالة قالها أربعة من اليهود ؛ وهم : سلام بن مشكم ، ونعمان بن أوفى ، وشأس بن قيس ، ومالك بن الصيف .

وقيل : لم يقلها إلا فنحاص ، ونسب ذلك إلى جميعهم ؛ لأنهم متبعون لمن قالها .

والظاهر أن جماعتهم قالوها ؛ إذ لم ينكروها حين نُسبت إليهم .
وكان سبب قولهم ذلك : أنهم فقدوا التوراة ، فحفظها عُزير وحده ،
فعلّمها لهم ، فقالوا : ما علّم الله عُزيرَ التوراة إلا أنه ابنه .

و﴿عُزَيْرُ﴾ مبتدأ ، و﴿ابْنُ اللَّهِ﴾ خبره .

ومُنْع ﴿عُزَيْرُ﴾ التنوين ؛ لأنه أعجمي لا ينصرف .

وقيل : بل هو منصرف ، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين ، وهذا ضعيف .
وأما من نَوَّنه فجعله عربياً .

﴿وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ قال أبو المعالي : «أطبقت
النصارى على أن المسيح إله وابن إله»^(١) ، وذلك كفرٌ شنيع .

﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يتضمَّن معنيين :

أحدهما : إلزامهم هذه المقالة ، والتأكيد في ذلك .

والثاني : أنهم لا حجة لهم عليه ، وإنما هو مجرد^(٢) دعوى ؛ كقولك لمن
تكذبه : هذا قولك بلسانك .

﴿يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ معنى ﴿يُضَاهُونَ﴾ : يشابهون .

فإن كان الضمير لليهود والنصارى ؛ فالإشارة بقوله : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ قَبْلُ﴾ :

(١) الإرشاد ، لأبي المعالي الجويني (ص : ٥١) .

(٢) في ج ، د : «عن» .

للمشركين من العرب؛ إذ قالوا: الملائكة بنات الله، وهم أول كافر.
أو للصابئين.

أو لأمم متقدمة.

وإن كان الضمير للمعاصرين للنبي ﷺ من اليهود والنصارى؛ ف﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ هم أسلافهم المتقدمون.

﴿فَنَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم، وقيل: معناه: لعنهم الله.

﴿أَنْتَ يُؤْفَكُونَ﴾ تعجب كيف يُصرفون عن الحق والصواب!.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ أي: أطاعوهم كما يطاع الرب، وإن كانوا لم يعبدوهم.

﴿وَالْمَسِيحَ﴾ معطوف على الأحرار والرهبان.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي: أمرهم بذلك عيسى ومحمد ﷺ.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أي: يريدون أن يطفئوا نبوة محمد ﷺ وما جاء به من عبادة الله وتوحيده.

﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ إشارة إلى أقوالهم، كقولهم: ساحر وشاعر^(١)، وفيه أيضًا إشارة إلى ضعف حيلتهم فيما أرادوا.

﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كُفِرَ﴾ الضمير: للرسول ﷺ، أو للدين.

(١) في ب، هـ: «سحر وشعر».

واظهاره: جعله أعلى الأديان وأقواها حتى^(١) عمَّ المشارق والمغارب.
 وقيل: ذلك عند نزول عيسى بن مريم حين^(٢) لا يبقى دين إلا دين الإسلام.
 ﴿يَا كُلُّوْا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ هي^(٣): الرُّشَا على الأحكام وغير ذلك.
 ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ ورد في الحديث أن: «كل ما أُدِّيَتْ زكاته فليس بكنز، وما لم تؤدَّ زكاته فهو كنز»^(٤).

وقال أبو ذرٍّ وجماعة من الزهاد: كلُّ ما فضل عن حاجة الإنسان فهو كنز.
 ﴿وَلَا يُفْقُونَهَا﴾ الضمير للأموال والكنوز التي يتضمَّنُها المعنى.
 وقيل: هو للفضة، واكتفى بذلك عن الذهب؛ إذ الحكم فيهما واحد.
 ﴿يَوْمَ يُحْمَى﴾ العامل في الظرف: ﴿أَلَسِرَ﴾، أو محذوف.
 ﴿عَلَيْهَا﴾ الضمير يعود على ما يعود عليه ضمير ﴿يُفْقُونَهَا﴾.
 ﴿أَشْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ هي الأشهر المعروفة؛ أولها: المحرم، وآخرها: ذو الحجة.

وكان الذي جعل المحرم أول شهر من العام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
 ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، وقيل: في القرآن.
 والأول أرجح؛ لقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

(١) في أ، ب، هـ: «حتى».

(٢) في ج، د: «حتى».

(٣) في أ، ب: «هنا».

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبير (١٣/٨).

﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ﴾ هي : رجب وذو قعدة وذو حجة والمحرم .
 ﴿ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلَيْمٌ ﴾ يعني : أن تحريم الأشهر الحرم هو الدين المستقيم
 دين إبراهيم وإسماعيل ^(١) ، وكانت العرب قد تمسكت به حتى غير بعضهم .
 ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ الضمير في قوله : ﴿ فِيهِنَّ ﴾ للأشهر الحرم
 تعظيماً لأمرها ، وتغليظاً للذنوب فيها ، وإن كان الظلم ممنوعاً في غيرها .
 وقيل : الضمير للاثني عشر شهراً ، وهي الزمان كله .

والأول أظهر .

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ أي : قاتلوهم في الأشهر الحرم ؛ فهذا نسخ
 لتحريم القتال فيها .
 و﴿ كَافَّةً ﴾ حال من الفاعل ، أو المفعول .

﴿ إِنَّمَا أَلْيَسْتُ ﴾ هو تأخير حرمة الشهر إلى الشهر الآخر ، وذلك أن العرب
 كانوا أصحاب حروب وإغارات ، وكانت محرمة عليهم في الأشهر الحرم ،
 فيشق عليهم تركها ، فيجعلونها في شهر حرام ويحرّمون شهراً آخر بدلاً منه ،
 وربما أحلوا المحرم وحرّموا صفرًا حتى يكملوا في العام أربعة أشهر
 محرمة .

﴿ يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ﴾ أي : تارة يحلون وتارة يحرمون ، ولم يرد
 العام حقيقة .

(١) لم يرد «إسماعيل» في أ ، ب ، هـ .

﴿لِيُؤْطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: ليوافقوا عدد الأشهر الحرم؛ وهو أربعة.

﴿فِيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ يعني: إحلالهم القتال في الأشهر الحرم.



[يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا بِكَ اللَّهُ مَعْتًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْغُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾].

﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا﴾ عتاب^(١) لمن تخلف عن غزوة تبوك .
 ﴿أَتَأْقُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ عبارة عن تخلفهم ، وأصل ﴿أَتَأْقُلْتُمْ﴾ : تَأْقُلْتُمْ .
 ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ﴾ شرط وجزاء .
 وهذا العذاب : في الدنيا أو في الآخرة .
 ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ شرط وجواب ، والضمير لرسول الله ﷺ .
 فإن قيل : كيف ارتباط هذا الشرط مع جوابه^(٢) ؟

(١) في هـ : «خطاب» .

(٢) في أ ، ب ، هـ : «و» .

فالجواب : أن المعنى : إن لم تنصروه أنتم فسينصره الله الذي نصره حين كان ثاني اثنين ، فدلّ بقوله : ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ على نصره في المستقبل .
 ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني : خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة ،
 وأسند إخراجهم إلى الكفار ؛ لأنهم فعلوا معه من الأذى ما اقتضى خروجه .
 ﴿ثَافِتٍ أَتَيْنِ﴾ هو وأبو بكر الصديق .

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ يعني : أبا بكر .
 ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ يعني : بالنصر واللطف .
 ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ﴾ الضمير : للرسول ﷺ .
 وقيل : لأبي بكر ؛ لأن النبي ﷺ لم تزل معه السكينة ، ويضعف ذلك : بأن
 الضمائر بعدها للرسول ﷺ .

﴿وَأَيَّدُهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني : الملائكة يوم بدر وغيره .
 ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ يريد : بإذلالها ودخضها .
 ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ قيل : هي : لا إله إلا الله ، وقيل : الدين كله .
 ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أمرٌ بالنفير إلى الغزو .
 والخفة : استعارة لمن يمكنه السفر بسهولة ، والثقل : من يمكنه بصعوبة .
 وقال بعض العلماء : الخفيف : الغني ، والثقيل : الفقير .

وقيل : الخفيف : الشاب ، والثقيل : الشيخ .
 وقيل : الخفيف : النشيط ، والثقيل : الكسلان .

وهذه الأقوال أمثلة في الثقل والخفة .

وقيل : إن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾
[التوبة : ٩١] الآية .

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ الآية ؛ نزلت هي وكثير مما بعدها في هذه السورة في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ؛ وذلك أنها كانت إلى أرض بعيدة ، وكانت في شدة الحر وطيب الثمار والظلال ، فثقلت عليهم ، فأخبر الله في هذه الآية أن السفر لو كان لعرض من الدنيا ، أو إلى مسافة قريبة لفعلوه .
﴿بَعْدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي : الطريق والمسافة .

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ إخباراً بغيب ؛ وهو أنهم يعتذرون بأعذار كاذبة ويحلفون .

﴿يُتْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي : يُوقعونها في الهلاك : بحلفهم الكاذب ، أو بتخلفهم عن الغزو .



[عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
 الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَغْفِرُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا
 بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَغْفِرُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا
 الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ
 الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
 الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ
 وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ
 مَنْ يَقُولُ أَسْأَلُ اللَّهَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جَهَنَّمُ لَمُحِيطَةٌ
 بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ
 أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ
 اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى
 الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا
 فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾] .

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ﴾ الآية؛ كان بعض المنافقين قد استأذن
 النبي ﷺ في التخلُّف عن غزوة تبوك فأذن لهم، فعاتبه الله تعالى على إذنه
 لهم .

وقدَّم العفو على العتاب؛ إكراماً له ﷺ .

وقيل: إن قوله ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ ليس لذنوب ولا عتاب، ولكنه استفتاح
 كلام؛ كما تقول: أصلحك الله .

﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ كانوا قد قالوا: نستأذنه في القعود، فإن أذن لنا قعدنا، (وإن لم يأذن لنا قعدنا)^(١).

وإنما كان يظهر الصدق من الكذب لو لم يأذن لهم؛ فحينئذ كان يقعد العاصي والمنافق، ويسافر المطيع.

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية؛ أي: لا يستأذنك في التخلف عن الغزو غير عذرٍ من يؤمن بالله واليوم الآخر.

﴿وَأَزَاتَبَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شكَّت.

ونزلت الآية في عبد الله بن أبي بن سلول والجد بن قيس.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ الآية؛ أي: لو كانت لهم نية في الغزو لاستعدوا له قبل أوانه.

﴿أُنِيعَتْهُمْ﴾ أي: خروجهم.

﴿فَثَبَطَهُمْ﴾ أي: كسر عزيمتهم، وجعل في قلوبهم الكسل.

﴿وَقِيلَ أَفَعُدُّوا﴾ يحتمل أن يكون القائل لهم ﴿أَفَعُدُّوا﴾:

هو الله تعالى؛ وذلك عبارة عن قضائه عليهم بالقعود.

ويحتمل أن يكون ذلك من قول بعضهم لبعض.

﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي: مع النساء والصبيان وأهل الأعذار، وفي ذلك ذمٌ لهم لا اختلاطهم في القعود مع هؤلاء.

(١) سقط من ب، ج، هـ.

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: شرًّا وفسادًا.

﴿وَلَا وَضَعُوا﴾ أي: أسرعوا السير، والإيضاع: سرعة السير، والمعنى: أنهم يسرعون بالفساد والنميمة.

﴿خَلَلَكُمْ﴾ أي: بينكم.

﴿يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ أي: يحاولون أن يفتنوكم.

﴿سَمِعُونَ لَهُمْ﴾ قيل: يسمعون كلامهم.

وقيل: يسمعون أخباركم وينقلونها إليهم.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: طلبوا الفساد، (وروي أنها نزلت في عبد الله بن أبي وأصحابه من المنافقين)^(١).

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: دبروها من كل وجه، فأبطل الله سعيهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ لما دعا النبي ﷺ إلى غزوة تبوك قال الجذ بن قيس - وكان من المنافقين - : ائذن لي في القعود ولا تفتني برؤية بنات الأصفر^(٢)؛ فإني لا أصبر عن النساء.

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: وقعوا في الفتنة التي فرُّوا منها.

﴿إِنْ تُصَبِّكَ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ﴾ الحسنة هنا: النصر والغنيمة وشبه ذلك.

﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ أي: قد حذرنا وتأهبنا من قبل.

(١) سقط من أ، ب، ج، هـ.

(٢) في أ، ب، هـ: «بنات الأصفر».

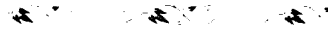
﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: ما قدر وقضى، وهذا ردٌّ على المنافقين.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُوكُمْ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ أي: هل تنتظرون بنا إلا أحد أمرين: إما الظفر والنصر، وإما الموت في سبيل الله، وكل واحدة من الخصلتين حسنى.

﴿يُعَذَابُ مَنْ عِنْدَهُ﴾ المصائب وما ينزل من السماء، أو عذاب الآخرة.

﴿أَوْ يَأْذِيْنَا﴾ يعني: القتل.

﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ تهديد.



[﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٦) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٥٧) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥٨) وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمَنْكُرٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْحَدُونَ﴾ (٥٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (٦٠) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (٦١) إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٢)].

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ تضمن الأمر هنا معنى الشرط، فاحتاج إلى جواب.

والمعنى: لن يتقبل منكم سواء أنفقتم طوعاً أو كرهاً، والطوع والكره عموم في الإنفاق؛ أي: لن يتقبل على كل حال.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ تعليل لعدم قبول نفقاتهم بكفرهم.

ويحتمل أن يكون ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾:

فاعل ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ﴾.

أو في موضع المفعول من أجله، والفاعل الله.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ قيل: عذابهم في الدنيا بالمصائب.

وقيل: ما ألزموا من أداء الزكاة.

﴿وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ إخبار بأنهم يموتون على الكفر.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ أي: من المؤمنين.

﴿يَفَرُّونَ﴾ يخافون.

﴿لَوْ يَحْذَرُونَ مَلَجًا﴾ أي: ما يلجؤون إليه من المواضع.

﴿أَوْ مَغْرَبٍ﴾ هي الغيران في الجبال.

﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾ وزنه مُفْتَعَل؛ من الدخول، ومعناه: نفق أو سرب في الأرض.

﴿يَجْمَحُونَ﴾ أي: يُسرِعُونَ.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي: يعيبك على قسمتها.

والآية في المنافقين؛ كالتي قبلها وبعدها.

وقيل: هي في ذي الخويصرة الذي قال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا﴾ الآية؛ ترغيب لهم فيما هو خير لهم.

وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف؛ تقديره: لكان ذلك خيراً لهم.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ الآية؛ ﴿إِنَّمَا﴾ هنا: تقتضي حصر

الصدقات - وهي الزكاة^(١) - في هذه الأصناف الثمانية، فلا يجوز أن يعطى منها غيرهم.

(١) في ب، هـ: «الزكوات».

ومذهب مالك : أن تفريقها في هؤلاء الأصناف إلى اجتهاد الإمام ؛ فله أن يجعلها في بعضهم دون بعض .

ومذهب الشافعي : أنه يجب أن تقسم على جميع هذه الأصناف بالسواء .
واختلف العلماء هل الفقير أشدُّ حاجةً من المسكين أو بالعكس ؟
ف قيل : هما سواء .

وقيل : الفقير الذي يسأل ويُعلم حاله ، والمسكين ليس كذلك .

﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهِ﴾ أي : الذين يقبضونها ويفرقونها .

﴿وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ﴾ كفارٌ يعطون ترغيباً في الإسلام .

وقيل : هم مسلمون يعطون ليتمكّن إيمانهم .

واختلف هل بقي حكمهم ، أو سقط للاستغناء عنهم ؟ .

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ يعني : العبيد ؛ يُشْتَرُونَ وَيُعْتَقُونَ .

﴿وَالْغَرَمِينَ﴾ يعني : مَنْ عليه دين ، ويشترط أن يكون استدان في غير فساد ولا سرف^(١) .

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني : الجهاد ، فيعطى منها المجاهدون ويشترى منها آلات الحرب .

واختلف هل تصرف في بناء الأسوار وإنشاء الأساطيل ؟ .

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ هو الغريب المحتاج .

(١) في أ ، ب : «ولا إسراف» .

﴿فَرِيضَةً﴾ أي: حقًا محدودًا، ونضُّبُهُ على المصدر.

فإن قيل: لم ذكر مصرف الزكاة في تضاعيف ذُكر المنافقين؟.

فالجواب: أنه حَصَرَ مصرف الزكاة في تلك الأصناف؛ ليقطَعَ طمع المنافقين فيها، فاتَّصَلَت هذه الآية في المعنى بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية.



[وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١١) يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ١١٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَبَقَ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ١١٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوهُ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ١١٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَلَعَبٌ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ١١٥) لَا تَعْذِرُوا فَدَّ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ١١٦)].

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ يعني : من المنافقين ، وإذايتهم له ﷺ : بالأقوال والأفعال .

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي : يسمع كل ما يقال له ويصدقه .

ويقال : إن قائل هذه المقالة هو نَبْتَل بن الحارث ، وكان من مرءة المنافقين ، وقيل : عَتَّاب بن قُشَيْر .

﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي : هو يسمع الخير والحق .

﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : يصدقهم ؛ يقال : آمنت لك ؛ إذا صدقتك ؛ ولذلك تعدى هذا الفعل باللام ، وتعدى ﴿يُؤْمِنَ بِاللَّهِ﴾ بالباء .

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع ؛ عطف على ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ﴾ .

وبالخفض ؛ عطف على ﴿خَيْرٌ﴾ .

﴿يَحْلِفُونَ﴾ يعني : المنافقين .

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ تقديره : والله أحق أن يرضوه ، ورسوله كذلك ؛ فهما جملتان حُذف الضمير من الثانية ؛ لدلالة الأولى عليها .

وقيل : إنما وحَّد الضمير لأن رضا الله ورسوله واحدٌ .

﴿مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ﴾ من يعادي ويخالف .

﴿فَأَبَ لَهٗ﴾ «أَنَّ» هنا مكررة ؛ تأكيداً للأولى .

وقيل : بدل منها .

وقيل : التقدير : فواجب أن له ؛ فهي في موضع خبر مبتدأ محذوف .

﴿يَحْذَرُ الْمُتَنَفِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني : تُنْزَلُ في شأنهم سورة على النبي ﷺ ، والضمائر في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿نُنَبِّئُهُمْ﴾ و﴿قُلُوبِهِمْ﴾ تعود على المنافقين .

وقال الزمخشري : إن الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿نُنَبِّئُهُمْ﴾ للمؤمنين ، وفي ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ للمنافقين ^(١) .

والأول أظهر .

﴿قُلْ أَسْتَهْزِئُكُمْ﴾ تهديدٌ .

﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ صنع ذلك بهم في هذه السورة ؛ لأنها فضحتهم .

﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ نزلت في ودیعة بن ثابت ؛ بلغ النبي ﷺ أنه

(١) انظر : الكشف (٧/ ٢٩٢) .

قال : هذا يريد أن يفتح قصور الشام ! هيهات هيهات ! ، فسأله عن ذلك فقال : إنما كنا نخوض ونلعب .

﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ كان منهم رجل اسمه مُحْشِن^(١) ، تاب ومات شهيداً .



(١) قال ابن هشام في السيرة (٢/ ٥٢٤) : «يُقال له : مُحْشِنُ بْنُ حُمَيْرٍ ، ويُقال : محشيٌّ» .

[﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَتِ وَالْكَفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَدُهُمْ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُنْفِقَتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢٢﴾﴾].

﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ نفى لأن يكونوا من المؤمنين .

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ كناية عن البخل .

﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي : غفلوا عن ذكره .

﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ تركهم من رحمته وفضله .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ﴾ الأصل في الشر أن يقال : «أوعد»، وإنما يقال فيه «وعد» إذا صُرح بالشر .

﴿وَالْكَفَّارَ﴾ يعني : المجاهرين بالكفر .

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ خطابٌ للمنافقين، والكاف: في موضع نصب؛ والتقدير: فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم. أو في موضع خبر مبتدأ؛ تقديره: أنتم كالذين من قبلكم. ﴿وَحُضُّمٌ﴾ أي: خلطتم، وهو مستعارٌ من الخوض في الماء، ولا يقال إلا في الباطل من الكلام.

﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ تقديره: كالخوض الذي خاضوا. وقيل: كالذين خاضوا؛ ف«الذي» هنا -على هذا- بمعنى الجمع.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمُ﴾ الآية؛ تهديدٌ لهم بما أصاب الأمم المتقدمة.

﴿وَالْمُؤَنَّفَكَتِ﴾ يعني: مدائن قوم لوط.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في مقابلة قوله - في المنافقين - : ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾، ولكنه خصَّ المؤمنين بالوصف بالولاية.

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ قيل: عدن: هي مدينة الجنة وأعظمها.

وقال الزمخشري: هو اسم علم^(١).

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: رضوانٌ من الله أكبر من كلِّ ما ذُكر.

وذلك معنى ما ذكر في الحديث: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة:

(١) انظر: الكشاف (٧/ ٣٠٤).

أتريدون شيئاً أزيدكم، فيقولون: يا ربنا أي شيء تزيّدنا؟ فيقول: رضواني
فلا أسخط عليكم أبداً»^(١).



(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

[يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾].

﴿جِهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ جهاد الكفار بالسيف، وجهاد المنافقين باللسان ما لم يظهر ما يدل على كفرهم، فإن ظهر منهم ذلك فحكمهم حكم الزنديق، وقد اختلف هل يقتل أم لا؟.

﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ الغلظة ضد الرحمة والرفقة، وقد تكون بالقول والفعل وغير ذلك.

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ نزلت في الجلاس بن سويد؛ فإنه قال: إن كان ما يقول محمد حقًا فنحن شرٌّ من الحُمُر، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقرره عليه، فحلف أنه ما قاله.

﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ يعني: ما تقدّم من قول الجُلاس؛ لأن ذلك يقتضي التكذيب.

﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ لم يقل: «بعد إيمانهم»؛ لأنهم كانوا يقولون بالستهم: آمنا، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم.

﴿وَهُمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ همّ الجُلاس بقتل مَنْ بَلَغَ تلك الكلمة عنه.

وقيل: همّ بقتل النبي ﷺ.

وقيل: الآية نزلت في عبد الله بن أبيّ بن سلول، وكلمة الكفر التي قالها قوله: سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكُ، وهمُّه بما لم ينل: قوله: ﴿لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي: ما عابوا إلا الغنى الذي كان حقّه أن يشكروا عليه، وذلك في الجُلاس، أو في عبد الله بن أبيّ.

﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ فتح الله لهم باب التوبة، فتاب الجُلاس وحسن حاله.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ الآية؛ نزلت في ثعلبة بن حاطب، وذلك أنه قال: يا رسول الله ادع الله أن يكثر مالي، فقال له رسول الله ﷺ: «قليلٌ تؤدي شكره خيرٌ من كثيرٍ لا تطيقه»، فأعاد عليه حتى دعا له، فكثر ماله، فتشاغل به حتى ترك الصلوات، ثم امتنع من أداء الزكاة، فنزلت فيه الآية، فجاء بركاته إلى النبي ﷺ، فأعرض عنه ولم يأخذها منه، وقال: «إن الله أمرني أن لا آخذ زكاتك»، ثم لم يأخذها منه أبو بكر ولا عمر ولا عثمان^(١).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/٥٧٨-٥٨٠).

﴿يَحْلُوا بِهِ﴾ إشارة إلى منعه الزكاة.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾ ذلك عقوبة على العصيان بما هو أشد منه.

﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾ حكم بوفاته على النفاق.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ نزلت في المنافقين؛ حين تصدق عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف فقالوا: ما هذا إلا رياء.

وأصل ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتطوعين، والمراد به هنا: من تصدق بكثير.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ هم الذين لا يقدرُونَ إِلَّا على القليل فيتصدقون به.

نزلت في أبي عقيل؛ تصدق بصاع من تمر، فقال المنافقون: إن الله غني عن صدقة هذا.

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخفون بهم.

﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ تسمية للعقوبة باسم الذنب^(١).

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك حفظه الله: قول ابن جزي رَحِمَهُ اللهُ: «تسمية للعقوبة باسم الذنب» أقول: معنى كلامه أن الله لا يسخر حقيقة بالمنافقين، بل هذا من تسمية العقوبة باسم الذنب الذي ارتكبه، وهو سخرتهم بالمؤمنين المتصدقين، وهذا معنى قول بعضهم: هذا من قبيل المشاكلة، أي اللفظية، كما قالوا مثل ذلك في المكر والاستهزاء والخداع، والصواب: أن الله يمكر حقيقة بالماكرين من الكافرين والمنافقين، ويخدع المخادعين، ويستهزئ بالمستهزئين، ومن ذلك إملاؤه تعالى للكافرين واستدراجهم، وإظهاره سبحانه قبول ما أظهره المنافقون من الإيمان، فيحسبون أنهم خدعوا الله بما أظهروه من العمل، وهو تعالى محمود على ذلك؛ لأنه عدل.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ :

أحدهما : أن يكون لفظُ أمرٍ ، ومعناه الشرط ، بمعنى : إن استغفرت لهم أو لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ، كما جاء في سورة «المنافقين» .

والآخر : أن يكون تخييراً ؛ كأنه قال : إن شئت فاستغفر ، وإن شئت فلا تستغفر لهم ، ثم أعلمه الله أنه لا يغفر لهم ، وهذا أرجح ؛ لقول رسول الله ﷺ : «إن الله خيرني فاخترت» ، وذلك حين قال عمر : أتصلي على عبد الله بن أبيٍّ وقد نهاك الله عن الصلاة عليه !^(١) .

﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ ذَكَرَهَا عَلَى وَجْهِ التَّمَثِيلِ لِلْعَدَدِ الْكَثِيرِ .



= ومن مكر الله واستهزائه بالمنافقين يوم القيامة أنهم يكونون مع المؤمنين ، فيعطون أنواراً حتى يظنوا أنهم ناجون ، وليسوا بناجين ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ تُورِكُمْ﴾ الآيات ، ومن مكر الله بالكافرين ما ذكره في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ . والله أعلم .

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٦) ، ومسلم (٢٧٧٤) .

[فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْحَيَرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾] .

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: الذين خلفهم الله عن الغزو وأقعدهم عنه، وفي هذا تحقير وذم لهم، ولذلك لم يقل: «المتخلفون».

﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي: بقعودهم.

﴿خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: بعده حين خرج إلى تبوك، ف﴿خَلَفَ﴾ على هذا ظرف.

وقيل: هو مصدر من خالف؛ فهو على هذا مفعول من أجله.

﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال هذه المقالة رجل من بني سلمة ممن صعب عليه السفر إلى تبوك في الحر.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ أمرٌ بمعنى الخبر، فضحكهم القليل : في الدنيا مدة بقائهم فيها ، وبكاؤهم الكثير : في الآخرة .

وقيل : هو بمعنى الأمر ؛ أي : يجب أن يكونوا يضحكون قليلاً ويبكون كثيراً في الدنيا ؛ لما وقعوا فيه .

﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ إنما لم يقل : «إليهم» ؛ لأن منهم من تاب من النفاق وندم على التخلف .

﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ عقوبة لهم فيها خزي وتوبيخ .

﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني : في غزوة تبوك .

﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَلِيفِينَ﴾ أي : مع القاعدين ؛ وهم النساء والصبيان .

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ نزلت في شأن عبد الله بن أبي بن سلول وصلاة رسول الله ﷺ عليه حين مات .

فروي أنه صلى عليه فنزلت الآية بعد ذلك .

وروي أن رسول الله ﷺ لما تقدّم ليصلي عليه جاءه جبريل فجبذ بثوبه ، وتلا عليه : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية ، فانصرف ﷺ ولم يصل عليه .

﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ قيل : يعني براءة ، والأرجح أنه على الإطلاق .

﴿أَنْ ءَامِنُوا﴾ «أن» هنا مفسرة .

﴿أَسْتَعِذَّكَ أَوْ لَوْ أَلْطَوُلَ مِنْهُمْ﴾ أي : أولوا الغنى والمال الكثير .

﴿لَيْكِنَ الرَّسُولُ﴾ الآية؛ أي: إن تخلف هؤلاء فقد جاهد الرسول ومن

معه .

﴿الْخَيْرَاتُ﴾ تعمُّ منافع الدارين .

وقيل: هي الحور العين؛ لقوله: ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠] .

[وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَنْفُقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِ وَالشَّهَادَةُ بَيْنَهُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ تَرْضَاؤَكُمْ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةٌ أَلَسَوْهُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾].

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ هم : المعتذرون ؛ ثم أدغمت التاء في الذال ، ونقلت حركتها إلى العين ، واختلف هل كانوا في اعتذارهم صادقين أو كاذبين ؟ .
وقيل : هم المقصرون ؛ من عذّر في الأمر : إذا قصر فيه ولم يجد ؛ فوزنه على هذا : المفعّلون .

وروي أنها نزلت في قوم من غفار .
﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ هم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا عن تخلفهم ؛ فكذبوا في دعواهم الإيمان .
﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي : من المعذرين .
﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ هذا رفعٌ للخرج عن أهل الأعذار الصحيحة من ضعف البدن والفقر إذا تركوا الغزو .
وقيل : إن الضعفاء هنا هم النساء والصبيان ، وهذا بعيد .
﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَنْفُوثُ﴾ قيل : نزلت في بني مُقَرَّنٍ ، وهم ستة إخوة صحبوا النبي ﷺ .
وقيل : في عبد الله بن مغفل المزني .
﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ﴾ يعني : بنياتهم وأقوالهم ، وإن لم يخرجوا للغزو .
﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ وصفهم بالمحسنين ؛ لأنهم^(١) نصحوا لله ورسوله ، ورفع عنهم العقوبة والتعنيف واللوم .
﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ قيل : هم بنو مُقَرَّنٍ .
وقيل : ابن مغفل .
وقيل : سبعة نفر من بطون شتى ؛ وهم البكَّاءون .
ومعنى ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ : على الإبل .

(١) في أ ، ب ، هـ : «أنهم» .

وجواب ﴿إِذَا﴾ يحتمل أن يكون: ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ﴾ أو ﴿تَوَلَّوْا﴾.

﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ يعني: من غزوة تبوك.

﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم.

﴿مِنْ أُنْبَارِكُمْ﴾ نعتٌ لمحذوف هو المفعول الثاني؛ تقديره: قد نبأنا الله جملةً من أخباركم.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَفَقَاً﴾ هم أهل البوادي من العرب.

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني: أنهم أحقُّ أن لا يعلموا الشرائع؛ لبعدهم عن الحاضرة ومجالس العلم.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي: تثقل عليه الزكاة والنفقة في سبيل الله ثقل المغرم الذي ليس بحق عليه.

﴿وَيَتَرَبَّصُّ بَكُمْ الدَّوَابِرُ﴾ أي: ينتظر بكم مصائب الدنيا.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ خبرٌ، أو دعاء.

﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي: دعواته لهم.

وهو عطفٌ على ﴿فُرِيتٍ﴾؛ أي: يقصدون بنفقاتهم التقرب إلى الله^(١) واغتنام دعاء الرسول لهم.

وقيل: نزلت في بني مكرن.

(١) في أ، ج، هـ: «إليه».

[وَالسَّاقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٥﴾ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٨﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٩﴾ وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِينَ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْشَكُّرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٠﴾ وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢٢﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٢٣﴾ أَفَمَنْ أَتَسَسَ بِئِنَّكُمُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَسَسَ بِئِنَّكُمُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٥﴾].

﴿وَالسَّاقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ قيل : هم من صلى للقبلتين .

وقيل : من شهد بدرًا .

وقيل : من حضر بيعة الرضوان .

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ﴾ سائر الصحابة، ويدخل في ذلك التابعون ومن بعدهم إلى يوم القيامة؛ بشرط الإحسان.

﴿مَرَدُّوْاْ عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي: اجترؤوا عليه، وقيل: أقاموا عليه.

﴿سُعَذَّبْنَاهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ العذاب العظيم: هو عذاب النار.

وأما المَرَّتَانِ قبله:

فالثانية منهما: عذاب القبر.

والأولى: عذابهم بإقامة الحدود عليهم.

وقيل: فضيحتهم في النفاق.

﴿وَأَخْرَجُوا عَرِفْرَؤًا يَذُوبُهُمْ﴾ الآية؛ قيل: إنها نزلت في أبي لبابة، فعمله الصالح: الجهاد، وعمله السيئ: نصيحته لبني قريظة.

وقيل: هي فيمن تخلف عن تبوك من المؤمنين، فعملهم الصالح: ما سبق لهم، وعملهم السيئ: تخلفهم عن تبوك، وروي أنهم ربطوا أنفسهم إلى سواري المسجد، وقالوا: لا نحُلُّ أنفسنا حتى يحلُّنا رسول الله ﷺ.

وقيل: هي عامة في الأمة إلى يوم القيامة.

قال بعضهم: ما في القرآن آية أرجى لهذه الأمة من هذه.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ قيل: نزلت في المتخلفين الذين ربطوا أنفسهم؛

لما تاب الله عليهم قالوا: يا رسول الله إنا نريد أن نتصدق بأموالنا، فنزلت هذه الآية، وأخذ ثلث أموالهم.

وقيل : هي الزكاة المفروضة ؛ فالضمير على العموم لجميع المسلمين .
﴿ تَطَهَّرُهُمْ وَزَكَّيْهِمْ بِهَا ﴾ خطاب للنبي ﷺ ، في موضع صفة لـ ﴿ صَدَقَهُ ﴾ .
أو حال من الضمير في ﴿ خُذْ ﴾ .

﴿ وَصَلِ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : ادعُ لهم .
﴿ سَكَنُ لَهُمْ ﴾ أي : تَسْكُنْ به نفوسهم ؛ فهو عبارة :
عن صحة الاعتقاد .

أو عن طُمَأْنِينَةِ نفوسهم إذ علموا أن الله تاب عليهم .
﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ الضمير في ﴿ يَعْلَمُوا ﴾ :
للتائبين من التخلف .

وقيل : للذين تخلفوا ولم يتوبوا .
وقيل : عام .

وفائدة الضمير المؤكِّد : تخصيص الله تعالى بقبول التوبة دون غيره .
﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ قيل : معناه : يأمر بها .
وقيل : يقبلها من عباده .
﴿ وَءَاخِرُونَ مُرْجُونَ لِمِ اللَّهِ ﴾ قيل : هم الثلاثة الذين خُلِّفُوا قبل أن يتوب
الله عليهم .

وقيل : هم الذين بنَوْا مسجد الضَّرَّار .
وقرئ ﴿ مُرْجُونَ ﴾ بالهمز وتركه ، وهما لغتان ، ومعناه : التأخير .

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ قرئ ﴿الَّذِينَ﴾ بغير واو؛ صفة لقوله: ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ﴾، أو على تقدير: هم الذين، وهذه القراءة جارية على قول من قال في الـ ﴿مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾: هم أهل مسجد الضرار.

وقرئ ﴿وَالَّذِينَ﴾ بالواو؛ عطفًا على ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ﴾، وهذه القراءة جارية على قول من قال في المرجئين: إنهم الثلاثة الذين خلفوا.

﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ كان بنو عمرو بن عوف من الأنصار قد بنوا مسجد قباء، وكان رسول الله ﷺ يأتيه ويصلي فيه، فحسدهم على ذلك قومهم بنو غنم بن عوف وبنو سالم بن عوف؛ فبنوا مسجدًا آخر مجاورًا له؛ ليقطعوا الناس عن الصلاة في مسجد قباء، وذلك هو الضرار الذي قصدوا، وسألوا من رسول الله ﷺ أن يأتيه، ويصلي لهم فيه، فنزلت عليه فيه هذه الآية.

﴿وَنَقَرِبًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أرادوا أن يتفرق المؤمنون عن مسجد قباء.

﴿وَارْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: انتظارًا لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الراهب الذي سمّاه رسول الله ﷺ: الفاسق، وكان من أهل المدينة، فلما قدمها رسول الله ﷺ جاهر بالكفر والنفاق، ثم خرج إلى مكة فحزّب الأحزاب من المشركين، فلما فتحت مكة خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف خرج إلى الشام، ليستنصر بقيصر فهلك هناك.

وكان أهل مسجد الضرار يقولون: إذا قدم أبو عامر المدينة يصلي في هذا المسجد.

والإشارة بقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ إلى ما فعل مع الأحزاب.

﴿وَلِيَحْلِفَنَّ إِنَّ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ﴾ أي: الخصلة الحسنی؛ وهي الصلاة وذكر الله، فأكذبهم الله في ذلك.

﴿لَا نَقُفُّ فِيهِ أَبَدًا﴾ نهى عن إتيانه والصلاة فيه، فكان رسول الله ﷺ لا يمرُّ بطريقه.

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ قيل: هو مسجد قباء.

وقيل: مسجد النبي ﷺ بالمدينة، وقد رُوي ذلك عن رسول الله ﷺ (١).

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ كانوا يستنجون بالماء، ونزلت في الأنصار على قول من قال: إن المسجد الذي أُسِّس على التقوى هو مسجد المدينة.

ونزلت في بني عمرو بن عوف خاصةً على قول من قال: إنه مسجد قباء.

﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيْتُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُيْتُهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ الآية؛ استفهام بمعنى التقرير.

والذي أُسِّس على التقوى والرضوان: مسجد المدينة أو مسجد قباء، والذي أُسِّس على شفا جرف هار: هو مسجد الضرار.

وتأسيس البناء على التقوى والرضوان: هو بحسن النية فيه، وقصد وجه الله، وإظهار شرعه.

والتأسيس على شفا جرف هار: هو بفساد النية، وقصد الرياء، والتفريق بين المؤمنين؛ فذلك على وجه الاستعارة والتشبيه البديع.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/٦٨٣).

ومعنى ﴿شَفَا جُرْفٍ﴾ : طَرَفَهُ .

ومعنى ﴿هَارٍ﴾ : ساقِطٌ ، أو واهٍ ؛ بحيث أَشْفَى على السقوط ، وأصل «هَارٍ» : هَائِرٌ ؛ فهو من المقلوب ؛ لأن لامه جعلت في موضع العين .

﴿فَأَنهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي : طاح في جهنم ، وهذا ترشيحٌ للمجاز ؛ فإنه لما شُبِّهَ بالجرف وُصِفَ بالانهيار ؛ الذي هو من شأن الجرف .

وقيل : إن ذلك حقيقة ، وأنه سقط في نار جهنم وخرج الدخان من موضعه .

والصحيح أن رسول الله ﷺ أمر بهدمه فهُدمَ .

﴿لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمْ أَلَّذِي بَنَوْا رَبِيَّةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي : لا يزال في قلوب أهل مسجد الضرار ريبَةٌ من بنيانه ؛ أي :

شكٌ في الإسلام بسبب بنيانه ؛ لا اعتقادهم صواب فعلهم .
أو غيظٌ بسبب هدمه .

﴿إِلَّا أَنْ تُقَطَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي : إِلَّا أَنْ يَمُوتُوا .



[﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْسِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْسِلُونَ وَيُقْلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٣﴾﴾ التَّائِبُونَ الْعَمِدُونَ الْحَمْدُونَ السَّابِحُونَ الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْخَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٦﴾﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٨﴾﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٠﴾﴾].

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ قيل : إنها نزلت في بيعة العقبة .

وحكمها عام في كل مؤمن مجاهد في سبيل الله إلى يوم القيامة .

قال بعضهم : ما أكرم الله ! ؛ فإن أنفسنا هو خلقها ، وأموالنا هو رزقها ، ثم وهبها لنا ، ثم اشتراها منا بهذا الثمن الغالي ، فإنها لصفة رابحة ! .

﴿يُقْنِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ جملة في موضع الحال؛ بياناً للشراء.

﴿فَاسْتَبَشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعَكُمْ بِهِ﴾ قال بعضهم: ناهيك من بيع البائع فيه ربُّ العلى، والثلث جنة المأوى، والواسطة محمد المصطفى ﷺ.

﴿الَّتَابِعُونَ﴾ وما بعده: أوصاف المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم؛ تقديره: هم التائبون.

﴿السَّائِحُونَ﴾ قيل: معناه الصائمون.

ويقال: ساح في الأرض: أي: ذهب.

﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ نزلت في شأن أبي طالب؛ فإنه لما امتنع أن يقول: «لا إله إلا الله» عند موته؛ قال له رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرنَّ لك ما لم أُنه عنك»، فكان يستغفر حتى نزلت هذه الآية^(١).

وقيل: إن النبي ﷺ استأذن ربه أن يستغفر لأُمَّه؛ فنزلت الآية.

وقيل: إن المسلمين أرادوا أن يستغفروا لأبائهم المشركين؛ فنزلت.

﴿وَمَا كَانَتْ آسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ﴾ المعنى: لا حجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم لأبيه؛ فإن ذلك لم يكن إلا لوعده^(٢) تقدّم، وهو قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧].

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

(٢) في أ، ب، هـ: «وعد».

﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قيل : تبين له ذلك بموت أبيه على الكفر .

وقيل : بأنه نُهي عن الاستغفار .

﴿لَاؤُهُ﴾ قيل : كثير الدعاء ، وقيل : مُوقِنٌ ، وقيل : فقيه ، وقيل : كثير الذكر لله ، وقيل : كثير التأوُّه من خوف الله .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ الآية ؛ نزلت في قوم من المسلمين ؛ استغفروا للمشركين من غير إذن ، فخافوا على أنفسهم من ذلك ، فنزلت الآية ؛ تأنيساً لهم ؛ أي : ما كان الله ليؤاخذكم بذلك قبل أن يبيِّن لكم المنع من ذلك .

﴿فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ يعني : حين محاولة غزوة تبوك .

والساعة هنا : بمعنى الحين والوقت ، وإن كان مدةً .

و﴿الْعُسْرَةِ﴾ : الشدة وضيق الحال .

﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني : تزيغ :

عن الثبات على الإيمان .

أو عن الخروج في تلك الغزوة ؛ لِمَا رَأَوْا من الضيق والمشقة .

وفي ﴿كَادَ﴾ :

ضمير الأمر والشأن .

أو ترتفع بها القلوب .

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: على هذا الفريق؛ أي: رجع بهم عما كادوا يفعلون فيه.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة ابن الربيع، تخلفوا عن غزوة تبوك من غير عذر ومن غير نفاق ولا قصدٍ للمخالفة، فلما رجع رسول الله ﷺ عتب عليهم، وأمر أن لا يكلمهم أحد، وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم، فبقوا على ذلك مدةً إلى أن أنزل الله توبتهم، وقد وقع حديثهم في البخاري ومسلم^(١) والسير.

ومعنى ﴿خُلِفُوا﴾ هنا: عن الغزوة.

وقال كعب بن مالك: معناه: خُلفوا عن قبول العذر، وليس بالتخلف عن الغزو، ويقوي ذلك: كونه جعل ﴿إِذَا ضَاقَتْ﴾ غايةً للتخلف.

﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾ عبارة عما أصابهم من الغم والخوف من الله.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أي: رجع بهم ليستقيموا على التوبة.

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

[يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾].

﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: يحتمل أن يريد: صدق اللسان؛ إذ كان هؤلاء الثلاثة قد صدقوا ولم يعتذروا بالكذب، فنفعهم الله بذلك.

ويحتمل أن يريد: أعم من صدق اللسان، وهو الصدق في الأقوال والأفعال والمقاصد والعزائم.

والمراد بـ ﴿الصَّادِقِينَ﴾: المهاجرون؛ لقول الله في «الحشر»: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجْرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿هُمْ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وقد احتج بها أبو بكر الصديق على الأنصار يوم السقيفة، فقال: نحن الصادقون، وقد أمركم الله أن تكونوا معنا؛ أي: تابعين لنا^(١).

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الآية؛ عتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك من أهل يثرب ومن جاورها من قبائل العرب.

(١) أخرجه الواقدي في كتاب الردة (ص: ٣٦).

﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: لا يمتنعوا من اقتحام المشقات التي تحملها هو ﷺ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ﴾ تعليل لما يجب من عدم التخلف.

﴿ظَمًا﴾ أي: عطش.

﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب.

﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي: جوع.

﴿وَلَا يَطْشُونَ﴾ بأرجلهم أو بدوابهم.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً﴾ عموم في كل ما يصيب الكفار.

﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ ابن عباس: هذه الآية في البعوث إلى الغزو والسرايا؛ أي: لا ينبغي خروج جميع المؤمنين في السرايا، وإنما يجب ذلك إذا خرج رسول الله ﷺ بنفسه، ولذلك عاتبهم في الآية المتقدمة على التخلف عنه، فالآية الأولى: في الخروج معه ﷺ، وهذه: في السرايا التي كان يبعثها.

وقيل: هي ناسخة لكل ما ورد من الأمر بخروج الجميع؛ فهو دليل على أن الجهاد فرض كفاية لا فرض عين.

وقيل: هي في طلب العلم؛ ومعناها: أنه لا تجب الرحلة في طلب العلم على الجميع، بل على البعض؛ لأنه فرض كفاية.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ تحضيض على نفير بعض المؤمنين للجهاد، أو لطلب العلم.

﴿لِسَفَقَهُوْا فِي الدِّينِ﴾ إن قلنا : إن الآية في الخروج إلى طلب العلم ؛ فالضمير في ﴿يَتَفَقَّهُوْا﴾ للفرقة التي (تنفر - أي : ترحل - ، وكذلك الضمير في ﴿يُنْذِرُوْا﴾ وفي ﴿رَجِعُوْا﴾ ؛ أي : يُعَلِّمون قومهم إذا رجعوا إليهم من الرحلة .

وإن قلنا : إن الآية في السرايا ؛ فالضمير في ﴿يَتَفَقَّهُوْا﴾ للفرقة التي ^(١) تقعد في المدينة ولا تخرج مع السرايا ، وكذلك الضمير في ﴿يُنْذِرُوْا﴾ ، وأما الضمير في ﴿رَجِعُوْا﴾ فهو للفرقة التي خرجت مع السرايا .

وقيل : إن التفقه يكون في حين خروجهم مع السرايا ؛ فعلى هذا تكون الضمائر كلها للفرقة التي خرجت مع السرايا .
﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُوْنَ﴾ الضمير للقوم .

(١) سقط من أ ، ب ، ج ، هـ .

[يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ
هَذِهِ ءِيمَنًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ ءِيمَنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ
أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ
﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ
انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ
مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ
﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾].

﴿قَتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أمرٌ بقتال الأقرب فالأقرب على
تدريج .

وقيل : إنها إشارة إلى قتال الروم بالشام ؛ لأنهم كانوا أقرب الكفار إلى
أرض العرب ، وكانت أرض العرب قد عمها الإسلام ، وكانت العراق حينئذ
بعيدة .

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ءِيمَنًا﴾ أي : من
المنافقين من يقول بعضهم لبعض : أيكم زادته هذه إيمانًا؟ على وجه
الاستخفاف بالقرآن ؛ كأنهم يقولون : أيُّ عَجَبٍ في هذا؟ وأي دليل في هذا؟ .
﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ ءِيمَنًا﴾ وذلك لما يتجدد عندهم من البراهين
والأدلة عند نزول كل سورة .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ المرض :
عبارة عن الشك والنفاق .

ومعنى : ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ زادتهم كفرًا ونفاقًا إلى كفرهم
ونفاقهم .

﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ﴾ قيل : ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي : يختبرون بالأمراض
والجوع .

وقيل : بالأمر بالجهاد .

واختار ابن عطية أن يكون المعنى : يفضحون بما يُكشَف من سرائرهم^(١) .
﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي : تغامزوا ، وأشار بعضهم إلى بعض ؛ على
وجه الاستخفاف بالقرآن ، ثم قال بعضهم لبعض : ﴿هَلْ يَرِنُكُمْ مِنْ
أَحَدٍ﴾ فيُنقل عنكم هذا الاستخفاف ؟ ، فقولهم : ﴿هَلْ يَرِنُكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾
كان بسبب خوفهم أن يُنقل عنهم ذلك .

وقيل : معنى ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ : على وجه التعجب مما ينزل في
القرآن ؛ من كشف أسرارهم ، ثم قال بعضهم لبعض : ﴿هَلْ يَرِنُكُمْ مِنْ
أَحَدٍ﴾ ؛ أي : هل رأى أحدٌ أحوالكم فنقلها عنكم ؟ أو علّمت من غير نقل ؟
فهذا أيضًا على وجه التعجب .

﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ يحتمل أن يريد :

الانصراف بالأبدان .

أو الانصراف بالقلوب عن الهدى .

﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ دعاءً ، أو خبرٌ .

﴿يَأْنَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ تعليلٌ لصرف قلوبهم .

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني : النبي ﷺ ، والخطاب :

للعرب .

أو لقريش خاصة ؛ أي : من قبيلتكم حيث تعرفون حسبه وصدقته وأمانته .

أو لبني آدم كلهم ؛ أي : من جنسكم .

وقرى : «مِنْ أَنفُسِكُمْ» بفتح الفاء ؛ أي : مِنْ أَشْرَفِكُمْ .

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي : يشقُّ عليه عنتُكم ، والعنت : هو ما يضرهم

في دينهم أو دنياهم .

و﴿عَزِيزٌ﴾ صفة للرسول ، و﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ فاعلٌ بـ﴿عَزِيزٌ﴾ ، و«ما» مصدرية .

أو ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ مصدر ، و﴿عَزِيزٌ﴾ خبر مقدَّم ، والجملة في موضع الصفة .

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي : حريص على إيمانكم وسعادتكم .

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ سماه الله هنا باسمين من أسمائه .

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي : إن أعرضوا عن الإيمان بك فاستعن

بالله وتوكل عليه .

وقيل : إن هاتين الآيتين نزلتا بمكة .

﴿سورة يونس﴾

[الرَّيَّةُ الْكَنْبِ الْحَكِيمِ ① أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ② قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ③ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ④ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ⑤ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ⑥ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⑦ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ⑧ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ⑨ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑪ دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑫].

﴿الرَّ﴾ تكلّمنا في أول «البقرة» على حروف الهجاء التي في أوائل

السور^(١).

(١) انظر: ٢٦١/١.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ إشارة إلى ما تَضَمَّنَتْهُ السورة من الآيات،
و﴿الْكِتَابِ﴾ هنا : القرآن .

﴿الْحَكِيمِ﴾ من :

الحكمة .

أو من الحكم .

أو من الإحكام للأمر ؛ أي : أَحْكَمَهُ الله .

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ الهمزة للإنكار ،
و﴿عَجَبًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ ، و﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ اسمها ، و﴿أَنْ أَنْذِرِ﴾ تفسيرٌ
للولحي .

والمراد بالناس هنا : كفار قريش وغيرهم ، والرجل هنا : رسول الله ﷺ .

ومعنى الآية : الردُّ على من استبعدَ النبوة أو تعجَّبَ مِنْ أَنْ يبعثَ الله
رجلاً .

﴿قَدَّمَ صِدْقٍ﴾ أي : عملٌ صالحٌ قدَّموه .

وقال ابن عباس : السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ .

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّكَ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعنون : ما جاء به من القرآن .

وقرئ ﴿لَسِحْرٌ﴾ ؛ يعنون به : النبي ﷺ .

ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُمْ هَذَا :

تفسيرًا لما ذُكِرَ قَبْلُ مِنْ تعجبهم من النبوة .

أو يكون خبرًا مستأنفًا .

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ تعريفٌ بالله وصفاته ؛ ليعبدوه ولا يشركوا به ، وفيه ردٌّ على من أنكر النبوة ؛ كأنه يقول : إنما أدعوكم إلى عبادة ربكم الذي خلق السموات والأرض ، فكيف تنكرون ذلك وهو الحق المبين؟! .

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ أي : لا يشفع إليه أحدٌ إلا بعد أن يأذن له في الشفاعة ، وفي هذا ردٌّ على المشركين الذين يزعمون أن الأصنام تشفع لهم .
﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ نصبُ ﴿وَعَدَ﴾ على المصدر المؤكّد للرجوع إلى الله ، ونصبُ ﴿حَقًّا﴾ على المصدر المؤكّد لوعده الله .

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي : يبدؤه في الدنيا ويعيده في الآخرة ، والبدأة دليلٌ على العودة .

﴿لِيَجْزِيَ﴾ تعليلٌ للعودة ؛ وهي البعث ^(١) .

﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي : بعدله في جزائهم .

أو : بقسطهم في أعمالهم الصالحة .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ وصفُ أفعال الله وقدرته وحكمته .

والضياء أعظم من النور .

﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ الضمير للقمر ، والمعنى : قدر سيره في منازل .

(١) في أ، ب، ج، هـ : «البعثة» .

﴿وَالْحِسَابُ﴾ يعني : حساب الأوقات ؛ من الأشهر والأيام والليالي .
 ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي : ما خلقه عبثاً ، والإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾
 إلى ما تقدّم من المخلوقات .

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ قيل : معنى ﴿يَرْجُونَ﴾ هنا : يخافون .
 وقيل : لا يرجون حسن لقائنا ؛ فالرجاء على أصله .

وقيل : ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ : لا يتوقعونه أصلاً ، ولا يخطر ببالهم .
 ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي : قنعوا أن تكون حظّهم ونصيبهم .
 ﴿وَأَطْمَأْنَنُوا فِيهَا﴾ أي : سكنت نفوسهم عن ذكر الانتقال عنها .
 ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ يحتمل :

أن تكون هي الفرقة الأولى ؛ فيكون من عطف الصفات .
 أو تكون غيرها .

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي : يسدّدهم بسبب إيمانهم إلى الاستقامة .
 أو يهديهم في الآخرة إلى طريق الجنة ، وهو أرجح ؛ لما بعده .
 ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا﴾ أي : دعاؤهم .

[﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ﴾
فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا
لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ
كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا
ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا بِشُرَاءِنَا غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا
يَكُونُ لِي أَن أَبَدِّلَهُ مِن تِلْقَائِي بِنَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ
عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ
بِهِ فَقَدْ لَيْتُ فِيكُمْ عُمَرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن
دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُشْرِكُونَ
اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا
كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقَضَىٰ
بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا
الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾].

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ﴾ أي :
لو يعجل الله للناس الشر كما يحبون تعجيل الخير لهلكوا سريعاً .

ونزلت الآية - عند قوم - : في دعاء الإنسان على نفسه وماله وولده .

وقيل : نزلت في الذين قالوا : ﴿إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ فَامْطِرْ

عَلَيْنَا حِجَارَةٌ مِّنَ السَّمَاءِ ﴿٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا﴾ عتابٌ في ضمنه نهْيٌ لمن يدعو الله عند الضر، ويَغفل عنه عند العافية.

﴿لَجْنِيهِ﴾ أي: مضطجعاً، وروي أنها نزلت في أبي حذيفة بن المغيرة؛ لمرضٍ كان به.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾ إخبارٌ في ضمنه وعيدٌ للكفار.

﴿لِنَنْظُرَ﴾ معناه: ليظهر في الوجود؛ فتقوم عليكم الحجة.

﴿وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمُ﴾ يعني: على قریش.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما تلوته إلا بمشيئة الله؛ لأنه من عنده وما هو من عندي.

﴿وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ﴾ أي: ولا أعلمكم به.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: بقيت بينكم أربعين سنة قبل البعث ما تكلمت في هذا حتى جاءني من عند الله.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ تنصّل من الافتراء على الله، وبيان لبراءته ﷺ مما نسبوه إليه من الكذب.

أو^(١) إشارة إلى كذبهم على الله في نسبة الشركاء له.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بيان لظلمهم في تكذيب رسول الله ﷺ.

(١) في د: «و».

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ الضمير في ﴿يَعْبُدُونَ﴾ لكفار العرب، و﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾: هي الأصنام.

﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ كانوا يزعمون أن الأصنام تشفع لهم. ﴿قُلْ أَنتِئْتُوكَ اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ﴾ ردُّ عليهم في قولهم بشفاعة الأصنام، والمعنى: أن شفاعة الأصنام ليست بمعلومية لله الذي هو عالم بما في السموات والأرض، وكل ما ليس بمعلوم لله فهو عدَمٌ محضٌ، ليس بشيء؛ فقلوه: ﴿أَنتِئْتُوكَ اللَّهُ﴾ تقرير لهم على وجه التوبيخ والتهكُّم؛ أي: كيف تعلمون الله بما لا يعلم؟.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ تقدَّم في «البقرة»^(١) في قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ يعني: القضاء.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ كانوا يطلبون آية من الآيات التي اقترحوا، ولقد نزلت عليه آيات عظامٌ فما اعتدُّوا بها؛ لعنادهم وشدة ضلالهم.

﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، لا يطلع على ذلك أحد.

﴿فَانْتَظِرُوا﴾ أي: انتظروا نزول ما اقترحموه.

﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أي: منتظرٌ لعقابكم على كفركم.

[وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي عَايَانِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بَيْنَ بَرِيحٍ طَبَقَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَيْنَ أَنْجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنُكَوِّنَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَلَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغِيكُم عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِمْ أَتَمَّهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قُرٌّ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا يَبِينَا وَيُنَبِّئُكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَفْلَةٍ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفْتُمْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾].

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ﴾ هذه الآية في الكفار، وتتضمن النهي لمن كان كذلك من غيرهم، والمكر هنا: الطعن في آيات الله وترك شكره، ومكر الله الموصوف بالسرعة: هو عقابه لهم، سماه مكرًا؛ مشاكلةً لفعالهم

وتسمية للعقوبة باسم الذنب^(١).

﴿وَجَرَيْنَ بِهِمُ﴾ الضمير المؤنث في ﴿وَجَرَيْنَ﴾ للفلك، والضمير في ﴿بِهِمُ﴾ للناس، وفيه الخروج من الخطاب إلى الغيبة، وهو الذي يسمى الالتفات.

وجواب ﴿إِذَا كُنْتُمْ﴾ قوله: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾.

وقوله: ﴿دَعُوا اللَّهَ﴾: قال الزمخشري: هو بدلٌ من ﴿وَطَنُوا﴾^(٢).

ومعناه: دعوا الله وحده وكفروا بمن دونه.

﴿مَتَّعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ رفع على أنه:

خبر ابتداء مضمرة؛ تقديره: وذلك متاع.

أو يكون خبر ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾.

ويختلف الوقف باختلاف الإعراب.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ معنى الآية: تحقيرٌ للعالم

وبيان سرعة فنائها؛ فشبهها بالمطر الذي يخرج به النبات، ثم تصيب ذلك النبات آفة عند حسنه وكماله.

﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ كالزروع والفواكه.

﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ يعني: المرعى التي ترعاه من العشب وغيرها.

(١) انظر تعليق الشيخ عبد الرحمن البراك ١/ ٥٤٥، وصفيحة ٥١٢ من هذا الجزء.

(٢) انظر: الكشاف (٧/ ٤٥٨).

﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ تمثيل بالعُروس إذا تزينت بالثياب والحلي .
 ﴿فَنَدِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي : متمكنون من الانتفاع بها .
 ﴿أَتْنَهَا أَمْرُنَا﴾ أي : بعض الجوائح ؛ كالريح ، والصَّرع ، وغير ذلك .
 ﴿فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا﴾ أي : جعلنا زرعها كالذي حُصِد وإن كان لم يُحصَد .
 ﴿كَأَن لَّمْ تَغْن﴾ كأن لم تنعم .
 ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ أي : إلى الجنة ، وسميت دار السلام ؛ أي :
 دار السلامة من العناء والتعب .
 وقيل : السلام هنا : اسم الله ؛ أي : يدعو إلى داره .
 ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ذكر الدعوة إلى الجنة عامة مطلقة ، والهداية خاصة
 بمن يشاء .
 ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الحسنَى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى
 وجه الله .
 وقيل : الحسنَى : جزاء الحسنة بعشر أمثالها ، والزيادة : التضعيف فوق
 ذلك إلى سبع مئة .
 والأول أصح ؛ لوروده في الحديث^(١) ، وكثرة القائلين به .
 ﴿فَقَرَّ﴾ أي : غبار يغيّر الوجه .

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/١٦١) .

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ مبتدأ :

على حذف مضاف ؛ تقديره : جزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها .

أو على تقدير : لهم جزاء سيئة بمثلها .

أو معطوف على الذين أحسنوا ؛ ويكون : ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿بِمِثْلِهَا﴾ .

﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أي : لا يعصمهم أحد من عذاب الله .

﴿قِطْعًا مِنْ أَلِيلٍ مُظْلِمًا﴾ من قرأ بفتح الطاء : فهو جمع قطعة ، وإعراب ﴿مُظْلِمًا﴾ على هذه القراءة : حال من ﴿أَلِيلٍ﴾ .

ومن قرأ ﴿قِطْعًا﴾ بإسكان الطاء : فـ ﴿مُظْلِمًا﴾ : صفة له ، أو حال من ﴿أَلِيلٍ﴾ .

﴿مَكَانَكُمْ﴾ تقديره : الزموا مكانكم ؛ أي : لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم .

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي : فرّقنا .

﴿بَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي : تختبر ما قدّمت من الأعمال .

وقرى ﴿تَتْلُوا﴾ بتاءين ؛ بمعنى : تتبع ، أو تقرأ في الصحف .

[﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ ثُمَّ يَضِلُّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِيَ لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِيَ إِلَّا أَنْ يَضِلُّ فَالْكَوْفُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾].

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ﴾ الآية؛ احتجاجاً على الكفار بحجج كثيرة واضحة، لا محيص لهم عن الإقرار بها.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ﴾ مذكور في «آل عمران»^(١).

﴿رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾ أي: الثابت الربوبية، بخلاف ما يعبدون من دونه.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ أي: عبادة غير الله ضلالٌ بعد وضوح الحق.

وتدلُّ الآية على أنه ليس بين الحق والباطل منزلة في علم الاعتقادات؛ إذ الحق فيها في طرف واحد، بخلاف مسائل الفروع.

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ المعنى : كما حق الحق في الاعتقادات كذلك حقت كلمات ربك على الذين عتوا وتمردوا في كفرهم أنهم لا يؤمنون .

والكلمة يراد بها : القدر والقضاء .

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ الآية ؛ احتجاج على الكفار .

فإن قيل : كيف يُحْتَجُّ عليهم بإعادة الخلق ، وهم لا يعترفون بها؟ .

فالجواب : أنهم معترفون أن شركاءهم لا يقدرُونَ على الابتداء ولا على الإعادة ؛ ففي ذلك إبطال لربوبيتهم ، وأيضاً فوضعت الإعادة هنا موضع المتفق عليه ؛ لظهور برهانها .

﴿أَمْ نَلَا يَهْدِي﴾ بتشديد الدال ؛ معناه : لا يهتدي في نفسه ، فكيف يهدي غيره؟ .

وقرئ بالتخفيف ؛ بمعنى : يهدي غيره .

والقراءة الأولى أبلغ في الاحتجاج .

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ ﴿مَا﴾ استفهامية معناها تقرير وتوبيخ ، و﴿لَكُمْ﴾ خبرها ، ويوقف عليه .

﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي : تحكمون بالباطل في عبادتكم لغير الله .

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي : غير تحقيق ؛ لأنه لا يستند إلى برهان .

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ ذلك في الاعتقادات ؛ إذ المطلوب فيها

اليقين ، بخلاف الفروع .

﴿تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مذكور في «البقرة»^(١).

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ ﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى: «بل» والهمزة.

﴿فَأَنذَرُوا بِسُورَةٍ﴾ تعجيز لهم، وإقامة حجة عليهم.

﴿مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ﴾ يعني: من شركائكم وغيرهم من الجن والإنس.

﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: غير الله.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ أي: سارعوا إلى التكذيب بما لم يفهموه ولم يعلموا تفسيره.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي: عِلْمُ تأويله.

أو يعني بتأويله: الوعيد الذي لهم فيه.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ الآية؛ فيها قولان:

أحدهما: إخبار بما يكون منهم في المستقبل، وأن بعضهم يؤمن وبعضهم يتمادى على الكفر.

والآخر: أنها إخبار عن حالهم؛ أن منهم من هو مؤمن به ويكتم إيمانه، ومنهم من هو مكذب.

[وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوَفِّيكَ فَإِنَّمَا مَرَجَعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعْلِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتَعْرِ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَا لَكُنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْثِقُونَكَ أَحقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾].

﴿قُلْ لِي عَمَلِي﴾ الآية موادة، منسوخة بالقتال.

﴿مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يستمعون القرآن، وجمع الضمير بالحمل على

معنى «مَنْ».

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ﴾ المعنى: أتريد أن تسمع الصم؟ وذلك لا يكون؛ لا سيما إذا انضاف إلى الصَّمم عدم العقل.

﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ المعنى: أتريد أن تهدي العمي؟ وذلك لا يكون؛ لا سيما إذا انضاف إلى عمى ^(١) البصر عمى البصيرة.

(١) في أ: «عدم».

وَالصَّمَمَ وَالْعَمَى : عبارة عن قلة فهمهم .

﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً﴾ تقليلٌ لمدة بقائهم في الدنيا ، أو في القبور .

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني : يومَ الحشر ؛ فهو - على هذا - حال من الضمير في ﴿يَلْبَثُوا﴾ .

﴿وَأَمَّا نُزُيِّنَاكَ﴾ شرط ، جوابه : ﴿فَالْيَنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾ ، والمعنى : إن أريناك بعض عذابهم في الدنيا فذلك ، وإن توفيناك قبل ذلك فإلينا مرجعهم .

﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ ذكرت «ثم» لترتيب الإخبار ، لا لترتيب الأمر . قاله ابن عطية^(١) .

وقال الزمخشري : ذُكرت الشهادة والمراد مقتضاها ؛ وهو العقاب^(٢) .
فالترتيب على هذا صحيح .

﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ قيل : مجيئه في الآخرة للفضل .

وقيل : مجيئه في الدنيا ؛ وهو بعثه .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ كلامٌ فيه استبعاد واستخفاف .

﴿يَبْتَئُونَ أَيَّ﴾ بالليل .

﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ المعنى : أي شيء تستعجلون من العذاب وهو ما لا طاقة لكم به ! .

(١) انظر : المحرر الوجيز (٤/٤٨٨) .

(٢) انظر : الكشاف (٧/٤٩٨) .

وقوله: ﴿مَاذَا﴾ جواب ﴿إِنْ أَتَنكُمْ﴾، والجملة متعلقة بـ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾.
 ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ دخلت همزة التقرير على «ثم» العاطفة،
 والمعنى: إذا وقع العذاب وعايتموه آمتم به الآن؟!، وذلك لا ينفعكم؛
 لأنكم كنتم تستعجلون به مكذبين به.

﴿يَسْتَدِينُكَ أَحَقُّ هُوَ﴾ أي: يسألونك هل الوعيد حق؟.

أو: هل الشرع والدين حق؟.

والأول أرجح؛ لقوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: لا تقوتون من
 الوعيد.

﴿قُلْ إِي﴾ أي: نعم.



[﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظُنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنْكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾].

﴿ظَلَمَتْ﴾ صفة لـ ﴿نَفْسٍ﴾ ؛ أي : لو ملك الظالم الدنيا لافتدى بها من عذاب الآخرة.

﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ أي : أخفوها في نفوسهم ، وقيل : أظهروها .

﴿مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني : القرآن .

﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي : يشفي ما فيها من الجهل والشك .

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ يتعلّق ﴿بِفَضْلِ﴾ بقوله : ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ ، وكرّر الفاء في قوله : ﴿فَبِذَلِكَ﴾ تأكيداً ، والمعنى : الأمر أن يفرحوا بفضل الله وبرحمته لا بغيرهما .

والفضل والرحمة : عموم .

وقد قيل : الفضل : الإسلام ، والرحمة : القرآن .

﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي : فضل الله ورحمته خير مما يجمعون من حطام الدنيا .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ الآية؛ مخاطبة لكفار العرب الذي حرّموا البحيرة والسائبة وغير ذلك .

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ ، وكرّر ﴿قُلْ﴾ للتأكيد، ولما قسّم الأمر إلى إذن الله لهم وافترائهم ثبت افتراؤهم؛ لأنهم معترفون أن الله لم يأذن لهم في ذلك .

﴿وَمَا ظَنُّ﴾ وعيد للذين يفترون .

﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ظرف منصوب بالظن، والمعنى: أي شيء يظنون أن يفعل بهم في ذلك اليوم؟! .



[﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ١١] **إِن** أُولِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾ **أَلَا** إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِثُّوْا إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾].

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الشأن: الأمر، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد: هو وجميع الخلق؛ ولذلك قال في آخرها: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ بمخاطبة الجماعة.

ومعنى الآية: إحاطة علم الله بكل شيء.

﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ الضمير عائد على القرآن وإن لم يتقدم ذكره؛ لدلالة ما بعده عليه؛ كأنه قال: ما تتلو شيئاً من القرآن.

وقيل: يعود على الشأن.

والأول أرجح؛ لأن الإضمار قبل الذكر تفخيمٌ للشيء.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ يقال: أفاض الرجل في الأمر: إذا أخذ فيه بجِدٍّ.

﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ ما يغيب.

﴿مُنْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وزنها، والذرة: صغار النمل.

قال الزمخشري: إن قلت: لم قُدِّمت الأرض على السماء بخلاف سورة «سبأ»؟

فالجواب: أن السماء قُدِّمت في «سبأ»؛ لأن حَقَّها التقديم، وقُدِّمت الأرض هنا؛ لَمَّا ذُكرت الشهادة على أهل الأرض^(١).

﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ من قرأهما بالفتح: فهو عطفٌ على لفظ ﴿مُنْقَالِ﴾.

ومن قرأهما بالرفع: عطفه على موضعه، أو رفع بالابتداء.

﴿أُولِيَاءَ اللَّهِ﴾ اختلف الناس في معنى الولي اختلافاً كثيراً، والحقُّ فيه ما فسَّره الله بعد هذا بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، فمن جمع بين الإيمان والتقوى فهو الولي.

وإعراب ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾:

صفةٌ للأولياء.

أو منصوبٌ على التخصيص.

(١) انظر: الكشف (٥١٩/٧).

أو رفع بإضمار: هم الذين .

ولا يكون ابتداءً مستأنفاً ؛ لئلا ينقطع مما قبله .

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أما بشرى الآخرة : فهي الجنة اتفاقاً .

وأما بشرى الدنيا : فهي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له ، روي ذلك عن رسول الله ﷺ (١) .

وقيل : محبة الناس للرجل الصالح .

وقيل : ما بشر به في القرآن من الثواب .

﴿لَا بُدَّيْلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي : لا تغيير لأقواله ولا خُلف لمواعده .

وقد استدلل بها ابن عمر على أن القرآن لا يقدر أحد أن يبدله .

﴿وَلَا يُخْزِنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ يعني : ما يقوله الكفار من التكذيب .

﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ إخبار في ضمنه وعد للنبي ﷺ بالنصر ، وتسليّة له .

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾

فيها وجهان :

أحدهما : أن تكون ﴿مَا﴾ نافيةً ، وأوجب بقوله : ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ ، وكرّر

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ تأكيداً ، والمعنى : ما يتبع الكفار إلا الظن .

(١) أخرجه مسلم (٤٧٩) .

والوجه الثاني : أن تكون ﴿مَا﴾ استفهامية ، ويتم الكلام عند قوله : ﴿شُرَكَاءَ﴾ ، والمعنى : أي شيء يتبعون؟ على وجه التحقير لما يتبعونه ، ثم ابتداء الإخبار بقوله : ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ .

والعامل في ﴿شُرَكَاءَ﴾ على الوجهين : ﴿يَدْعُونَ﴾ .

﴿لَسْكَنُوا فِيهِ﴾ من السكون ؛ وهو ضد الحركة .

﴿وَالنَّهَارُ مُبْصِرٌ﴾ أي : مُضيئاً تبصرون فيه الأشياء .

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ الضمير : للنصارى ، ولمن قال : إن الملائكة

بنات الله .

﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ وصفٌ يقتضي نفى الولد ، والرد على من نسب له ؛ لأن الغني

المطلق لا يفتقر إلى اتخاذ ولد .

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بيان وتأكيد للغني ، وباقي الآية توبيخ

للكفار ووعد لهم .

﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ تقديره : لهم متاع في الدنيا .



[﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِثَانِتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِثَانِتِنَا فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُذْذِبِينَ ﴿٧٨﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٩﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِثَانِتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مَبِينٌ ﴿٨١﴾ قَالَ مُوسَى أَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٨٢﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٧﴾].

﴿نُوحٍ﴾ روي أن اسمه عبد الغفار، وإنما سمي نوحًا؛ لكثرة تَوَجُّه على نفسه من خوف الله.

﴿كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: صعب وشق.

﴿مَقَامِي﴾ أي: قيامي لوعظكم والكلام معكم.

وقيل: معناه: مكاني؛ يعني: نفسه، كقولك: فعلت ذلك لمكان فلان.

﴿فَأَجْمِعُوا﴾ بقطع الهمزة؛ مِنْ أَجْمَعَ الْأَمْرَ: إذا عَزَمَ عليه.

وقرئ بآلف وصل؛ من الجمع.

﴿وَشُرَّاءَكُمْ﴾ أي: ما تعبدون من دون الله.

وإعرابه:

مفعول معه.

أو مفعول بفعل مضمر تقديره: ادعوا.

وهذا على القراءة بقطع الهمزة.

وأما على الوصل: فهو معطوف.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَنْزُكُمُ عَلَيْكُمْ غَمَةً﴾ أي: لا يكون قُصْدُكُمْ إلى إهلاكِ مستورًا ولكن مكشوفًا تجاهروني به، وهو من قولك: غَمَّ الهلال: إذا لم يظهر.

والمراد بقوله: ﴿أَمَرُكُمْ﴾ في الموضعين: إهلاككم لنوح عليه السلام؛ أي: لا تقصّروا في إهلاكِ إن قدّرتُم على ذلك.

﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾ أي: انفذوا فيما تريدون.

ومعنى الآية: أن نوحًا عليه السلام قال لقومه: إن صعب عليكم دعائي لكم إلى الله فاصنعوا بي غاية ما تريدون؛ فإني لا أبالي بكم؛ لتوكلني على الله وثقتي به سبحانه.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقَافَ﴾ أي: يخلفون من هلك بالغرق.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ يعني: هودًا وصالحًا وإبراهيم وغيرهم.

﴿أَسْحَرُ هَذَا﴾ قيل: إنه معمول ﴿أَقُولُونَ﴾؛ فهو من كلام قوم فرعون، وهذا ضعيف؛ لأنهم كانوا يصممون على أنه سحر؛ لقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾، فكيف يستفهمون عنه؟.

وقيل : إنه من كلام موسى تقريراً وتوبيخاً لهم ، فيوقف على قوله : ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ﴾ ، ويكون معمول ﴿ أَتَقُولُونَ ﴾ محذوفاً ؛ تقديره : أتقولون للحق لما جاءكم إنه لسحر ، ويدلُّ على هذا المحذوف ما حكى عنهم من قولهم : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ، فلما تمَّ الكلام ابتداءً موسى يوبخهم ^(١) بقوله : ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُونَ ﴾ ، وهذا هو اختيار شيخنا الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير رحمه الله .

﴿ لَتَلْفِنَا ﴾ أي : لتصرفنا وتردنا عن دين آبائنا .

﴿ وَتَكُونُ لَكُمْ أَلِكْرِيَاءَ ﴾ أي : الملك ، والخطاب لموسى وأخيه هَارُونَ .

﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ ﴾ ﴿ مَا ﴾ موصولة مرفوعة بالابتداء ، و ﴿ السَّحْرُ ﴾ الخبر .

وقرئ ﴿ السَّحْرُ ﴾ بالاستفهام ؛ ف ﴿ مَا ﴾ على هذا استفهامية ، و ﴿ السَّحْرُ ﴾ خبر ابتداء مضمرة .

﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ ﴾ يحتمل أن يكون :

من كلام موسى .

أو إخباراً من الله تعالى .

(١) في ج ، د : «توبيخهم» .

[﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَقُومُ إِن كُنتُمْ ءَامَنُكُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٥) وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَان سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩) وَجَوَازُنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠) ءَالْكَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لِيَتَكُونَ لِمَن خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَفِلُونَ﴾ (٩٢)] .

﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ الضمير عائد على موسى ، ومعنى الذرية : شُبانٌ وفتيان من بني إسرائيل آمنوا به على خوفهم من فرعون .

وقيل : إن الضمير عائد على فرعون ، فالذرية على هذا من قوم فرعون ، وروي في هذا أنها امرأة فرعون وخازنُهُ^(١) وامرأة خازنِه ، وهذا بعيد ؛ لأن هؤلاء لا يقال لهم ذرية ، ولأن الضمير ينبغي أن يعود على أقرب مذكور .

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ الضمير يعود على الذرية ؛ أي : آمنت الذرية من بني إسرائيل ؛ على خوف من فرعون وملا بني إسرائيل ؛ لأن

(١) في أ ، ب ، ج ، هـ : «وخازنته» .

الأكابر من بني إسرائيل كانوا يمنعون أولادهم من الإيمان؛ خوفاً من فرعون.

وقيل: يعود على فرعون؛ بمعنى: آل فرعون، كما يقال: ربيعة ومضر، أو لأنه ذو أصحاب يأترون له.

﴿أَنْ يَفْنَيْهُمْ﴾ بدلٌ من ﴿فِرْعَوْنَ﴾.

﴿لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: متكبرٌ قاهر.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تمكّنهم من عذابنا فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما عذبناهم، فيفتنون بذلك.

﴿أَنْ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي: اتّخذوا^(١) لهم بيوتاً للصلاة والعبادة. وقيل: إنه أراد الإسكندرية.

﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: مساجد، وقيل: موجهة إلى جهة القبلة.

فإن قيل: لم خصّ موسى وهارون بالخطاب في قوله ﴿أَنْ تَبَوَّءَ﴾، ثم خوطب معهما بنو إسرائيل في قوله: ﴿وَأَجْعَلُوا﴾؟

فالجواب: أن قوله ﴿تَبَوَّءَ﴾ من الأمور التي يختصّ بها الأنبياء وأولوا الأمر.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أمرٌ لموسى عليه السلام، وقيل: لمحمد ﷺ.

﴿رَبَّنَا لِضُلُوكُنَا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ دعاءٌ بلفظ الأمر.

(١) في أ، ب، ج، هـ: «اتخذ».

وقيل : اللام لام كي ، وتتعلق بقوله : ﴿ءَاتَيْتَ﴾ .

﴿أَطْمَسَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ أي : أهلكها .

﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي : اجعلها شديدة القسوة .

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ جوابٌ للدعاء الذي هو ﴿وَأَشَدُّ﴾ .

أو دعاء بلفظ النفي .

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ الخطاب لموسى وهارون ؛ على أنه لم يذكر الدعاء إلى عن موسى وحده ، ولكن كان موسى يدعو ، وهارون يؤمن على دعائه .

﴿فَأَسْتَقِيمَا﴾ أي : اثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الله .

﴿فَأَنبَهُمُ فِرْعَوْنُ﴾ أي : لحقهم ؛ يقال : تَبِعَهُ حَتَّى أَتْبَعَهُ ، هكذا قال الزمخشري^(١) .

وقال ابن عطية : أَتْبَعَ بِمَعْنَى تَبِعَ ، وَأَمَّا أَتْبَعَ - بالتشديد - فهو طَلَبُ الأثر ، سواءً أدرك أو لم يدرك^(٢) .

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ يعني : الله ﷻ ، وفي لفظ فرعون مَجْهَلَةٌ وتَلَعُثُمْ ؛ لكونه لم يصرح باسم الله .

﴿ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي : قيل له : أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار؟ وذلك لا يُقبل منك .

(١) انظر : الكشاف (٧/ ٥٥٥) .

(٢) انظر : المحرر الوجيز (٤/ ٥٢١) .

﴿تُنَجِّكَ﴾ أي: نُبْعِدُكَ مما جرى لقومك من الوصول إلى قعر البحر.
 وقيل: نلقيك على نجوة من الأرض؛ أي: على موضع مرتفع.
 ﴿يَبْدِنِكَ﴾ أي: بجسدك جسداً بدون روح.
 وقيل: بدرعك، وكانت له درع من ذهب يعرف بها.
 والمجرور^(١) في موضع الحال، والباء للمصاحبة.
 ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ أي: لمن وراءك آية، وهم بنو إسرائيل.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾

(١) في أ، ب، ج، هـ: «والمحذوف»، والمثبت هو الصواب كما في الكشف (٧/ ٥٦٠).

[وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتٍ أَلَّهُ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِمَآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَاَنْظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾].

﴿مُبُوءًا صِدْقٍ﴾ منزلاً حسناً، وهو مصر والشام.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ قيل: يريد اختلافهم في دينهم.

وقيل: اختلافهم في أمر محمد ﷺ.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ قيل: الخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره.

وقيل: ذلك كقول القائل لابنه: إن كنت ابني فبرني، مع أنه لا يشك أنه ابنه، ولكن من شأن الشك أن يزول بسؤال أهل العلم، فأمره بسؤالهم، قال ابن عباس: لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل.

وقال الزمخشري: ذلك على وجه الفرض والتقدير؛ أي: إن فرضت أن تقع في شك فاسأل^(١).

﴿يَمَّا أُنزِلْنَا إِلَيْكَ﴾ قيل: يعني: القرآن والشرع بجملته، وهذا أظهر. وقيل: يعني ما تقدم من أن بني إسرائيل ما اختلفوا إلا من بعدما جاءهم الحق.

﴿فَسَلِّ الَّذِينَ يَفْرَوْنَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: الذين يقرأون التوراة والإنجيل.

قال السهيلي: هم عبد الله بن سلام ومُخَيَّرِيق وَمَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْأَحْبَارِ^(٢). وهذا بعيد؛ لأن الآية مكية، وإنما أسلم هؤلاء بالمدينة، فحملُ الآية على الإطلاق أولى.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ خطابٌ للنبي ﷺ والمراد غيره.

﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ أي: قضى أنهم لا يؤمنون.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ «لولا» هنا للتخصيص؛ بمعنى «هلاً»، وقرئ في الشاذ: «هلاً».

والمعنى: هلاً كانت قريةٌ من القرى المتقدمة آمنت قبل نزول العذاب فنفعها إيمانها!؛ إذ لا ينفع الإيمان بعد معاينة العذاب كما جرى لفرعون. ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناءٌ من القرى؛ لأن المراد أهلها، وهو استثناء

(١) انظر: الكشاف (٧/ ٥٦٤).

(٢) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي (ص: ١٣٤).

منقطع، بمعنى: ولكن قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم العذاب.
ويجوز أن يكون متصلًا، والجملة في معنى النفي؛ كأنه قال: ما آمنت
قرية إلا قوم يونس.

وروي في قصصهم: أن يونس عليه السلام أنذرهم بالعذاب، فلما رأوه قد خرج
من بين أظهرهم علموا أن العذاب ينزل بهم، فتابوا وتضرعوا إلى الله تعالى،
فرفعه الله عنهم.

﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يريد: إلى آجالهم المكتوبة في الأزل.
﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ الهمزة للإنكار؛ أي: أتريد أنت
أن تكره الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم وتضطرهم إلى ذلك؟ وليس ذلك
إليك، إنما هو بيد الله.

وقيل: المعنى: أفأنت تكره الناس بالقتال حتى يؤمنوا؟، وكان هذا في
صدر الإسلام قبل الأمر بالجهاد، ثم نسخت بالسيف.

﴿انظُرُوا﴾ أمرٌ بالاعتبار والنظر في آيات الله.
﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: من قضى الله عليه أنه
لا يؤمن.

و«ما»: نافية، أو استفهامية يراد بها النفي.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ الآية؛ تهديد.

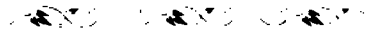
﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ اعتراضٌ بين العامل ومعموله، وهما: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ و﴿نُجِ﴾
المؤمنين.

[قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾ وَأَنْ أَقْدِرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٩﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١١٠﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُفَّكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَافِينَ ﴿١١١﴾].

﴿وَأَنْ أَقْدِرَ وَجْهَكَ﴾ الوجه هنا بمعنى: القصد والدين.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ منسوخ بالقتال، وكذلك قوله: ﴿وَأَصْبِرْ﴾.

﴿حَتَّىٰ يَخُفَّكَ اللَّهُ﴾ وعد بالنصر والظهور على الكفار.



﴿سورة هود﴾

[﴿الرَّ كَتَبَ أَحْكَمَتْ عَيْنُهُ ثُمَّ فُضِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُم مِّنْ ذَنْبٍ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَعَفُّوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُعْطِكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَّا إِنَّهُمْ يَأْتُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخَفُّوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمْنَوتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخْرَنَاهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَحْسِبُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾].

﴿كَتَبَ﴾ يعني: القرآن، وهو خبر ابتداء مضمر.

﴿أَحْكَمَتْ﴾ أي: أتقنت؛ فهو من الإحكام للشيء.

﴿ثُمَّ فُضِّلَتْ﴾ قيل: معناه: بُيِّنَتْ.

وقيل: قُطعت سورة سورة.

و﴿ثُمَّ﴾ هنا ليست للترتيب في الزمان، وإنما هي لترتيب الأحوال؛

كقولك : فلان كريم الأصل ثم كريم الفعل .

﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ «أن» : مفسرة .

وقيل : مصدرية ؛ في موضع مفعول من أجله ، أو بدل من الآيات .

أو يكون كلامًا مستأنفًا ، منقطعًا عما قبله ، على لسان رسول الله ﷺ ، ويدل على ذلك قوله : ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ .

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي : استغفروه مما تقدّم من الشرك والمعاصي ، ثم ارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة عليها .

﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ أي : ينفعكم^(١) في الدنيا بالأرزاق ، والنعم ، والخيرات .

وقيل : هو طيب عيش المؤمن برجائه في الله ورضاه بقضائه ؛ لأنه الكافر قد يُمتّع في الدنيا بالأرزاق .

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني : إلى الموت .

﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي : يعطي في الآخرة كل ذي عمل جزاء عمله .

والضمير يحتمل أن يعود :

على الله تعالى .

أو على ﴿ذِي فَضْلٍ﴾ .

(١) في هـ : «يمتعكم» .

﴿وَإِنْ لَوْلَا﴾ خطاب للناس ، وهو فعل مستقبل حذفت منه إحدى التاءين .

﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ يعني : يوم القيامة ، أو غيره كيوم بدر .

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوْنَ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ﴾ قيل : كان الكفار إذا لقيهم رسول الله ﷺ يريدون إليه ظهورهم ؛ لثلا يرونه من شدة البُغْضة والعداوة ، والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ على هذا يعود إلى رسول الله ﷺ .

وقيل : إن ذلك عبارة عما تنطوي عليه صدورهم من البغض والغِلِّ .

وقيل : هو عبارة عن إعراضهم ؛ لأن مَنْ أَعْرَضَ عن شيء انشأ عنه وانحرف .

والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ على هذا يعود على الله تعالى ؛ أي : يريدون أن يستخفوا من الله تعالى ؛ فلا يُطْلَعُ رسوله والمؤمنين^(١) على ما في قلوبهم .

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي : يجعلونها أَغْشِيَةً وَأَغْطِيَةً ؛ كراهيةً لاستماع القرآن ، والعامل في ﴿حِينَ﴾ : ﴿يَعْلَمُ مَا يُسْرُوت﴾ .

وقيل : المعنى : يريدون أن يستخفوا حين يستغشون ثيابهم ، فيوقف عليه على هذا ، ويكون ﴿يَعْلَمُ﴾ استئنافاً .

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وعدٌ وضمنان صادق .

فإن قيل : كيف قال : ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ بلفظ الوجوب ، وإنما هو تفضُّل ؛ لأن الله لا يجب عليه شيء ؟ .

(١) في أ ، ب ، د ، هـ : «فلا يطلع رسوله والمؤمنون» .

فالجواب : أنه ذكره كذلك تأكيداً في الضمان ؛ ولأنه لما وعد به صار واقعاً لا محالة ؛ لأنه لا يخلف الميعاد .

﴿وَيَعْلَمُ مُسَقِّفَها وَمُسَوِّدَها﴾ المستقر : صلب الأب ، والمستودع : بطن المرأة .

وقيل : المستقر : المكان في الدنيا ، والمستودع : القبر .

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ دليل على أن العرش والماء كانا موجودين قبل خلق السموات والأرض .

﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ أي : ليختبركم اختباراً تقوم به الحجة عليكم ؛ لأنه كان عالماً بأعمالكم قبل خلقكم ، ويتعلق ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ بـ ﴿خَلَقَ﴾ .
﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يحتمل أن يشيروا :

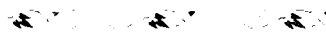
إلى القرآن .

أو إلى القول بالبعث ؛ يعنون أنه باطل كبطلان السحر .

﴿وَلَيْنَ آخِرُنَا عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ يحتمل أن يريد : عذاب الدنيا ، أو الآخرة .

﴿إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ أي : إلى وقت محدود .

﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ أي : أي شيء يمنع هذا العذاب الموعود به ؟
وقولهم ذلك على وجه التكذيب والاستخفاف .



[وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ⑨
 وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ
 ⑩ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑪ فَلَعَلَّكَ
 تَارِكُ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ
 مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ⑫ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَنُوتُ
 بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مِن آسَاطِنِهِ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ⑬
 فَإِنَّمَا يَسْتَحْجِبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ
 ⑭ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْشَوْنَ
 ⑮ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑯].

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا﴾ الآية؛ ذم لمن يقنط عند الشدائد، ولمن يفخر ويتكبر عند
 النعم.

والرحمة هنا والنعماء: يراد بهما الخيرات الدنيوية.

والإنسان: عام يراد به الجنس، والاستثناء على هذا متصل.

وقيل: المراد بالإنسان الكافر، فالاستثناء على هذا منقطع.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ الآية؛ كان الكفار يقترحون على
 رسول الله ﷺ أن يأتي بكنز أو يأتي معه ملك، وكانوا يستهزئون بالقرآن،
 فقال الله تعالى له: لعلك تترك أن تلقني إليهم بعض ما أنزل إليك ويثقل
 عليك تبليغهم من أجل استهزائهم، أو لعلك يضيق صدرك من أجل أن
 يقولوا: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك.

والمقصد بالآية: تسليته ﷺ عن قولهم حتى يبلغ الرسالة، ولا يبالي بهم.
وإنما قال ﴿وَضَآئِقُ﴾، ولم يقل «ضيق»؛ ليدلّ على اتساع صدره ﷺ وقلة ضيقه.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ أي: ليس عليك إلا الإنذار والتبليغ، والله هو الوكيل الذي يقضي بما شاء من إيمانهم أو كفرهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَنْزِلُهُ﴾ «أم» هنا منقطعة بمعنى: «بل» والهمزة، والضمير في ﴿أَفَنَنْزِلُهُ﴾ لما يوحى إليه.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ﴾ تحدّاهم أولاً بعشر سور، فلما بان عجزهم عنها تحدّاهم بسورة واحدة فقال: ﴿فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، والمماثلة المطلوبة: في فصاحته وعلومه.

﴿مُفْتَرٍ﴾ صفة لـ ﴿عَشْرِ سُوْرٍ﴾، وذلك مقابلة لقولهم ﴿أَفَنَنْزِلُهُ﴾، وليست المماثلة في الافتراء.

﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: استعينوا بمن شئتم.

﴿فَالْتِهَاسَاجُ﴾ لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ فيها وجهان:

أحدهما: أن تكون مخاطبة من الله للنبي ﷺ وللمؤمنين؛ أي: إن لم يستجب الكفار إلى ما دعوتهم إليه من معارضة القرآن؛ فاعلموا أنه من عند الله، وهذا على معنى: دوموا على علمكم بذلك، أو زيدوا يقيناً به.

والثاني: أن يكون خطاباً من النبي ﷺ للكفار؛ أي: إن لم يستجب من تدعونه من دون الله إلى شيء من المعارضة ولا قدر جميعكم عليه؛ فاعلموا

أنه من عند الله، وهذا أقوى من الأول؛ لقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .
ومعنى ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ :
بإذنه .

أو بما لا يعلمه إلا الله من الغيوب .

وقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ لفظه استفهام، ومعناه: استدعاء إلى الإسلام، وإلزام للكفار أن يسلموا، لما قام الدليل على صحة الإسلام؛ لعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ الآية؛ نزلت في الكفار الذين يريدون الدنيا، ولا يريدون الآخرة؛ إذ هم لا يصدقون بها .

وقيل: نزلت في أهل الرياء من المؤمنين الذين يريدون بأعمالهم الدنيا، حسبما ورد في الحديث -في القارئ، والمنفق، والمجاهد الذين أرادوا أن يقال لهم ذلك- «إنهم أول من تسجر^(١) بهم النار»^(٢) .

والأول أرجح^(٣)؛ لتقدم ذكر الكفار المناقضين للقرآن، فإنما قصد بهذه الآية أولئك .

﴿نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نوف إليهم أجور أعمالهم بما نعطيهم في الدنيا من الصحة والرزق .

(١) في هامش أ: «خ: تسعر» وهو الموافق لما في الرواية.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والترمذي (٢٣٨٢)، والنسائي في الكبرى (٣٩٥/١٠).

(٣) في أ، ب: «أوضح».

والضمير في ﴿فِيهَا﴾ يعود على الدنيا ، والمجرور متعلق بقوله : ﴿نُوفٍ﴾
أو بـ ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ .

﴿وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ الضمير في ﴿فِيهَا﴾ هنا :
يعود على الآخرة إن تعلق المجرور بـ ﴿حِطَّ﴾ .
ويعود على الدنيا إن تعلق بـ ﴿صَنَعُوا﴾ .



[﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَتَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ يَضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخُسَرُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾﴾].

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ الآية؛ معادلة لما تقدّم، والمعنى: أَمِنْ كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة من ربه.

والمراد بمن كان على بينة من ربه: النبي ﷺ والمؤمنون؛ لقوله بعد ذلك: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

ومعنى البينة: البرهان العقلي والأمر الجلي.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ الضمير في ﴿وَيَتْلُوهُ﴾:

للبرهان؛ وهو البينة.

أو لمن كان على بينة من ربه.

والضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ للرب تعالى.

﴿وَتَتْلُوهُ﴾ هنا بمعنى : يتبع .

والشاهد يراد به : القرآن ؛ فالمعنى : يَتَّبِعُ ذلك البرهانَ شاهدٌ من الله وهو القرآن ، فيزيدُ وضوحه وتعظيمَ دلالته^(١) .

وقيل : إن الشاهد المذكور هنا : هو علي بن أبي طالب .

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ أي : ومن قبل ذلك الشاهد كتاب موسى ، وهو أيضًا دليل آخر متقدم .

وقد قيل أقوالٌ كثيرة في معنى هذه الآية ، وأرجحها ما ذكرنا .

﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي : من أهل مكة .

﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ جمع شاهد ، كأصحاب ، ويحتمل أن يكون :

من الشهادة ؛ فيراد به : الملائكة والأنبياء .

أو من الشهود بمعنى الحضور ؛ فيراد به : كلُّ من حضر الموقف .

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي : يطلبون اعوجاجها ، أو يصفونها بالاعوجاج .

﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾ أي : لا يُفْلِتُونَ .

﴿يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ إخبارٌ عن تشديد عذابهم ، وليس بصفة لـ

﴿أُولَئِكَ﴾ .

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ الآية ؛ «ما» نافية ، والضمير للكفار ، والمعنى :

(١) في ب : «وتعظم دلالته» .

وَصُفُّهُمْ بَأَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَبْصُرُونَ، كقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] الآية.

وقيل غير ذلك، وهو بعيد.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لا بد، ولا شك.

﴿وَأَخْبَتُوا﴾ خشعوا، وقيل: أنابوا.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ يعني: المؤمنين والكافرين.

﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصْرَ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ﴾ شبه الكافر بالأعمى وبالأصم،

وشبه المؤمن بالبصير وبالسميع، فهو على هذا تمثيل للمؤمنين بمثاليين، وتمثيل للكافرين بمثاليين.

وقيل: التقدير كالأعمى الأصم، والبصير السميع، فالواو لعطف

الصفات، فهو على هذا تمثيل للمؤمن بمثال واحد؛ وهو من جمع بين السمع والبصر، وتمثيل للكافر بمثال واحد؛ وهو من جمع بين العمى والصمم.

[وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْثُكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْثُكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَارِنَا رَايَ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّي وَءَاَنَّنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمُ الْأَنْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْبَغُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَجْحَرُونَ ﴿٣٥﴾] .

﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وصفُ اليوم بالأليم على وجه المجاز؛ لوقوع الألم فيه .

﴿أَرَادُوا بِادِّئَارِنَا﴾ جمع أَرَذَلَ، وهم سَفِيلَةُ النَّاسِ، وإنما وصفوهم بذلك لفقرهم؛ جهلاً منهم، واعتقاداً أن الشرف هو بالمال والجاه، وليس الأمر كما اعتقدوا، بل المؤمنون كانوا أشرف منهم على حال فقرهم وخمولهم في الدنيا .

وقيل : إنهم كانوا حاكّةً وحجّامين .

واختار ابن عطية أنهم أرادوا: أراذل في أفعالهم؛ لقول نوح: ﴿وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢] (١).

﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: أول الرأي، من غير نظر ولا تدبر.

و﴿بَادِيَ﴾ منصوب على الظرفية، أصله: وقت حدوث أول رأيهم، والعامل فيه: ﴿اتَّبَعَكَ﴾ على أصح الأقوال، والمعنى: اتبعك الأراذل من غير نظر ولا تثبت.

وقيل: هو صفة لـ ﴿بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾؛ أي: غير مثبت في الرأي.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: من زيادة وشرف، والخطاب لنوح عليه السلام ومن معه.

﴿عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على برهان وأمر جلي، وكذلك في قصة صالح وشعيب.

﴿وَأَنبِئِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِي﴾ يعني: النبوة.

﴿فَعَمِيتَ عَلَيْكُمُ﴾ أي: خفيت عليكم، والفاعل: البينة، أو الرحمة.

﴿أَنزَلْنَاهُمْ مِّنْهَا﴾ أي: أنكرهمكم على قبولها قهراً؟، وهذا هو جواب ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾.

ومعنى الآية: أن نوحاً عليه السلام قال لقومه: أرايتم إن هداني الله وأضلکم أأجبركم على الهدى وأنتم له كارهون؟.

﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على التبليغ .
 ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يقتضي أنهم طلبوا منه طرد الضعفاء .
 ﴿إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ﴾ المعنى : أنه يجازيهم على إيمانهم .
 ﴿مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ أي : من يدفع عني عقاب الله إن ظلمتهم
 بالطرد .

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ الآية ؛ أي : لا أدعي ما ليس لي فتنكرون
 قولي .

﴿تَزِدْرِي﴾ أي : تحتقر ؛ من قولك : زريت على الرجل : إذا قصرت به .
 والمراد بالذين تزدري أعينهم : ضعفاء المؤمنين .

﴿إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي : إن قلت للمؤمنين : لن يؤتيهم الله خيرا .
 والخير هنا يحتمل أن يراد به : خير الدنيا ، أو الآخرة .

﴿جِدَلْنَا﴾ الجدل : هو المخاصمة والمراجعة في الحجة .
 ﴿فَأَيْنَا يَمَّا تَعِدُنَا﴾ أي : بالعذاب .

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ الآية ؛ جزاء قوله : ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ هو ما دلّ
 عليه قوله : ﴿نُصْحِي﴾ ، وجزاء قوله : ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ هو ما دلّ
 عليه قوله : ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ ، فتقديرها : إن أراد الله أن يغويكم لم
 ينفعكم نصحي إن نصحت لكم ، ثم استأنف قوله : ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ .
 ولا يجوز أن يكون ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ جواب الشرط .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ الآية؛ الضمير في ﴿يَقُولُونَ﴾ لكفار قريش، وفي ﴿افْتَرَاهُ﴾ لمحمد ﷺ، هذا قول جميع المفسرين.

واختار ابن عطية أن تكون في شأن نوح ﷺ، فيكون الضمير في ﴿يَقُولُونَ﴾ لقوم نوح، وفي ﴿افْتَرَاهُ﴾ لنوح؛ لئلا يعترض ما بين قصة نوح بغيرها، وهذا بعيد^(١).

﴿إِجْرَامِي﴾ أي: ذنبي.

(١) انظر: المحرر الوجيز (٤/٥٦٩).

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا نَبْتَئِسُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦) وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٣٧﴾ وَبَصِّنْهُ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُوكَ مِنْ بَأْسِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَاهَا مِرْصَنَهَا وَإِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَتَاْرُضْ أَبْلَىٰ مَاءُكَ وَيَسْمَأُكُمْ أَقْلَىٰ وَيَغِيضُ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلَنْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْتُوخُ أَهْطِ بِسَلَمٍ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمِّهِ فَمَنْ مَعَكَ وَأُمُّهُمْ سَمِعَتْهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ يَلَاكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ .

﴿فَلَا نَبْتَئِسُ﴾ أي: فلا تحزن.

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: تحت نظرنا وحفظنا.

﴿وَوَحَيْنَا﴾ أي: وتعليمنا لك كيف تصنع الفلك.

﴿وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لا تشفع لي فيهم؛ فإني قد قضيت عليهم بالغرق.

﴿وَكُلَّمَا﴾ يحتمل أن يكون جوابها: ﴿سَخَرُوا مِنْهُ﴾، أو ﴿قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا﴾.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد، و﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾ منصوب بـ ﴿تَعْلَمُونَ﴾.

﴿عَذَابٌ يُخْرِيهِ﴾ هو الغرق، والعذاب المقيم: عذاب النار.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ غاية لقوله: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ﴾.

﴿وَفَارَ الْتُورُ﴾ أي: فار بالماء، جعل الله تلك علامة لنوح؛ ليركب حينئذ في السفينة.

والمراد: التنور^(١) الذي يُوقَد فيه عند ابن عباس وغيره، ورُوي أنه كان تنور آدم خلص إلى نوح.

وقيل: التنور: وجه الأرض.

﴿قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ المراد بالزوجين: الذكر والأنثى من الحيوان.

وقرئ ﴿مِنْ كُلِّ﴾ بغير تنوين؛ فعمل ﴿أَحْمِلْ﴾ في ﴿اثْنَيْنِ﴾.

وقرئ بالتنوين؛ فعمل ﴿أَحْمِلْ﴾ في ﴿زَوْجَيْنِ﴾، وجعل ﴿اثْنَيْنِ﴾ توكيداً.

(١) في د: «التنور».

﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: قرابتك، وهو معطوف على ما عمل فيه ﴿أَحْمَلُ﴾ .
 ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: من قضي عليه بالعذاب، فهو مستثنى من
 أهله، والمراد بذلك: ابنه الكافر وامرأته.

﴿وَمَنْ ءَامَنُ﴾ معطوف على ﴿وَأَهْلَكَ﴾؛ أي: احمل أهلك ومن آمن من
 غيرهم.

﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل: كانوا ثمانين، وقيل: عشرة، وقيل:
 ثمانية.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ الضمير في ﴿قَالَ﴾ لنوح، والخطاب لمن كان معه،
 والضمير في ﴿فِيهَا﴾ للسفينة.

وروي أنهم ركبوا فيها أول يوم من رجب، واستقرت على الجودي يوم
 عاشوراء.

﴿يَسْمِ اللَّهَ مُجْرَاهَا وَمُرْسِنَهَا﴾ اشتقاق ﴿مُجْرَاهَا﴾ من الجري، واشتقاق
 ﴿وَمُرْسِنَهَا﴾ من الإرساء، وهو الثبوت؛ أي^(١): وقوف السفينة.

ويمكن أن يكونا: ظرفين للزمان أو للمكان، أو مصدرين.

ويحتمل الإعراب وجهين:

أحدهما: أن يكون ﴿يَسْمِ اللَّهَ﴾ في موضع الحال من الضمير في
 ﴿ارْكَبُوا﴾، والتقدير: اركبوا متبركين باسم الله، أو قائلين بسم الله،

(١) في أ، ب: «أو من».

فيكون ﴿مُجْرَاهَا وَمُرْسَهَا﴾ على هذا ظرفين للزمان، بمعنى: وقت إجرائها وإرسائها، أو ظرفين للمكان، ويكون العامل فيه ^(١) ما في قولك: «بسم الله» من معنى الفعل، ويكون قوله: ﴿يَسْمِ اللَّه﴾ متصلاً مع ما قبله، والجملة كلام واحد.

والوجه الثاني: أن يكون كلامين، فيوقف على ﴿أَرْكَبُوا فِيهَا﴾، ويكون ﴿يَسْمِ اللَّه﴾ في موضع خبر، و﴿مُجْرَاهَا وَمُرْسَهَا﴾ مبتدأ بمعنى المصدر؛ أي: إجرائها وإرسائها، ويكون ﴿يَسْمِ اللَّه﴾ على هذا مستأنفاً غير متصل بما قبله، ولكنه من كلام نوح حسبما روي أن نوحاً كان إذا أراد أن يجري بالسفينة قال: «بسم الله» فتجري، وإذا أراد وقوفها قال: «بسم الله» فتقف.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ روي أن الماء طبَّق ما بين السماء والأرض، فصار الكل كالبحر، قال ابن عطية: وهذا ضعيف، وأين كان الموج كالجبال على هذا؟ ^(٢).

وصوبه الزمخشري، وقال: كانت تجري في موج كالجبال قبل التطبيق، وقبل أن يغمر الماء الجبال ^(٣).

﴿وَنَادَى نُوحٌ أُمَّتَهُ﴾ كان اسمه: كُتْنَان، وقيل: يام، وكان له ثلاثة بنون ^(٤) سواه؛ وهم: سامٌ وحامٌ ويافثٌ، ومنهم تناسل الخلق.

(١) في د: «فيهما».

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٤/ ٥٨٠).

(٣) انظر: الكشف (٨٠/ ٨).

(٤) في د: «بنين».

﴿فِي مَعَزِلٍ﴾ في ناحية .

﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ﴾ يَحْتَمِلُ أَرْبَعَةً أَوْجَهَ :

أحدها: أن يكون ﴿عَاصِمَ﴾ اسم فاعل ، و﴿مَنْ رَجَعُ﴾ كذلك بمعنى الراجع ، فالمعنى : لا عاصم إلا الراجع ؛ وهو الله تعالى .

والثاني: أن يكون ﴿عَاصِمَ﴾ بمعنى : ذي عصمة ؛ أي : معصوم ، و﴿مَنْ رَجَعُ﴾ بمعنى مفعول ؛ أي : من رحمه الله ، فالمعنى : لا معصوم إلا من رحمه الله .

والاستثناء على هذين الوجهين متصل .

والثالث: أن يكون ﴿عَاصِمَ﴾ اسم فاعل ، و﴿مَنْ رَجَعُ﴾ بمعنى المفعول والمعنى : لا عاصم من أمر الله ، لكن من رحمه الله فهو المعصوم .
والرابع: عكسه .

والاستثناء على هذين منقطع .

﴿أَبْلَغَى مَاءَكِ﴾ عبارة عن جفوف الأرض من الماء .

﴿أَقْلَعَى﴾ أي : أمسكي عن المطر ، ورؤي أنها أمطرت من كل موضع منها .

﴿وَوَغِضَ الْمَاءُ﴾ أي : نقص .

﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي : تمّ وكمل .

﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أي : استقرت السفينة على الجودي ؛ وهو جبل بالموصل .

﴿وَقِيلَ بَعْدًا﴾ أي: هلاكًا، وانتصابه على المصدر.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا النِّدَاءُ:

قبل الغرق؛ فيكون العطف من غير ترتيب.

أو يكون بعده.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي: وقد^(١) وعدتني أن تنجي أهلي.

﴿قَالَ يَنْتُحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم؛ لأنه كافر.

وقال الحسن: لم يكن ابنه، ولكن خاتنه امرأته، وكان لغير رشدة، وهذا ضعيف؛ لأن الأنبياء ﷺ قد عصمهم الله من أن يزني نساؤهم، ولقوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾.

﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ فيه ثلاثة تأويلات على قراءة الجمهور:

أحدها: أن يكون الضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ لسؤال نوح نجاه ابنه.

والثاني: أن يكون الضمير لابن نوح، وحُذِفَ مضافٌ من الكلام؛ تقديره: إنه ذو عملٍ غير صالح.

والثالث: أن يكون الضمير لابن نوح، و﴿عَمَلٌ﴾ مصدر وصف به مبالغة، كقولك: رجل صوم.

وقرأ الكسائي: ﴿عَمِلَ﴾ بفعل ماضٍ ﴿غَيْرَ صَالِحٍ﴾ بالنصب، والضمير

(١) في أ، ب، ج، هـ: «قد» بلا واو.

على هذا لابن نوح بلا إشكال .

﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي : لا تطلب مني أمراً لا تعلم أصواباً هو أم غير صواب حتى تقف على كُنْهه .

فإن قيل : لم سمي نداؤه سؤالاً ، ولا سؤال فيه ؟ .

فالجواب : أنه تضمن السؤال وإن لم يصرح به .

﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ «أن» في موضع مفعول من أجله ؛ تقديره : أعظك ؛ كراهة أن تكون من الجاهلين ، وليس في ذلك وصف^(١) له بالجهل ، بل فيه ملاطفة وإكرام .

﴿أَهْبِطْ بِسَلَمٍ مِّنَّا﴾ أي : اهبط من السفينة بسلامة .

﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَّعَكَ﴾ أي : ممن معك في السفينة .

واختار الزمخشري أن يكون المعنى : من ذرية من معك ، ويعني به : المؤمنين إلى يوم القيامة ، ف «مِن» على هذا لا ابتداء الغاية ، والتقدير : على أمم ناشئة ممن معك^(٢) .

وعلى الأول : تكون «مِن» لبيان الجنس .

﴿وَأُمَمٌ سَتُغْتَبَاهُمْ﴾ يعني : تمتعهم متاع الدنيا - وهم الكفار - إلى يوم القيامة .

(١) أ ، ب ، ج ، هـ : «وصفاً» .

(٢) انظر : الكشف (٨/ ٩٨) .

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ إشارة إلى القصة، وفي الآية دليلٌ على أن القرآن من عند الله؛ لأن النبي ﷺ لم يكن يعلم ذلك قبل الوحي.



[وَالِىَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَغْبُدُوا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْفَوِرَ لَا اسْتُلْكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَنَفَوِرَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبُرِّدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوٍّ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِّنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَّبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِن رَّبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَادٌ جَحَدُوا بِكَائِبَتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّءَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾] .

﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ يعني : في عبادتهم لغير الله .

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ السماء هنا : المطر ، و﴿مِدْرَارًا﴾ بناءً تكثيرٍ ؛ من الدَّرِّ ، يقال : دَرَّ المطر واللبن وغيره .

وفي الآية دليل على أن الاستغفار والتوبة سببٌ لنزول الأمطار ، ورُوي أن عادًا كان المطر قد حُبِسَ عنهم ثلاث سنين ، فأمرهم بالتوبة والاستغفار ، ووعدهم على ذلك بالمطر .

والمراد بالتوبة هنا : الرجوع عن الكفر ، ثم عن الذنوب ؛ لأن التوبة من الذنوب لا تصحُّ إِلَّا بعد الإيمان .

﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بمعجزة، وذلك كذب منهم وجحود.
أو يكون معناه: بآية تضطرننا إلى الإيمان بك، وإن كان قد أتاهاهم بآية
نظرية.

﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي: بسبب قولك.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرْنَاكَ بِبَعْضِ الْهَيْئَةِ سَوَاءٍ﴾ معناه: ما نقول إلا أن بعض آلهتنا
أصابتك بجنون لما سببناها ونهيتنا عن عبادتها.

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ هذا أمرٌ بمعنى التعجيز؛ أي: لا تقدر
أنتم ولا آلهتكم على شيء، ثم ذكر سبب قوته في نفسه وعدم مبالاته
بهم، فقال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ الآية.

﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي: هي في قبضته وتحت قهره،
والأخذ بالناصية تمثيل لذلك، وهذه الجملة تعليل لقوة توكله على الله
وعدم مبالاته بالخلق.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يريد: أن أفعال الله جميلة، وقوله صدق،
ووعده حق، فالاستقامة تامة.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ أصل ﴿تَوَلَّوْا﴾ هنا: تتولوا؛ لأنه فعل مستقبل
حذفت منه تاء المضارعة.

فإن قيل: كيف وقع الإبلاغ جواباً للشرط، وقد كان الإبلاغ قبل التولي؟.

فالجواب: أن المعنى إن تتولوا فلا عتب عليّ؛ لأنني قد أبلغتكم رسالة

﴿وَلَا تَصْرُوهُمْ شَيْئًا﴾ أي : لا تَنَقُصُونَهُ شَيْئًا إِذَا أَهْلَكَكُمْ وَاسْتَخْلَفَ غَيْرَكُمْ .
 ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ إِنْ قِيلَ : لَمْ قَالَ هُنَا وَفِي قِصَّةِ شَعِيبٍ ﴿وَلَمَّا﴾ بِالْوَاوِ وَقَالَ
 فِي قِصَّةِ صَالِحٍ وَلُوطٍ ﴿فَلَمَّا﴾ بِالْفَاءِ؟

فَالْجَوَابُ عَلَى مَا قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : أَنَّهُ وَقَعَ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ صَالِحٍ وَلُوطٍ بَعْدَ
 الْوَعِيدِ ؛ فَجَاءَ بِالْفَاءِ الَّتِي تَقْتَضِي التَّسْبِيبَ ، كَمَا تَقُولُ : وَعَدْتَهُ فَلَمَّا جَاءَ
 الْمِيعَادُ . . ، بِخِلَافِ قِصَّةِ هُودٍ وَشَعِيبٍ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ ذَلِكَ فِيهِمَا فَعَطَفَ
 بِالْوَاوِ^(١) .

﴿وَبَيِّنَ لَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ عَذَابَ الْآخِرَةِ ؛ وَلِذَلِكَ عَطَفَهُ
 عَلَى النِّجَاةِ الْأُولَى الَّتِي أَرَادَ بِهَا النِّجَاةَ مِنَ الرِّيحِ .
 وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِالثَّانِي أَيْضًا الرِّيحَ ، وَكُرِّرَ ؛ إِعْلَامًا بِأَنَّهُ عَذَابٌ غَلِيظٌ ،
 وَتَعْدِيدًا لِلنِّعْمَةِ فِي نَجَاتِهِمْ .

﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ فِي جَمْعِ الرُّسُلِ هُنَا وَجِهَانِ :
 أَحَدُهُمَا : أَنْ مِنْ عَصَى رَسُولًا وَاحِدًا لَزَمَهُ عَصِيَانُ جَمِيعِهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ
 مُتَّفِقُونَ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَعَلَى تَوْحِيدِهِ .
 وَالثَّانِي : أَنْ يَرَادَ الْجِنْسُ ؛ كَقَوْلِكَ : فَلَانِ يَرْكَبُ الْخَيْلَ ، وَإِنْ لَمْ يَرْكَبْ
 إِلَّا فَرَسًا وَاحِدًا .

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ هَذَا تَشْنِيعٌ لِكُفْرِهِمْ ، وَتَهْوِيلٌ بِحَرْفِ التَّنْبِيهِ ،
 وَبِتَكَرُّارِ اسْمِ عَادَ .

(١) انظر : الكشف (٨ / ١٨٤) .

﴿أَلَا بُعْدًا﴾ أي: هلاكًا، وهذا دعاء عليهم، وانتصابه بفعل مضمّر.
فإن قيل: كيف دعا عليهم بالهلاك بعد أن هلّكوا؟
فالجواب: أن المراد: أنهم أهلٌ لذلك.
﴿لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ بيان؛ لأن عادًا اثنان؛ أحدهما: قوم هود، والآخر^(١):
إرم.

(١) في ج، هـ: «والأخرى».

[﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١١﴾﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٢﴾﴾ قَالَ يَتَقَوَّمِرْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ وَيَتَقَوَّمِرْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿١٧﴾﴾ كَانُوا يَمْنُونُ فِيهَا آلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾].

﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ لأن آدم خلق من تراب.

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: جعلكم تعمرونها؛ فهو من العمران للأرض.

وقيل: هو من العمر؛ نحو: استبقاكم من البقاء.

﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ أي: كنا نرجو أن ننتفع بك حتى قلت ما قلت.

وقيل: المعنى: كنا نرجو أن تدخل في ديننا.

﴿فِي دَارِكُمْ﴾ أي: بلدكم.

﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ قيل: إنها الخميس والجمعة والسبت؛ لأنهم عقروا الناقة

يوم الأربعاء، وأخذهم العذاب يوم الأحد.

﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ معطوف على ﴿نَجَّيْنَا﴾ أي: نجيناهم من خزي يومئذ.

﴿جَثِمِينَ﴾ ذُكِرَ فِي «الأعراف»^(١).

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كَأَن لَمْ يَقِيمُوا فِيهَا، وَالضَّمِيرُ لِلدِّيارِ، وَكَذَلِكَ فِي
قِصَّةِ شَعِيبَ.



(١) انظر صفحة ٣٦٢.

[وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ
بِعِجْلٍ خَبِيرٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا
لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ
وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوْنِلَيَّْ أَلَدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَنْعَجِينَ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ
مُجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ لَعَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتَذَكَّرُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنِهْمٌ
عَذَابٍ غَيْرِ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ مُضَاقٌ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ
عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَهْقُمُونَ
هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ
﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ
أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ
الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
حِجَابًا مِّنْ سِجَالٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾].

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ الرسل هنا: الملائكة.

﴿بِالْبُشْرَى﴾ بشروه بالولد.

﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه فعل مضمر؛ تقديره: سلّمنا عليكم سلامًا.

﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ تقديره: عليكم سلام، أو سلام عليكم، وهذا على أن يكون

بمعنى التحية، وإنما رُفِعَ جوابه ؛ ليدلَّ على إثبات السلام، فيكون قد حيَّاهم بأحسن مما حيَّوه.

ويَحْتَمِلُ أن يكون السلام بمعنى السلامة، ونُصِبَ الأول ؛ لأنه في معنى الطلب، ورُفِعَ الثاني ؛ لأنه في معنى الخبر.

﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ﴾ أي : ما لبث مجيئه، بل عَجِلَ، و«ما» نافية، و﴿أَنْ جَاءَ﴾ فاعل بـ ﴿لَيْتَ﴾.

﴿يُعَجِّلُ خَبِيرٌ﴾ أي : مشويٌّ، وفعل هنا بمعنى مفعول.

﴿نَكَّرَهُمْ﴾ أي : أنكرهم ولم يعرفهم ؛ يقال : نَكَّرَ وأنكر بمعنى واحد.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ قيل : إنه لم يعرفهم، فخاف منهم لما لم يأكلوا طعامه.

وقيل : عرف أنهم ملائكة، ولكن خاف أن يكونوا أرسلوا بما يُخَافُ، فأَمَّنُوهُ بقولهم : ﴿لَا تَخَفْ﴾.

﴿وَأَمَرَأْتُهُ قَائِمَةً﴾ قيل : قائمة خلف سترٍ.

وقيل : قائمة في الصلاة.

وقيل : قائمة تخدم القوم، واسمها سارة.

﴿فَضَحَكَتْ﴾ قيل : معناه حاضت، وهو ضعيف.

وقال الجمهور : هو الضَّحْكُ المعروف، واختلفوا من أيِّ شيء ضحكت؟.

ف قيل : سرورًا بالولد الذي بُشِّرَ به ؛ ففي الكلام على هذا تقديم وتأخير .

وقيل : سرورًا بالأمن بعد الخوف .

وقيل : سرورًا بهلاك قوم لوط .

﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ أسند البشارة إلى ضمير الله تعالى ؛ لأنها كانت بأمره .

﴿ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ﴾ أي : من بعده ، وهو ولده .

وقيل : الوراثة ولد الولد .

و ﴿ يَعْقُوبُ ﴾ بالرفع : مبتدأ ، وبالفتح : معطوف على ﴿ إِسْحَاقَ ﴾ .

﴿ قَالَتْ يَوْنُسَ ﴾ الألف فيه مبدلة من المتكلم ، كذلك في «يا لهفًا»

و «يا أسفًا» و «يا عجبًا» ، ومعناه : التعجب من الولادة ، وروي أنها كانت حينئذ بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم ابن مئة سنة .

﴿ رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾ يحتمل الدعاء والخبر .

﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ أي : أهل بيت إبراهيم ، وهو منصوب بفعل مضمر على

الاختصاص ، أو منادى .

﴿ حَمِيدٌ ﴾ أي : محمود .

﴿ مُجِيدٌ ﴾ من المجد ؛ وهو العلو والشرف .

﴿ يُجِدِلُنَا ﴾ هذا جواب ﴿ فَلَمَّا ﴾ ، على أن يكون المضارع في موضع

الماضي ، أو على تقدير : ظلَّ أو أخذ يجادلنا .

أو يكون ﴿ يُجِدِلُنَا ﴾ مستأنفًا ، والجواب محذوف .

ومعنى جداله : كلامه مع الملائكة في رفع العذاب عن قوم لوط .
وقد ذكر في «اللغات» ﴿حَلِيمٌ﴾^(١) ، وفي «براءة» ﴿أَوَّهٌ﴾^(٢) .
﴿يَتَأَنَّبَهُمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ أي : قلنا : يا إبراهيم أعرض عن هذا ؛ يعني :
عن المجادلة فيهم ، فقد نفذ القضاء بعذابهم .
﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ﴾ الرسل هم الملائكة ، ومعنى ﴿سَيِّئًا
بِهِمْ﴾ أصابه سوء وضجر ؛ لما ظن أنهم من بني آدم ، وخاف عليهم من قومه .
﴿يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي : شديد .
﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي : يُسرِعُونَ ، وكانت امرأة لوط قد أخبرتهم
بنزول الأضياف عنده ، فأسرعوا ليعملوا بهم عملهم الخبيث .
﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي : كانت عاداتهم إتيان الفواحش في
الرجال .
﴿قَالَ يَفْقَهُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ المعنى : فتزوجوهنَّ ، وإنما قال ذلك ليقبي
أضيافه بناته .
وقيل : اسم بناته الواحدة ريثا^(٣) ، والأخرى غوثا^(٤) ، وأن اسم امرأته
الهالكة والهة ، واسم امرأة نوح والغة .

(١) انظر المادة (١٢٩) في اللغات .

(٢) انظر صفحة ٥٢٨ .

(٣) في ب ، ج ، هـ : «زينا» .

(٤) في ب ، ج ، هـ : «رغوثا» .

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: ما لنا فيهنَّ أربُّ.

﴿وَأِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ يعنون: نكاح الذكور.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ جواب «لو» محذوف؛ تقديره: لو كانت لي قدرة على دفعكم لفعلت.

ويَحتمل أن تكون «لو» للتمني.

﴿أَوْ ءَاوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ معنى ﴿ءَاوَىٰ﴾ أَلْجَأُ، والمراد بالركن الشديد: ما يلجأ إليه من عشيرة أو أنصار يحمونه من قومه، وكان رسول الله ﷺ يقول: «يرحم الله أخي لوطًا؛ لقد كان يأوي إلى ركن شديد»^(١) يعني: إلى الله وملائكته.

﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ الضمير في ﴿قَالُوا﴾ للملائكة، والضمير في ﴿لَنْ يَصِلُوا﴾ لقوم لوط، وذلك أن الله طمس على أعينهم حينئذٍ.

﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي: اخرج بهم بالليل؛ فإن العذاب ينزل بأهل هذه المدائن.

وقرئ ﴿فَاسْرِ﴾ بوصل الألف وقطعها، وهما لغتان؛ يقال: سَرَى وأسرى.

﴿يَقْطَعُ مِّنَ آلِيلٍ﴾ أي: قطعة منه.

﴿وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ نهوا عن الالتفات؛ لئلا تنفطر أكبادهم على قرينهم.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١).

وقيل: ﴿يَلْفَتُ﴾ معناه: يتلوى^(١).

﴿إِلَّا أَمْرًا نَّكَ﴾ قرئ بالنصب والرفع:

فالنصب: استثناء من قوله: ﴿فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ﴾، فيقتضي هذا أنه لم يُخرجها مع أهلها.

والرفع: بدل من ﴿وَلَا يَلْفَتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾، ورُوي على هذا أنه أخرجها معه، وأنها التفتت وقالت: يا قوماء!، فأصابها حجر فقتلها.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ أي: وقت عذابهم الصبح.

﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ذُكر أنهم لما قالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ قال لهم لوط: هَلَّا عَذَّبُوا الْآنَ! فقالوا له: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ الضمير للمدائن، رُوي أن جبريل أدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط، واقتلعها فرفعها حتى سمع أهل السماء صُراخ الديكة ونباح الكلاب، ثم أرسلها مقلوبة.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ أي: على المدائن، والمراد أهلها، رُوي أنه من كان منهم خارج المدائن أصابته حجارة من السماء، وأما من كان في المدائن فهلك لما قُلبت.

﴿مِنْ سَجِيلٍ﴾ قيل: معناه من ماء وطين، وإنها كان مثل^(٢) الآجر المطبوخ.

(١) قال في المحرر الوجيز (٦٢٥/٤): «وقالت فرقة: هي من لَفَت الشيء يَلْفَتُهُ: إذا ثَنَاهُ ولَوَاهُ، فمعناها: ولا يَتَبَيَّنُّ».

(٢) في د: «من».

وقيل : مِنْ سَجَلَه : إذا أرسله .

وقيل : هو لفظ أعجمي .

﴿مَنْضُودٌ﴾ أي : مضموم بعضه فوق بعض .

﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ معناه : معلّمة بعلامة ، رُوي أنه كان فيها بياض وحمرة .

وقيل : كان في كل حجر اسم صاحبه .

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ الضمير للحجارة ، والمراد بـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ كفار قريش ، فهذا تهديد لهم ؛ أي : ليس الرمي بالحجارة ببعيد منهم ؛ لأجل كفرهم .

وقيل : الضمير للمدائن ، فالمعنى : ليست ببعيدة منهم أفلا يعتبرون بها ؛ كقوله : ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرُ السَّوءِ﴾ [الفرقان : ٤٠] .

وقيل : إن ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على العموم .



[﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾] إِنَِّّي أَرْبُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَنْقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْنَا نَكُنَّا تَابِعِينَ أَن نَّتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَن أَمْلِكَ لَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَلَكُم عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَنْقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُّحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُّخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بِجَنَّتِنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بَعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾] .

﴿إِنَِّّي أَرْبُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ يعني : رخص الأسعار ، وكثرة الأرزاق .

﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ يوم القيامة ، أو يوم عذابهم في الدنيا .

﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي : ما أبقاء الله لكم من رزقه ونعمته .

﴿أَصْلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ الصلاة: هي المعروفة، ونسب الأمر إليها مجازاً، كقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .
والمعنى: أصلواتك تأمرك أن نترك عبادة الأوثان؟، وإنما قال الكفار هذا على وجه الاستهزاء .

﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ يعنون: ما كانوا عليه من بخس المكيال والميزان .

و﴿أَنْ نَفْعَلَ﴾ عطف على ﴿أَنْ نَتْرُكَ﴾^(١) .

﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قيل: إنهم قالوا ذلك على وجه الاستهزاء والتهكم .

وقيل: معناه: الحلیم الرشید عند نفسك .

﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: سالمًا من الفساد الذي أدخلتم في أموالكم .
وجواب ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ محذوف، يدل عليه المعنى، وتقديره: أرايتم إن كنت على بينة من ربي أيصح^(٢) لي ترك تبليغ رسالته؟ .

﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾ يقال: خالفني فلان إلى كذا: إذا

(١) كذا في جميع النسخ الخطية!، ولعل الصواب -كما في المحرر الوجيز-: أنها عطف على ﴿مَا يَبْدُو﴾ أي: أصلواتك تأمرك أن نترك عبادة الأوثان أو أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء!، قال في المحرر الوجيز (٥/٥): ﴿أَنْ﴾ الثانية عطف على ﴿مَا﴾، لا على ﴿أَنْ﴾ الأولى؛ لأن المعنى يصير: أصلواتك تأمرك أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟، وهذا قلب ما قصدوه، وانظر: حاشية الطيبي على الكشاف (١٦٧/٨) .

(٢) في د: «أبصّلح» .

قصده وأنت مؤل عنه، وخالفني عنه: إذا ولّى عنه وأنت قاصده.

﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ أي:
لا تُكسِبْكُمْ عدواني أن يصيبكم مثل عذاب الأمم المتقدمة، و﴿شِقَاقِي﴾
فاعل، و﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ مفعول.

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ يعني: في الزمان؛ لأنهم كانوا أقرب
الأمم الهالكين إليهم.

ويحتمل أن يريد: في البلاد.

﴿مَا نَفَقَهُ﴾ أي: ما نفهّم.

﴿وَإِنَّا لَلرَّكَابِ فِيْنَا ضَعِيفًا﴾ أي: ضعيف الانتصار والقدرة، وقيل: نحيل
البدن، وقيل: أعمى.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمَنَّكَ﴾ الرَّهْط: القرابة، والرَّجْم: بالحجارة، أو
بالسب.

﴿أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ هذا توبيخ لهم.

فإن قيل: إنما وقع كلامهم فيه وفي رهطه وأنهم هم الأعزّة دونه، فكيف
طابق جوابه كلامهم؟.

فالجواب: أنّ تهاونهم به وهو رسول الله تهاون بالله؛ فلذلك قال:
﴿أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾.

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾ الضمير في ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ﴾ لله تعالى، أو لدينه
وأمره.

والظَّهْرِيُّ: ما يُطْرَح وراء الظهر ولا يُعْبَأُ به، وهو منسوب إلى الظهر بتغيير النسب.

﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ﴾ تهديد، ومعنى ﴿مَكَاتِكُمْ﴾ تمكُّنكم في الدنيا وعزَّتكم فيها.

﴿مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ عذاب الدنيا والآخرة.
﴿وَأَرْتَقِبُوا﴾ تهديد.



[وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيُسَّ الْوَرْدُ الْمَرْوُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُسَّ الرِّقْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَفْضُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهِمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤْخَرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُفٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهْمٌ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَتُولَاءُ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾] .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالمعجزات .

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: برهان بين .

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أي: يتقدم قدامهم للنار، كما كانوا في الدنيا يتبعونه على الضلال والكفر .

﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ الورود هنا بمعنى: الدخول، وذكره بلفظ الماضي؛ لتحقيق وقوعه .

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ عطف على ﴿فِي هَذِهِ﴾؛ فإن المراد به: في الدنيا .

﴿يُسَّ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ أي: العطية المعطاة.

﴿قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ باقٍ وداثرٌ.

﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ حجة على التوحيد ونفي الشرك.

﴿تَنْبِيءٍ﴾ أي: تخسير.

﴿يَوْمَ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ﴾ أي: يُجْمَعُونَ فيه للحساب، والثواب والعقاب.

وإنما عبرَ باسم المفعول دون الفعل؛ ليدلَّ على ثبوت الجمع لذلك اليوم؛ لأن لفظ ﴿تَجْمَعُ﴾ أبلغ من لفظ «يُجْمَع».

﴿يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾ أي: يحضره الأولون والآخرون.

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ العامل في الظرف: ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾، أو مضمر.

وفاعل ﴿يَأْتِ﴾ ضمير:

يعود على ﴿يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾.

وقال الزمخشري: يعود على الله تعالى؛ كقوله: ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾

[الأنعام: ١٥٨]، ويعضده عَوْدُ الضمير عليه في قوله: ﴿يَاذُنِي﴾^(١).

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ الضمير يعود على أهل الموقف الذي دلَّ عليهم

قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾.

﴿زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزفير: إخراج النفس، والشهيق: رده.

وقيل: الزفير: صوت المحزون، والشهيق: صوت الباكي.

(١) انظر: الكشاف (٨/ ١٩٥).

وقيل : الزفير من الحلق ، والشهيق من الصدر .

﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن يراد بها سماوات الآخرة وأرضها ، وهي دائمة أبداً .

والآخر : أن يكون عبارة عن التأييد ، كقول العرب : ما لاح كوكب ، وما ناح الحمام ، وشبه ذلك مما يقصد به الدوام .

﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ في هذا الاستثناء ثلاثة أقوال :

قيل : إنه على طريق التأدب مع الله ، كقولك : «إن شاء الله» وإن كان الأمر واجباً .

وقيل : المراد به : زمان خروج المذنبين من النار ، ويكون ﴿ الَّذِينَ شَقُّوا ﴾ على هذا يعمُّ الكفار والمذنبين .

وقيل : استثنى مدة كونهم في الدنيا وفي البرزخ .

وأما الاستثناء في أهل الجنة فيصح فيه القول الأول والثالث ، دون الثاني .

﴿ غَيْرَ مَجْدُودِينَ ﴾ أي : غير مقطوع .

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾ المرية : الشك ، والإشارة إلى عبدة الأصنام ؛ أي : لا تشك في فساد دين هؤلاء .

﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ ﴾ أي : هم متبعون لآبائهم ، تقليداً من غير برهان .

﴿ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيبُهُمْ ﴾ يعني : من العذاب .

[وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٢﴾ وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لِيُوفِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١٣﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٤﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٥﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٦﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٧﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٩﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٢٠﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٢١﴾ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢٣﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٥﴾].

﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ يعني: القدر، وذلك أن الله قضى أن يفصل بينهم يوم القيامة، فلا يفصل في الدنيا.

﴿وَإِنْ كُلًّا﴾ قرئ: بتشديد ﴿إِنْ﴾، وبتخفيفها وإعمالها عمل الثقيلة.

والتنوين في ﴿كُلًّا﴾ عوض من المضاف إليه؛ يعني: كلهم.

واللام في ﴿لَمَّا﴾ موطئة للقسم، و«ما» زائدة، و﴿لِيُوفِيَنَّهُمْ﴾ خبر ﴿إِنْ﴾.

وقرئ ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد؛ على أن تكون ﴿إِنْ﴾ نافية، و﴿لَمَّا﴾ بمعنى «إِلَّا».

﴿لِيُؤْفِقَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني: جزاء أعمالهم.

﴿وَلَا تَزْكُوتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: الكفار، وقيل: إنهم الظلمة من الولاة وغيرهم.

﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ مستأنف غير معطوف، وإنما ذكر بـ ﴿ثُمَّ﴾ لبعده النصر.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ الآية؛ يراد بها الصلوات المفروضة، فالطرف الأول: الصبح، والطرف الثاني: الظهر والعصر، والزلف من الليل: المغرب والعشاء.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ لفظه عام، وخصّصه أهل التأويل بأن الحسنات الصلوات الخمس، ويمكن أن يكون ذلك على وجه التمثيل.

رُوي أن رجلاً قبل امرأة، ثم ندم، فذكر ذلك للنبي ﷺ، وصلى معه الصلاة، فنزلت الآية، فقال النبي ﷺ: «أين السائل؟»، فقال: ها أنا ذا، فقال: «قد غُفِرَ لك»، فقال الرجل: ألي خاصة أو للمسلمين عامة؟، فقال: «للمسلمين عامة»^(١)، والآية على هذا مدنية.

وقيل: إن الآية كانت قبل ذلك، وذكرها النبي ﷺ للرجل مستدلاً بها، والآية على هذا مكية كسائر السورة.

(١) أخرجه البخاري (٥٢٦)، ومسلم (٢٧٦٣).

وإنما تُذْهِبِ الحَسَنَاتُ - عند الجمهور - الصَّغَائِرَ إذا اجْتَنِبْتَ الكبائر.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة:

إلى الصلوات.

أو إلى كل ما تقدّم من وعظ ووعد ووعيد.

﴿فَلَوْلَا﴾ تحضيض بمعنى «هَلَّا».

﴿أُولُوا بِقِيَّةٍ﴾ أي: أولو خير ودين بقي لهم دون غيرهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء منقطع، معناه: ولكنّ قليلاً ممن أنجينا من القرون ينهاون عن الفساد في الأرض.

وقيل: هو متصل، فإن الكلام الذي قبله في حكم النفي؛ كأنه قال: ما كان فيهم من ينهى عن الفساد في الأرض إلّا قليلاً، على أن الوجه في مثل هذا البدل، ويجوز فيه النصب.

﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: الذين لم ينهوا عن الفساد.

﴿يُظْلَمُونَ﴾ هذا المجرور في موضع الحال من ﴿رَبِّكَ﴾، والمعنى: أنه لا يهلك أهل القرى ظالمًا لهم، تعالى الله عن ذلك.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني: مؤمنة، لا خلاف بينهم في الإيمان.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفينَ﴾ يعني: في الأديان، والملل، والمذاهب.

﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قيل: الإشارة إلى الاختلاف.

وقيل: إلى الرحمة.

وقيل: إليهما.

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ﴾ انتصب ﴿كُلًّا﴾ بـ ﴿نَقُصُّ﴾ ، و﴿مَا﴾ بدلٌ من ﴿كُلًّا﴾ .

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ الإشارةُ إلى السورة.

﴿اعْمَلُوا﴾ ﴿وَانظُرُوا﴾ تهديدٌ.

سورة يوسف عليه السلام

[الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقُصُّ رُءُوكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾].

﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يعني: القرآن، و﴿الْمُبِينِ﴾ يحتمل:

أن يكون بمعنى اليقين، فيكون غير متعذر.

أو يكون متعدياً، بمعنى أنه أبان الحق؛ أي: أظهره.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يتعلق ب﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، أو ب﴿عَرَبِيًّا﴾.

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ يعني: قصة يوسف، أو قصص الأنبياء على الإطلاق.

و﴿الْقَصَصِ﴾ يكون مصدرًا، أو اسم مفعول؛ بمعنى المقصوص.

فإن أريد به هنا المصدر فمفعول ﴿نَقُصُّ﴾ محذوف؛ لأن ذكر القرآن يدلُّ

عليه.

﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ الضمير في ﴿قَبْلِهِ﴾ للقصاص؛ أي: من الغافلين عن معرفته، وفي هذا احتجاج على أنه من عند الله؛ لكونه جاء به من غير تعليم.

﴿إِذْ قَالَ﴾ العامل فيه: «اذكر» المضمرة، أو ﴿الْقَصَصِ﴾.

﴿يَتَأْتِ﴾ أي: يا أبي، والتاء للمبالغة.

وقيل: للتأنيث، وكُسِرَت دلالة على ياء المتكلم، والتاء عوض من ياء المتكلم.

﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَجِدِينَ﴾ كرّر الفعل لطول الكلام، وأجرى الكواكب والشمس والقمر مجرى العقلاء في ضمير الجماعة؛ لما وصفها بفعل مَنْ يعقل، وهو السجود.

وتأويل الكواكب في المنام: إخوته، والشمس والقمر: أبواه، وسجودهم له: تواضعهم له ودخولهم تحت كنفه وهو مَلِك.

﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ إنما قال ذلك؛ لأنه علم أن تأويلها ارتفاع منزلته، فخاف عليه من الحسد.

﴿يَجْنِيكَ﴾ يختارك.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قيل: هي عبارة الرؤيا، واللفظ أعم من ذلك.

﴿إِلَّا يَعْقُوبَ﴾ يعني: ذريته.

[﴿عَآيَةُ السَّآئِلِينَ﴾ ٧] إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْلُغَ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَتَابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَنَرْكَبُ يُوسُفَ عِنْدَ مَنْعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَى هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً وَعِلْمٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرُوهُ بِشَعِيرٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾].

﴿عَآيَةُ السَّآئِلِينَ﴾ أي: لمن سأل عنها، روي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، أو أمروا قريشًا أن يسألوه عنها، فهم السائلون على هذا، واللفظ أعم من ذلك.

﴿لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ هو بنيامين، وهو أصغر من يوسف، ويقال إنه شقيق يوسف، وكان أصغر أولاد يعقوب.

﴿وَمَحْنُ عُصْبَةٍ﴾ أي: جماعة نقدر على النفع والضرر بخلاف الصغيرين، والعصبة: العشرة فما فوقها إلى الأربعين.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي : في خطأٍ وخروجٍ عن الصواب بإفراط حبة ليوسف وأخيه .

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي : لا يشارككم غيره في محبته لكم وإقباله عليكم .
﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أي : بالتوبة والاستقامة .

وقيل : هو صلاح حالهم مع أبيهم .

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ هو يهوذا ، وقيل : روبيل .

﴿غِيَابَاتٍ الْجُبِّ﴾ غُورُهُ ، وما غاب منه .

﴿السَّيَّارَةِ﴾ جمع سَيَّارٍ ، وهم القوم الذين يسرون في الأرض للتجارة ، وغيرها .

﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي : هذا هو الرأي إن فعلتموه .

﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ أي : لم تخاف عليه منا؟ .

وقرأ السبعة ﴿تَأْمَنَّا﴾ بالإدغام والإشمام ؛ لأن أصله بضم النون الأولى .

﴿يَرْتَعِ﴾ مَنْ قرأه بكسر العين فهو من الرِّعِي :

أي : من رعى الإبل .

أو من رعى بعضهم لبعض ، وحراسته .

ومن قرأه بالإسكان ، فهو من الرَّتْع ؛ وهو الإقامة في الخصب والتنعم ، والتناء على هذا أصلية ، ووزن الفعل «يَفْعَلُ» .

ووزنه على الأول «يَفْتَعِلُ» .

ومن قرأ ﴿يَزْتَع وَيَلْعَب﴾ بالياء : فالضمير ليوسف .
ومن قرأ بالنون : فالضمير للمتكلمين ؛ وهم إخوته .
وإنما قالوا : ﴿نَلْعَب﴾ ؛ لأنهم لم يكونوا حينئذ أنبياء ، أو كان اللعب من
المباح لتعلم القتال ، كالمسابقة بالخيول .
﴿وَأَجْمَعُوا﴾ أي : عزموا ، وجواب ﴿فَلَمَّا﴾ محذوف .
وقيل : إنه ﴿وَأَجْمَعُوا﴾ ، أو ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ على زيادة الواو .
﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ يحتمل أن يكون هذا الوحي : بواسطة ملك ، أو بإلهام .
والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ ليوسف ، وقيل : ليعقوب ، والأول هو الصحيح .
﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ في موضع الحال :
من ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ﴾ ؛ أي : لا يشعرون حين تنبئهم ، فيكون خطاباً
ليوسف عليه السلام .
أو من ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ ؛ أي : لا يشعرون حين أوحينا إليه ، فيكون خطاباً
للمحمد ﷺ .
﴿نَسْتَبِقُ﴾ أي : نجري على أقدامنا لننظر أيُّنا يسبق .
﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي : بمصدقٍ لمقالتنا .
﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي : لا تصدقنا ولو كنا عندك من أهل الصدق ،
فكيف وأنت تتهمنا ! .

وقيل : معناه : لا تصدقنا وإن كنا صادقين في هذه المقالة ، فذلك على وجه المغالطة منهم .
والأول أظهر .

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي : ذي كذب ، أو وُصِفَ بالمصدر مبالغة .

وروي أنهم لَطَخُوا قَمِيصَهُ بِدَمٍ جَدِيٍّ ، وقالوا ليعقوب : هذا دمه في قميصه ، فقال لهم : ما بال الذئب أكله ولم يَخْرِقْ قَمِيصَهُ ؟ ، فاستدلَّ بذلك على كذبهم .

﴿سَوَّلَتْ﴾ زَيَّنَتْ .

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وعد من نفسه بالصبر ، وارتفاعه على أنه :

مبتدأ ، تقديره : صبر جميل أمثل .

أو خبر مبتدأ ، تقديره : شأني صبر جميل .

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ رُوي أن هؤلاء^(١) السيارة من مَدِينٍ ، وقيل : هم أعراب .

﴿وَأَرَادَهُمْ﴾ الوارد : هو الذي يستقي الماء لجماعة ، ونقل السهيلي أن اسم هذا الوارد : مالك بن دُعْرٍ من العرب العاربة ، ولم يكن له ولد ، فسأل يوسف أن يدعو له بالولد فدعا له ، فرزقه الله اثني عشر ولداً ، أعقب كلُّ واحد منهم قبيلة^(٢) .

(١) في أ ، ب ، هـ : «هذه» .

(٢) انظر : التعريف والإعلام ، للسهيلي (١٤٤) .

﴿قَالَ يَبْشُرَايَ﴾ أي: نادى البُشرى، كقولك: يا حسرة، وأضافها إلى نفسه.

وقرئ: ﴿يَبْشُرَى﴾ بحذف ياء المتكلم، والمعنى كذلك.
 وقيل على هذه القراءة: نادى رجلاً منهم اسمه بشرى، وهذا بعيد.
 ولما أدلى الواردُ الحبلَ في الجب تعلّق به يوسف فحينئذ قال: ﴿يَبْشُرَايَ هَذَا غُلْمٌ﴾.

﴿وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ﴾ الضمير الفاعل للسيارة، والضمير المفعول ليوسف،
 أي: أخفوه من الرّققة، وقالوا لهم: دفعه لنا قوم لنبيعه لهم بمصر.
 ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي: باعوه، والضمير أيضاً للذين أخذوه.
 وقيل: الضمير لإخوة يوسف، وأنهم رجعوا إليه فقالوا للسيارة: هذا عبدنا.

﴿يَتَمَنَّى بَخْسٍ﴾ أي: ناقدٍ عن قيمته.
 وقيل: البخس هنا: الظلم.
 ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ عبارة عن قلّتها.
 ﴿وَكَاثُوا﴾ الضمير للذين أخذوه، أو لإخوته.

[وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ الْأَتْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَاهُ بُرْهَنَ رَبِّهِ ؕ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَاهُ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَذِبِكُمْ إِنَّ كَيْدَكُمُ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾].

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ﴾ يعني: العزيز، وكان حاجب الملك وخازنه، وقال السهيلي: اسمه قُطْفِير^(١).

﴿مِنْ مِصْرَ﴾ هو البلد المعروف، ولذلك لم ينصرف.

وكان يوسف قد سيق إلى مصر، فنودي عليه في السوق حتى بلغ ثمنه وزنه ذهباً، وقيل: فضة، فاشتراه العزيز.

﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قد تقدّم.

(١) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي (١٤٤).

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ في عودة الضمير وجهان :

أحدهما : أن يعود على الله ؛ فالمعنى : أنه يفعل ما يشاء لا رادَّ لأمره .

والثاني : أنه يعود على يوسف ؛ أي : يدبر الله أمره بالحفظ له والكرامة .

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ قيل : الأشدُّ البلوغ ، وقيل : ثمان عشرة سنة ، وقيل : ثلاث وثلاثون ، وقيل : أربعون .

﴿حُكْمًا﴾ هو الحكمة أو^(١) النبوة .

﴿وَزَوَّجْنَاهُ آلَتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي : طلبت منه ما يكون من الرجل إلى المرأة^(٢) ، وهي زليخا امرأة العزيز .

﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ روي أنها كانت سبعة أبواب .

﴿هَيْتَ لَكَ﴾ اسم فعل معناه : تعال وأقبل .

وقرئ بفتح الهاء وكسرهما ، وفتح التاء وكسرهما وضمهما ، والمعنى في ذلك كله واحد ، وحركات التاء للبناء .

وأما من قرأه بالهمز ؛ فهو فعل من تهيأتُ ، كقولك : جئت .

﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ منصوب على المصدرية ، والمعنى : أعوذ بالله .

﴿إِنَّهُ رَفِيعٌ﴾ يحتمل أن يكون الضمير :

لله تعالى .

(١) في ج : «و» .

(٢) في أ ، ب ، هـ : «للمرأة» .

أو للذي اشتراه ؛ لأن السيد يقال له ربُّ ، فالمعنى لا ينبغي لي أن أخونه .
﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الضمير للأمر والشأن ، ويحتمل ذلك في الأوّل .
﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ . وَهَمَّ بِهَا﴾ أكثر الناس الكلام في هذه الآية حتى ألفوا فيها
التوالييف ، فمنهم مُفَرِّط ومُفَرِّط .

وذلك أن منهم من جعل همَّ المرأة وهمَّ يوسف من حيث الفعل الذي
أرادته ، وذكروا في ذلك رواياتٍ من جلوسه بين رجلها ، وحلّه للتكة وغير
ذلك ، مما لا ينبغي أن يقال به ؛ لضعف نقله ، ولنزاهة الأنبياء عن مثله .

ومنهم من جعل أنها همَّت به لتضربه على امتناعه ، وهمَّ بها ليقتلها ،
أو يضربها ليدفعها ، وهو بعيدٌ ، يردّه قوله : ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ .

ومنهم من جعل همَّها به من حيث مرادها ، وهمه بها ليدفعها ، وهذا أيضًا
بعيد ؛ لاختلاف سياق الكلام .

والصواب إن شاء الله : أنها همّت به من حيث مرادها ، وهمَّ بها كذلك ،
لكنه لم يعزم على ذلك ، ولم يبلغ إلى ما ذُكر من حلّ التكة وغيرها ، بل كان
همُّه خطرًا خطرت على قلبه لم يُطعها ، ولم يتابعها ، ولكنه بادر إلى التوبة
والإقلاع عن تلك الخطرة حتى محاها من قلبه لما رأى برهان ربه ، ولا يَقْدَحُ
هذا في عصمة الأنبياء ؛ لأن الهمَّ بالذنب ليس بذنب ، ولا نقص عليه في
ذلك ؛ فإنه من همَّ بذنب ثم تركه كتبت له حسنة .

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ جوابه محذوف ، تقديره : لولا أن رأى برهان ربه
لخالطها ، وإنما حذف ؛ لأن قوله ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ يدلُّ عليه .

وقد قيل: إن ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هو الجواب، وهذا ضعيف؛ لأن جواب «لولا» لا يتقدم عليها.

واختلف في البرهان الذي رآه:

فقيل: ناداه جبريل: يا يوسف تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء!.

وقيل: رأى يعقوب بينها.

وقيل: تفكر فاستبصر.

وقيل: رأى زليخا غطت وجه صنم لها حياءً منه، فقال: أنا أولى أن أستحيي من الله.

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ﴾ الكاف:

في موضع نصب، متعلقة بفعل مضمر، التقدير: ثبتناه مثل ذلك التثبيت.

أو في موضع رفع، تقديره: الأمر مثل ذلك.

﴿السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ خيانة سيده، والوقوع في الزنا.

﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ قرئ بفتح اللام حيث وقع؛ أي: الذين أخلصهم الله لطاعته.

وبالكسر؛ أي: أخلصوا دينهم لله.

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ معناه: سابق كل واحد منهما صاحبه إلى الباب،

فقصد هو الخروج والهروب عنها، وقصدت هي أن تردّه.

فإن قيل : كيف قال هنا : ﴿أَبَاكَ﴾ بالإنفراد ، وقد قال بالجمع :
﴿وَعَلَّقْتَ الْأَبْوَابَ﴾ ؟

فالجواب : أن المراد هنا الباب البراني الذي هو المخرج من الدار .
﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي : قطعته من وراء ، وذلك أنها قبضت في
قميصه من خلفه لترده ، فتخرق القميص ، والقُدُّ : القطع بالطول ، والَقَطُّ :
بالعرض .

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ أي : وجدا زوجها عند الباب .
﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ﴾ لما رأت الفضيحة
عكست القضية ، وادّعت أن يوسف راودها عن نفسها ، فذكرت جزاء كل من
فعل ذلك على العموم ، ولم تصرّح بذكر يوسف ؛ لدخوله في العموم ، وبناء
على أن الذنب ثابت عليه بدعواها .

﴿وَمَا جَزَاءُ﴾ يحتمل أن تكون «ما» : نافية ، أو استفهامية .
﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ برأ نفسه من دعواها .
﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ قيل : هو ابن عمها ، وقيل : كان طفلاً في المهد فتكلم .
وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف .
وكونه لم يتكلم قط ، ثم تكلم بذلك كرامةً ليوسف ﷺ .
والتقدير : شهد شاهد فقال ، أو ضمنت الشهادة معنى القول .

﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾ لأنها كانت تدافعه فتقذ قميصه
من قبل .

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ﴾ لأنها جَبَدَتْه إلى نفسها حين فَرَّ منها، فَقَدَّتْ^(١) قميصه من دبر.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ فاعل ﴿رَأَى﴾: زوجها، أو الشاهد.

﴿إِنَّهُمْ مِنْ كَيِّدِكُنَّ﴾ الضمير للأمر، أو لقولها: ﴿مَا جَزَاءُ﴾.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي: اكتمه ولا تحدّث به، و﴿يُوسُفُ﴾ منادى حذف منه حرف النداء؛ لأنه قريب، وفي حذف الحرف إشارة إلى تقريبه وملاطفته.

﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ خطابٌ لها، وذلك من كلام زوجها، أو من كلام الشاهد.

﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ جاء بلفظ التذكير، ولم يقل «من الخاطئات»؛ تغليبا للذكور.



(١) في أ، ب، هـ: «فقد».

[﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَمِائَةً كَلَّ وَحِدَةً مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾] .

﴿نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: في مصر، روى أنهن خمس نسوة: امرأة الساقى، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب.

﴿فَتَاهَا﴾ أي: خادمها، والفتى يقال بمعنى الشاب، وبمعنى الخادم.

﴿شَغَفَهَا﴾ بلغ شغاف قلبها وهو غلافه.

وقيل: السويداء منه.

وقيل: الشغاف: داء يصل إلى القلب.

﴿سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: بقولهن، وسماء مكرًا؛ لأنه كان في خفية.

وقيل: كانت قد استكتمتهن سرًا فأفشيته عليها.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا﴾ أي: أعتدت لهن ما يتركأ عليه من الفرش ونحوها.

وقيل: المتكأ: طعام.

وقرئ في الشاذ: «مُتَّكَا» بسكون التاء وتنوين الكاف، وهو الأتْرُجُ.
وإعطاؤها السكاكين لهنَّ يدلُّ على أن الطعام كان مما يقطع بالسكاكين
كالأترج، وقيل: كان لحمًا.

﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾ أمرُ ليوسف، وإنما أطاعها؛ لأنه كان مملوك زوجها.
﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: عَظَّمَن شأْنَه وجماله.

وقيل: معنى أكبرن: حِضْن، والهاء للسكت، وهذا بعيد جدًا.
﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي اشتغلن بالنظر إليه، وبُهِتْنَ من جماله حتى قَطَّعْنَ
أيديهن وهنَّ لا يشعرن كما يقطع الطعام.
﴿حَسَرَ لِلَّهِ﴾ معناه براءة وتنزيه؛ أي: تنزيهٌ لله وتعجب من قدرته على خلقه
مثله.

و«حاش» في باب الاستثناء تخفُّض على أنها حرف، وأجاز المبرد
النصب بها على أن تكون فعلاً.

وأما هنا: فقال أبو علي الفارسي: إنها فعل، والدليل على ذلك من
وجهين:

أحدهما: أنها دخلت على لام الخبر وهو اللام في قوله ﴿لِلَّهِ﴾،
ولا يدخل الحرف على حرف.

والآخر: أنها حذف منها الألف على قراءة الجماعة، والحروف
لا يحذف منها شيء، وقرأها أبو عمرو بالألف على الأصل، وإنما تحذف
من الأفعال كقولك: لم يك، ولا أدِر.

والفاعل ب ﴿حَشَّ﴾ ضمير يعود على يوسف، تقديره: بُعد يوسف عن الفاحشة لخوف الله.

وقال الزمخشري: إن ﴿حَشَّ﴾ وُضِعَ موضع المصدر، كأنه قال: «تنزيهاً»، ثم قال: «لله»؛ لبيان من ينزهه، قال: وإنما حذف منه التنوين مراعاةً لأصله من الحرفية^(١).

﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ أخرجته من البشر، وجعلته من الملائكة؛ مبالغة في وصفه بالحسن.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ توبيخُ لهن على اللوم^(٢).

﴿فَاسْتَعَصِمَ﴾ أي: طلب العصمة، وامتنع مما أرادت منه.

﴿أَصْبُ إِلَيْنَ﴾ أي: أمل^(٣)، وكلامه هذا تضرعٌ إلى الله.

﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمُ﴾ أي: ظهر، والفاعل محذوف، تقديره: رأيي، والضمير في ﴿لَهُمُ﴾:

لزوجها وأهلها.

أو^(٤) من تشاور معه في ذلك.

﴿رَأَوْا آيَاتِنَا﴾ أي: الأدلة على براءته.

(١) انظر: الكشاف (٨/٣١٧).

(٢) سقط من أ، ب، ج، هـ.

(٣) في أ، ب، ج، هـ: «أمل».

(٤) في أ، ب، د، هـ: «و».

[وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آعِصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي
 أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأَيْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ
 ٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي
 رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ
 آبَائِي ابْرَهِيمَ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ
 اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨) يَصْحَجِي السِّجْنَ أَزْبَابٌ
 مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا
 أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ
 ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٤٠) يَصْحَجِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا
 فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي
 فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ
 الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ٤٢)] .

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ أي: شابان، وقبل هذا محذوف لا بد منه، وهو: فسجنوه.

وكان يوسف قد قال لأهل السجن: إني أعبرُ الرؤيا، فلذلك سأله الفتیان عن منامهما.

وقيل: إنهما استعملاهما ليُجرباه.

وقيل: رأيا ذلك حقًا.

﴿أَعِصِرُ خَمْرًا﴾ قيل فيه: سَمَى العنبَ خمرًا بما يؤول إليه.

وقيل: هي لغة.

﴿إِنَّا نَزَّلْنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قيل : معناه : في تأويل الرؤيا .

وقيل : إحسانه إلى أهل السجن .

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ﴾ الآية ؛ تقتضي أنه وصف لهما نفسه بكثرة العلم ؛ ليجعل ذلك وُضْعَةً إلى دعائهما لتوحيد الله .

وفيه وجهان :

أحدهما : أنه قال : إنه يخبرهما بكل ما يأتيهما في الدنيا من طعام قبل أن يأتيهما ، وذلك من الإخبار بالغيوب الذي هو معجزة للأنبياء .

والآخر : أنه قال : لا يأتيكما طعام في المنام إلا أخبركما بتأويله قبل أن يظهر تأويله في الدنيا .

﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ رُوي أنهما قالاه : من أين لك هذا العلم وأنت لست بكاهن ولا منجم ؟ فقال : ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ .

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون هذا الكلام :

تعليلاً لما قبله من قوله : ﴿عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ .

أو يكون استئنافاً .

﴿يَصْصَجِي السَّجْنَ﴾ نسبهما إلى السجن :

إمّا لأنهما سكناه .

أو لأنهما صجّباه فيه ، فكأنه قال : يا صاحبي في السجن .

﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ﴾ الآية ؛ دعاهما إلى توحيد الله ، وأقام عليهما

الحجة ؛ رغبةً في إيمانهما .

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ ﴾ أوقع الأسماء هنا موقع المسميات ،
والمعنى : سميت آلهة ما لا يستحق الإلهية ، ثم عبدتموها^(١) .

﴿ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي : حجة وبرهان .

﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ يعني : الملك .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ﴾ الظن هنا يحتمل :

أن يكون بمعنى اليقين ؛ لأن قوله : ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ يقتضي ذلك .

أو يكون على بابه ؛ لأنه عبارة الرؤيا ظن .

﴿ أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أي : عند الملك .

﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ قيل : الضمير ليوسف ؛ أي : نسي في

ذلك الوقت أن يذكر الله ، ورجا غيره ، فعاقبه الله على ذلك بأن لبث في
السجن .

وقيل : الضمير للذي نجا منهما ، وهو السَّاقِي ؛ أي : نسي ذكْرَ يوسف عند
ربه ، فأضاف الذِّكر إلى ربه ؛ إذ هو عنده ، والرُّبُّ على هذا التأويل : الملك .

﴿ بِضْعِ سِنِينَ ﴾ البِضْعُ : من الثلاثة إلى العشرة ، وقيل : إلى التسعة .

وروي أن يوسف عليه السلام سُجِّنَ خمسَ سنين أولاً ، ثم سجن بعد قوله ذلك
سبعَ سنين .

(١) في ب : « تسميتهم آلهة ما لا يستحق الإلهية ، ثم عبدوها » .

[وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَتْ أَحَلْمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾].

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ هو ملك مصر الذي كان العزيز خادماً له ، واسمه رِيَّان بن الوليد ، وقيل : مصعب بن الرِّيان ، وكان من الفراعنة .

وقيل : إنه فرعون موسى ، عُمِّر أربع مئة سنة حتى أدركه موسى ، وهذا بعيد .

﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ﴾ يعني : في المنام .

﴿عِجَافٌ﴾ أي : ضِعَافٌ في غاية الهُزَال .

﴿يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ﴾ خطابٌ لجلسائه وأهل دولته .

﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي : تعرفون تأويلها ، يقال : عَبَرْتُ الرُّؤْيَا بتخفيف الباء ، وأنكر بعضهم التشديد ، وهو مسموعٌ من العرب .

وأدخلت اللام على المفعول به لَمَّا تقدَّم عن الفعل .

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحَلْمٌ﴾ أي : تَخَالِيظُهَا وأباطيلها ، وما يكون منها من

حديث نفسي ووسوسة شيطانٍ بحيث لا يُعبّرُ.

وأصل الأضغاث: ما جُمع من أخلاط النبات، واحده: ضِغْثٌ.
 فإن قيل: لم قال ﴿أَضْغَثُ أَحْلَمٍ﴾ بالجمع، وإنما كانت الرؤيا واحدة؟.
 فالجواب: أن هذا كقولك: فلان يركب الخيل، وإن ركب فرسًا واحدًا.
 ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ إمّا أن يريدوا:
 تأويل الأحلام الباطلة.

أو تأويل الأحلام على الإطلاق، وهو الأظهر.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ هو ساقى الملك.

﴿وَأَذْكُرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد حين.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ يُقدَّر قبله محذوفٌ لا بد منه، وهو: فأرسلوه فقال:
 يا يوسف.

وسمّاه صديقًا؛ لأنه كان قد جرَّب صدقه في تعبیر الرؤيا وغيرها،
 والصديق مبالغة في الصدق.

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾ أي: فيمن رأى سبع بقرات، وكان الملك قد رأى
 سبع بقرات سمان أكلتهن سبع عجاف، فعجب كيف غلبتهن؟ وكيف وسعت
 في بطونهن؟، ورأى سبع سنبلات خضر، وقد التفت بها سبعٌ يابسات، حتى
 غطت خضرتها.

﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ هذا تعبیر للرؤيا، وذلك أنه عبر البقرات السّمان

بسبع سنين مخصبة، وعبر البقرات العجاف بسبع سنين مجدبة، وكذلك السنبلات الخضر واليابسة.

﴿دَابَّاءُ﴾ بسكون الهمزة وفتحها، مصدر دأب على العمل: إذا داوم عليه، وهو مصدر في موضع الحال.

﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ هذا رأيُ أرشدهم يوسف إليه، وذلك أن أرض مصر لا يبقى فيها الطعام عامين، فعلمهم حيلةً يبقى بها من السنين المخصبة إلى السنين المجدبة، وهي أن يتركوه في سنبله غير مدروس^(١)، فإن الحبة إذا بقيت في غشائها انحفظت.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: لا تدرسوا منه إلا ما يحتاج للأكل خاصة.

﴿سَبْعَ شِدَادٍ﴾ يعني: سبع سنين ذات شدة وجوع.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: تأكلون فيهنَّ ما اخترنتم من الطعام في سنبله، وأسند الأكل إلى السنين مجازًا.

﴿مِمَّا تُخِصُّونَ﴾ أي: تُحَرِّزونَ^(٢) وتُخَبِّونَ.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ﴾ هذا زيادة على ما تقتضيه الرؤيا، وهو الإخبار بالعام الثامن.

﴿يُعَاثُ النَّاسُ﴾ يحتمل أن يكون:

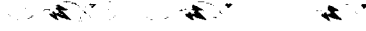
من الغيث؛ أي: يُمَطَّرون.

(١) درس الحنطة درآسا: إذا داسها. لسان العرب (٧/٣٨٢).

(٢) في د: «تخرنون».

أو من الغوث؛ أي: يفرّج الله عنهم.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي: يعصرون الزيتون والعنب والسّمسم وغير ذلك مما يعصر.



[وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٦﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٩﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦١﴾ وَلَأَجْزُرُ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿٦٢﴾].

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ؟﴾ قَبْلَ هَذَا مَحذُوفٌ، وَهُوَ: فَرَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَلِكِ فَقَصَّ عَلَيْهِ مَقَالَهَ يَوْسُفَ، فَرَأَى عِلْمَهُ وَعَقْلَهُ، فَقَالَ: ﴿أَتُؤْنِي بِهِ؟﴾.

﴿قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ﴾ لَمَّا أَمَرَ الْمَلِكُ بِإِخْرَاجِ يَوْسُفَ مِنَ السِّجْنِ وَإِتْيَانِهِ إِلَيْهِ، أَرَادَ يَوْسُفُ أَنْ يَبْرِّئَ نَفْسَهُ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ مَرَاوِدَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ عَنْ نَفْسِهَا، وَأَنْ يُعْلِمَ الْمَلِكَ وَغَيْرَهُ أَنَّهُ سُجِنَ ظُلْمًا، فَذَكَرَ طَرَفًا مِنْ قِصَّتِهِ لِيَنْظُرَ الْمَلِكُ فِيهَا فَيَتَبَيَّنَ لَهُ الْأَمْرُ، وَكَانَ هَذَا الْفِعْلُ مِنْ يَوْسُفَ صَبْرًا وَحِلْمًا، إِذَا لَمْ يُجِبْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ السِّجْنِ سَاعَةً دُعِيَ إِلَى ذَلِكَ بَعْدَ طَوِيلِ الْمَدَّةِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ؛ رَغْبًا لِذِمَامِ زَوْجِهَا وَسِتْرًا لَهَا، بَلْ ذَكَرَ النِّسْوَةَ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ الْآيَةُ؛ جَمَعَ الْمَلِكُ النِّسْوَةَ وَامْرَأَةَ الْعَزِيزِ مَعَهُنَّ، فَسَأَلَهُنَّ عَنْ قِصَّةِ يَوْسُفَ، وَأَسْنَدَ الْمَرَاوِدَةَ إِلَى جَمِيعَهُنَّ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَنْدهُ عِلْمٌ بِأَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ هِيَ الَّتِي رَاوَدَتْهُ وَحْدَهَا.

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ تبرئة ليوسف .

أو تبرئة لأنفسهن من مراودته ، وتكون تبرئة يوسف بقولهن : ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ .

﴿الَّذِينَ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ أي : تبين وظهر ، ثم اعترفت على نفسها بالحق .

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قيل : إنه من كلام امرأة العزيز متصلاً بما قبله ، والضمير في ﴿لِيَعْلَمَ﴾ و﴿أَخُنْهُ﴾ على هذا ليوسف ﷺ ؛ أي : ليعلم يوسف أنني لم أكذب عليه في حال غيبته ، والإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى توبتها وإقرارها .

وقيل : إنه من كلام يوسف ﷺ ، فالضمير للعزيز ؛ أي : لم أخنه في زوجته في غيبته ، بل تعففت عنها ، والإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى توقفه عن الخروج من السجن حتى تظهر براءته .

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ اختلف أيضاً هل هو من كلام امرأة العزيز ، أو من كلام يوسف ؟ .

فإن كان من كلامها : فهو اعترافٌ بعد الاعتراف .

وإن كان من كلامه :

فهو اعترافٌ بما همَّ به على وجه خطوره على قلبه ، لا على وجه العزم والقصد .

أو قاله في عموم الأحوال على وجه التواضع .

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ النفس هنا للجنس ، والنفوس ثلاثة أنواع :

أماراة بالسوء، ولوامة؛ وهي التي تلوم صاحبها، ومطمئنة.

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ استثناء من ﴿النَّفْس﴾؛ إذ هي بمعنى النفوس، أي: إلا النفس المرحومة وهي المطمئنة، ف«ما» على هذا بمعنى الذي.

ويحتمل أن تكون ظرفية؛ أي: إلا حين رحمة الله.

﴿أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أجعله خاصتي وخلاصتي، قال أولاً: ﴿أَتُونِي بِهِ﴾، فلما تبين له حاله قال: ﴿أَتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: لما رأى حسن كلامه وعرف وفور عقله وعلمه قال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، والمكين: من التمكن، والأمين: من الأمانة.

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ لما فهم يوسف من الملك أنه يريد تصريحه والاستعانة به قال له ذلك، وإنما طلب منه الولاية رغبة منه في العدل وإقامة الحق والإحسان، وكان هذا الملك كافراً.

ويُستدلُّ بذلك على أنه يجوز للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر إذا علم أنه يصلح بعض الأحوال.

وقيل: إن الملك أسلم.

وأراد بقوله: ﴿خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾: أرض مصر؛ إذ لم يكن للملك غيرها، والخزائن: كل ما يختزن من طعام ومال وغير ذلك.

﴿إِنِّي حَافِظٌ عَلَيْهِ﴾ صفتان تعم^(١) وجوه المعرفة والضبط للخزائن.

(١) في هامش أ: «تعمان».

وقيل : حفيظٌ للحساب ، عليمٌ بالألسن ، واللفظ أعم من ذلك .
ويُستدلُّ بذلك أنه يجوز للرجل أن يعرفَ بنفسه ويمدحَ نفسه بالحق إذا
جهل أمره ، وإذا ^(١) كان في ذلك فائدة .

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ الإشارة بـ «ذلك» إلى ما تقدّم من
جميل صنع الله به .

ورُوي أن الملك ولّاه في موضع العزيز ، وأسند إليه جميع الأمور حتى
تغلّب على أمره ، وأن امرأة العزيز شاخت وافتقرت ، فتزوجها يوسف ودعا
الله ، فردّ عليها جمالها وشبابها ، وأنه باع من أهل مصر في أعوام القحط
الطعام بالدنانير والدراهم في السنة الأولى حتى لم يبق لهم شيء منها ، ثم
بالحلي ، ثم بالدواب ، ثم بالضّياع والعقار ، ثم برقابهم حتى تملّكهم
جميعاً ، ثم أعتقهم وردّ عليهم أملاكهم .

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ الرحمة هنا : يراد بها الدنيا ، وكذلك الأجر في
قوله : ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ؛ بدليل قوله بعد ذلك : ﴿وَلَا نُجْزِ الْأَخْرَةَ
خَيْرٌ﴾ ، فأخبر تعالى أن رحمته في الدنيا يصيب بها من يشاء من مؤمن وكافر
ومطيع وعاص ، وأن المحسن لا بدّ له من أجره في الدنيا ، فالأول : في
المشيئة ، والثاني : واقع لا محالة ، ثم أخبر أن أجر الآخرة خيرٌ من ذلك كلّهُ
للذين آمنوا وكانوا يتقون .

وفي الآية إشارة إلى أن يوسف عليه السلام جمع الله له بين خيري الدنيا والآخرة .

(١) في أ ، هـ : «أو إذا» .

[وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَحْتَلِ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَذَا مِنْكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بَضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحِمْتُكُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَلَهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾].

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ كان سبب مجيئهم أنهم أصابتهم مجاعة في بلادهم فخرجوا إلى مصر ليشتروا بها من الطعام الذي أذخره يوسف .

﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ إنما أنكروه لبعد العهد به وتغير سنه ، أو لأنه كان مثلثاً .

وروي أنهم دخلوا عليه وهو على ^(١) هيئة عظيمة من الملك ، وأنه سألهم

(١) في د: «في».

عن أحوالهم، وأخبروه أنهم تركوا أخا لهم (عند أبيهم)^(١)، فحينئذ قال لهم: ﴿أَتُنُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، وهو بنيامين شقيق يوسف.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ الجَهاز: ما يحتاج إليه المسافر من زاد وغيره، والمراد به هنا: الطعام الذي باع منهم.

﴿خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ أي: المضيفين.

﴿وَإِنَّا لَفَعْلُونَ﴾ أي: نفعل ذلك لا محالة.

﴿وَقَالَ لِفَتْنِهِ﴾ جمع فتى، وهو الخادم سواء كان حراً أو عبداً.

﴿أَجْعَلُوا بَضْعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ أمر أن يجعلوا البضاعة التي اشتروا منه بها الطعام في أوعيتهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ أي: لعلهم يعرفون اليد والكرامة في ردّ البضاعة إليهم، وليس الضمير للبضاعة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لعل معرفتهم بها تدعوهم إلى الرجوع، وقصد بردّ البضاعة إليهم مع الطعام استتلافهم بالإحسان إليهم.

﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي﴾، فهو خوف من المنع في المستقبل.

﴿نَكَلَّ﴾ وزنه نَفَعَلَ من الكيل.

﴿مَا نَبَغِي﴾ ﴿مَا﴾ استفهامية، و﴿نَبَغِي﴾ بمعنى: نطلب، والمعنى: أي شيء نطلبه بعد هذه الكرامة، وهي ردّ البضاعة مع الطعام؟.

(١) لم ترد في أ، ج، هـ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ ﴿مَا﴾ نافية، و﴿بَغْيٍ﴾ من البغي؛ أي: لا نتعدى على أخينا ولا نكذب على الملك.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نسوق لهم الطعام.

﴿وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ﴾ يريدون بَعِيرَ أَخِيهِمْ؛ إذ كان يوسف لا يعطي إلا كيل بَعِيرٍ من الطعام لإنسان، فأعطاهم عشرة أبعرة، ومنعهم الحادي عشر؛ لغيبة صاحبه حتى يأتي، والبَعِير: الجمل.

﴿ذَلِكَ كَيْلٌ لِّسِيرٍ﴾ إن كانت الإشارة إلى الأحمال فالمعنى: أنها قليلة لا تكفيهم حتى يضاف إليها كيل بَعِيرٍ.

وإن كانت الإشارة إلى ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ فالمعنى: أنه يسيرٌ على يوسف؛ أي: قليل عنده أو سهلٌ عليه، فلا يمنعهم منه.

﴿حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أراد أن يحلفوا له، و﴿لَتَأْتُنِي﴾ جواب اليمين.

﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إِلَّا أَنْ تُغْلَبُوا، فلا تطيقون الإتيان به.

﴿وَقَالَ يَبْنَئِ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ خاف عليهم من العين إن دخلوا مجتمعين؛ إذ كانوا أهل جمالٍ وهيئة.

﴿مَا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ جواب ﴿وَلَمَّا﴾، والمعنى: أن ذلك لا يدفع ما قضى الله.

﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناء منقطع، والحاجة هنا: هي شفقتهم عليهم ووصيته لهم.

[وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُ عِثْرٍ إِنَّكُم لَسَّرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا تَفْقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وُجْدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَبْنَئُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا

لَطَلِمُونَ ﴿٧٩﴾].

﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: ضمه.

﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ أخبره بأنه أخوه، واستكتمه ذلك.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن؛ وهو من البؤس.

﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الضمير لإخوة يوسف، ويعني: ما فعلوا بيوسف وأخيه.

ويحتمل أن يكون لفتيانه؛ أي: لا تبالي بما تراه من تحلي في أخذك.

﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ السَّقَايَةُ هي الصُّوع، وهو إناء يشرب به

الملك، ويكال به الطعام، وكان من فضة، وقيل: من ذهب.

وقصد بجعله في رحل أخيه أن يحتال على إمساكه معه؛ إذ كان شرع يعقوب أن من سرق استعبده المسروق له.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: نادى منادٍ.

﴿أَتَتْهَا أَلْعِيرُ﴾ أي: أيتها الرفقة.

﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ خطاب لأخوة يوسف، وإنما استحل أن يرميهم بالسرقة لما في ذلك من المصلحة من إمساك أخيه.

وقيل: إن حافظ السقاية نادى: إنكم لسارقون، بغير أمر يوسف، وهذا بعيد؛ لتفتيش الأوعية.

﴿وَلَمَن جَاءَ بِهِ جُمِلَ بَعِيرٌ﴾ أي: لمن وجده ورده حمل بغير من طعام على وجه الجمل.

﴿وَأَنَّا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي: ضامن لحمل البعير لمن رد الصواع، وهذا من كلام المنادي.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ استشهدوا بعلمهم؛ لما ظهر لهم من ديانتهم في دخولهم أرضهم، حتى كانوا يجعلون الأكمة في أفواه إبلهم؛ لئلا تنال زروع الناس.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي: قال فتيان يوسف: ما جزاء آخذ الصواع إن كنتم كاذبين في قولكم: ﴿وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ﴾، فالضمير في قوله: ﴿جَزَاؤُهُ﴾ يعود على الآخذ المفهوم من الكلام.

﴿قَالُوا جَزَاءُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُ﴾ المعنى : أن إخوة يوسف أفتوا فيما سئلوا عنه فقالوا : جزاء السارق أن يُستعبد ، ويُؤخذ في السرقة .

وأما الإعراب فيحتمل وجهين :

الأول : أن يكون ﴿جَزَاءُ﴾ الأول مبتدأ ، و﴿مَنْ﴾ مبتدأ وهي شرطية أو موصولة ، وخبرها ﴿فَهُوَ جَزَاءُ﴾ ، والجملة خبر ﴿جَزَاءُ﴾ الأول .

والوجه الثاني : أن يكون ﴿مَنْ﴾ خبر المبتدأ الأول على حذف مضاف ، وتقديره : جزاؤه أخذ مَنْ وَجِدَ في رحله ، وتمَّ الكلام ، ثم قال : ﴿فَهُوَ جَزَاءُ﴾ ؛ أي : هذا الحكم جزاؤه .

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ من كلام إخوة يوسف ؛ أي : هذا حُكْمنا في السارق .

وقد كان هذا الحكم في أول الإسلام ، ثم نسخ بقطع الأيدي .

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ هذا تمكين للحيلة ، ورفع للتهمة .

﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ ليصحَّ له بذلك إمساكه معه ، وإنما أنث الصواع في هذا الموضع ؛ لأنه سقاية ، أو لأن الصواع يذكر ويؤنث .

﴿كَذَلِكَ كَذَبْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي : صنعنا له هذا الصُّنْع .

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي : في شرِّعه أو عادته ؛ لأنه إنما كان جزاء السارق عنده أن يُضْرَبَ وَيُضَعَّفَ عليه الغرمُ ، ولكن حُكْم في هذه القضية بحكم آل يعقوب .

﴿نَزَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ يعني : الرِّفْعَة بالعلم ؛ بدليل ما بعده .

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي: فوق كل عالم من هو أعلم منه من البشر، أو الله ﷻ.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ الضمير في ﴿قَالُوا﴾ لإخوة يوسف، وأشاروا إلى يوسف، ومعنى كلامهم: إن يسرق بنيامين فقد سرق أخوه يوسف من قبل؛ فهذا الأمر إنما صدر من ابني راحيل^(١)، لا منّا، وقصدوا بذلك رفع المعرّة عن أنفسهم، ورموا بها يوسف وشقيقه.

واختلف في السرقة التي رموا بها يوسف على ثلاثة أقوال:

الأول: أن عمّته ربّته، فأراد والده أن يأخذه منها، وكانت تحبه ولا تصبر عنه، فجعلت عليه منطقة لها، ثم قالت: إنه أخذها، فاستعبده بذلك، وبقي عندها إلى أن ماتت.

والثاني: أنه أخذ صنماً لجده والد أمه فكسره.

والثالث: أنه كان يأخذ الطعام من دار أبيه ويعطيه المساكين.

﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ قال الزمخشري: الضمير للجملة التي بعد ذلك؛ وهي قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾، والمعنى: قال في نفسه: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾^(٢).

وقال ابن عطية: الضمير للحزاة التي وجد في نفسه من قولهم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، أسرّ كراهية مقاتلهم، ثم جاهرهم بقوله: ﴿أَنْتُمْ

(١) راحيل: اسم أم يوسف وبنيامين.

(٢) انظر: الكشاف (٨/٤٠١-٤٠٣).

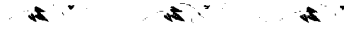
شَرُّ مَكَانًا ﴿١﴾ ؛ أي : لسوء أفعالكم ^(١).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ إشارة إلى كذبهم فيما وصفوه به من السرقة .

﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ استعطاف ، وكانوا قد أعلموه بشدة محبة أبيه فيه .

﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ على وجه : الضمان ، أو ^(٢) الاسترهان ، أو الاستعباد ، وهذا هو الأظهر ؛ لقوله : ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ .

﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي : أحسنت إلينا فيما فعلت معنا قبل ، أو على الإطلاق .



(١) انظر : المحرر الوجيز (١٢٦/٥) .

(٢) في ب : «و» .

[﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٥﴾ ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨٦﴾ وَسَلِ الْقَرْبَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٧﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٨﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفَ وَأَبِصْتُ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٩﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٩٠﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾ يَبْنَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٩٢﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَنَصَدِّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٩٣﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَبَصِيرٍ فَإِنَّكَ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَاكَ اللَّهُ عَلِيمًا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩٦﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٧﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾].

﴿اسْتَيْسَسُوا﴾ أي: يسسوا.

﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أي: انفردوا عن غيرهم يناجي بعضهم بعضًا.

والنجي يكون: بمعنى المناجي، ومصدرًا.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ قيل : كبيرهم في السن ؛ وهو روبيل .

وقيل : كبيرهم في الرأي ؛ وهو شمعون .

وقيل : يهوذا .

﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ تَحْتَمِلُ ﴿مَا﴾ وجوهاً :

الأول : أن تكون زائدة .

والثاني : أن تكون مصدرية ، ومحلها الرفع بالابتداء ، تقديره وقع من قبل^(١) تفريطكم في يوسف .

والثالث : أن تكون موصولة ، ومحلها أيضاً الرفع كذلك .

والأول أظهر .

﴿فَلَنْ أُنَبِّئَكَ الْآرْضَ﴾ يريد : الموضع الذي وقعت فيه القصة .

﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَبِيكُمْ﴾ من قول كبيرهم .

وقيل : من قول يوسف ، وهو بعيد .

﴿إِنَّكَ أَنتَكَ سَرَقَ﴾ قرأ الجمهور بفتح السين والراء .

وروي عن الكسائي «سَرَّقَ» بضم السين وكسر وتشديد الراء ؛ أي : نُسِبَتْ له السرقة .

﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ أي : قولنا لك : ﴿إِنَّكَ أَنتَكَ سَرَقَ﴾ إنما هي شهادة بما علمنا من ظاهر ما جرى .

(١) في هامش ب زيادة «هذا» .

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي: لا نعلم الغيب هل ذلك حق في نفس الأمر، أم لا؛ إذ يمكن أن دُسَّ الصَّوَاع في رحله من غير علمه.

وقال الزمخشري: المعنى: ما شهدنا إلا بما علمنا من سرقة وتيقناه؛ لأن الصَّوَاع استُخْرِج من وعائه، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي: ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق^(١).

وقراءة ﴿سَرَقَ﴾ بالفتح تعضد قول الزمخشري، والقراءة بالضم تعضد القول الأول.

﴿وَسَلَّ الْقَرْيَةَ﴾ تقديره: وأسأل أهل القرية، وكذلك: أهل العير؛ يعنون الرُّفْقَة، هذا قول الجمهور.

وقيل: المراد سؤال القرية بنفسها والعير بنفسها، ولا يبعد أن تخبره الجمادات؛ لأنه نبي.

والأول أظهر وأشهر على أنه مجاز.

والقرية هنا: هي مصر.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ قبله محذوف تقديره: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له هذا الكلام، فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ الآية.

﴿بِهِمْ جَمِيعاً﴾ يعني: يوسف، وأخاه بنيامين، وأخاهم الكبير الذي قال: لن أبرح الأرض.

﴿وَتَوَكَّى عَنْهُمْ﴾ لما لم يصدِّقهم أعرض عنهم، ورجع إلى التأسف.

(١) انظر: الكشاف (٨/ ٤١٠).

﴿وَقَالَ يَتَأَسَّفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ تأسّف على يوسف، دون أخيه الثاني والثالث
الذاهبين؛ لأن حُزنه عليه كان أشدّ؛ لإفراط محبته، ولأن مصيبتَه كانت
السابقة.

﴿وَأَبْيَضَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ أي: من البكاء الذي هو ثمرة الحزن،
فقليل: إنه عمي، وقيل: إنه كان يدرك إدراكًا ضعيفًا.

وروي عن النبي ﷺ: أن يعقوب حزن حُزن سبعين ثكلى، وأُعطي أجر مئة
شهيد، وما ساء ظنه بالله قط^(١).

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ قيل: إنه فعيل بمعنى فاعل؛ أي: كاظم لحزنه لا يظهره
لأحد، ولا يشكو إلا إلى الله^(٢).

وقيل: بمعنى مفعول، كقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨]؛ أي:
مملوء القلب بالحزن، أو بالغىظ على أولاده.

وقيل: الكظيم: الشديد الحُزن.

﴿تَاللَّهِ تَفْتَوُا﴾ أي: لا تفتؤ، والمعنى: لا تزال، وحذف حرف النفي؛
لأنه لا يلتبس بالإثبات؛ لأنه لو كان إثباتًا لكان مؤكّدًا باللام والنون.

﴿حَرَضًا﴾ أي: مشفياً^(٣) على الهلاك.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ ردّ عليهم تفنيدهم له؛ أي: إنما

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠٧/١٣-٣٠٨).

(٢) في أ، ب: «إلا لله».

(٣) في د: «مشفأ».

أشكو إلى الله، لا إليكم ولا لغيركم.

والبُتُّ: أشدّ الحزن.

﴿وَأَعْلَمُ مِنْكَ اللَّهُ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من لطفه ورأفته ورحمته ما يوجب حسن ظني به، وقوة رجائي فيه.

﴿يَبْقَى أَذْهَبُوا﴾ يعني: إلى الأرض التي تركتم بها أخويكم.

﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: تعرّفوا خبرهما، والتحسّسُ: طلب الشيء بالحواس؛ السمع والبصر.

وإنما لم يذكر الولد الثالث؛ لأنه بقي هناك اختياراً منه، ولأن يوسف وأخاه كانا أحبّ إليه.

﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ أي: من رحمة الله.

﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ إنما جعل اليأس من صفة الكافر؛ لأن سببه تكذيب الربوبية، أو جهلُ بصفات الله من قدرته وفضله ورحمته.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على يوسف، وقَبِلَ هذا محذوف؛ تقديره: فرجعوا إلى مصر.

﴿الضَّرُّ﴾ يريدون به: المجاعة، أو الهمّ على إخوانهم.

﴿يَبْضَعُونَ مَرْجَةً﴾ يعنون الدراهم التي جاؤوا بها لشراء الطعام، والمزجاة: القليلة، وقيل: الرديئة، وقيل: الناقصة.

وقيل: إن بضاعتهم كانت غروصاً؛ فلذلك قالوا هذا.

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ قيل: يعنون بما بين الدراهم الجياد ودراهمهم .
وقيل: أوف لنا الكيل الذي هو حقنا، وزدنا على حقنا، وسموا الزيادة
صدقة، ويقتضي هذا أن الصدقة كانت حلالاً للأنبياء قبل محمد ﷺ .

وقيل: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ برّد أخينا إلينا .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ قال النقاش: هو من المعارض؛ وذلك أنهم
كانوا يعتقدون أنه كافر؛ لأنهم لم يعرفوه، فظنوا أنه على دين أهل مصر،
فلو قالوا: إن الله يجزيك بصدقتك كذبوا، فقالوا لفظاً يوهم أنهم أرادوه
وهم لم يريدوه .

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ لما شكوا إليه رَقَّ لهم وعرفهم
بنفسه .

وروي أنه كان يكلمهم وعلى وجهه لثامٌ، ثم أزال اللثام ليعرفوه .
وأراد بقوله: ﴿مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ التفريق بينهما في الصغر،
ومضرتهم ليوسف، وإذاية أخيه من بعده؛ فإنهم كانوا يُذِلُّونه وَيَشْتِمُونَهُ .
﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ اعتذارٌ عنهم؛ فيحتمل أن يريد: الجهل بقبح ما
فعلوه، أو جهل الشباب .

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ قرئ بالاستفهام، والخبر .

فالخبر على أنهم عرفوه .

والاستفهام على أنهم توهموا أنه هو ولم يحققوه .

﴿مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ قيل: أراد مَنْ يتق في ترك المعصية، ويصبر على السجن.

واللفظ أعم من ذلك.

﴿ءَاثَرَكَ اللَّهُ﴾ أي: فضلك.

﴿لَا تَرْيَبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: عاصين، وفي كلامهم استعطاف واعتراف.

﴿لَا تَرْيَبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ عفو جميل، والتثريب: التعنيف، أو العقوبة.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ﴾ راجع إلى ما قبله فيوقف عليه، وهو يتعلق بالتثريب، أو بالمقدّر في ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من معنى الاستقرار.

وقيل: إنه يتعلق بـ ﴿يَغْفِرُ﴾، وذلك بعيد؛ لأنه تحكّم على الله؛ وإنما ﴿يَغْفِرُ﴾ دعاء، فكأنه أسقط حق نفسه بقوله: ﴿لَا تَرْيَبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، ثم دعا الله^(١) أن يغفر لهم حقه.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾ روي أن هذا القميص كان لإبراهيم، كساه الله له حين أخرج من النار، وكان من ثياب الجنة، ثم صار لإسحاق، ثم ليعقوب، ثم دفعه يعقوب ليوسف، وهذا يحتاج إلى سند يوثق به.

والظاهر: أنه كان قميص يوسف الذي بمنزلة قميص كل أحد.

﴿يَأْتِ بِصِيرًا﴾ الظاهر: أنه عَلِمَ ذلك بوحى من الله.

(١) في ب، د، هـ: «دعا إلى الله».

[وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾
 قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ
 بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَّبِعَانَا سَتَفَغِيرَ لَنَا
 دُثُوبًا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ
 ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ
 ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَّابِتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ
 جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ
 نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾
 ﴿١٠١﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ
 وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠٢﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ
 نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ
 وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٥﴾].

﴿فَصَلَّتِ الْعِيرُ﴾ أي : خرجت من مصر متوجهة إلى يعقوب .

﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ كان يعقوب بيت المقدس ، ووجد
 ريح القميص وبينهما مسافة بعيدة .

﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ أي : تلومونني أو تردون علي قولي .

وقيل : معناه : تقولون : ذهب عقلك ؛ لأن القند هو الحرف .

﴿لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي : ذهابك عن الصواب ؛ بإفراط محبتك في
 يوسف قديماً .

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ روي أن البشير يهوذا ؛ لأنه كان جاء بقميص الدَّم ،

فقال لإخوته: إني ذهبت إليه بقميص التَّرحَة؛ فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ وعدهم بالاستغفار لهم، فقيل: سَوْفَهم إلى السَّحَر؛ لأن الدعاء يستجاب فيه، وقيل: إلى ليلة الجمعة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ هنا محذوفات يدلُّ عليها الكلام؛ وهي: فرحل يعقوب بأهله حتى بلغوا يوسف.

﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي: ضمَّهما، أراد^(١) بالأبوين: أباه وأمه.

وقيل: أباه وخالته؛ لأن أمه كانت قد ماتت، وسمَّى^(٢) الخالة على هذا أمًا.

﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ راجعُ إلى الأمن الذي في قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على سرير الملك.

﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ كان السجود عندهم تحية وكرامة، لا عبادة.

﴿وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: حين رأى الأحد عشر كوكبًا والشمس والقمر يسجدون له.

وكان بين رؤياه وبين ظهور تأويلها ثمانون عامًا، وقيل: أربعون.

﴿أَحْسَنَ بِي﴾ يقال: أحسن به وإليه.

(١) في د: «وأراد».

(٢) في د: «وتسمَّى».

﴿أَخْرَجْنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ إنما لم يقل أخرجني من الجبِّ لوجهين :
أحدهما : أن في ذكر الجب خِزْيُ إخوته ، وتعريفُهم بما فعلوا ؛ فترك
ذكره ؛ توقيراً لهم .

والآخر : أنه خرج من الجب إلى الرقِّ ، ومن السجن إلى الملك ؛ فالنعمة
به أكثر .

﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي : من البادية ، وكانوا أصحاب إبل وغنم ، فعَدَّ
في النعم مجيئهم للحاضرة .

﴿نَزَعَ الشَّيْطَانُ﴾ أي : أفسد وأغوى .

﴿لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي : لطيفُ التدبير لما يشاء من الأمور .

﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ «مِنْ» للتبعض ؛ لأنه لم يعطه الله إلَّا بعض مُلك الدنيا ، بل
بعض ملك مصر .

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ لما عَدَّد النعم التي أنعم الله عليه اشتاق إلى لقاء ربه ولقاء
الصالحين من سلفه وغيرهم ، فدعا بالموت .

وقيل : ليس ذلك دعاءً بالموت ، وإنما دعا أن الله يتمَّ عليه النعم بالوفاة
على الإسلام إذا حان أجله .

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ احتجاجُ على صحة نبوة النبي ﷺ بإخباره بالغيوب .

﴿وَمَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ؛ تأكيداً لحجته ، والضمير لإخوة
يوسف .

﴿إِذْ أَجْمَعُوا﴾ أي : عزموا .

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يعني : فغلهم بيوسف .

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ عمومٌ ؛ لأن الكفار أكثر من المؤمنين .

وقيل : أراد أهل مكة .

﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ اعتراضٌ ؛ أي : لا يؤمنون ، ولو حرصت على إيمانهم .

﴿وَمَا تَنْتَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي : لست تسألهم أجرًا على الإيمان ، فيثقل

عليهم بسبب ذلك .

وهكذا معناه حيث وقع .



[وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١١٥﴾
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١١٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ
تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ
أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا
نُوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ
الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ
الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ
وَلَكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْقَوْمِ
يُؤْمِنُونَ ﴿١٢١﴾].

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ﴾ يعني: المخلوقات والحوادث الدالة على الله سبحانه.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ نزلت في كفار العرب الذي يُقرون بالله ويعبدون معه غيره.

وقيل: في أهل الكتاب؛ لقولهم: عزيز ابن الله، (والمسيح ابن الله) ^(١).

﴿غَشِيَةٌ﴾ هي ما يَغشى ويَغمر.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ إشارة إلى شريعة الإسلام.

﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: أدعو الناس إلى عبادة الله، وأنا على

(١) سقط من أ، ب، هـ

بصيرة من أمري وحجة واضحة .

﴿أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي﴾ : ﴿أَنَا﴾ تأكيد للضمير في ﴿أَدْعُوا﴾ ، و﴿وَمَنْ أَتَّبَعَنِي﴾ معطوف عليه ، و﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ في موضع الحال .

وقيل : ﴿أَنَا﴾ مبتدأ ، و﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ خبره ، فعلى هذا : يوقف على قوله : ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ ، وهذا ضعيف .

﴿وَسُبْحَنَ اللَّهِ﴾ تقديره : وأقول : سبحان الله .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ ردُّ على من أنكر أن يكون النبي من البشر .

وقيل : فيه إشارة إلى أنه لم يبعث رسولاً من النساء .

﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي : من أهل المدن ، لا من أهل البوادي ؛ فإن الله لم يبعث رسولاً من أهل البادية ؛ لجفائهم^(١) .

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْشَرَ الرَّسُلُ﴾ متصل في المعنى بقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ إلى قوله : ﴿عَنْبَةَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ .

ويأْسُهم يحتمل أن يكون :

من إيمان قومهم .

أو من النصر .

والأول أحسن .

(١) في ب : «لجهالتهم» .

﴿وَطَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ قرئ بتشديد الذال وتخفيفها .

فأما التشديد: فالضمير في ﴿وَطَنُوا﴾ و﴿كَذَّبُوا﴾ للرسل .

والظن يحتمل أن يكون: على بابه، أو بمعنى اليقين؛ أي: علم الرسل أن قومهم قد كذبوهم فيسؤوا من إيمانهم .

وأما التخفيف: فالضميران فيه للقوم المرسل إليهم؛ أي: ظنوا أن الرسل قد كذبوهم فيما ادَّعَوْا من الرسالة، أو من النصرة عليهم .

﴿فِي قَصَصِهِمْ﴾ الضمير: للرسل على الإطلاق، أو ليوسف وإخوته .

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ يعني: القرآن .

﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تقدّم معناه في «البقرة»^(١) .



﴿سورة الرعد﴾

[﴿الْمَرْ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحِينَ أَنْتَنَ يُغَشِّي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَحِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِيدٍ وَتُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٤) وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ءَإِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنْآ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٥) وَتَسْتَغْلِبُكَ بِالسَّيْئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْمَّا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٧)].

﴿تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ﴾ أي: آيات هذه السورة.

ويَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ: آيَاتِ الْكِتَابِ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

ويَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ: الْقُرْآنَ، وَهَذَا بَعِيدٌ؛ لِتَكَرُّارِ ذِكْرِ الْقُرْآنِ بَعْدَ ذَلِكَ.

﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ، وَإِعْرَابُهُ: مُبْتَدَأٌ، وَخَبْرُهُ ﴿الْحَقُّ﴾.

﴿يَغَيِّرْ عَمَدٍ﴾ أي: بغير شيءٍ تقف عليه إلا قدرة الله.

﴿تَرَوْنَهَا﴾ قيل: الضمير للسَّمَوَاتِ، فـ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ على هذا: في موضع الحال، أو استئناف.

وقيل: الضمير للعمَد؛ أي: ليس لها عمَدٌ مرئيةٌ، فيقتضي المفهوم: أن لها عمَدًا لا تُرى.

وقيل: إن عمَدَها هو جبل قاف المحيطُ بالدنيا.

وقال الجمهور: لا عمَد لها ألبتة، فالمراد: نفْيُ العمَدِ ونفْيُ رؤيتها.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ هنا لترتيب الإخبار، لا لترتيب وقوع الأمر؛ فإن العرش كان قبل خلق السموات. وتقدّم الكلام على الاستواء في «الأعراف»^(١).

﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ يعني: أمر الملكوت.

﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يعني آيات كتبه^(٢).

﴿مَدَّ الْأَرْضَ﴾ يقتضي أنها بسيطةٌ لا كورةٌ، وهو ظاهر الشريعة.

وقد يترتب لفظ البسط والمدُّ مع التَّكْوِيرِ؛ لأن كل قطعة من الأرض ممدودةٌ على حَدِّهَا، وإنما التَّكْوِيرُ لجُمْلَةِ الأرض.

﴿رَوَّسَى﴾ يعني: الجبال الثابتة.

(١) انظر صفحة ٣٤٩.

(٢) في د: «كتابه».

﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني: صنفين من الثمر، كالأسود والأبيض، والحلو والحامض.

فإن قيل: تقتضي الآية أنه تعالى خلق من كل ثمرة صنفين، وقد خلق من كثير من الثمرات أصنافاً كثيرة!

فالجواب: أن ذلك زيادة في الاعتبار، وأعظم في الدلالة على القدرة، فذكر الاثنين؛ لأن دلالة غيرها^(١) من باب أولى.

وقيل: إن الكلام تم في قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ثم ابتداء بقوله: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ﴾ يعني الذكر والأنثى.

والأول أحسن.

﴿يُعْشَىٰ آلِيلَ النَّهَارِ﴾ أي: يلبسه إياه، فيصير له كالغشاء، وذلك تشبيه.

﴿قَطَعَ مُتَجَوِّرَتٌ﴾ يعني: قرى^(٢) متلاصقة، ومع تلاصقها فإن أرضها تتنوع إلى طيب ورديء، وصلب ورخو، وغير ذلك، وكل ذلك دليل على الصانع المختار المريد القادر.

﴿صِنَوَانٌ وَعَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ الصنوان: هي النخلات الكثيرة، ويكون أصلها واحداً، وغير الصنوان: المفترق فرداً فرداً، وواحد الصنوان: صِنُو.

﴿تُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ﴾ حجة وبرهان على أنه تعالى قدير مُريد؛ لأن اختلاف مذاقها وأشكالها وألوانها مع اتفاق الماء

(١) في د: «غيرهما».

(٢) في أ، ب: «قطعا».

الذي تسقى به دليلٌ على القدرة والإرادة، وفي ذلك ردٌّ على القائلين بالطبيعة.

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي : إن تعجب يا محمد فإن إنكارهم للبعث حقيقٌ أن يُتَعَجَّبَ منه ؛ فإن الذي قَدَّرَ على إنشاء ما ذكرنا من السموات والأرض والثمار قادرٌ على إنشاء الخلق بعد موتهم .

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا هو قول الكفار المنكرين للبعث .
واختلف القراء في هذا الموضع وفي سائر المواضع التي فيها استفهامان ، وهي أحد عشر موضعًا ، أولها : هذا ، وفي «الإسراء» موضعان ، وفي «المؤمنين» موضع ، وفي «النمل» موضع ، وفي «العنكبوت» موضع ، وفي «آل عمران» «السجدة» موضع ، وفي «الصافات» موضعان ، وفي «الواقعة» موضع ، وفي «النازعات» موضع :

فمنهم من قرأ بالاستفهام في الأول والثاني .

ومنهم من قرأ بالاستفهام في الأول فقط ، وهو نافع .

ومنهم من قرأ بالاستفهام في الثاني فقط .

وأصل الاستفهام في المعنى إنما هو عن الثاني في مثل هذا الموضع ؛ فإن همزة الاستفهام معناها الإنكار ، وإنما أنكروا أن يكونوا خلقًا جديدًا ، ولم ينكروا أن يكونوا ترابًا .

فمن قرأ بالاستفهام في الثاني فقط : فهو على الأصل .

ومن قرأ بالاستفهام في الأول : فإنما القصد بالاستفهام الثاني .

ومن قرأ بالاستفهام فيهما : فذلك للتأكيد .

﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِيْ أَغْنَاقِهِمْ﴾ يحتمل :

أن يريد الأغلال في الآخرة ، فيكون حقيقة .

أو يريد أنهم ممنوعون من الإيمان ، كقوله : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَغْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ [يس : ٨] ، فيكون مجازاً يجري مجرى الطبع والختم على القلوب .

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي : بالنقمة قبل العافية ، والمعنى : أنهم طلبوا العذاب على وجه الاستخفاف .

﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُثَنَّتُ﴾ جمع مثلة على وزن «سَمُرَةٌ» ، وهي العقوبة العظيمة التي تجعل الإنسان مثلاً ، والمعنى : كيف يطلبون العذاب وقد أصابت العقوبات الأمم الذين كانوا قبلهم ؟ أفلا يخافون مثل ذلك ؟ .
﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُوْ مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ يريد : ستره وإمهاله في الدنيا للكفار والعصاة .

وقيل : يريد مغفرته لمن تاب .

والأول أظهر هنا .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية ؛ اقترحوا نزول آية على النبي ﷺ ، من نزول ملك معه أو شبه ذلك ، ولم يعتبروا بالقرآن ولا بغيره من الآيات العظام التي جاء بها ، وذلك منهم معاندة .

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ أي : إنما عليك إنذارهم ، وليس عليك أن تأتيهم بآية ، إنما ذلك إلى الله .

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يراد بالهادي الله تعالى، فالمعنى: إنما عليك الإنذار والله هو الهادي لمن يشاء إذا شاء.

والوجه الثاني: أن يريد بالهادي النبي ﷺ، فالمعنى: إنما أنت نبيٌّ منذر، ولكل قوم هادٍ من الأنبياء ينذرهم، فليس أمرك ببذع ولا مستنكر.

الثالث: رُوي أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «أنا المنذر، وأنت يا عليُّ الهادي»^(١).



(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/٤٤٢-٤٤٣).

[﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَمْ تُعْقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ، يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ شَيْئًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾ لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءًا إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمْلَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا فَأَحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَهُمْ فِيهَا يَلْمَهُوا ﴿١٨﴾﴾].

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ كقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]،

وهي من الخمس التي لا يعلمها إلا الله، ويعني: يعلم هل هو ذكر أو أنثى، أو تأن أو مُخْدَج، أو حسن أو قبيح، أو غير ذلك.

﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ معنى ﴿تَغِيضُ﴾: تنقص، ومعنى ﴿تَزْدَادُ﴾: من الزيادة.

وقيل: إن الإشارة لدم الحيض^(١)؛ فإنه يقل ويكثر.

وقيل: للولد، فالغيض: السقط، أو الولادة لأقل من تسعة أشهر، والزيادة: إبقاؤه أكثر من تسعة أشهر.

ويحتمل أن تكون «ما» في قوله: ﴿مَا تَحْمِلُ﴾، ﴿وَمَا تَغِيضُ﴾، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾:

موصولة.

أو مصدرية.

﴿سَوَاءٌ مِّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ المعنى: إن الله يسمع كل شيء، فالجهر والإسرار عنده سواء.

وفي هذا وما بعده تقسيم، وهو من أدوات البيان؛ فإنه ذكر أربعة أقسام، وفيه أيضًا مطابقة.

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ المعنى: سواء عند الله المستخفي بالليل وهو في غاية الاختفاء، مع السارب بالنهار، وهو في غاية الظهور. ومعنى السارب: المتصرف في سره - بالفتح -؛ أي: في طريقه ووجهه. والسارب والمستخفي اثنان، قصد التسوية بينهما في اطلاع الله عليهما، مع تباين حالهما.

(١) في أ: «إلى دم الحيض».

وقيل : إن المستخفي بالليل والسارب بالنهار صفتان لموصوف واحد ، يستخفي بالليل ، ويظهر بالنهار ، ويعضد هذا كونه قال : ﴿وَسَارِبٌ﴾ ، فعطفه عطف الصفات ، ولم يقل : «ومن هو سارب» بتكرار «من» كما قال : ﴿مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ .

إلا أن جعلهما اثنين أرجح ؛ ليقابل ﴿مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ ، فيكمل التقسيم إلى أربعة على هذا ، ويكون قوله : ﴿وَسَارِبٌ﴾ عطفًا على الجملة وهي قوله : ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ﴾ ، لا على ﴿مُسْتَخَفٌ﴾ وحده .

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ المعقبات هنا : جماعة الملائكة ، وسميت معقبات ؛ لأن بعضهم يعقب بعضًا ، والضمير في ﴿لَهُ﴾ يعود على «من» المتقدمة ، كأنه قال : لمن أسر ولمن جهر ولمن استخفى ولمن ظهر معقبات .

وقيل : يعود على الله ، وهو قول ضعيف ؛ لأن الضمائر التي بعده تعود على العبد باتفاق .

﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ صفة للمعقبات ، وهذا الحفظ يحتمل أن يراد به : حفظ أعماله .

أو حفظه وحراسته من الآفات .

﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهَ﴾ صفة للمعقبات ؛ أي : معقبات من أجل أمر الله ؛ إذ أمرهم بحفظه ، وقرئ : «بأمر الله» ، وهذه القراءة تعضد ذلك ، ولا يتعلق ﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهَ﴾ على هذا بـ ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ .

وقيل : يتعلق به ؛ على أنهم يحفظونه من عقوبة الله إذا أذنب ؛ بدعائهم له واستغفارهم .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ المعنى: إن الله لا يغير ما يقوم من العافية والنعم حتى يغيروا هم ما بأنفسهم بالمعاصي، فيقتضي ذلك: أن الله لا يسلب النعم، ولا يُنزل النقم إلا بالذنوب.

﴿يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الخوف يكون من البرق من الصواعق والأمور الهائلة، والطمع في المطر الذي يكون معه.

﴿السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ وصفها بالثقل؛ لأنها تحمل الماء.

﴿وَيَسْبِغُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ الرعد: اسم ملك، وصوته المسموع تسبيح. وقد جاء في الأثر: أن صوته زجرٌ للسحاب^(١)، فعلى هذا يكون تسبيحه غير ذلك.

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ قيل: إنها إشارة إلى الصاعقة التي نزلت على أريد الكافر وقتلته، حين همّ بقتل النبي ﷺ هو وأخوه عامر بن الطفيل. واللفظ أعم من ذلك.

﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ يعني: الكفار، والواو: للاستئناف، أو للحال. ﴿شَدِيدُ اللَّحَالِ﴾ أي: شديد القوة، والمحال: مشتق من الحيلة، فالميم زائدة، ووزنه مِفْعَل.

وقيل: معناه: شديد المكر؛ من قولك: محلّ بالرجل: إذا مكر به، فالميم على هذا أصلية، ووزنه فَعَال، وتأويل المكر على هذا القول كتأويله

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/٣٥٧-٣٦٠).

في المواضع التي ورد^(١) في القرآن^(٢).

﴿لَمْ دَعَوْهُ الْحَقُّ﴾ قيل : هي لا إله إلا الله ، والمعنى : أن دعوة العباد بالحق لله ، ودعوتهم بالباطل لغيره .

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ يعني بـ ﴿وَالَّذِينَ﴾ : ما عُبد من دون الله من الأصنام وغيرهم ، والضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ للكفار .
والمعنى : أن المعبودين لا يستجيبون لمن عبدَهم .

﴿إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيُثْلَغَ فَأَوْ مَا هُوَ بِلَيْغِهِ﴾ شبه إجابة الأصنام لمن عبدَهم بإجابة الماء لمن بسط إليه كفَّيه ، وأشار إليه بالإقبال إلى فيه ، ولا يبلغ فمه على هذا أبداً ؛ لأن الماء جمادٍ لا يعقل المراد ، فكَذلك الأصنام .

والضمير في قوله : ﴿وَمَا هُوَ﴾ للماء ، وفي ﴿يُلَيْغِهِ﴾ للنفم .
﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ «مَنْ» لا تقع إلا على من يعقل ، فهي هنا يراد بها : الملائكة والإنس والجن .

فإن جعلنا السجود بمعنى الانقياد لأمر الله وقضائه ؛ فهو عامٌ في الجميع ، من شاء منهم ، ومن أبى ، ويكون ﴿طَوْعًا﴾ لمن أسلم ، ﴿وَكَرْهًا﴾ لمن كره وسخط .

(١) في د : «وردت» .

(٢) انظر تعليق الشيخ عبد الرحمن البراك ١/ ٥٤٥ ، و صفحة ٤٢٢ ، ٥١٢ من هذا الجزء .

وإن جعلنا السجود هو المعروف بالجسد، فيكون سجود الملائكة والمؤمنين من الإنس والجن طوعاً، وأما الكره؛ فهو سجود المنافق، أو^(١) سجود ظل الكافر.

﴿وَطَلَّاهُمْ﴾ معطوف على ﴿مَنْ﴾، والمعنى: أن الظلال تسجد غدوة وعشية، وسجودها: انقيادها للتصرف بمشيئة الله ﷻ. وقيل: سجودها: فيها بالعشي.

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ جواب عن السؤال المتقدم، وهو ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وإنما جاء الجواب والسؤال من جهة واحدة؛ لأنه أمر واضح لا يمكن جحده ولا المخالفة فيه، ولذلك أقام به الحجة على المشركين بقوله: ﴿أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ الأعمى تمثيل للكافر، والبصير تمثيل للمؤمن، و﴿الظَّالِمُتُ﴾ الكفر، ﴿وَالنُّورُ﴾ الإيمان، وذلك كله على وجه التشبيه والتمثيل.

﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى «بل» والهمزة، و﴿خَلَقُوا﴾ صفة لـ ﴿شُرَكَاءَ﴾، والمعنى: أن الله وقَّفه هل خلق شركائهم خلقاً كخلق الله فحملهم ذلك واشتباؤه بما خلق الله على أن جعلوا إلهاً غير الله؟، ثم أبطل ذلك بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فحصل الرد عليهم.

(١) في د، هـ: «و».

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا﴾ الآية؛ هذا مثلٌ ضربه الله للحق وأهله، والباطل وحزبه، فمثل الحق وأهله:

بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأودية، وتتفع به الأرض.
وبالذهب والفضة والحديد والصُّفْر وغيرها من المعادن التي ينتفع بها الناس.

وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله وزواله:

بالزبد الذي يرمي به السيل.

وبزبد تلك المعادن التي يطفو فوقها إذا أذيت، وليس في الزبد منفعة، وليس له دوام.

﴿يَقْدَرُهَا﴾ يحتمل أن يريد:

ما قُدِّرَ لها من الماء.

ويحتمل أن يريد بقُدِّرَ ما تحتمله، على قُدِّرَ صغرها وكبرها.

﴿زَبَدًا رَابِيًا﴾ الزَّبْد: ما يحمله السيل من غُثَاءٍ ونحوه، والرَّابِي: المنتفخ الذي ربا، ومنه الربوة.

﴿وَمِمَّا تَوْفِدُونَ﴾ المجرور في موضع خبر مقدم، والمبتدأ ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾؛

أي: يَنشَأُ من الأشياء التي يوقَد عليها زبدٌ مثل زبد السيل.

﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾ الذي يوقَد عليه ابتغاء الحُلِيِّ: هو الذهب والفضة،

والذي يوقد عليه ابتغاء متاع: هو الحديد والرصاص والنحاس والصُّفْر وشبه ذلك.

ومعنى المتاع : ما يستمتع الناس به في مرافقهم وحوائجهم .

﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي : يضرب أمثال الحق والباطل .

﴿جُفَاءً﴾ يجفؤه السيل ؛ أي : يرمي به .

﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ يريد : الخالص من الماء ، ومن تلك الأحجار .

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ الذين استجابوا : هم المؤمنون ، وهذا استئناف كلام ، والحسنى : الجنة ، وإعرابها : مبتدأ ، وخبرها : ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية ، فيوقف على ﴿الْأَمْثَالِ﴾ ، وعلى ﴿الْحُسْنَى﴾ .

وقيل : ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ يتعلق بـ ﴿يَضْرِبُ﴾ ، و﴿الْحُسْنَى﴾ مصدر من معنى ﴿اسْتَجَابُوا﴾ ؛ أي : استجابوا الاستجابة الحسنی ، ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ معطوف على ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ ، والمعنى : يضرب الله الأمثال للطائفتين ، وعلى هذا إنما يوقف على : ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ .

﴿سُوءَ الْحِسَابِ﴾ أي : المناقشة والاستقصاء .



[﴿أَفَن يَعْلَمُ أَنَّ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِذَا الْأَلْبَابِ﴾ (١٩)
 الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
 وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
 وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)
 جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ
 بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ
 مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ
 سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي
 الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾﴾].

﴿أَفَن يَعْلَمُ﴾ تقرير، والمعنى: أسوء من آمن ومن لم يؤمن؟.

والأعمى هنا: من لم يؤمن بالنبى ﷺ.

وقيل: إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وأبي جهل لعنه الله.

﴿يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ القرابات وغيرها.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ قيل: يدفعون الشرك بقول: لا إله إلا الله.

وقيل: يدفعون من أساء إليهم بالتي هي أحسن.

والأظهر: يفعلون الحسنات؛ فيدرونها بها السيئات، كقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ

يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وقيل: إن هذه الآية نزلت في الأنصار، ثم هي عامة في كل مؤمن اتصف

بهذه الصفات.

﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ يعني: الجنة، ويَحْتَمِلُ أن يريد بالدار: الآخرة، وأضاف العقبي إليها؛ لأنها فيها.

ويَحْتَمِلُ أن يريد بالدار: الدنيا، وأضاف العقبي إليها؛ لأنها عاقبتها.

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ بدلٌ من ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾.

أو خبر ابتداء مضمرة؛ تفسيراً لـ ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾.

﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أي: مَنْ كان صالحاً.

﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يقولون لهم: سلام عليكم.

﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ يتعلّق بمحذوف تقديره: هذا بما صبرتم.

ويجوز أن يتعلّق بـ ﴿سَلَّمَ﴾؛ أي: نسلم^(١) عليكم بما صبرتم.

﴿وَالَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية؛ أوصافٌ مضادة لما تقدّم.

وقيل: إنها في الخوارج، والأظهر: أنها في الكفار.

﴿سُوءَ الدَّارِ﴾ يحتمل أن يراد بها: الدنيا، أو الآخرة^(٢).

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسّع على من يشاء، ويضيّق على

من يشاء، وهذا تفسيره حيث وقع.

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إخبارٌ في ضمنه ذمٌ وتسفيه لمن فرح بالدنيا، ولذلك

حقرها بقوله: ﴿إِلَّا مَتَعٌ﴾؛ أي: قليلٌ بالنظر إلى الآخرة.

(١) في ج، هـ: «يسلم».

(٢) في أ، ب: «في الدنيا والآخرة».

[وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الذِّكْرَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ أَلْمُوتُ بَلِ اللَّهُ أَلَمُّ أَلَمِينَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾].

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ خرج به مخرج التعجب منهم لما طلبوا آيةً، أي: قد جاءكم محمد ﷺ بالقرآن وبآيات كثيرة فعِمِيتُم عنها، وطلبتم غيرها، وتماديتم على الكفر؛ لأن الله يضل من يشاء مع ظهور الآيات، وقد يهدي من يشاء دون ذلك.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ بدلٌ من ﴿مَنْ أُنَابَ﴾، أو خبر ابتداء مضمرة.

و﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بدل ثانٍ، أو مبتدأ.

﴿طُوبَى﴾ مصدر من: طاب، كبُشِرَى، ومعناها: أصبت خيراً وطيباً.

وقيل: هي شجرة في الجنة.

وإعرابها: مبتدأ.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ الكاف تتعلّق بالمعنى الذي في قوله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ قيل : إنها نزلت في أبي جهل .

وقيل : نزلت في قريش حين عاهدهم رسول الله ﷺ عام الحديبية ، فكتب الكاتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال قائلهم : نحن لا نعرف الرحمن ، وهذا ضعيف ؛ لأن الآية نزلت قبل ذلك ، ولأن تلك القصة إنما أنكروا فيها التسمية فقط .

ومعنى الآية : أنهم يكفرون بالله مع تلاوة القرآن عليهم .

﴿مَتَابٍ﴾ مَفْعَلٌ من التوبة ، وهو اسم مصدر .

﴿وَلَوْ أَن قُرْآنًا سِيرَتِ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية ؛ جواب «لو» محذوف تقديره : لو أن قرآنًا على هذه الصفة من تسيير الجبال به ، وتقطيع الأرض ، وتكليم الموتى ؛ لم يؤمنوا به ، فالمعنى كقوله : ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴿[يونس : ٩٦ - ٩٧]﴾ .

وقيل : تقديره : لو أن قرآنًا على هذه الصفة لكان هذا القرآن الذي هو غاية في التذكير ، ونهاية في الإنذار ، كقوله : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ [الحشر : ٢١] .

وقيل : هو متعلق بما قبله ، والمعنى : وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال .

﴿أَفَلَمْ يَأْتِنِ﴾ معناه : أفلم يعلم ، وهي لغة هوازن ، وقرئ : «أو لم يَتَيْنِ» .

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني : كفار قريش والعرب .

﴿قَارِعَةٌ﴾ يعني : مصيبةٌ في أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، أو غزوات المسلمين إليهم .

﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ الفاعل ضمير القارعة ، والمعنى : إما أن تصيبهم ، وإما أن تقرب منهم .

وقيل : التاء للخطاب ، والفاعل ضمير المخاطب ؛ وهو النبي ﷺ .
والأول أظهر .

﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ هو فتح مكة .

وقيل : قيام الساعة .



[وَلَقَدْ أَسْهَزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا تُمْ أَخَذْتُمُ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ ﴿٣٢﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَهَرُ مِنْ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُكْرَهُ بَعْضُهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ؕ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابٍ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِن أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾] .

﴿وَلَقَدْ أَسْهَزَيْتُمْ﴾ الآية ؛ مقصدها : تأنيس وتسليه للنبي ﷺ ، وهكذا حيث وقع .

﴿فَأَمَلَيْتُمْ﴾ أي : أمهلثهم .

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ هو الله تعالى ؛ أي : حفيظ رقيب على عمل كل أحد .

والخبر محذوف تقديره : «أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أحق أن يعبد أم غيره؟» ، ويدلُّ على ذلك قوله : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ .

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي : اذكروا أسماءهم .

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ المعنى : أن الله لا يعلم لنفسه شركاء ، وإذا لم يعلمهم هو فليسوا بشيء ، فكيف تفترون الكذب في عبادتهم ،

وتعبدون الباطل؟، وذلك كقولك: قل لي من زيد؟، أم هو أقل من أن يعرف؛ فهو كالعدم.

﴿أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ المعنى: أتسمونهم شركاء بظاهر اللفظ من غير أن يكون لذلك حقيقة؟، كقوله: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: بالقتل والأسر والخوف وغير ذلك.
﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ هنا وفي «القتال»: أي: صفتها، وليس بضرب مثل لها.
والخبر:

عند سيبويه: محذوف مقدم تقديره: فيما يتلى عليكم: صفة الجنة.
وقال الفراء: الخبر مؤخر، وهو: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.
﴿أَكْلُهَا دَائِمٌ﴾ يعني: ما يؤكل فيها من الثمرات وغيرها، والأكل - بضم الهمزة -: المأكول، ويجوز فيه ضم الكاف وإسكانها، والأكل - بفتح الهمزة -: المصدر.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكِتَابُ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: من أسلم من اليهود والنصارى، كعبد الله بن سلام والنجاشي وأصحابه.

وقيل: يعني: المؤمنين، و﴿الْكِتَابُ﴾ على هذا: القرآن.
﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قيل: هم بنو أمية، وبنو المغيرة من قريش.
والأظهر: أنها في سائر كفار العرب.

وقيل : هم اليهود والنصارى ؛ لأنهم لا ينكرون القصاص والأشياء التي في كتبهم ، وإنما ينكرون البعض مما لا يعرفونه أو مما حَرَّفُوهُ .

﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ وجه اتصاله بما قبله : أنه جوابٌ للمنكرين ، وردُّ عليهم ، كأنه قال : إنما أمرت بعبادة الله وتوحيده ، فكيف تنكرون هذا؟ .

﴿مَتَابٍ﴾ مَفْعَلٌ مِنَ الْأَوْب ؛ وهو الرجوع ، أي : مرجعي في الآخرة ، أو مرجعي بالتوبة .



[وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٢٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٢٩﴾ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٣٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَخُكُّمْ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ ﴿٣٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٣٣﴾].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ ردُّ على من أنكر أن يكون الرسول من البشر، أو يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر من النساء والذرية، فالمعنى: لست بيدع في ذلك، بل أنت كمن تقدَّم من الرسل.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ردُّ على الذين اقترحوا الآيات.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ قال الفراء: لكل كتاب أجل بالعكس.

وهذا لا يلزم، بل المعنى صحيح من غير عكس، أي: لكل أجل كتاب كتبه الله في اللوح المحفوظ.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ قيل: يعني ينسخ ما يشاء من القرآن والأحكام، ويثبت منها ما يشاء.

وقيل: هي في آجال بني آدم، وذلك أن الله تعالى في ليلة القدر - وقيل: في ليلة النصف من شعبان - يكتب آجال من يموت في ذلك العام، فيُمحى^(١)

(١) في أ، ب: «فيمحوا».

من ديوان الأحياء، ويثبت من لا يموت في ذلك العام.

وقيل: إن المحو والإثبات على العموم في جميع الأشياء.

وهذا تردّد القاعدة المتقررة: أن القضاء لا يتبدّل، وأن علم الله لا يتغير، فقال بعضهم: المحو والإثبات في كل شيء إلا في السعادة والشقاوة الأخراوية، والآجال.

﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل كل كتاب، وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الأشياء كلها.

﴿وَإِنْ مَا نُرِيكَ﴾ «إن» شرط دخلت عليها «ما» المؤكدة، وجوابها: ﴿فَإِنَّمَا﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الإتيان هنا: بالقدرة والأمر، والأرض: أرض الكفار، ونقصها: هو بما يفتح^(١) الله للمسلمين منها، والمعنى: أو لم يروا ذلك فيخافوا أن نمكّنك منهم.

وقيل: الأرض: جنس، ونقصها: بموت الناس، وهلاك الثمرات، وخراب البلاد، وشبه ذلك.

﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ المعقّب: الذي يكرّ على الشيء فيطله.

﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ تسمية للعقوبة باسم الذنب^(٢).

(١) في أ، ب، د: «فتح».

(٢) انظر تعليق الشيخ عبد الرحمن البراك ١/ ٥٤٥، وصفحة ٤٢٢، ٥١٢ من هذا الجزء.

﴿وَسِعَلُمُ الْكَافِرُ﴾ تهديدٌ، والمراد بالكافر: الجنس؛ بدليل قراءة ﴿الْكَفَرُ﴾ بالجمع.

و﴿عُقِيَ الدَّارِ﴾: الدنيا، أو ^(١) الآخرة.

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أمره الله أن يستشهد الله على صحة نبوته.

وشهادة الله له هي: علمه بذلك، أو ^(٢) إظهاره الآيات الدالة على ذلك.
﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ معطوفٌ على اسم الله؛ على وجه الاستشهاد به.
ف قيل: المراد عبد الله بن سلام ومَنْ أسلم من اليهود والنصارى الذين يعلمون صفته ﷺ من التوراة والإنجيل.

وقيل: المراد: المؤمنون الذين يعلمون علم القرآن ودلالته على النبوة.
وقيل: المراد: الله تعالى؛ فهو الذي عنده علم الكتاب، ويضعف هذا،
لأنه عطفٌ صفةً على موصوف، ويقويه قراءة: «ومن عنده» بـ «من» الجارة
وخفض «عنده».

(١) في أ، ب، د: «و».

(٢) في ج، د: «و».

﴿سورة إبراهيم عليه السلام﴾

[الرَّ كِتَبٌ أَرْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾].

﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والظلمات: الكفر والجهل، والنور: الإيمان والعلم.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره، (وهو إرساله) ^(١).

﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بدل من إلى ﴿إِلَى النُّورِ﴾.

(١) سقط من أ، ب، ج، هـ.

﴿اللَّهُ﴾ قرئ بالرفع: وهو مبتدأ، أو خبر مبتدئ مضمير.

وبالخفض: بدل.

﴿يَسْتَجِبُونَ﴾ أي: يؤثرون.

﴿وَيَعُونَهَا﴾ قد ذكر^(١).

﴿بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ أي: بلغتهم وكلامهم.

﴿أَنْ أَخْرَجَ﴾ «أن» مفسرة، أو مصدرية على تقدير: بأن.

﴿وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ أي: عقوبته للأمم المتقدمة.

وقيل: إنعامه على بني إسرائيل.

واللفظ يعم النعم والنقم.

وعبر عنها بالأيام؛ لأنها كانت في أيام، وفي ذلك تعظيم لها، كقولهم: يوم كذا ويوم كذا.

﴿وَيَذِّحُونَ آبْنَاءَكُمْ﴾ ذكر هنا بالواو؛ ليدل على أن سوء العذاب:

غير الذبح.

أو أعم من ذلك، ثم جرد الذبح، كقوله: ﴿وَمَلَأْنَاهُ زُجْجًا﴾ [البقرة: ٩٨].

وذكر في «البقرة» بغير واو؛ تفسيرا للعذاب.

[وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَ عَلَىٰ مَا عَازَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾].

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكُمْ﴾ من كلام موسى ، و﴿تَأَذَّتْ﴾ بمعنى : آذن ؛ أي : أعلم ، كقولك : توعدّ وأوعد ، وإعلامُ الله مقترنُ بإنفاذ ما أعلم به .

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ هذا معمولٌ ﴿تَأَذَّتْ﴾ ؛ لأنه يتضمن معنى «قال» .

ويحتمل أن تكون الزيادة :

من خير الدنيا .

أو من الثواب في الآخرة .

أو منهما .

﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ يحتمل أن يريد :

كفر النعم.

أو الكفر بالإيمان.

والأول أرجح؛ لمقابلته بالشكر.

﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ عبارة عن كثرتهم، كقوله: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾

[الفرقان: ٣٨].

﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الضمائر لقوم الرسل، والمعنى: أنهم ردُّوا أيديهم في أفواه أنفسهم:

غِيظًا من الرسل، كقوله: ﴿عَصُوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْأَغْيَظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

أو استهزاءً وضحكًا، كمن غلبه الضحك فوضع يده على فمه.

والثاني: أن الضمائر لهم، والمعنى: أنهم ردُّوا أيديهم في أفواه أنفسهم؛ إشارة على الأنبياء بالسكوت.

والثالث: أنهم ردُّوا أيديهم في أفواه الأنبياء تسكينًا لهم، ودفعًا لقولهم.

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ المعنى: أفي وجود الله شك، أو في إلهيته؟.

وقيل: في وحدانيته.

والهمزة للتقرير والتوبيخ؛ لأنه لا يحتمل الشك؛ لظهور الأدلة، ولذلك

وصَّفه ^(١) بعدُ بقوله: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

(١) في ج، هـ: «وُصِفَ».

﴿مَنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ قيل: إن «مِنْ» زائدة.

ومنع سبويه زيادتها في الواجب، وهي عنده للتبعض، ومعناه: أنه يغفر للكافر إذا أسلم ما تقدّم من ذنوبه قبل الإسلام، ويبقى ما يذنب بعده في المشيئة، فوقعت المغفرة للبعض.

ولم يأت في القرآن غفران بعض الذنوب إلا للكفار، كهذا الموضع، والذي في «الأحقاف» وسورة «نوح».

وجاء للمؤمنين بغير «مِنْ»، كالذي في «الصف».

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال الزمخشري وأهل مذهبه من المعتزلة: معناه: يؤخركم إن أمتتم إلى آجالكم، وإن لم تؤمنوا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت^(١).

وهذا بناء على قولهم بالأجلين، وأهل السنة يابون هذا؛ فإن الأجل عندهم واحد محتوم^(٢).

(١) انظر: الكشف (٨/٥٦٣).

(٢) قال الشيخ عبد الرحمن البراك حفظه الله: قول ابن جزي رحمه الله: «وهذا بناء على قولهم - أي المعتزلة - بالأجلين»، أقول: هذا صحيح عن المعتزلة؛ معناه أن المعتزلة يقولون: إن المقتول ومن يعاجل بالعقوبة له أجل متأخر لو لم يقتل أو يعاجل لانهى إليه، ولقتله أو تعجيل عقوبته أجل متقدم، وقال بعضهم عن المعتزلة: إن الأجل واحد، وهو الأجل المسمى، وأن المقتول مقطوع عليه أجله، وكذا من يعاجل بالعقوبة بسبب كفره، والحق أن الأجل الذي قدره الله في علمه وكتابه واحد، سواء كان متقدما أو متأخرا، ولا يقع إلا هو، فالمتقدم لا يتأخر، والمتأخر لا يتقدم، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا =

﴿قَالُوا إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ :

استبعادًا لتفضيل بعض البشر على بعض بالنبوة .

أو يكون إحالة لنبوة البشر .

والأول أظهر ؛ لطلبهم البرهان في قولهم : ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ،
ولقول الرسل : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي : بالتفضيل بالنبوة .
﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ المعنى : أي : شيء يمنعنا من التوكل على
الله .

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ إن قيل : لم كرّر الأمر بالتوكل ؟ .

فالجواب عندي : أن قوله : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ راجع إلى ما
تقدّم من طلب الكفار لسُلطان مبین ؛ أي : حجة ظاهرة ، فتوكل الرسل في
ورودها على الله ، وأما قوله : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ؛ فهو راجع إلى
قولهم : ﴿وَلَنُصَبِّرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا﴾ أي : نتوكل على الله في دفع أذاكم .
وقال الزمخشري : إن هذا الثاني بمعنى الثبوت على التوكل ^(١) .

= كَانَ لَيْفَيسَ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّوجَلًّا ، وهذا معنى ما أشار إليه المؤلف في

قوله : «وأهل السنة يابون هذا ؛ فإن الأجل عندهم واحد محتوم» . والله أعلم .

(١) انظر : الكشف (٨ / ٥٦٥) .

[وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَكِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَسَبِّحُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْيٍ ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾].

﴿أَوْ لَتَعُوذَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ ﴿أَوْ﴾ هنا :

بمعنى «إِلَّا أَنْ».

أو على أصلها ؛ لوقوع أحد الشيتين .

والعوذ هنا : بمعنى الصيرة ، وهو كثير في كلام العرب ، ولا يقتضي أن الرسل كانوا في ملّة الكفار قبل ذلك .

﴿خَافَ مَقَامِي﴾ فيه ثلاثة أوجه هنا ، وفي ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ في «الرحمن» :

فالأول : أن معناه : مقام الحساب في القيامة .

والثاني : أن معناه : قيام الله على عباده بأعمالهم .

والثالث: أن معناه: خافني، وخاف ربه^(١)، على إقحام المقام، أو على التعبير به عن الذات.

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ الضمير للرسول؛ أي: استنصروا بالله، وأصله: طلب الفتح، وهو الحكم.

﴿جَبَّارٍ﴾ أي: قاهر، أو متكبر.

﴿عَنِيدٍ﴾ مخالف لا ينقاد.

﴿مِّنْ وَرَائِهِ﴾ في الموضوعين: ال وراء هنا: بمعنى ما يستقبل من الزمان.

وقيل: معناه هنا: أمامه، وهو بعيد.

﴿وَيُسْقَى﴾ معطوف على محذوف تقديره: من ورائه جهنم يلقي فيها ويسقى، وإنما ذكر هذا السقي تجريدًا بعد ذكر جهنم؛ لأنه من أشد عذابها.

﴿يَجْرَعُهُمْ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾ أي: يتكلف جرعه، وتصعب عليه إساغته.

ونفي «كاد» يقتضي وقوع الإساعة بعد جهد.

ومعنى ﴿يُسِغُهُ﴾: يبتلعه.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: يجد المأ مثل ألم الموت وكرباته من جميع الجهات.

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: لا يراخ بالموت.

(١) قوله: «وخاف ربه» هذا تفسير لآية «الرحمن»: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مذهب سيبويه والفراء فيه كقولهما في: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ التي في «الرعد» و«القتال».

والخبر عند سيبويه: محذوف تقديره: فيما يتلى عليكم.

والخبر عند الفراء: الجملة التي بعد.

والمثل هنا بمعنى التشبيه.

﴿أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ شبهها بالرماد في ذهابها وتلاشيها.

﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي: شديد الريح، والعُصوف في الحقيقة من صفة الريح.

﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: لا يرون له منفعة.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾ أي: ظهروا، ومعنى الظهور هنا:

خروجهم من القبور.

وقيل: معناه صاروا بالبراز، وهي الأرض المتسعة.

﴿تَبَعًا﴾ جمع تابع، أو مصدر وصف به مبالغة، أو على حذف مضاف.

﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ «من» الأولى: للبيان، والثانية: للتبعيض.

ويجوز أن يكونا للتبعيض معًا. قاله الزمخشري^(١).

والأظهر: أن الأولى: للبيان، والثانية: زائدة، والمعنى: هل أنتم

(١) انظر: الكشاف (٨/٥٧٧).

دافعون أو متحمّلون عنا شيئًا من عذاب الله .

﴿مَحْيِصٍ﴾ أي: مهرب، حيث وقع، ويَحْتَمِلُ أن يكون: مصدرًا،
أو اسم مكان.



[وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٧٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٧٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٧٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٧٧﴾].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ يعني: إبليس الأقدم، روي أنه يقوم خطيباً بهذا الكلام:
يوم القيامة.

أو في النار يقوله لأهلها.

﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ إن كان كلام إبليس في القيامة: فمعنى ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾:
تعيين قومٍ للنار وقومٍ للجنة.

وإن كان في النار: فمعنى ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾: حصل أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة.

﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ استثناء منقطع.

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: ما أنا بمغيثكم وما أنتم بمغيثين لي.

﴿يَمَّا أَشْرَكْتُمْ﴾ «ما» مصدرية؛ أي: بإشراككم لي مع الله في الطاعة.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يتعلّق بـ ﴿أَشْرَكْتُمْ﴾.

ويَحْتَمِلُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بـ ﴿كَفَرْتُ﴾.

والأول أظهر وأرجح.

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ استئناف، من كلام الله تعالى.

ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حكايةً عن إبليس.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ يتعلّق بـ ﴿وَأَدْخَلَ﴾، أو بـ ﴿خَلِدِينَ﴾، والأول أحسن.

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ ابن عباس وغيره: هي: «لا إله إلا الله».

(وقيل: كلُّ كلمة حسنة)^(١).

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ هي النخلة في قول الجمهور.

واختار ابن عطية: أنها شجرة غير معينة، إلا أنها كلُّ ما اتصف بتلك الصفات^(٢).

﴿وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: في الهواء، وذلك عبارة عن طولها.

﴿تُؤْتِي أَكْثَرَهَا كُلِّ حِينٍ﴾ الحين في اللغة: وقت غير محدود، وقد تقترب به

قرينة تحدّه؛ ف قيل في: ﴿كُلِّ حِينٍ﴾: كل سنة لأن النخلة تُطعم في كل سنة، وقيل غير ذلك.

(١) سقط من أ، ب، هـ.

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٥/٢٤٤).

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر، وقيل: كل كلمة قبيحة.
 ﴿كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ﴾ هي الحنظلة عند الجمهور، واختار ابن عطية: غير
 معينة^(١).

﴿أَجُتُّتْ﴾ أي: اقتلعت، وحقيقة الاجتثاث: أخذ الجُثَّة، وهذا في
 مقابلة قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾.

﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ هو «لا إله إلا الله»، والإقرار بالنبوة.
 ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إذا فُتِنُوا لم يَزِلُّوا.
 ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ هو عند السؤال في القبر عند الجمهور.



(١) انظر: المحرر الوجيز (٢٤٦/٥).

[﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (٧٨) ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ الْفَرَارِ﴾ (٧٩) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٨٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ ﴿٨١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْآنْهَرَ ﴿٨٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٨٣﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٨٤﴾].

﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ نعمة الله هنا : هو محمد ﷺ ودينه ، أنعم الله به على قريش فكفروا النعمة ولم يقبلوها ، والتقدير : بدلوا شكر نعمة الله كُفْرًا .

﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾ أي : مَنْ أطاعهم واتبعهم .

﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ فسرها بقوله : ﴿جَهَنَّمَ﴾ .

﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا﴾ هي جواب شرط مقدر ، يتضمَّنه قوله : ﴿قُلْ﴾ ، تقديره : إن تقل لهم أقيموا يقيموا ، ومعمول القول على هذا محذوف .

وقيل : جُزم بإضمار لام الأمر ، تقديره : ليقيموا .

﴿وَلَا خِلَالٍ﴾ من الخُلة ، وهي المودة .

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ يريد الجنس .

[وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدَّلِيلُ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾].

﴿الْبَلَدَ آمِنًا﴾ ذكر في «البقرة»^(١).

﴿وَاجْنُبْنِي﴾ أي: امنعني، والماضي منه: جنَّب، يقال: جنَّب وجنَّب - بالتشديد - وأجنب بمعنى واحد.

﴿وَبَنِيَّ﴾ يعني: بنيه من صلبه، وفيهم أجيبت دعوته، وأما أعقاب بنيه فعبدوا الأصنام.

﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ يريد: من عصاه بغير الكفر، أو عصاه بالكفر ثم تاب منه، فهو الذي يصح أن يدعى له بالمغفرة، ولكنه ذكر اللفظ بالعموم؛ لِمَا كَانَ فِيهِ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لِلخَلْقِ وَحَسَنِ الْخَلْقِ.

﴿أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يعني: ابنه إسماعيل عليه السلام، لما وَلَدَتْهُ أُمُّهُ هَاجِرٌ غَارَتْ بِهَا^(٢) سارة زوجة إبراهيم، فحمله مع أمه من الشام إلى مكة.

(١) انظر: ١/ ٣٦٢.

(٢) في د: «منه».

﴿بَوَادٍ﴾ يعني: مكة، والوادي: ما بين جبلين وإن لم يكن فيه ماء.

﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ يعني الكعبة:

فإما أن يكون البيت أقدم من إبراهيم على ما جاء في بعض الروايات.

وإما أن يكون إبراهيم قد علم أنه سيُنَى هناك بيت^(١).

﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ اللام يحتمل أن تكون:

لام الأمر بمعنى الدعاء.

أو لام «كي»، وتعلق بـ ﴿أَسْكَنْتُ﴾.

وجمُع الضمير يدل على أنه كان قد عَلِمَ أن ابنه يُعَقَّبُ هنالك نسلاً.

﴿تَهْوَى إِلَيْهِمْ﴾ أي: تسير بجِدِّ وإسراع، ولهذه الدعوة حَبَبُ الله حج

البيت إلى الناس، على أنه قال ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ بالتبعية.

قال بعضهم: لو قال: «أفئدة الناس» لحجته فارس والروم.

﴿وَأَرْزُقُهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: ارزقهم في ذلك الوادي مع أنه غيرُ ذي زرع،

وأجاب الله دعوته فجعل مكة تُجَبَى^(٢) إليها ثمراتُ كل شيء.

﴿وَمَا يَخْفَى﴾ الآية؛ يحتمل أن تكون: من كلام الله تعالى، أو حكاية عن

إبراهيم.

﴿وَهَبْ لِي عَلَى الْكَبِيرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ روي: أنه ولد له إسماعيل وهو

(١) في ج: «سَيُنَى هناك بيتاً».

(٢) في أ، ب، هـ: «تجي».

ابن مئة وسبعة عشر عامًا ، وروي أقل من هذا ، وإسماعيل أسنُّ من إسحاق .
﴿رَبَّنَا وَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ إن أراد بالدعاء : الطلبَ والرغبة فمعنى القبول :
الاستجابة .

وإن أراد بالدعاء : العبادة ، فالقبول على حقيقته .

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ قيل : إنما دعا بالمغفرة لأبويه الكافرين بشرط
إسلامهما .

والصحيح : أنه دعا لهما قبل أن يتبين له أنه عدوُّ لله ، حسبما ورد في
«براءة» .



[وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَنَيْنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَنْزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَعَثَّى وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾] .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا﴾ هذا وعيدٌ للظالمين ، وهم الكفار هنا على الأظهر .

فإن قيل : لمن هذا الخطاب هنا وفي قوله : ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ﴾ ؟

فالجواب : أنه يحتمل أن يكون خطاباً للنبي ﷺ ، أو لغيره .

فإن كان لغيره فلا إشكال .

وإن كان له فهو مشكل ؛ لأن النبي ﷺ لا يحسب أن الله غافل ، وتأويل

ذلك بوجهين :

أحدهما : أن المراد : الثبوت على علمه بأن الله غير غافل وغير مخلف

وعده .

والآخر: أن المراد: إعلامه بعقوبة الظالمين، فمقصد الكلام الوعيد لهم.

﴿شَخَّصُ فِيهِ الْأَبْصَرُ﴾ أي: تُحَدُّ النظر من الخوف.

﴿مُتَظَيِّعٍ﴾ قيل: الإهطاع: الإسراع.

وقيل: شدة النظر من غير أن يَطْرِف.

﴿مُنْعِي رُءُوسِهِمْ﴾ قيل: الإقناع هو رفع الرأس.

وقيل: خفضه من الذلة.

﴿لَا يَرْنَدُ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا يَطْرِفون بعيونهم؛ من الحذر والجزع.

﴿وَأَفْنَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: منخرقة، لا تعي شيئاً؛ من شدة الجزع، فشبهها بالهواء في تفرغه من الأشياء.

ويحتمل أن يريد مضطربة في صدورهم.

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ يعني: يوم القيامة، وانتصاب ﴿يَوْمَ﴾ على أنه مفعول ثانٍ لـ ﴿أَنْذِرِ﴾، ولا يجوز أن يكون ظرفاً.

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا﴾ تقديره: يقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا﴾ الآية.

﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ هو المقسم عليه، ومعنى ﴿مِنْ زَوَالٍ﴾: أي: من الأرض بعد الموت؛ أي: حلفتكم أنكم لا تبعثون.

﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: جزاء مكرهم.

﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾ «إن» هنا نافية، واللام لام

الجحود، والجبال يراد بها : الشرائع والنبوات، شبهت بالجبال في ثبوتها، والمعنى : تحقير مكرهم ؛ لأنه لا تزول منه تلك الجبال الثابتة الراسخة .

وقرأ الكسائي : ﴿لَتَزُولُ﴾ بفتح اللام ورفع ﴿تَزُولُ﴾ ، و«إن» - على هذه القراءة - مخففة من الثقيلة، واللام للتأكيد، والمعنى : تعظيم مكرهم ؛ أي : إن مكرهم من شدته بحيث تزول منه الجبال، ولكن الله عصم ووقى منه .
﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ يعني : الوعد بالنصر على الكفار .
فإن قيل : هلا قال : «مخلف رسوله وعده» ، ولم قدم المفعول الثاني على الأول ؟ .

فالجواب : أنه قدم الوعد ليُعلم أنه لا يُخلف الوعد أصلاً على الإطلاق، ثم قال : ﴿رُسُلَهُ﴾ ؛ ليُعلم أنه إذا لم يخلف وعد أحد من الناس ، فكيف يخلف وعد رسله وخيرة خلقه ؟ ، فقدم الوعد أولاً ؛ لقصد الإطلاق ، ثم ذكر الرسل ؛ لقصد التخصيص .

﴿يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ﴾ العامل في الظرف : ﴿ذُو أَنْقَامٍ﴾ ، أو محذوف .
وتبديل الأرض : بأن تكون يوم القيامة بيضاء عفراء كقرصة النقي ، هكذا ورد في الحديث الصحيح^(١) .

﴿وَالسَّمَوَاتُ﴾ تبديلها : بانشقاقها ، وانتثار كواكبها ، وخسوف شمسها وقمرها .

وقيل : تبدل أرضاً من فضة ، وسماء من ذهب ، وهذا ضعيف .

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢١) ، ومسلم (٢٧٩٠) .

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني : الكفار .

﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي : مربوطين في الأغلال .

﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ أي : قمصهم ، والسَّرْبَال : القميص .

﴿مِنْ قَطْرَانٍ﴾ هو الذي تُهَنَأُ به الإبل ، وللنار فيه اشتعالٌ شديد ، فلذلك جعل الله قمص أهل النار منه .

﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلقٌ بمحذوف ؛ أي : فعل الله ذلك ليجزي .

﴿هَذَا بَلَّغٌ﴾ إشارة : إلى القرآن ، أو إلى ما تَضَمَّنَتْه هذه السورة .

﴿وَلِيُنْذِرُوا﴾ معطوفٌ على محذوف تقديره : لِيُنْصَحُوا به وليُنْذِرُوا .



﴿ سورة الحجر ﴾

[﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ① رَبِّمَا يُوذِّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ② ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا وَهَذَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ④ مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ⑤ وَقَالُوا يَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ⑥ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑦ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ⑧ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ⑩ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑪ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ⑫ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ⑬ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ⑭ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ⑮ ﴾].

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِالْكِتَابِ: الْكِتَابَ الْمَتَقَدِّمَةَ، وَعُطِفَ الْقُرْآنُ عَلَيْهَا.

والظاهر: أَنَّهُ الْقُرْآنُ، وَعُطِفَ عَطْفُ الصِّفَاتِ.

﴿ رَبِّمَا ﴾ قُرِئَ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، وَهُمَا لَغَتَانِ، وَ«مَا» حَرْفٌ، كَافَّةٌ لـ «رَبِّ».

ومعنى «رب»: التقليل، وقد تكون للتكثير.

وقيل : إن هذه منه .

وقيل : إنما عبّر عن التكثير بأداة التقليل على وجه التهكم ؛ كقوله : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ [البقرة: ١٤٤] ، و﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور: ٦٤] .

وقيل : إن معنى التقليل في هذه : أنهم لو كانوا يودّون الإسلام مرةً واحدةً لوجب أن يسارعوا إليه ، فكيف وهم يودونه مرارًا كثيرةً ؟ .

ولا تدخل «رُبَّ» إلّا على الماضي ، وإنما دخلت هنا على المستقبل ؛ لأنه في التحقيق كالماضي .

﴿يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قيل : إن ذلك عند الموت .

وقيل : في القيامة .

وقيل : إذا خرج عصاة المسلمين من النار ، وهذا هو الأرجح ؛ لحديث روي في ذلك ^(١) .

﴿ذَرَهُمْ﴾ وما بعده : تهديدٌ .

﴿كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي : وقت محدود .

﴿وَقَالُوا يَتَأْتِيَهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿٦﴾ الضمير في ﴿وَقَالُوا﴾

لكفار قريش ، وقولهم : ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ ^(٢) على وجه الاستخفاف ؛ أي : بزعمك ودعواك .

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/١٤) .

(٢) في هـ زيادة : «يعنون» .

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ﴾ ﴿لَوْ مَا﴾ عَرْضٌ وَتَحْضِيضٌ، والمعنى: أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يأتيهم بالملائكة معه.

﴿مَا تَنْزَلُ الْمَلَكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ رَدُّ عَلَيْهِمْ فِيمَا اقترحوا، والمعنى: أن الملائكة لا تنزل إلا بالحق؛ من الوحي والمصالح، التي يريدتها الله، لا باقتراح مقترح واختيار كافر معترض.

وقيل: الحق هنا: العذاب.

﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ ﴿إِذَا﴾ حرف جواب وجزاء، والمعنى: لو أنزل الملائكة لم يؤخر عذاب هؤلاء الكفار الذين اقترحوا نزولهم؛ لأن من عادة الله أن من اقترح آية فرأها ولم يؤمن أنه يعجل له العذاب، وقد علم الله أن هؤلاء القوم يؤمن كثير منهم، ويؤمن أعقابهم فلم يفعل بهم ذلك.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿١﴾ الذكر هنا: هو القرآن، وفي قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ رَدُّ لِنِكَارِهِمْ واستخفافهم في قولهم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ ولذلك أكد به ﴿نَحْنُ﴾، واحتج عليه بحفظه.

ومعنى حفظه: حراسته عن التبديل والتغيير، كما جرى في غيره من الكتب، فتولى الله حفظ القرآن، فلم يقدر أحد على الزيادة فيه، ولا النقصان منه، ولا تبديله، بخلاف غيره من الكتب؛ فإن حفظها موكل إلى أهلها؛ لقوله: ﴿يَمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ الشَّيْع: جمع شبيعة، وهي الطائفة التي تشيع لمذهب أو رجل.

﴿كَذَلِكَ نَسْأَلُكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ معنى ﴿نَسْأَلُكَ﴾: ندخله.

والضمير في ﴿نَسْلُكُهُ﴾ يَحْتَمِلُ :

أن يكون للاستهزاء الذي دَلَّ عليه قوله : ﴿يَهْءِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ .

أو يكون للقرآن ؛ أي : نسلكه في قلوبهم مستهزءًا به ، ويكون قوله : ﴿كَذَلِكَ﴾ تشبيهاً للاستهزاء المتقدم ، و﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ تفسيرٌ لوجه إدخاله في قلوبهم ، والضمير في ﴿يَهْءِ﴾ للقرآن .

﴿وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي : تقدّمت طريقتهم على هذه الحالة من الكفر والاستهزاء ، حتى هلكوا بسبب ذلك ، ففي الكلام تهديدٌ لقريش .

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْبَارُنَا﴾ الضمائر لكفار قريش المعاندين المحتوم عليهم بالكفر .

وقيل : الضمير في ﴿ظَلُّوا﴾ و﴿يَعْرُجُونَ﴾ للملائكة ، وفي ﴿قَالُوا﴾ للكفار .

ومعنى ﴿يَعْرُجُونَ﴾ : يَصْعَدُونَ .

والمعنى : أن هؤلاء الكفار لو رأوا أعظم آية لقالوا : إنها تخيل أو سحر .

وقرئ ﴿سُكَّرَتْ﴾ بالتشديد والتخفيف ، ويَحْتَمِلُ أن يكون مشتقًا :

من السُّكْر ، فيكون معناه : حُيرت أبصارنا فرأينا الأمر على غير حقيقته .

أو من السُّكْر ، وهو السَّدُّ ، فيكون معناه : منعت أبصارنا من النظر .

[﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِبَةً لِلنَّظِيرِينَ﴾ ١٦ ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ ١٧ ﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ السَّمْعَ فَأَنْبَعُهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ ١٨ ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ ١٩ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ﴾ ٢٠ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ ٢١ ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاثْرَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْفَقْنَا كُمُوهَ وَمَا أَنْسَمُ لَمْ يَخْرُجِينَ﴾ ٢٢ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِ وَيُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ ٢٣ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ﴾ ٢٤ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ٢٥﴾].

﴿بُرُوجًا﴾ يعني: المنازل الاثني عشر.

﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ السَّمْعَ﴾ استثناء من حفظ السموات، فهو في موضع نصب.
 ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي: مقدر بقصد وإرادة؛ فالوزن على هذا مستعار.
 وقيل: المراد: ما يوزن حقيقة كالذهب والأطعمة، والأول أعم وأحسن.
 ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ﴾ يعني: البهائم والحيوانات، و﴿مَنْ﴾ معطوف على ﴿مَعِيشَ﴾.

وقيل: على الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، وهذا ضعيف في النحو؛ لأنه عطفت على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، وهو قوي في المعنى؛ أي: جعلنا في الأرض معاش لكم وللحيوانات.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ قيل: يعني المطر، واللفظ أعم من ذلك.
 والخزائن: المواضع الخازنة، وظاهر هذا أن الأشياء موجودة قد خلقت.

وقيل : ذلك تمثيل ، والمعنى : وإن من شيء إلا نحن قادرون على إيجادهِ وتكوينهِ .

﴿يَقْدَرُ مَعْلُومٌ﴾ أي : بمقدار محدود .

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ يقال : لَقَحَتِ الناقة والشجرة : إذا حَمَلَتْ فهي لاقحة ، وأَلْقَحَتِ الرِّيحُ الشجرَ فهي مُلْقِحَةٌ ، و﴿لَوَاقِحَ﴾ : جمع لاقحة ؛ لأنها تحمل الماء .

أو جمع ملقحة ؛ على حذف الميم الزائدة .

﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقِيمِينَ﴾ الآية ؛ يعني : الأولين والآخرين من الناس ، وذكر ذلك على وجه الاستدلال على الحشر الذي ذُكر بعد ذلك في قوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ﴾ ؛ لأنه إذا أحاط بهم علماً لم تصعب عليه إعادتهم وحشرهم .

وقيل : يعني : مَنْ استقدم ولادةً وموتاً ، ومن تأخَّر .

وقيل : من تقدَّم إلى الإسلام ومن تأخَّر عنه .



[﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ ٢٦ ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ ٢٧ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ ٢٨ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَاجِدِينَ﴾ ٢٩ ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ٣٠ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ ٣١ ﴿قَالَ يَتَابِلِيسُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ ٣٢ ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ ٣٣ ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ ٣٤ ﴿وَأَنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ ٣٥ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ٣٦ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ٣٧ ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ ٣٨ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٣٩ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ ٤٠ ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ ٤١ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ﴾ ٤٢ ﴿وَأِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٤٣ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ ٤٤].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ﴾ الإنسان هنا هو: آدم عليه السلام، والصلصال: الطين اليابس الذي يصلصل؛ أي: يصوّت، وهو غير مطبوخ، فإذا طُبِخ فهو فَحَّارٌ.

﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ الحمأ: الطين الأسود، والمسنون: المتغير المتن.

وقيل: إنه من أسن الماء: إذا تغيّر، والتّصريف يردُّ هذا القول.

وموضع ﴿مِنْ حَمَإٍ﴾ صفة لـ ﴿صَلْصَلٍ﴾؛ أي: من صلصال كائن من حمأ.

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ﴾ يراد به: جنس الشياطين.

وقيل: إبليس الأول، وهذا أرجح؛ لقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، وتناقلت الجن

من إبليس، وهو للجن كآدم للناس.

﴿السُّمُورِ﴾ شِدَّةُ الحرِّ .

﴿خَلَقُوا بِشْكْرًا﴾ يعني : آدم ﷺ .

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ يعني : الروح التي في الجسد ، وأضاف الله تعالى الروح إلى نفسه إضافة مُلْك إلى مالك ؛ أي : من الروح الذي هو لي ، وخلق من خلقي .

وتقدّم الكلام على سجود الملائكة في «البقرة»^(١) .

﴿فَأَخْرَجُ مِنْهَا﴾ أي : من الجنة ، أو من السماء .

﴿قَالَ رَبِّ﴾ يقتضي إقراره بالربوبية ، وأن كفره كان بوجه غير الجحود ، وهو اعتراضه على الله في أمره بالسجود لآدم .

﴿إِنِّي يَوْمَ أَلُوفٍ الْمَعْلُومِ﴾ (٢٨) اليوم الذي طلب إبليس أن يُنظرَ إليه : هو يوم القيامة .

ويوم الوقت المعلوم الذي أنظرَ إليه : هو يوم النفخ في الصور النفخة الأولى ؛ حين يموت من في السموات ومن في الأرض .

وكان سؤال إبليس الإنظار إلى يوم القيامة جهلاً منه ومغالطة ؛ إذ سأل ما لا سبيل إليه ؛ لأنه لو أعطي ما سأل لم يمت أبدًا ؛ لأنه لا يموت أحد بعد البعث ، فلما سأل ما لا سبيل إليه أعرض الله عنه ، وأعطاه الإنظار إلى النفخة الأولى .

﴿يَا أَعْوَيْنِي﴾ الباء للسببية ؛ أي : لأغوينهم بسبب إغوائك لي .

وقيل : للقسم ؛ كأنه قال : بقُدْرَتِكَ على إغوائي لأغوينهم .

والضمير لذرية آدم .

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ القائل لهذا هو الله تعالى ، والإشارة بـ ﴿هَذَا﴾ :

إلى نجاة المخلصين من إبليس ، وأنه لا يقدر عليهم .

أو إلى تقسيم الناس إلى غويٍّ ومُخْلَصٍ .

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ يحتمل أن يريد بالعباد :

جميع الناس ؛ فيكون قوله : ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ﴾ استثناءً متصلًا .

أو يريد بالعباد المخلصين ؛ فيكون الاستثناء منقطعًا .

﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ الضمير للغاوين .

﴿لَمَّا سَبَعَهُ أَبُوبَ﴾ روي : أنها سبعة أطباق ، في كل طبقة باب ، فأعلاها :

للمذنبين من المسلمين ، والثاني : لليهود ، والثالث : للنصارى ، والرابع :

للسابئين ، والخامس : للمجوس ، والسادس : للمشركين ، والسابع :

للمنافقين .

[إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبَتْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونِ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بِشْرَتَكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتُهُ فَذَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَايِبِ ﴿٦٠﴾].

﴿أَدْخُلُوهَا﴾ تقديره: يقال لهم: ادخلوها، والسلام هنا يحتمل أن يكون: التحية، أو السلامة.

﴿إِخْوَانًا﴾ يعني: أخوة المودة والإيمان.

﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ أي: يقابل بعضهم بعضاً على الأسرة.

﴿نَصَبٌ﴾ أي: تعب.

﴿نَبَتْ عِبَادِي﴾ الآية؛ أعلمهم، والآية آية ترجية وتخويف.

﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿ضَيْفٌ﴾ هنا: واقع على جماعة، وهم الملائكة الذين جاؤوا إلى إبراهيم بالبشرى.

﴿وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون، والوجل: الخوف.

﴿لَا نَوْجَلٌ﴾ أي: لا تخف.

﴿إِنَّا نَبْشُرُكَ بِعِلْمٍ عَلِيمٍ﴾ هو إسحاق .

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ المعنى : أبشروني بالولد مع أنني قد كبر سني ! .

وكان حينئذ ابن مئة سنة ، وقيل : أكثر .

﴿فِيمَ تُبْشِرُونِ﴾ قال ذلك :

على وجه التعجب من ولادته في كبره .

أو على وجه الاستبعاد لذلك .

وقرئ ﴿تُبْشِرُونِ﴾ :

بتشديد النون وكسرها ؛ على إدغام نون الجمع في نون الوقاية .

وبالكسر والتخفيف ؛ على حذف إحدى النونين .

وبالفتح ؛ وهي نون الجمع .

﴿قَالُوا بَشَرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي : باليقين الثابت ، فلا تستبعده ولا تشك فيه .

﴿وَمَنْ يَفْطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ دليل على تحريم القنوط .

وقرئ ﴿يَفْطُ﴾ : بفتح النون وكسرها ، وهما لغتان .

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي : ما شأنكم ؟ ، وبأي شيء جئتم ؟ .

﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مَجْرُمِينَ﴾ يعنون : قوم لوط .

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ يحتمل :

أن يكون استثناء من ﴿قَوْمٍ﴾ ؛ فيكون منقطعاً ؛ لوصف القوم بالإجرام ،

ولم يكن آل لوط مجرمين .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿تُجْرِمِينَ﴾ ؛ فَيَكُونُ مُتَصِلًا ؛ كَأَنَّهُ قَالَ : إِلَى قَوْمٍ قَدْ أَجْرَمُوا كُلَّهُمْ إِلَّا آلَ لُوطٍ فَلَمْ يَجْرَمُوا .

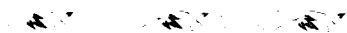
﴿إِلَّا أَمْرَانَهُ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ ، فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ اسْتِثْنَاءٍ .

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : إِنَّمَا هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ : ﴿لَمَنْجُوهُمْ﴾^(١) . وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْمَعْنَى .

﴿فَدَرَرْنَا إِنْهَا لَمِنْ الْغَيْرِ﴾ الْغَابِرُ : يُقَالُ بِمَعْنَى الْبَاقِي ، وَبِمَعْنَى الْذَاهِبِ .

وَإِنَّمَا أَسْنَدَ الْمَلَائِكَةُ فِعْلَ التَّقْدِيرِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَهُوَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ؛ لِمَا لَهُمْ مِنَ الْقُرْبِ وَالِاخْتِصَاصِ بِاللَّهِ ، لَا سِيَّمَا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، كَمَا تَقُولُ خَاصَّةُ الْمَلِكِ لِلْمَلِكِ : دَبَّرْنَا كَذَا .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حِكَايَةً عَنِ اللَّهِ .



(١) انظر : الكشف (٤٦/٩) .

[﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ صِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَسْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَمَّا سَكَنُوا مَكْرَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴿٧٢﴾ فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا لَنَسْبِيلٌ مَّقِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾].

﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي: لا يعرفهم^(١).

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: جئناك بالعذاب لقومك.

ويعني ﴿يَمْتَرُونَ﴾: يشكون فيه.

﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ أي: كن خلفهم وفي ساقيتهم؛ حتى لا يبقى منهم أحد، وليكونوا قدّامه؛ (فلا يشتغل قلبه بهم لو كانوا وراءه؛ لخوفه عليهم)^(٢).

﴿وَلَا يَلْفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ﴾ تقدّم في «هود»^(٣).

﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قيل: هو مصر، وقيل: «حيث» هنا للزمان؛ إذ لم يذكر مكان.

(١) في أ، ب: «قوم لا نعرفهم».

(٢) في أ، ب: «ولو كانوا وراءه لاشتغل بخوفه عليهم».

(٣) انظر صفحة ..

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ هو من القضاء والقدر، وإنما تعدى بـ «إلى»؛ لأنه ضَمَّنَ معنى: «أوحينا».

وقيل: معناه: أعلمناه بذلك الأمر.

﴿أَنَّ دَايِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ هذا هو تفسير لـ ﴿ذَلِكَ الْأَمْرُ﴾.

ودابر القوم: أصلهم، والإشارة إلى قوم لوط.

﴿مُصْحِحِينَ﴾ في الموضعين: أي: إذا أصبحوا ودخلوا في الصباح.

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٧) المدينة هي سدُوم، واستبشار أهلها بالأضياف؛ طمعاً أن ينالوا منهم الفاحشة.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٠) كانوا قد نهوه أن يُضيف أحداً.

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ دعاهم إلى تزويج بناته؛ ليقى بذلك أضيافه.

﴿لَعَمْرُكَ﴾ قسم، والعمر: الحياة؛ ففي ذلك كرامةٌ للنبي ﷺ، لأن الله أقسم بحياته.

وقيل: هو من قول الملائكة للوط.

وارتفاعه: بالابتداء، وخبره محذوف تقديره: لعمرك قسمي، واللام للتوطئة.

﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الضمير لقوم لوط، و﴿سَكْرَتِهِمْ﴾: ضلالهم وجهلهم، و﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتحيرون.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أي: صيحة جبريل، وهي أخذتهم لهم.

﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي: داخلين في الشروق، وهو وقت بزوغ الشمس.

وقد تقدّم تفسير ما بعد هذا من قصتهم في «هود»^(١).

﴿الْمُتَوَسِّينَ﴾ أي: للمتفرّسين، ومنه: فِرَاسة المؤمن.

وقيل: للمعتبرين.

وحقيقة التوسّم: النظر إلى السّمة.

﴿وَلَا يَهْدِي لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: بطريق ثابت يراه الناس، والضمير: للمدينة^(٢) المهلكة.

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ﴾ أصحاب الأيكة: قوم شعيب، والأيكة: الغنّضة من الشجر، لما كفروا أضرمها الله عليهم نارًا.

﴿وَأِنَّهُمَا لِيَأْمُرَ مُبِينٍ﴾ الضمير في ﴿وَأِنَّهُمَا﴾:

قيل: إنه لمدينة قوم لوط وقوم شعيب، فالإمام على هذا: الطريق؛ أي: إنهما بطريق واضح يراه الناس.

وقيل: الضمير للوط وشعيب؛ أي: إنهما على طريق من الشّرع واضح والأول أظهر.

(١) انظر صفحة ٦٠٤.

(٢) في ج، هـ: «للمدائن».

[وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٥﴾ وَءَايَتْنَهُمْ ءَايَتُنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٦﴾ وَكَانُوا يُنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٨﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيِنَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٩٢﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٩٤﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩٦﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٧﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٩﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٠٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّجِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٠٤﴾].

﴿أَصْحَابُ الْحَجَرِ﴾ هم ثمود قوم صالح، والحجر: واديهم، وهو بين المدينة والشام.

﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ ذكره بالجمع وإنما كذبوا واحداً، وفي ذلك تأويلان: أحدهما: أن من كذب واحداً من الأنبياء لزمه تكذيب الجميع؛ لأنهم جاؤوا بأمر متفق من التوحيد.

والثاني: أنه أراد الجنس، كقولك: فلان يركب الخيل، وإن لم يركب إلا فرساً واحداً.

﴿وَأَيَّتْنَهُمْ ءَايَتُنَا﴾ يعني: الناقة، وما كان فيها من العجائب.

﴿وَكَانُوا يُنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ النحر: النقر بالمعاويل وشبهها في الحجر

والعود وشبه ذلك ، وكانوا ينقرون بيوتهم في الجبال .

﴿ءَامِنِينَ﴾ يعني : آمنين من تهْدُم بيوتهم لوثاقتها ، وقيل : آمنين من عذاب الله .

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعني : أنها لم تُخْلَق عبثاً .

﴿فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ قيل : إن الصَّفْحَ الجميل هو الذي ليس معه عقاب ولا عتاب .

وفي الآية مهادنة للكفار منسوخة بالسيف .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ قيل : يعني : أم القرآن ؛ لأنها سبع آيات .

وقيل : يعني السُّور السبع الطُّوال ؛ وهي : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال مع براءة .

والأول أرجح ؛ لوروده في الحديث^(١) .

﴿وَالْمَثَانِي﴾ : مشتق من التثنية ، وهو التكرير ؛ لأن الفاتحة تُكْرَر قراءتها في الصلاة ، ولأن غيرها من السور تُكْرَر فيها القَصَص وغيرها .

وقيل : هي مشتقة من الثناء ؛ لأن فيها ثناءً على الله .

﴿مِّنْ﴾ تحتمل أن تكون : للتبعية ، أو لبيان الجنس .

وعطف القرآن على السبع المثاني ؛ لأنه يعني ما سواها من القرآن ، فهو عموم بعد الخصوص .

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٤) .

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تنظرُ إلى ما مَتَّعْنَاهُمْ به في الدنيا، ومعنى الآية: ترهيدٌ في الدنيا؛ كأنه يقول: قد آتيناك السبع المثاني والقرآن العظيم، فلا تنظر إلى الدنيا؛ فإن الذي أعطيناك أعظمُ منها.

﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ يعني: أصنافًا من الكفار.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تتأسف لكفرهم.

﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ أي: تواضع وِلْنِ للمؤمنين، والجَنَاح هنا: استعارة.

﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩٠) الكاف من ﴿كَمَا﴾ متعلقة بقوله: ﴿أَنَا النَّذِيرُ﴾؛ أي: أنذِرُ قريشًا مثل العذاب الذي أنزل على المقتسمين. وقيل: تتعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ أي: أنزلنا عليك كتابًا كما أنزلنا على المقتسمين.

واختلف في المقتسمين:

ف قيل: هم أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه، فاقسموا إلى قسمين.

وقيل: هم قريش، اقساموا أبواب مكة في الموسم، فوقف كل واحد منهم على باب، يقول أحدهم: هو شاعر، ويقول الآخر: ساحر، وغير ذلك.

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْفُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١) أي: أجزاء، وقالوا فيه أقوالًا مختلفة، وواحد ﴿عِضِينَ﴾ عِضَةٌ.

وقيل: هو من العَضِّهِ، وهو السَّحَر، والعاَضِهُ: الساحر، والمعنى على هذا: قالوا إنه سحر.

والكلمة محذوفة اللام، ولامها على القول الأول: واو، وعلى الثاني: هاء.

﴿فَوَرَبِّكَ لَسَأَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٦) ﴿إِنْ قِيلَ: كَيْفَ يُجْمَعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (٩٧)﴾ [الرحمن: ٣٩]؟

فالجواب: أن السؤال المثبت هو على وجه الحساب والتوبيخ، وأن السؤال المنفي هو على وجه الاستفهام المحض؛ لأن الله يعلم الأعمال فلا يحتاج إلى السؤال عنها.

﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: صرّح به وأنفذه.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥) يعني قومًا من أهل مكة؛ أهلكهم الله بأنواع الهلاك من غير سعي النبي ﷺ، وكانوا خمسة: الوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن عَظْلَة، وقصة هلاكهم مذكورة في السِّير.

وقيل: هم الذين قُتِلُوا ببدر؛ كأبي جهل، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمّية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط وغيرهم.

والأول أرجح؛ لأن الله كفاه إياهم بمكة قبل الهجرة.

﴿وَلَقَدْ نَعَّمْنَا أَنْكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٧) ﴿تَسْلِيَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ وَتَأْنِيسًا.

﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي: الموت.

﴿ سورة النحل ﴾

[﴿أَنَّى أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُزِيلُ الْمَلٰٓئِكَةُ
 بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ
 السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا
 هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنفَعُ خَلْقُهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
 ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ
 تَكُونُوا بَلَغِيهِ إِلَّا شِيقَ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ
 وَالْحَمِيرَ لِزِكَّابُهَا وَزِينَةٍ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا
 جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾].

﴿أَنَّى أَمَرَ اللَّهُ﴾ قيل: يعني القيامة.

وقيل: النصر على الكفار.

وقيل: عذاب الكفار في الدنيا.

ووضع الماضي موضع المستقبل؛ لتحقيق وقوع الأمر، ولقربه.

وروي أنها لما نزلت وثب رسول الله ﷺ قائماً فلما قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾
 سَكَنَ^(١).

(١) لم أقف عليه مسنداً، وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص: ١٨٧) عن ابن عباس، =

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ أي: بالنبوة، وقيل: بالوحي.

﴿حَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: من نطفة المني، والمراد: جنس الإنسان.

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن معناه متكلم يخاصم عن نفسه.

والثاني: يخاصم في ربه ودينه، وهذا في الكفار.

والأول أعم.

﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: ما يُدْفَأُ به، يعني: ما يُتَّخَذُ من جلود الأنعام وأصوافها من الثياب.

ويَحْتَمِلُ أن يكون قوله: ﴿لَكُمْ﴾ متعلق: بما قبله، أو بما بعده، ويختلف الوقف باختلاف ذلك.

﴿وَمَنْفَعٌ﴾ يعني: شرب ألبانها، والحرث بها، وغير ذلك.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أن يريد بالمنافع:

ما عدا الأكل؛ فيكون الأكل أمراً زائداً عليها.

أو يريد بالمنافع: الأكل وغيره، ثم جَرَّدَ ذكر الأكل؛ لأنه أعظم المنافع.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ الجمال: حسن المنظر،

= وفي الدر المنثور (٥/٩): «وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿أَنذَرُكُمْ﴾ دُعِرَ أصحاب الرسول حتى نزلت ﴿فَلَا تَسْعَاجِلُوهُ﴾ فسكنوا».

﴿حَيْثُ تُرِيحُونَ﴾ : يعني : حين تردُّونها بالعشي إلى المنازل ، ﴿وَحِينَ سَرَّحُونَ﴾ : حين تردُّونها بالغداة إلى الرعي ، وإنما قدَّم ﴿تُرِيحُونَ﴾ على ﴿سَرَّحُونَ﴾ ؛ لأن جمال الأنعام بالعشي أكثر ؛ لأنها ترجع وبطونها مملأى وضروعها حافلة .

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ يعني : الأمتعة وغيرها ، وقيل : أجساد بني آدم .

﴿إِلَى بَلَدٍ﴾ أي : إلى أيِّ بلدٍ توجهتم ، وقيل : يعني مكة .

﴿يَشِقُّ الْإِنْفُسَ﴾ أي : بمشقة .

﴿لِتَرْكُوبَهَا وَزِينَةً﴾ استدللَّ بعض الناس به على تحريم أكل الخيل والبغال والحمير ؛ لكونه عللَّ خَلَقَهَا بالركوب والزينة دون الأكل .

﴿وَنَصَبُ زِينَةٍ﴾ على أنه مفعول من أجله ، وهو معطوف على موضع ﴿لِتَرْكُوبَهَا﴾ .

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عبارة على العموم ؛ أي : أن مخلوقات الله لا يحيط البشر بعلمها .

وكلُّ مَنْ ذَكَرَ في هذه الآية شيئاً مخصوصاً فهو على وجه المثال .

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي : على الله تقويم طريق الهدى ، بنصب الأدلة وبعث الرسل .

والمراد بالسبيل هنا : الجنس ، ومعنى القصد : القاصد الموصِل ، وإضافته إلى السبيل من إضافة الصفة إلى الموصوف .

﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ يعود على السبيل؛ إذ المراد به :
الجنس، ومعنى الجائر: الخارج عن الصواب؛ أي: ومن الطريق جائر،
كطريق اليهود والنصارى وغيرهم.



[هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَ كَمَا يَبْغُرُ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَنْمِدَ بَكُمْ وَأَنْهَرًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ الْوَحْيَ وَالنَّجْمَ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾].

﴿مَاءً لَكُمْ﴾: يحتمل أن يتعلق ﴿لَكُمْ﴾ بـ ﴿أَنْزَلَ﴾.

أو يكون في موضع خبر لـ ﴿شَرَابٌ﴾.

أو صفة لـ ﴿مَاءً﴾.

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾: يعني: ما ينبت بالمطر^(١) من الشجر.

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾: أي: ترعون أنعامكم.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: يعني: الحيوان والأشجار والثمار وغير

ذلك.

(١) في أ، ب: «ما ينبت المطر».

﴿مُخْلِفًا لَّوْنَهُ﴾ أي: أصنافه وأشكاله.

﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: الحوت.

﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني: الجواهر والمرجان.

﴿مَوَآخِرَ فِيهِ﴾ جمع ماخرة، يقال: مَحَرَّتِ السفينةُ، والمَحَرُّ: شقُّ الماء.

وقيل: صوت جري الفلك بالرياح.

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: في التجارة، وهو معطوف على ﴿لِتَأْكُلُوا﴾.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ﴾ الرواسي: الجبال، واللفظ مشتق من رسا إذا ثبت، و﴿أَنْ يَمِيدَ﴾ في موضع مفعول من أجله، والمعنى: أنه ألقى الجبال في الأرض لئلا تميد الأرض.

وروي أنه لما خلق الله الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: لا يستقرُّ على ظهر هذه أحدٌ، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال.

﴿وَأَنهَرًا﴾ قال ابن عطية: ﴿وَأَنهَرًا﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره: وجعل أو خلق أنهارًا، قال: وإجماعهم على إضمار هذا الفعل دليل على أن ﴿وَأَلْقَى﴾ أخص من «جعل» و«خلق»، ولو كانت ﴿وَأَلْقَى﴾ بمعنى «خلق» لم يحتج إلى هذا الإضمار^(١).

﴿وَسُبُلًا﴾ يعني: الطرق.

﴿وَعَلَّمَنَّا﴾ يعني: ما يستدلُّ به على الطرق من الجبال والمناهل وغير ذلك، وهو معطوف على ﴿وَأَنهَرَا وَسُبُلَا﴾.

وقال ابن عطية: هو نصبٌ على المصدر؛ أي: لعلكم تعتبرون وعلامات أي: عبرة وإعلامًا^(١).

﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني: الاهتداء بالليل في الطرق، والنجم هنا: جنس.

وقيل: المراد الثريا والفرقدان.

فإن قيل: قوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ مُخْرَجٌ عَنْ سَنَنِ الْخَطَابِ، وَقَدْ م فِيهِ النَّجْمُ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: وَبِالنَّجْمِ خُصُوصًا هَؤُلَاءِ خُصُوصًا يَهْتَدُونَ، فَمِنْ الْمُرَادِ بِهِمْ؟

فالجواب: أَنَّهُ أَرَادَ قَرِيشًا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَهْمَ فِي الْإِهْتِدَاءِ بِالنَّجْمِ فِي سِيرِهِمْ عَلَّمٌ لَمْ يَكُنْ لغيرِهِمْ، وَكَانَ الْإِهْتِدَاءُ أَلْزَمَ لَهُمْ فَخُصَّصُوا. قَالَ ذَلِكَ الزَّمَخْشَرِيُّ^(٢).

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ تقريرٌ يقتضي الردَّ على مَنْ عَبدَ غَيْرَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْهُمْ بِ«مَنْ»:

لأن فيهم مَنْ يعقل ومن لا يعقل.

أو مشاكلةً لقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾.

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥/٣٣٩).

(٢) انظر: الكشف (٩/٩٥-٩٦).

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ ذكر من أول السورة إلى هنا أنواعاً من مخلوقاته تعالى على وجه الاستدلال بها على وحدانيته ، ولذلك أعقبها بقوله : ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ .

وفيها أيضاً تعدادٌ لنعمه على خلقه ؛ ولذلك أعقبها بقوله : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ ، ثم أعقب ذلك بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي : يغفر لكم التقصير في شكر نعمه .

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ نفى عن الأصنام صفات الربوبية ، وأثبت لهم أضدادها ، وهي أنهم مخلوقون غير خالقين ، وغير أحياء ، وغير عالمين بوقت البعث ، فلما قام البرهان على بطلان ربوبيتهم أثبت الربوبية لله وحده فقال : ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَحْدٌ﴾ .

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي : لم تكن لهم حياة قط ولا تكون ، وذلك أغرق في موتها ممن تقدمت له حياة ثم مات ، ثم يعقب موته حياة .

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير في ﴿يَشْعُرُونَ﴾ للأصنام ، وفي ﴿يُبْعَثُونَ﴾ للكفار الذين عبدوهم .

وقيل : إن الضميرين للكفار .

[﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٣﴾ لَا جَرَماً أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٥﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣٦﴾].

﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ أي: تنكر وحدانية الله تعالى وجل.

﴿لَا جَرَماً﴾ أي: لا بد، ولا شك.

وقيل: إن ﴿لَا﴾ نفى لما تقدم، و﴿جَرَمَ﴾ معناه: وجب، أو حُقَّ، و﴿أَنْ﴾ فاعلة بـ ﴿جَرَمَ﴾.

﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما سطره الأولون، وكان النضر بن الحارث قد اتخذ كتب^(١) تواريخ، وكان يقول: إنما يحدث محمد بأساطير الأولين، وحديثي أجمل من حديثه.

و﴿مَاذَا﴾ يجوز أن يكون:

اسماً واحداً مركباً من «ما» و«ذا»، ويكون منصوباً بـ ﴿أَنْزَلَ﴾.

أو أن تكون «ما» استفهامية في موضع رفع بالابتداء، و«ذا» بمعنى الذي، وفي ﴿أَنْزَلَ﴾ ضمير محذوف.

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ اللام لام العاقبة والصيرورة؛ أي: قالوا أساطير الأولين، فأوجب ذلك أن حملوا أوزارهم وأوزار غيرهم.

(١) في أ، ب: «كتاب».

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلأَمْرِ .

﴿يَغَيِّرُ عِلْمٌ﴾ حال : من المفعول في ﴿يُصَلُّونَهُمْ﴾ ، أو من الفاعل .

• • •

[قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ
السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنْهَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ
الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِمَى أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا
السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِّسْ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾] وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ
قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ
﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ
الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾].

﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ الآية؛ قيل: المراد بالذين من قبلهم: نمرود؛ فإنه بنى صرحاً ليصعد فيه إلى السماء بزعمه، فلما علا فيه فرسحين هدمه الله وخر سقفه عليه.

وقيل: المراد بالذين من قبلهم: كل من كفر من الأمم المتقدمة، ونزلت به عقوبة الله، فالبنيان والسقف والقواعد على هذا تمثيل.

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ توبيخ للمشركين، وأضاف الشركاء إلى نفسه؛ أي: على زعمكم ودعواكم، وفيه تهكم بهم.

﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: تعادون من أجلهم.

فمن قرأ بكسر النون: فالمفعول ضمير المتكلم وهو الله ﷻ .
ومن قرأ بفتحها: فالمفعول محذوف تقديره: تعادون المؤمنين من أجلهم.

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ هم الأنبياء والعلماء من كل أمة .

وقيل: يعني الملائكة .

واللفظ أعم من ذلك .

﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حال من الضمير المفعول في ﴿تَوَفَّيْهُمْ﴾ .

﴿قَالُوا السَّلَامَ﴾ أي: استسلموا للموت .

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: قالوا ذلك، ويحتمل قولهم لذلك:

أن يكونوا قصدوا الكذب؛ اعتصامًا به، كقولهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

[الأنعام: ٢٣] .

أو يكونوا أخبروا على حسب اعتقادهم في أنفسهم، فلم يقصدوا الكذب ولكنه كذب في نفس الأمر .

﴿بِكُلٍّ﴾ من قول الملائكة للكفار؛ أي: قد كنتم تعملون السوء .

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ قالوا خيرًا ﴿لما وصف مقالة الكفار الذين

قالوا أساطير الأولين؛ قابل ذلك بمقالة المؤمنين .

فإن قيل: لم نصب جواب المؤمنين، وهو قولهم: ﴿خَيْرًا﴾، ورفع جواب

الكافرين وهو ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؟

فالجواب: أن قولهم ﴿حَيَّرًا﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره: أنزل خيرًا، ففي ذلك اعتراف بأن الله أنزله، وأما ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فهو خبر ابتداء مضمر تقديره: هو أساطير الأولين، فلم يعترفوا بأن الله أنزله؛ فلا وجه لنصبه، ولو كان منصوبًا لكان الكلام متناقضًا؛ لأن قولهم: أساطير الأولين يقتضي التكذيب بأن الله أنزله، والنصب بفعل مضمر يقتضي التصديق بأن الله أنزله؛ لأن تقديره: أنزل.

فإن قيل: يلزم مثل هذا في الرفع؛ لأن تقديره: هو أساطير الأولين؛ فإنه غير مطابق للسؤال الذي هو: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكَ؟﴾

فالجواب: أنهم عدلوا بالجواب عن السؤال، فقالوا: هو أساطير الأولين، ولم ينزله الله.

﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ ارتفع ﴿حَسَنَةٌ﴾ بالابتداء، و﴿لَلَّذِينَ﴾ خبره.

والجملة بدلٌ من ﴿حَيَّرًا﴾، وتفسيرٌ للخير الذي قالوه.

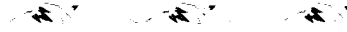
وقيل: هي استئناف كلام الله تعالى، لا من كلام الذين قالوا خيرًا.

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ يحتمل أن يكون هو اسم الممدوح بـ ﴿يَعْمَ﴾، فيكون: مبتدأ وخبره فيما قبله.

أو خبر ابتداء مضمر.

ويحتمل أن يكون مبتدأ، وخبره: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، أو مضمر تقديره: لهم جنات عدن.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون، والضمير للكفار.
﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: لقبض أرواحهم.
﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يعني: قيام الساعة، أو العذاب في الدنيا.
﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: أصابهم جزاء سيئات ما عملوا.
﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: أحاط بهم العذاب الذين كانوا به يستهزؤون، وهذا تفسيره حيث وقع.



[وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٧٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٧٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٠﴾].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قالوا ذلك على وجه المجادلة والمخاصمة والاحتجاج على صحة فعلهم ؛ أي : إن فعلنا هو بمشيئة الله فهو صواب ، ولو شاء الله أن لا نفعله ما فعلناه .

والرد عليهم : بأن الله نهى عن الشرك ولكنه قضاءه على من يشاء من عباده .
ويحتمل أن يكونوا قالوا ذلك في الآخرة على وجه التمني ؛ فإن «لو» تكون للتمني ، والمعنى على هذا : أنهم لما رأوا العذاب تمنوا أن يكونوا لم يعبدوا غيره ، ولم يحرموا ما أحلَّ الله من البحيرة وغيرها .

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ قرئ بضم الياء من ﴿يُهْدَى﴾ وفتح الدال على البناء للمفعول ؛ أي : لا يهدي غير الله من يضلّه الله .

وقرئ ﴿يَهْدَى﴾ بفتح الياء وكسر الدال ، والمعنى على هذا : لا يهدي الله من قضى بإضلاله .

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ تَصْمِيرٍ﴾ الضمير عائد على ﴿مَنْ يُضِلُّ﴾ ؛ لأنه في معنى الجمع .

﴿بَلَى﴾ ردُّ على الذين أقسموا لا يبعث الله من يموت ؛ أي : أنه يبعث .
 ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ اللام تتعلق بما دل عليه ﴿بَلَى﴾ ؛ أي :
 يبعثهم ليبين لهم ، وهذا برهان على البعث ؛ فإن الناس مختلفون في أديانهم
 ومذاهبهم ، فيبعثهم الله ليبين لهم الحق فيما اختلفوا فيه .

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ الآية ؛ برهانٌ أيضًا على البعث ؛ لأنه داخل تحت
 قدرة الله تعالى .



[وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَلَوْنَا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمَّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخِفَّ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَقُوا ظِلْفُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾] .

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ يعني: الذين هاجروا من مكة إلى أرض الحبشة؛ لأن الهجرة إلى المدينة كانت بعد هذا.

وقيل: نزلت في أبي جندل بن سهيل وخبره مذكور في السير في قصة الحديدية، وهذا بعيد؛ لأن السورة نزلت قبل ذلك.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وعد أن ينزلهم بقعة حسنة، وهي المدينة التي استقرؤا بها.

وقيل: إن ﴿حَسَنَةً﴾ صفة لمصدر؛ أي: نبوتهم تبوءة حسنة.

وقرئ «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ» بالثاء؛ من الثواء.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ وصف للذين هاجروا، ويحتمل إعرابه أن يكون: نعتاً.

أو على تقدير: هم الذين، أو أمدح الذين.

﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ ردُّ على من استبعد أن يكون الرسول من البشر .
 ﴿فَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ يعني : أحبار اليهود والنصارى ؛ أي : لأن جميعهم
 يشهدون أن الرسول ^(١) من البشر .

﴿يَالْيَنَّتِ وَالزُّبُرِ﴾ يتعلق :

بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ الذي في أول الآية على التقديم والتأخير في الكلام .
 أو بـ «أرسلنا» مضمراً .

أو بـ ﴿يُوحَى﴾ .

أو بـ ﴿تَعَامُونَ﴾ .

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني : القرآن .

﴿لِتَبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يحتمل أن يريد :

لتبين القرآن بسرِّدك نصّه وتعليمه للناس .

أو لتبين معانيه ؛ بتفسير مشكله ، فيدخل في هذا ما بينته السنة من الشريعة .

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكْرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ يعني : كفار قريش عند جمهور المفسرين .

و﴿السَّيِّئَاتِ﴾ تحتمل وجهين :

أحدهما : أن يريد بها الأعمال السيئات ؛ أي : المعاصي ، فيكون

﴿مَكْرُوا﴾ يتضمن معنى : عملوا .

(١) في ج ، هـ : «الرسول» .

والآخر: أن يريد: المكررات السيئات؛ أي: مكرهم بالنبي ﷺ؛ فيكون المكر على بابه.

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقْلِيهِمْ﴾ يعني: في أسفارهم.

﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بمفْلِتِينَ، حيث وقع.

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن معناه: على تنقُصٍ؛ أي: ينتقص أموالهم وأنفسهم شيئاً بعد شيء حتى يهلكوا، من غير أن يُهلكهم جملة واحدة؛ ولهذا أشار بقوله: ﴿فَإِنْ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾؛ لأن الأخذ هكذا أخف من غيره، وقد كان عمر بن الخطاب أشكل عليه معنى التَخَوُّف في الآية، حتى قال له رجل من هذيل: التَخَوُّف التَّنْقِص في لغتنا^(١).

والوجه الثاني: أنه من الخوف؛ أي: يهلك قومًا قبلهم، فيتخوفوا هم ذلك، فيأخذهم بعد أن توقعوا العذاب وخافوه، وذلك خلاف قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٢).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَيُوا ظِلَّ اللَّهِ﴾ معنى الآية: اعتباراً بانتقال الظل، ويعني بقوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ الأجرام التي لها ظلال؛ من الجبال والشجر والحيوان وغير ذلك؛ وذلك أن الشمس من وقت طلوعها إلى وقت الزوال يكون ظلها إلى جهة، ومن الزوال إلى الليل إلى جهة

(١) لم أقف عليه مسنداً، وذكر الثعلبي في تفسيره (١٩/٦) عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب، وأخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (٢٣٦/١٤).

(٢) لعل مراده الآية السابقة: (من حيث لا يشعرون)!

أخرى، ثم يمتدُّ الظل ويعمُّ بالليل إلى طلوع الشمس.

وقوله: ﴿يَنْفَيْوُا﴾ من الفيء؛ وهو الظل الذي يرجع بعكس ما كان غُدُوَّةً، وقال رُوبة بن العجاج: يقال بعد الزوال: ظل وفيء، ولا يقال قبله إلا: ظل، ففي لفظ: ﴿يَنْفَيْوُا﴾ هنا تجوُّزٌ ما؛ لوقوع الخصوص في موضع العموم؛ لأن المقصود الاعتبار من أول النهار إلى آخره، فوضع ﴿يَنْفَيْوُا﴾ موضع ينتقل أو يميل^(١).

والضمير في ﴿ظِلُّهُ﴾ يعود على: ﴿مَا﴾، أو على ﴿شَيْءٍ﴾.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ يعني: عن الجانبين؛ أي: يرجع الظل من جانب إلى جانب، و﴿الْيَمِينِ﴾ بمعنى الأيمان، واستعار هنا الأيمان والشمائيل للأجرام؛ فإن اليمين والشمال إنما هما في الحقيقة للإنسان. ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ حالٌ من الظلال.

وقال الزمخشري: حال من الضمير في ﴿ظِلُّهُ﴾، إذ هو بمعنى الجمع؛ لأنه يعود على قوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢).

فعلى الأول: يكون السجود من صفة الظلال.

وعلى الثاني: يكون من صفة الأجرام.

(١) في أ، ب، ج هـ: «تنتقل أو تميل».

(٢) إعراب الزمخشري إنما هو لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ دَخِرُونَ﴾، وليس لقوله: ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ﴾، حيث قال في الكشاف (١٢٨/٩): «﴿سُجَّدًا لِلَّهِ﴾: حالٌ من الظلال، ﴿وَهُمْ دَخِرُونَ﴾: حال من الضمير في ﴿ظِلُّهُ﴾»، قال الطيبي في حاشيته على الكشاف: «فالمعنى: ظلالهم ساجدة، وهم في أنفسهم متواضعون صاغرون، فيتفق الباطن مع الظاهر».

واختلّف في معنى هذا السجود:

ف قيل : عبّر به عن الخضوع والانقياد .

وقيل : هو سجود حقيقة .

﴿وَهُمْ ذَخِرُونَ﴾ أي : صاغرون ، وجمع بالواو ؛ لأن الذُّخُور من أوصاف العقلاء .

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ يحتمل أن يكون ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ :

بيانا لما في السموات وما في الأرض معاً ؛ لأن كل حيوان يصحُّ أن يوصف بأنه يدبُّ .

ويحتمل أن يكون بيانا لما في الأرض خاصة .

وإنما قال : ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ ليعم العقلاء وغيرهم ، ولو قال : «من في السموات» لم يدخل في ذلك غير العقلاء . قاله الزمخشري^(١) .

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ إن كان قوله : ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ بيانا لما في السموات والأرض : فقد دخل الملائكة في ذلك ، وكرّر ذكرهم ؛ تخصيصاً لهم بالذكر وتشريفاً . وإن كان ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ لما في الأرض خاصة : فلم تدخل الملائكة في ذلك ، فعطفهم على ما قبلهم .

(١) انظر : الكشاف (٩/ ١٣١) .

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ هذا إخبارٌ عن الملائكة، وهو بيان نفى الاستكبار.

ويَحْتَمَلُ أن يريد:

فوقية القدرة والعظمة.

أو يكون من المشكلات التي يمسك عن تأويلها.

وقيل: معناه يخافون أن يُرسل عليهم عذابًا من فوقهم^(١).

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك حفظه الله: قول ابن جزي: «هذا إخبار عن الملائكة، وهو بيان نفى الاستكبار» إلخ، أقول: بيان نفى الاستكبار، يريد أن قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾ تفسير لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ثم تردد - رحمه الله - وعفا عنا وعنه - في توجيه قوله تعالى: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ بين التفويض والتأويل، فقال: «ويحتمل أن يريد: فوقية القدرة والعظمة»، وهذا تأويل، وقال: «أو يكون من المشكلات التي يمسك عن تأويلها»، وهذا تفويض، قال: «وقيل: معناه يخافون أن يرسل عليهم عذابًا من فوقهم»، وهذا تأويل؛ لأنه صرف للفظ عن ظاهره، وهو في الحقيقة تحريف؛ لأنه لا دليل يوجبه، ولجوء المؤلف في توجيه الآية إلى التفويض والتأويل، راجع إلى نفى الفوقية الحقيقية لله تعالى بذاته فوق جميع المخلوقات، وهو مذهب الأشاعرة، وعلى هذا فالمؤلف يذهب مذهبه، ومذهب أهل السنة أن الله بذاته فوق سماواته، على عرشه، بائن من خلقه.

[﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونِ﴾ ٥١ ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ ٥٢ ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْشَرُونَ﴾ ٥٣ ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ٥٤ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٥٥ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ ٥٦ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ٥٧ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ٥٨ ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ٥٩ ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٦٠] .

﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وصف ﴿إِلَهَيْنِ﴾ بـ ﴿اثْنَيْنِ﴾ تأكيداً وبياناً للمعنى .

وقيل : إن ﴿اثْنَيْنِ﴾ مفعول أول و﴿إِلَهَيْنِ﴾ مفعول ثاني ، فلا يكون في الكلام تأكيد .

﴿فَإِنِّي فَارْهَبُونِ﴾ خرج من الغيبة إلى التكلم ؛ لأن الغائب هو المتكلم ، و﴿فَإِنِّي﴾ مفعول بفعل مضمر ، ولا يعمل فيه ﴿فَارْهَبُونِ﴾ ؛ لأنه قد أخذ معموله .

﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي : واجباً وثابتاً ، وقيل : دائماً .

وانتصابه : على الحال من ﴿الدِّينِ﴾ .

﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ يحتمل أن تكون الواو :

للاستئناف .

أو للحال؛ فيكون الكلام متصلًا بما قبله؛ أي: كيف تتقون غير الله، وما بكم من نعمة فمنه وحده؟.

﴿فَالِئِنَّهٗ يَجْعُرُونَ﴾ أي: ترفعون أصواتكم بالاستغاثة والتضرع.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ﴾ اللام: لام الأمر على وجه التهديد؛ لقوله بعدها: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فعلى هذا يبتدئ بها.

وقيل: هي لام العاقبة؛ فعلى هذا توصل بما قبلها؛ لأنها في الأصل لام كي، وذلك بعيد في المعنى.

والكفر هنا يحتمل أن يريد به:

كفر النعم؛ لقوله: ﴿بِمَا ءَانَيْنَهُمْ﴾.

أو كفر الجحود والشرك؛ لقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ يريد التمتع في الدنيا، وذلك أمرٌ على وجه التهديد.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيًّا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ الضمير في ﴿يَجْعَلُونَ﴾ لكفار العرب؛ فإنهم كانوا يجعلون للأصنام نصيبًا من ذبائحهم وغيرها.

والمراد بقوله: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأصنام، والضمير في ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ للكفار؛ أي: لا يعلمون ربوبيتهم ببرهان ولا بحجة.

وقيل: الضمير في ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ للأصنام؛ أي: لأشياء غير عالمية، وهذا بعيد.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ إشارة إلى قول الكفار: إن الملائكة بنات الله، ثم

نَزَّهَ تَعَالَى نَفْسَهُ عَنِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَنَهُ﴾.

﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ المعنى: أنهم يجعلون لأنفسهم ما يشتهون؛ يعني بذلك: الذكور من الأولاد.

وأما الإعراب: فيجوز أن يكون ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾: مبتدأ، وخبره المجرور قبله.

وأن يكون مفعولاً بفعل مضمّر تقديره: ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون. وأن يكون معطوفاً على ﴿الْبَنَاتِ﴾؛ على أن هذا يمنع البصريون؛ لأنه من باب: «ضربتي»، وكان يلزم عندهم أن يقال: لأنفسهم.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ إخبار عن حال العرب في كراهتهم البنات.

﴿وَضَلَّ﴾ هنا يحتمل أن تكون: على بابها، أو بمعنى صار.

والسّواد: عبارة عن العبوس والغم، وقد يكون معه سواد حقيقة.

﴿كَظِيمٌ﴾ قد ذكر في «يوسف»^(١).

﴿يَنْزَوِي مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: يستخفي من أجل سوء ما بُشِّرَ به.

﴿أَيْمِسُكُم عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ﴾ المعنى: يدبر وينظر هل يمسك الأنثى التي بُشِّرَ بها على هوان وذُلٍّ لها، أو يدفنها في التراب حيّةً، وهي المؤودة، وهذا معنى: ﴿يَدُسُّ فِي التُّرَابِ﴾.

﴿مَثَلُ السَّوِّءِ﴾ أي: صفة السَّوِّءِ؛ من الحاجة إلى الأولاد وغير ذلك من صفات الافتقار والنقص.

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أي: الوصف الأعلى؛ من الغنى عن كل شيء، والنزاهة عن صفات المخلوقين.



[﴿وَلَوْ يُوَاحِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (١١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جُرْمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ (١٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَليَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٣) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٤) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (١٥)].

﴿وَلَوْ يُوَاحِدُ﴾ يعني: لو يعاقبهم في الدنيا.

﴿يُظْلِمُهُمْ﴾ أي: بكفرهم ومعاصيهم.

﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ الضمير للأرض.

﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ يعُمُّ^(١) بني آدم وغيرهم، وهذا يقتضي أن تهلك الحيوانات بذنوب بني آدم، وقد ورد ذلك في الأثر.

وقيل: يعني بني آدم خاصة.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ يعني: البنات.

﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ ﴿أَنَّ﴾ بدلٌ من ﴿الْكُذِبَ﴾.

و﴿الْحُسْنَىٰ﴾ هنا: قيل: هي الجنة، وقيل: ذكور الأولاد.

﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ بكسر الراء والتخفيف: من الإفراط؛ أي: متجاوزون الحد في المعاصي.

(١) في ج، د: «يعني».

وبفتح الراء والتخفيف : من الفرط أي معجلون إلى النار .

وبكسر الراء والتشديد : من التفريط .

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ﴾ يحتمل أن يريد بـ ﴿الْيَوْمَ﴾ : وقت نزول الآية ، أو يوم القيامة .

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ معطوفان على موضع ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ ، وانتصبا على أنهما مفعولٌ من أجلهما ؛ أي : لأجل البيان والهدى والرحمة .



[وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَتَخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ إِلَى الْفَلِإِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَوَّلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾].

﴿تَسْقِيكُمْ﴾ بفتح النون وضمها : لغتان، يقال : سقى وأسقى .

﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ الضمير للأنعام، وإنما ذُكِّرَ :

لأنه مفرد بمعنى الجمع، كقولهم : ثوبٌ أخلاقٌ^(١) .

أو لأنه اسم جنس .

وإذا أنث فهو جمع نَعَم .

﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ الفَرث : هو ما في الكَرش من القَدَر، والمعنى : أن الله يخلق اللبن متوسطًا بين الفَرث والدم يكتنفانه، ومع ذلك فلا يغيّران له لونا ولا طعما ولا رائحة .

و«مِنْ» في قوله : ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ للتبعيض، وفي قوله : ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ﴾ لا ابتداء الغاية .

(١) أخلاقٌ جمع خَلَقَ أي : بال، ضدّ الجديد، كذا في اللسان (٣٧٦/١١) ثم قال : «وقد يُقال : ثوبٌ أخلاقٌ يصفون به الواحد إذا كانت الخُلُوقَة فيه كلّ» .

﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ يعني: سهلاً للشرب، حتى قيل: لم يَغْصَّ أحدٌ قطُّ باللبن.

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ المجرور يتعلق بفعل محذوف تقديره: نسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب؛ أي: من عصيرها، ويدلُّ عليه ﴿شَفِيقُكُمْ﴾ الأول.

أو يكون ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ﴾ معطوفاً على ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾.

أو يتعلق ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ﴾ بـ ﴿تَتَخَذُونَ﴾، وكرّر ﴿مِنْهُ﴾ توكيداً.

أو يكون ﴿تَتَخَذُونَ﴾ صفةً لمحذوف تقديره: شيءٌ تتخذون.

﴿سَكْرًا﴾ يعني: الخمر، ونزل ذلك قبل تحريمها، فهي منسوخة بالتحريم.

وقيل: إن هذا على وجه المنة بالمنفعة التي في الخمر، ولا تعرّض فيها لتحليل ولا تحريم، فلا نسخ.

وقيل: السَّكْر: المائع من هاتين الشجرتين كالخَلِّ والرُّبِّ.

والرزق الحسن: العنب والتمر والزبيب.

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ الوحي هنا: بمعنى الإلهام؛ فإن الوحي على ثلاثة أنواع: وحي كلام، ووحى منام، ووحى إلهام.

﴿أَنِ انْجِزِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿أَنْ﴾ مفسّرة للوحي الذي أُوحي إلى النحل، وقد جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة الأنواع؛ إما في

الجبـال وِكِوَاهَا^(١)، وإما في متجَوِّف الأشجار، وإما فيما يعرش بنو آدم من الأَجْبَاح^(٢) والحيطان ونحوها .

و«مِنْ» في المواضع الثلاثة للتبعض ؛ لأن النحل إنما تتخذ بيوتاً في بعض الجبال، وبعض الشجر، وبعض الأماكن .
وعَرَشَ : معناه : هَيَّأ أو بنى ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من الأغصان والخشب .

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ عطف ﴿كُلِي﴾ على ﴿اتَّخِذِي﴾ ، و«مِنْ» للتبعض ؛ وذلك إنها إنما تأكل التَّوَارَ^(٣) من الأشجار .

وقيل : المعنى : من كل الثمرات التي تشتهيها .
﴿فَاسْأَلِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ يعني : الطرق في الطيران^(٤) ، وأضافها إلى الرب ؛ لأنها مُلكه وخالقه .

﴿ذُلَّالًا﴾ أي : مطيعةً منقادةً ، ويحتمل أن يكون :
حَالًا من السبل ، قال مجاهد : لم يتوغَّرَ قُطٌّ على النحل طريق .
أو حَالًا من النحل ؛ أي : منقادةً لما أمرها الله به .

(١) في اللسان (٢٠/١٠١) : «والكَوُّ والكَّوَّةُ : الخَرَقُ في الحائط والثَّقْبُ في البيت ونحوه . . وجمع الكَّوَّة كَوَى بالقصر نادرٌ وكِوَاءٌ بالمد ، والكاف مكسورة فيهما» .

(٢) الأَجْبَاح جمع جَبَاح - مثلث الجيم - ، وهو خلية العسل . القاموس المحيط .

(٣) التوار على وزن رُفَّان : الزهر من الأشجار . القاموس المحيط .

(٤) في أ : «الغيران» .

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ يعني: العسل.

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾ أي: منه أبيض وأصفر وأحمر.

﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ الضمير للعسل؛ لأن أكثر الأدوية مستعملة من العسل، كالمعاجين والأشربة النافعة من الأمراض، وكان ابن عمر يتداوى به من كل شيء؛ فكأنه أخذه على العموم، وعلى ذلك الحديث عن النبي ﷺ أن رجلاً جاء إليه، فقال: إن أخي يشتكى بطنه، فقال: «اسقه عسلاً»، فذهب ثم رجع فقال: فقد سقيته فما نفع، قال: «فاذهب فاسقه عسلاً؛ فقد صدق الله وكذب بطن أخيك»، فسقاه فشفاه الله ﷻ^(١).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ أَلْمُزِّي﴾ أي: إلى أخسّه وأحقّره، وهو الهرم.

وقيل: حدّه خمسة وسبعون عامًا، وقيل: ثمانون، والصحيح: أنه لا ينحصر إلى مدة معينة، وأنه يختلف بحسب الناس.

﴿لَكِنِّي لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ اللام لام الصيرورة؛ أي: يصير إذا هَرِمَ لا يعلم شيئًا بعد أن كان يعلم قبل الهرم، وليس المراد نفي العلم بالكلية، بل ذلك عبارة عن قلة العلم؛ لغلبة النسيان.

وقيل: المعنى لثلا يعلم زيادةً على علمه شيئًا.

(١) أخرجه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧).

[وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٨﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨١﴾].

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ الآية؛ في معناها قولان:

أحدهما: أنها احتجاج على الوجدانية؛ كأنه يقول: أنتم لا تسوون بين أنفسكم وبين ممالئكم في الرزق، ولا تجعلونهم شركاء لكم، فكيف تجعلون عبيدي شركاء لي؟!.

والآخر: أنها عتاب وذم لمن لا يحسن إلى مملوكه؛ حتى يرد ما رزقه الله عليه، كما جاء في الحديث: «أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون»^(١).

والأول أرجح.

(١) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

﴿أَفِينِعْمَةَ اللَّهِ يَحْحَدُونَ﴾ الجحد هنا :

على المعنى الأول : إشارة إلى الإشراف بالله ، وعبادة غيره .

وعلى المعنى الثاني : إشارة إلى بخس^(١) الممالك فيما يجب لهم من الإنفاق .

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يعني : الزوجات .

و﴿مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يحتمل :

أن يريد : من نوعكم وعلى خلقتكم .

أو يريد : أن حواء خلقت من آدم ، وأسند ذلك إلى بني آدم لأنهم من ذريتهما .

﴿وَحَفَدَةً﴾ جمع حافِدٍ ، ابن عباس : هم أولاد البنين ، وقيل : الأصهار ، وقيل : الخدم ، وقيل : البنات ؛ لأن لفظ البنين المذكر لا يدل عليهن .
والحفد^(٢) في اللغة : الخِدمة .

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية ؛ تويخ للكفار ، ورد عليهم في عبادتهم للأصنام ، وهي لا تملك لهم رزقاً .

وانتصب ﴿رِزْقًا﴾ ؛ لأنه^(٣) مفعول بـ ﴿يَمْلِكُ﴾ ، ويحتمل أن يكون : مصدرًا ، أو اسمًا لما يُرزق .

(١) في ج ، د : «جنس» .

(٢) في أ ، ب ، د : «والحفدة» .

(٣) في ب ، د : «على أنه» .

فإن كان مصدرًا : فإعراب ﴿شَيْئًا﴾ مفعول به ؛ لأن المصدر ينصب المفعول .

وإن كان اسمًا : فإعراب ﴿شَيْئًا﴾ بدل منه .

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الضمير عائد على ﴿مَا﴾ ؛ لأن المراد به الآلهة .

ونفى الاستطاعة بعد نفي الملك ؛ لأن نفيها أبلغ في الذم .

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ الآية ؛ مثل لله تعالى وللأصنام ، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، والله تعالى له الملك ، ويده الرزق ، ويتصرف فيه كيف يشاء ، فكيف يسوى بينه وبين الأصنام؟! .

وإنما قال : ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ ؛ لأن بعض العبيد يقدرون على بعض الأمور كالمكاتب والمأذون له .

﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ﴾ «من» هنا نكرة موصوفة ، والمراد بها : من هو حرٌّ قادر ؛ كأنه قال : حرًّا رزقناه ؛ ليطابق ﴿عَبْدًا﴾ .

ويحتمل أن تكون موصولة .

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ أي : هل يستوي العبيد والأحرار الذي ضرب بهم المثل؟! .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكرٌ لله على بيان هذا المثل ووضوح الحق .

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني : الكفار .

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ الآية ؛ مثلٌ لله تعالى وللأصنام ، كالذي قبله ، والمقصود منهما : إبطال مذاهب المشركين ،

وإثبات الوجدانية لله تعالى .

وقيل : إن الرجل الأبكم : أبو جهل ، والذي يأمر بالعدل : عمار بن ياسر .

والأظهر : عدم التعيين .

﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ الكَلُّ : الثقل ؛ يعني : أنه عيالٌ على وليه أو سيده ، وهو مثالٌ للأصنام ، والذي يأمر بالعدل : هو الله تعالى .



[وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى
الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا
تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْقَالًا
إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا
وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ
نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾].

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ بيان لقدرة الله على
إقامتها، وأن ذلك يسير عليه؛ كقوله: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ
وَلَحْدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقيل: المراد سرعة إتيانها.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ الأمهات: جمع أم، زيدت فيه الهاء؛
فرقًا بين من يعقل ومن لا يعقل.

وقرئ: بضم الهمزة، وبكسرهما؛ إتيانًا للكسرة قبلها.

﴿فِي جَوْ السَّمَاءِ﴾ أي: في الهواء البعيد من الأرض.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ السكن: مصدر يوصف به.

وقيل: هو فَعَلَ بمعنى مفعول.

ومعناه: ما يسكن فيه كاليوت، أو يسكن إليه.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ يعني: بيوت^(١) الأدم من القباب وغيرها.
﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: تجدونها خفيفة.

﴿يَوْمَ طَعَنَكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ يعني: في السفر والحضر، واليوم هنا بمعنى الوقت، ويقال: طعن الرجل: إذا رحل.

وقرئ ﴿طَعَنَكُمْ﴾ بفتح العين، وإسكانها؛ تخفيفاً.

﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ الأصواف: للغنم، والأوبار: للإبل والأشعار: للمعز والبقر.

﴿أَثْنًا﴾ الأثاث: متاع البيت من البسط وغيرها.

وانتصابه: على أنه مفعول بفعل مضمر تقديره: جعل.

﴿وَمَتَنًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت غير معين.

ويحتمل أن يريد: إلى أن تبلى وتنفى، أو إلى أن تموتوا.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ نعمة عدها الله عليهم بالظل؛ لأن الظل في بلادهم مطلوب محبوب؛ لشدة حرها، ويعني بما خلق: من الشجر وغيرها.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَّا﴾ الأكنان: جمع كن، وهو ما بقي من المطر والريح وغير ذلك، ويعني بذلك الغيران والبيوت المنحوتة في الجبال.

(١) لم ترد هذه الكلمة في أ، ب، د.

﴿وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَِيلَ تَقِيَكُمْ اَلْحَرَ﴾ السرايل: هي الثياب من القمص وغيرها.

وذكر وقاية الحر ولم يذكر البرد؛ لأن وقاية الحر أهم عندهم؛ لحرارة بلادهم.

وقيل: لأن ذكر أحدهما يغني عن ذكر الآخر.

﴿وَسَرَِيلَ تَقِيَكُمْ بِأَسَكُمْ﴾ يعني: دروع^(١) الحديد.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما ذكر من النعم من أول السورة إلى هنا.

والضمير في ﴿يَعْرِفُونَ﴾ للكفار، وإنكارهم لنعم الله: إشراكهم به وعبادة غيره.

وقيل: ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ هنا: نبوة محمد ﷺ.



(١) في أ، ب، هـ: «درع».

[وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَاطَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾].

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: يشهد عليهم بإيمانهم أو كفرهم.
 ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لا يؤذن لهم في الاعتذار.
 ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يسترضون، وهو من العتبي بمعنى الرضا.
 ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يحتمل أن يكون:
 بمعنى التأخير.

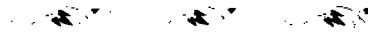
أو بمعنى النظر؛ أي لا ينظر الله إليهم.

﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ الضمير في ﴿فَأَلْقَوْا﴾ للمعبودين،
 والمعنى: أنهم كذبوهم في قولهم إنهم كانوا يعبدونهم، كقولهم: ﴿مَا كُنْتُمْ
 إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

فإن قيل: كيف كذبوهم وهم قد كانوا يعبدونهم؟.

فالجواب: أنهم لما كانوا غير راضين بعبادتهم؛ فكأن عبادتهم لم تكن
 عبادة.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَكْذِيبُهُمْ لَهُمْ فِي تَسْمِيَتِهِمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ ، لَا فِي الْعِبَادَةِ .
﴿وَأَلْفَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَذِ السَّاعَةِ﴾ أَي : اسْتَسْلَمُوا لَهُ ^(١) وَانْقَادُوا .
﴿زِدْنَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ رُوي أَنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْعَذَابِ هِيَ حَيَاتٍ
وَعَقَارِبَ كَالْبَغَالِ تَلْسَعُهُمْ .



(١) فِي أ ، ب ، هـ : «إِلَى اللَّهِ» .

[﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ٩٥ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ، وَلِيَبْتَلِيَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَالِفُونَ ﴿٩٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٠٣﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٥﴾] .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾ يعني بالعدل: فعل الواجبات، وبالإحسان: المندوبات، وذلك في حقوق الله تعالى وفي حقوق المخلوقين .

قال ابن مسعود: هذه أجمع آية في كتاب الله تعالى ^(١) .

﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الإيتاء: مصدر آتى بمعنى أعطى، وقد دخل ذلك

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/٣٣٧).

في العدل والإحسان، ولكنه جرّده بالذكر؛ اهتماماً به.

﴿وَبَغَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ قيل: يعني الزنا، واللفظ أعم من ذلك.

﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ هو أعم من الفحشاء؛ لأنه يعم جميع المعاصي.

﴿وَالْبَغْيِ﴾ يعني: الظلم.

﴿وَلَا نَقْضُ الْإِيمَانَ﴾ هذا في الأيمان التي في الوفاء بها خيرٌ، وأما ما كان تركه أولى فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير منه، كما جاء في الحديث^(١).

أو تكون الأيمان هنا: ما يحلفه الإنسان في حق غيره، أو معاهدةً لغيره.

﴿وَقَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي: رقيباً ومتكفلاً بوفائكم بالعهد.

وقيل: إن هذه الآية نزلت في بيعة النبي ﷺ.

وقيل: فيما كان بين العرب من حلفٍ في الجاهلية.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا﴾ شبه الله من يحلف ولا يفي بيمينه بالمرأة التي تغزل غزلاً قوياً ثم تنقضه.

ويروى أنه كان بمكة امرأة حمقاء تسمى رَيْطَةَ بنت سعد، كانت تفعل ذلك، وبها وقع التشبيه.

وقيل: إنما شبه بالمرأة غير معينة.

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

﴿أَنْكَثَ﴾ جمع نَكَثٍ، وهو ما يُنكَثُ؛ أي: ينقض، وانتصابه على الحال.

﴿نَنْجِذُوكَ أَيْمَنُكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ الدَّخَلَ: الدَّغَلَ، وهو قَصْدُ الخديعة.
﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ ﴿أَنْ﴾ في موضع المفعول من أجله؛
أي: بسبب أن تكون أمة.

ومعنى ﴿أَرْبَى﴾: أكثر عددًا، أو أقوى.

ونزلت الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم تحالف الأخرى، فإذا جاءها قبيلة أقوى منها غدرت الأولى وحالفت الثانية.

وقيل: الإشارة بالأرْبَى هنا^(١): إلى كَفَّار قريش؛ إذ كانوا حينئذٍ أكثر من المسلمين.

﴿إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ الضمير:

للأمر بالوفاء.

أو لكون أمة أربى من أمة؛ فإن بذلك يَظهر من يحافظ على الوفاء أو لا.

﴿فَنَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ بُوتَيْهَا﴾ استعارة في الرجوع عن الخير إلى الشر، وإنما أفرد القدم ونكرها؛ لاستعظام الزَّلَل في قدم واحدة، فكيف في أقدام كثيرة؟!.

﴿وَتَذُقُوا أَلْسُوًا﴾ يعني: في الدنيا.

﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يدلُّ على أن الآية فيمن بايع النبي ﷺ.

(١) في أ، ب، ج، هـ: «منها».

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: في الآخرة.

﴿وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الثمن القليل: عرض الدنيا، وهذا نهى لمن بايع النبي ﷺ أن ينكث لأجل ضعف الإسلام حينئذ وقوة الكفار، ورجائه الانتفاع في الدنيا إن رجع عن البيعة.

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْقَدُ﴾ أي: يفنى.

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ يعني: في الدنيا؛ فقال ابن عباس: هي الرزق الحلال، وقيل: هي القناعة.

وقيل: هي حياة الآخرة.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ ظاهر اللفظ: أن يستعاذ بعد القراءة؛ لأن الفاء تقتضي الترتيب، وقد شدَّ قومٌ فأخذوا بذلك.

وجمهور الأمة: على أن الاستعاذة قبل القراءة، وتأويل الآية: إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ، أو إذا أخذت في قراءة القرآن فاستعذ بالله.

﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ليس له عليهم سبيل، ولا يقدر على إضلالهم.

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أي: يتخذونه وليًا.

﴿بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ الضمير لإبليس، والباء سببية.



[﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ
آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٧٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ
لِلسَاتِّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيْ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبٍ مُبِينٍ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٧٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ
إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ
غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى
قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا
ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٠﴾].

﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ التبديل هنا : النسخ ، كان الكفار إذا
نُسِخت آية ، يقولون : هذا افتراء ، ولو كان من عند الله لم يبدل .

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ﴾ جملة اعتراض بين الشرط وجوابه ، وفيها ردٌّ
على الكفار ؛ أي : الله أعلم بما يصلح للعباد في وقت ، ثم ما يصلح لهم بعد
ذلك .

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ يعني : جبريل .

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي : مع الحق في أوامره ونواهيه وأخباره .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿بِالْحَقِّ﴾: بمعنى حقًّا، أو بمعنى أنه واجب النزول.

﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ كان بمكة غلام أعجمي اسمه يعيش، وقيل: كانا غلامين اسم أحدهما جبر والآخر يسار، فكان النبي ﷺ يجلس إليهما ويدعوهما إلى الإسلام، فقالت قريش: هذان يعلمان محمدًا.

﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ اللسان هنا: بمعنى اللغة والكلام.

﴿يُلْحِدُونَ﴾ من ألحد: إذا مال، وقرئ بفتح الياء، من لحد، وهما بمعنى.

وهذا ردُّ عليهم بأن الشخص الذي أشاروا إليه أنه يعلمه أعجمي اللسان؛ وهذا القرآن عربي في غاية الفصاحة فلا يمكن أن يأتي به أعجمي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ هذا في حق من علم الله منه أنه لا يؤمن، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦]، فاللفظ عام يراد به الخصوص، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٦] الآية.

وقال ابن عطية: المعنى: إن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بالله، ولكنه قدَّم في هذا الترتيب وأخر؛ تهمًُّا بتقبيح أفعالهم^(١).

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ردُّ على قولهم: ﴿إِنَّمَا

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥/٤١٠).

أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴿١٠﴾ ؛ يعني : إنما يليق الكذب بمن لا يؤمن ؛ لأنه لا يخاف الله ، وأما من يؤمن بالله فلا يكذب عليه .

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ الإشارة إلى الذين لا يؤمنون بالله ؛ أي : هم الذين عادتهم الكذب ؛ لأنهم لا يبالون بالوقوع في المعاصي .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْكَذِبُ الْمُنْسُوبُ إِلَيْهِمْ قَوْلُهُمْ : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ .

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ الآية ؛ «مَنْ» شرطية في موضع رفع بالابتداء ، وكذلك «مَنْ» في قوله : ﴿مَنْ شَرَحَ﴾ ؛ لأنه تخصيص من الأول .

وقوله : ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ :

جواب على الأولى والثانية ؛ لأنهما بمعنى واحد .

أو يكون جواباً للثانية ، وجواب الأولى محذوف يدل عليه جواب الثانية .

وقيل : ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ بدل :

من ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

أو من المبتدأ في قوله : ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ .

أو من الخبر .

﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ استثناء من قوله : ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ وذلك أن قوماً ارتدوا عن الإسلام ، فنزلت فيهم الآية ، وكان فيهم مَنْ أَكْرَهَ على الكفر فنطق بكلمة الكفر وهو يعتقد الإيمان ؛ منهم : عمار بن ياسر ، وصهيب ، وبلال ؛ فعذرهم الله ، روي : أن عمار بن ياسر شكاً إلى رسول الله ﷺ ما صُنِعَ به من العذاب وما سامح به من القول ، فقال له رسول الله ﷺ : «كيف تجد قلبك؟»

قال: أجدّه مطمئنًا بالإيمان، قال: «فأجبهم بلسانك؛ فإنه لا يضرّك»^(١).

وهذا الحكم فيمن أكره بالنطق على الكفر.

وأما الإكراه على فعلٍ هو كفر، كالسجود للصنم؛ فاختلف هل تجوز الإجابة إليه أم لا؟.

فأجازه الجمهور.

ومنعه قوم.

وكذلك قال مالك: لا يلزم المكره يمينٌ، ولا طلاق، ولا عتق، ولا شيء فيما بينه وبين الله، ويلزمه ما كان من حقوق الناس، ولا تجوز له الإجابة إليه كالإكراه على قتل أحد أو أخذ ماله.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ الإشارةُ إلى العذاب، والباء للتعليل، فعُلِّلَ عذابهم بعلتين:

إحداهما: إثارهم الحياة الدنيا.

والأخرى: أن الله لا يهديهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ قراءة الجمهور ﴿فُتِنُوا﴾ بضم الفاء؛ أي: عُدِّبُوا، فالآية -على هذا- في عمارٍ وشبهه من المعدِّبين على الإسلام.

وقرأ ابن عامر بفتح الفاء؛ أي: عُدِّبُوا المسلمين؛ فالآية على هذا فيمن

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٧٤/١٤).

عَذَّبَ المسلمين، ثم هاجر وجاهد، كالحضرمي^(١) وأشباهه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ كَرَّرَ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ تأكيداً، والضمير في ﴿بَعْدِهَا﴾ يعود على الأفعال المذكورة؛ وهي: الهجرة، والجهاد، والصبر.



(١) هو عامر بن الحضرمي، وكان يعذب غلامه جبراً ويكرمه على الكفر، وهو الغلام الأعجمي النصراني الذي كانوا يزعمون أنه يعلم محمداً ﷺ، ثم أسلم الحضرمي. انظر: الكشف (٢٠٦/٩)، والإصابة (٤٩٧/٥).

[يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ يَجْعَلُ لَهُمُ تَابًا مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾].

﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَتَعَلَّقَ :

بـ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

أو بمحذوف تقديره : اذكر ، وهذا أظهر .

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ النفس هنا : بمعنى الجملة ؛ كقولك : إنسان .

والنفس في قوله ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ بمعنى الذات المعينة التي نَقِيضُهَا الْغَيْرُ ؛ أي : تجادل عن ذاتها لا عن غيرها ، كقولك : جاء زيدٌ نفسه وعينه .

﴿تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ أي : تحتج وتعتذر .

فإن قيل : كيف الجمع بين هذا وبين قوله : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤَدِّنُ لَهُمْ فِعْزَ دُرُونٍ ﴿ ٣٦ ﴾ [المرسلات : ٣٥ - ٣٦] ؟

فالجواب : أن الحال مختلف باختلاف المواطن والأشخاص .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً ﴾ الآية ؛ قيل : إن القرية المذكورة مكة ، كانت بهذه الصفة التي ذكرها الله ، ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ يعني : بنبوة محمد ﷺ ، فأصابهم الجذب والخوف من غزو النبي ﷺ إليهم . وقيل : إنما قصد قرية غير معينة أصابها ذلك ، فضرب الله بها مثلاً لمكة^(١) ، وهذا أظهر ؛ لأن المراد وعظ أهل مكة بما جرى لغيرهم .

والضمائر في قوله : ﴿ فَكَفَرَتْ ﴾ و ﴿ فَأَذَقَهَا ﴾ يراد بها أهل القرية ؛ بدليل قوله : ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

﴿ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ الإذاقة واللّباس هنا مستعاران .

أما الإذاقة فقد كثر استعمالها في البلايا حتى صارت كالحقيقة . وأما اللباس فاستعير للجوع والخوف ؛ لاشتغالهما على اللابس ، ومباشرتهما له كمباشرة الثوب .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ ﴾ إن كان المراد بالقرية مكة : فالرسول هنا : محمد ﷺ ، والعذاب الذي أخذهم : القحط وغيره .

وإن كانت القرية غير معينة : فالرسول : من المتقدمين كهود وشعيب وغيرهما ، والعذاب : ما أصابهم من الهلاك .

(١) لم ترد هذه الكلمة في أ ، ب ، هـ .

﴿فَكُلُوا﴾ وما بعده مذكور في «البقرة»^(١).

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ هذه الآية مخاطبة للعرب الذين أحلوا أشياء وحرموا أشياء كالبحيرة وغيرها مما ذكر في سورة «المائدة» و«الأنعام»، ثم يدخل فيها كل من قال: هذا حلال أو حرام بغير علم.

وانتصب ﴿الْكَذِبَ﴾ بـ ﴿لَا تَقُولُوا﴾، ويكون قوله: ﴿هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ بدلاً من ﴿الْكَذِبَ﴾، و«ما» في قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ موصولة.

ويجوز أن ينتصب ﴿الْكَذِبَ﴾ بقوله: ﴿تَصِفُ﴾، وتكون «ما» على هذا مصدرية، ويكون قوله: ﴿هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ معمول^(٢) بـ ﴿لَا تَقُولُوا﴾. ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾ يعني: عيشهم في الدنيا، وانتفاعهم بما فعلوه من التحليل والتحرير.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَضَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني قوله في «الأنعام»: ﴿حَرَمًا كُلِّ ذِي ظُفْرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] إلى آخر الآية، فذكر ما حرم على المسلمين وما حرم على اليهود؛ ليُعلم أن تحريم ما عدا ذلك افتراء على الله، كما فعلت العرب.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ﴾ هذه الآية تأنيس لجميع الناس وفتح باب التوبة^(٣).

(١) انظر: ٣٩٤/١.

(٢) في هـ: «مفعول».

(٣) في ج: «للتوبة».

[﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ١٢١ ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَحْبَبَهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ١٢٢ ﴿وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ﴾ ١٢٣ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ١٢٤ ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ١٢٥ ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدَلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ١٢٦ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ ١٢٧ ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي صَبْرِ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ١٢٨ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ١٢٩].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه كان وحده أمةً من الأمم؛ لكمالهِ وجمعه لصفات الخير،
كقول الشاعر:

وليس لله^(١) بمستكرٍ أن يجمع العالم في واحد^(٢)

والآخر: أن يكون أمة بمعنى إمام، كقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، قال ابن مسعود: والأمة معلّم الناس الخير.
وقد ذكر معنى القانت^(٣) والحنيف^(٤).

(١) في ب، ج، د، هـ: «وليس على الله»، والمبثت موافق لما في الديوان.

(٢) البيت لأبي نواس الحسن بن هانئ، كما في ديوانه (ص: ٢١٨).

(٣) انظر: المقدمة في اللغات مادة (٤٦٠).

(٤) انظر: المقدمة في اللغات مادة (١٣١).

﴿وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يعني: لسان الصدق، وأن جميع الأمم متفقون عليه.

وقيل: يعني المال والأولاد.

﴿لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: من أهل الجنة.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ نفى عنه الشرك؛ لقصد الرد على المشركين من العرب الذين كانوا ينتمون إليه.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أمر موسى بني إسرائيل أن يجعلوا يوم الجمعة مختصاً للعبادة، فرضي بعضهم بذلك، وقال أكثرهم: بل يكون يوم السبت، فالزمهم الله يوم السبت، فاختلافهم فيه: هو ما ذكر، والسبت على هذا: هو اليوم.

وقيل: اختلافهم فيه: هو أن منهم من حرّم الصيد فيه، ومنهم من أحله، فعاقبهم الله بالمسخ قردة، فالمعنى: إنما جعل وبال السبت على الذين اختلفوا فيه، والسبت على هذا: مصدرٌ من سَبَتَ: إذا عَظَّمَ يوم السبت. قاله الزمخشري^(١).

وتقتضي الآية: أن السبت لم يكن من ملة إبراهيم عليه السلام.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ المراد بالسبيل هنا: الإسلام.

(١) انظر: الكشف (٩/٢٢٣).

والحكمة: هي الكلام الذي يظهر صوابه.

والموعظة: هي الترغيب والترهيب.

والجدال: هو الردُّ على المخالف.

وهذه الأشياء الثلاثة يسميها أهل العلوم العقلية بالبرهان والخطابة والجدل^(١).

وهذا الآية تقتضي مهادنةً نُسخَت بالسيف.

وقيل: إن الدعاء إلى الله بهذه الطريقة من التلطف والرفق غير منسوخ، وإنما السيف لمن لا تنفعه هذه الملاطفة من الكفار.

وأما العصاة فهي في حقهم مُحَكِّمة إلى يوم القيامة باتفاق.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ المعنى: إن صُنِعَ بكم صنيع سوء فافعلوا مثله ولا تزيدوا عليه، والعقوبة في الحقيقة إنما هي الثانية، وسميت الأولى عقوبةً لمشاكلة اللفظ.

ويَحْتَمِلُ أن يكون ﴿عَاقَبْتُمْ﴾، بمعنى: أصبتم عُقْبَى؛ كقوله في «الممتحنة»: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ [الممتحنة: ١١]، بمعنى: غَنِمْتُمْ، فيكون في الكلام تجنيسٌ.

وقال الجمهور: إن الآية نزلت في شأن حمزة بن عبد المطلب، لما بَرَّرَ المشركون بطنه يوم أحد قال النبي ﷺ: «والله لئن أظفرنني الله بهم لأمثلن

(١) في أ، ب: «والجدال».

بسبعين منهم»، فنزلت الآية، فكفر النبي ﷺ عن يمينه، وترك ما أراد من المثلة^(١).

ولا خلاف أن المثلة حرام، وقد وردت الأحاديث بذلك؛ ويقتضي ذلك أنها مدنية.

ويحتمل أن تكون الآية عامة، ويكون ذكرهم لحمزة على وجه المثال، وتكون على هذا مكية كسائر السورة.

واختلف العلماء فيمن ظلمه رجل في مال ثم اتّمن الظالم المظلوم على مال، هل يجوز له خيانتة في القدر الذي ظلمه؟.

فأجاز ذلك قوم؛ لظاهر الآية.

ومنعه مالك؛ لقوله ﷺ: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»^(٢).

﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ هذا ندبٌ إلى الصبر وترك عقوبة من أساء إليك؛ فإن العقوبة مباحة، وتركها أفضل، والضمير راجع إلى الصبر.

ويحتمل أن يراد بالصابرين هنا:

العموم.

أو يراد به المخاطبون؛ كأنه قال: خير لكم.

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ هذا عزمٌ على النبي ﷺ في خاصّته

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٤٠٢/١٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤).

على الصبر، ويروى أنه قال لأصحابه: «أما أنا فأصبرُ كما أُمِرتُ، فماذا تصنعون؟» قالوا: نصبر كما نُدبنا^(١). ثم أخبره أنه لا يصبر إلا بمعونة الله. وقد قيل: إن ما في هذه الآية من الأمر بالصبر منسوخ بالسيف، وهذا إن كان الصبر يراد به ترك القتال، وأما إن كان الصبر يراد به ترك المثلة التي فُعل مثلها بحمزة فذلك غير منسوخ.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تتأسف لكفرهم.
 ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: لا يضيق^(٢) صدرك بمكرهم، والضيق - بفتح الضاد - تخفيف من ضيق، كميت وميت.
 وقرئ بالكسر، وهو مصدر.

ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يريد أنه معهم بمعونته ونصره.
 ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ الإحسان هنا: يحتمل أن يراد به:
 فعل الحسنات.

أو المعنى الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه»^(٣) وهذا هو الأظهر؛ لأنه رتبة فوق التقوى.



(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٨٨/٣).

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «لا يضيق»

(٣) تقدم تخريجه ١٥٥/١.

﴿ سورة الإسراء ﴾

[سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَهُمْ أَحْسَنُ لِنَفْسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾].

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ معنى ﴿سُبْحَنَ﴾ تنزيهه، وهو مصدر غير متصرف.

وأسرى وسرى: لغتان، وهو فعل غير متعد.

واختار ابن عطية أن يكون ﴿أَسْرَى﴾ هنا متعديًا ؛ أي : أسرى الملائكة بعبد^(١)، وهذا بعيد .

والعبد هنا : هو نبينا محمد ﷺ ، وإنما وصفه بالعبودية ؛ تشريفًا له وتقريبًا .

﴿لَيْلًا﴾ إن قيل : ما فائدة قوله : ﴿لَيْلًا﴾ مع أن السرى هو السير بالليل ؟ .
فالجواب : أنه أراد بقوله : ﴿لَيْلًا﴾ بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء ، وأنه أسرى به في بعض الليل مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أبلغ في الأعجوبة .
﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ يعني بالمسجد الحرام : مسجد مكة المحيط بالكعبة ، وقد روي في الحديث أنه ﷺ قال : «بينما أنا نائم في الحجر إذ جاءني جبريل . . »^(٢) .

وقيل : كان النبي ﷺ ليلة الإسراء في بيته ، فالمسجد الحرام على هذا : مكة ؛ أي : بلد المسجد الحرام .

وأما المسجد الأقصى : فهو بيت المقدس الذي بإيلياء ، وسُمِّيَ الأقصى ؛ لأنه لم يكن وراءه حينئذ مسجد .

ويَحْتَمِلُ أن يريد بـ ﴿الْأَقْصَا﴾ : الأبعد ؛ فيكون المقصد إظهار العجب في الإسراء إلى هذا الموضع البعيد في ليلة .

(١) انظر : المحرر الوجيز (٥/٤٣٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) ، ومسلم (١٦٤) .

واختلف العلماء في كيفية الإسراء :

فقال الجمهور : كان بجسد النبي ﷺ وروحه .

وقال قوم : كان بروحه خاصة وكانت رؤيا نوم حق .

فحجة الجمهور : أنه لو كان مناماً لم تنكره قريش ، ولم يكن في ذلك ما يكذب به الكفار ، ألا ترى قول أم هانئ له : لا تخبر بذلك فيكذبك قومك ؟ .

وحجة من قال : إن الإسراء كان مناماً : قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ ﴾ [الإسراء : ٦٠] ، وإنما يقال الرؤيا في المنام ، ويقال فيما يُرى بالعين : رؤية ، وفي الحديث أنه ﷺ قال : « بينما أنا بين النائم واليقظان . . »^(١) وذكر الإسراء ، وقال في آخر الحديث : « فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام . . » .

وجمع بعض الناس بين الأدلة فقال : إن الإسراء كان مرتين : إحداهما : بالجسد ، والأخرى : بالروح ، وأن الإسراء بالجسد كان من مكة إلى بيت المقدس ، وهو الذي أنكرته قريش ، وأن الإسراء بالروح كان إلى السموات السبع ، ليلة فرضت الصلوات الخمس ، ولقي الأنبياء في السموات .

﴿ الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ صفة للمسجد الأقصى ، والبركة حوله بوجهين :

أحدهما : ما كان فيه وفي نواحيه من الأنبياء .

والآخر : كثرة ما فيه من الزروع والأشجار التي خصَّ الله بها الشام .

﴿ لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأَنْتَ ﴾ أي : لنريَ محمداً ﷺ تلك الليلة من العجائب ، فإنه

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) ، ومسلم (١٦٤) .

رأى السموات والجنة والنار وسدرة المنتهى والملائكة والأنبياء، وكلمه الله تعالى حسبما ورد في أحاديث الإسراء، وهي في مصنفات الحديث فأغنى ذلك عن ذكرها هنا.

﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى﴾ يحتمل أن يعود الضمير: على ﴿الْكِتَابِ﴾، أو على ﴿مُوسَى﴾.

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ أي: ربًّا تكلون إليه أمركم.

و«أن» يحتمل أن تكون: مصدرية، أو مفسرة.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ منادى، وفي نداءهم بذلك تلطف وتذكير بنعمة.

وقيل: هو مفعول ﴿نَتَّخِذُوا﴾.

ويتعين معنى ذلك على قراءة من قرأ ﴿يَتَّخِذُوا﴾ بالياء.

ويعني بـ ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾: أولاده الثلاثة؛ وهم: سامٌ وحامٌ ويافثٌ، ونساءهم، ومنهم تناسل الناس بعد الطوفان.

﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أي: كثير الشكر، كان يحمد الله على كل حال، وهذا تعليل لما تقدّم؛ أي: كونوا شاكرين كما كان أبوكم نوح.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ قيل: إن ﴿قَضَيْنَا﴾ هنا بمعنى: أعلمنا وأخبرنا، كما قيل في: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦]، والكتاب على هذا: التوراة.

وقيل: قضينا إليه: من القضاء والقدر، والكتاب على هذا: اللوح

المحفوظ الذي كُتبت فيه مقادير الأشياء، و«إلى» بمعنى على.

﴿لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ هذه الجملة بيانٌ للمقضي، وهي في موضع جواب ﴿قَضَيْنَا﴾ إذا كان من القضاء والقدر؛ لأنه جرى مجرى القسم.

وإن كان بمعنى أعلمنا: فهو جواب قسم محذوف، تقديره: والله لتفسدن، والجملة في موضع معمول ﴿قَضَيْنَا﴾.

والمرتان المشار إليهما: إحداهما: قتل زكريا، والأخرى: قتل يحيى عليه السلام.

﴿وَلَنَعْلَنَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ من العلو وهو الكبر^(١) والتجبر.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ معناه: أنهم إذا أفسدوا في المرة الأولى بعث الله عليهم عبادًا له؛ لينتقم منهم على أيديهم.

واختلف في هؤلاء العبيد:

ف قيل: جالوت وجنوده.

وقيل: بُحْتُ نَصْرَ^(٢) ملك بابل.

﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أي: تردّدوا بينها بالفساد، روي أنهم قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخربوا المساجد وسبّوا منهم سبعين ألفًا.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الدّولة والغلبة على الذين بُعثوا

(١) في ب: «التكبر».

(٢) انظر التعليق في ١/ ٤٨٠.

عليكم، ويعني: رجوع الملك إلى بني إسرائيل، واستنقاذ أسراهم، وقتل بخت نصر.

وقيل: قتل داود لجالوت.

﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي: أكثر عددًا، وهو:

مصدر من قولك: نفر الرجل: إذا خرج مسرعًا.

أو جمع نفرٍ.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿أَحْسَنْتُمْ﴾ الأول: بمعنى: فعل الحسنات، والثاني: بمعنى الإحسان، كقولك: أحسنتُ إلى فلان، ففيه تجنيسٌ، واللام فيه بمعنى «إلى»، وكذلك اللام في قوله: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُئِلُوا نُجُوهَكُمْ﴾ يعني: إذا أفسدوا في المرة الآخرة، بعث الله عليهم أولئك العباد للانتقام منهم، ف ﴿الْآخِرَةُ﴾ صفة للمرة.

ومعنى ﴿لِيَسُئِلُوا نُجُوهَكُمْ﴾: يجعلونها تظهر فيها آثار الشر والشرّاء كقوله: ﴿سَيَعَتُ نُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك: ٢٧].

واللام: لام كي، وهي تتعلّق بـ «بعثنا» المحذوف؛ لدلالة الأول عليه. وقيل: هي لام الأمر.

﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ يعني: بيت المقدس.

﴿وَلِيُسَيِّرُوا﴾ من التّبار، وهو الإهلاك وشدة الفساد.

﴿مَا عَلَوْا﴾ ﴿مَا﴾ مفعول ﴿يُتَبَّرُوا﴾ ؛ أي : يُهْلِكُوا ما غلبوا عليه من البلاد .

وقيل : إن ﴿مَا﴾ ظرفية ؛ أي : يفسدوا مدة غلوهم .

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ خطابٌ لبني إسرائيل ، ومعناه : ترجيةٌ لهم بالرحمة إن تابوا بعد المرة الثانية .

﴿وَأَن عُدْتُمْ عَدْنَا﴾ خطاب - أيضًا - لبني إسرائيل ؛ أي : إن عدتم إلى الفساد عدنا إلى عقابكم ، وقد عادوا ؛ فبعث الله عليهم محمدًا ﷺ وأمته يقتلونهم ويذلونهم إلى يوم القيامة .

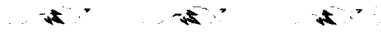
﴿حَصِيرًا﴾ أي : سجنًا ، وهو من الحَصْر .

وقيل : أراد به ما يفرش ويبسط ، كالحصير المعروف .

﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي : الطريقة والحالة التي هي أقوم .

وقيل : يعني لا إله إلا الله .

واللفظ أعم من ذلك .



[وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَزَمْنَاهُ طَبْعُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نَّمُذُّ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِن عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾].

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ المعنى : ذم وعتاب لما يفعله الناس عند الغضب من الدعاء على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، وأنهم يدعون بالشر في ذلك الوقت كما يدعون بالخير وفي وقت الثبوت ^(١).

وقيل : إن الآية نزلت في النضر بن الحارث حين قال : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية ، وقد تقدّم أن الصحيح في قائلها أنه أبو جهل ^(٢).

(١) في ب ، هـ : «الثبوت».

(٢) انظر صفحة ٤٥٥.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْهُولًا﴾ الإنسان هنا وفي الذي قبله : اسم جنس .

وقيل : يعني هنا آدم ، وهو بعيد .

﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما ، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار كقولك : مسجد الجامع ؛ أي : الآية التي هي الليل ، والآية التي هي النهار ، ومحوُ آية الليل على هذا : كونه مظلماً .

والوجه الثاني : أن يراد بآية الليل القمر ، وآية النهار الشمس ، ومحوُ آية الليل على هذا : كون القمر لم يُجعل له ضوء كضوء الشمس .

﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ يحتمل أن يريد : النهار بنفسه ، أو الشمس .

ومعنى ﴿مُبْصِرَةً﴾ تُبَصِّرُ فيها الأشياء .

﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي : لتتوصلوا بضوء النهار إلى التصرُّف في معاشكم ، ولتعلموا - باختلاف الليل والنهار ، أو بمسير الشمس والقمر - : عدد السنين وحساب الأشهر والأيام .

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ انتصب ﴿وَكُلَّ﴾ بفعل مضمر ، والتفصيل : البيان .

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ انتصب ﴿وَكُلَّ﴾ بفعل مضمر ، والطائر هنا : العمل ، والمعنى : أن عمله لازمٌ له .

وقيل : ﴿طَائِرُهُ﴾ ما قُدِّرَ عليه وله من خير وشر ، والمعنى على هذا : أن كل ما يلقي الإنسان قد سبق به القضاء ، وإنما عبَّر عن ذلك بالطائر ؛ لأن العرب

كانت عاداتها التيمُّن والتشاءم بالطير .

وقوله : ﴿ فِي عُنُقِهِ ﴾ أي : هو كالقِلادة أو العُلّ ، لا ينفك عنه .

﴿ كَتَبْنَا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ يعني : صحيفة أعماله بالحسنات والسيئات .

﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ ﴾ تقديره : يقال له : اقرأ .

﴿ حَسِيبًا ﴾ أي : محاسبًا ، أو من الحساب ؛ بمعنى العدد .

﴿ وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى ﴾ معناه حيث وقع : لا يؤاخذ أحدٌ بذنب أحد ، والوزر في اللغة : الثقل والحِمل ، ويراد به هنا : الذنوب .

ومعنى ﴿ نَزِرُ ﴾ تحمل ، و﴿ وَزَرَ أُخْرَى ﴾ أي : وزر نفس أخرى .

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ قيل : إن هذا في حكم الدنيا ؛ أي : أن الله لا يهلك أمةً إلّا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسول إليهم .

وقيل : هو عام في الدنيا والآخرة ، وأن الله لا يعذب في الآخرة قومًا إلّا وقد أرسل إليهم رسولًا فكفروا به وعصوه ، ويدلُّ على ذلك قوله : ﴿ كَلَّمَآ أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك : ٨ - ٩] ، ومن هذا يؤخذ حكم أهل الفترات .

واستدلَّ أهل السنة بهذه الآية على أن التكليف لا يلزم العباد إلّا من الشرع ، لا من مجرد العقل .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ في تأويل ﴿ أَمَرْنَا ﴾ هنا ثلاثة أوجه :

أحدهما : أن يكون في الكلام حذف تقديره : أمرنا مترفيها بالخير

والطاعة فعصوا وفسقوا .

والثاني : أن يكون ﴿أَمَرْنَا﴾ عبارة عن القضاء عليهم بالفسق ؛ أي : قضينا عليهم ففسقوا .

والثالث : أن يكون ﴿أَمَرْنَا﴾ بمعنى كثرنا ، واختاره أبو علي الفارسي .
وأما على قراءة ﴿آمَرْنَا﴾ بمدّ الهمزة فهو بمعنى كثرنا .
وأما على قراءة ﴿أَمَرْنَا﴾ بتشديد الميم فهو من الإمارة ؛ أي : جعلناهم أمراء ففسقوا .

والمتَرَف : الغنيُّ المتنعمُ بالدنيا .

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ﴾ أي : القضاء الذي قضاه الله .

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾ القرن : مئة سنة ، وقيل : أربعون .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ الآية في الكفار الذين يريدون الدنيا ، ولا يؤمنون بالآخرة ، على أن لفظها أعم من ذلك .

والمعنى : أنهم يعجلُ الله لهم حظًا من الدنيا بقيدين :

أحدهما : تقييد المقدار المعجل بمشيئة الله .

والآخر : تقييد الشخص المعجل له بإرادة الله ، و﴿لِمَنْ تُرِيدُ﴾ بدلٌ من ﴿لَهُ﴾ ، وهو بدل بعض من كل .

﴿مَذْهُورًا﴾ أي : مبعَّدًا ، أو مهانًا .

﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي : عمل لها عملها .

﴿كُلَّا نُمِدُّ﴾ انتصب ﴿كُلَّا﴾ بـ ﴿نُمِدُّ﴾ ، وهو من المَدَد، ومعناه: نزيدهم من عطائنا .

﴿هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾ بدلٌ من ﴿كُلَّا﴾ ، والإشارة إلى الفريقين المتقدمين .
﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ يعني: رزق الدنيا .

وقيل: من الطاعات لمن أراد الآخرة، ومن المعاصي لمن أراد الدنيا .
والأول أظهر .

﴿مَحْظُورًا﴾ أي: ممنوعًا .

﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني: في رزق الدنيا .

﴿لَا تَجْعَلْ﴾ خطابٌ لواحد، والمراد به جميع الخلق؛ لأن المخاطب غير معين .

﴿مَذْمُومًا﴾ أي: يذمه الله وخيار عباده .

﴿مَخْذُولًا﴾ أي: غير منصور .



[﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَسِيرَ وَالَّذِينَ فِي السَّبِيلِ وَلَا يُبْدِرُ تَبْدِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تَرَىٰ غِثًا مِنْهُمْ أَوْ بُغِيًّا مِنْهُمْ فَاصْطَلْ إِنَّ رَبَّكَ بِمَا تُعْمَلُ عَذِيبٌ قَدِيرٌ ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قُلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ وَزِنُوا بِالْقَيْسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقُلُوبُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾].

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: حَكَمَ وَالزَّم وَأَوْجَب.

أو أمر، ويدلُّ على ذلك ما في مصحف ابن مسعود: «وَوَضَىٰ رَبُّكَ».

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ «أن» مفسرة، أو مصدرية على تقدير: بأن لا تعبدوا.

﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ﴾ هي «إن» الشرطية دخلت عليها «ما» المؤكدة، وجوابها: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ﴾.

والمعنى: الوصية ببر الوالدين إذا كبرا، أو كبر أحدهما، وإنما خصَّ حاله الكبر؛ لأنهما حينئذ أحوجُّ إلى البر والقيام بمؤنتهما؛ لضعفهما. ومعنى ﴿عِنْدَكَ﴾ أي: في بيتك وتحت كنَفِكَ.

﴿أَفٍ﴾ حيث وقعت: اسم فعل، معناها: قولٌ مكروه يقال عند الضجر ونحوه، وإنما المراد بها أقل كلمة مكروهة تصدر من الإنسان، فهي الله تعالى أن يقال ذلك للوالدين، فأولى وأحرى أن لا يقال لهما ما فوق ذلك.

ويجوز في «أف» الكسر والفتح والضم، وهي حركات بناء، وأما تنوينها فهو للتكثير.

﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ من الانتهاز؛ وهو الإغلاظ في القول.

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ استعارة في معنى التواضع لهما والرفق بهما، فهو كقوله: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وأضافه إلى الذلِّ مبالغة في المعنى؛ كأنه قال: الجناح الذليل.

و«من» في قوله: ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ للتعليل؛ أي: من أجل إفراط الرحمة لهما والشفقة عليهما.

﴿لَا ذَوْرَيْنِ﴾ قيل: معناه الصالحين، وقيل: المسبِّحين، وهو مشتقٌّ من الأوبة بمعنى الرجوع؛ فحقيقته: الراجعين إلى الله.

﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ خطابٌ لجميع الناس لصلّة قرابتهم والإحسان إليهم.

وقيل: هو خطاب خاص بالنبي ﷺ أن يؤتي قرابته حقهم من بيت المال.

والأول أرجح.

﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾ الآية؛ معناها: إن أعرضت عن ذوي القربى والمساكين وابن السبيل إذا لم تجد ما تعطيههم؛ فقل لهم كلامًا حسنًا، وكان النبي ﷺ إذا سأله أحد فلم يكن عنده ما يعطيه أعرض عنه، حياءً منه، فأمر بحسن القول مع ذلك، وهو أن يقول: رزقكم الله وأعطاكم الله وشبه ذلك.

والميسور: مشتق من اليسر.

﴿أَتَبْتَغَاءَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ مفعول من أجله، يحتمل:

أن يتعلق بقوله: ﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾ والمعنى على هذا: أنه يعرض عنهم انتظارًا للرزق يأتيه، فيعطيه إياهم، فالرحمة على هذا: هو ما يرتجيه من الرزق.

أو يتعلق بقوله: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾؛ أي: ابتغ رحمة ربك بقول ميسور، والرحمة على هذا: هي الأجر والثواب.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ استعارة في معنى: غاية البخل؛ كأن البخيل حبست يده عن الإعطاء^(١)، وشُدَّتْ إلى عنقه.

(١) في ب: «العطاء».

﴿وَلَا يَبْسُطُهَا كُلُّ الْبَسِطِ﴾ استعارة في معنى: غاية الجود، فنهى الله عن الطرفين، وأمر بالتوسط بينهما، كقوله: ﴿إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿مَلُومًا﴾ أي: يلومك صديقك على كثرة عطائك وإضرارك بنفسك.

أو يلومك من يستحق العطاء؛ لأنك لم تترك ما تعطيه.

أو يلومك سائر الناس على التبذير في العطاء.

﴿تَحْسُورًا﴾ أي: منقطعاً بك لا شيء عندك، وهو من قولهم: حَسَرَ السفرُ البعير: إذا أتعبه حتى لم تَبَقَ له قوة^(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء؛ فلا تهتم بما تراه من ذلك؛ فإن الله أعلم بمصالح عباده.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ ذكر في «الأنعام»^(٢).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّذِينَ حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الحقُّ الموجب لقتل النفس: هو ما ورد في الحديث من قوله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس أخرى»^(٣).

وتتصل^(٤) بهذه الأشياء أشياء أخرى؛ لأنها في معناها، كالحراية،

(١) في ب، هـ: «يُبَقِّ له قوة».

(٢) انظر صفحة ٣٢٠.

(٣) تقدم تخريجه في صفحة ٣٢٠.

(٤) في أ، ب، هـ: «ويتصل».

وترك الصلاة، ومنع الزكاة.

﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا﴾ المظلوم هنا: مَنْ قُتِلَ بغير حق.
والولي: هو ولي المقتول وسائر العَصَبَة، وليس النساء من الأولياء عند مالك.

والسلطان الذي جعل الله له: هو القصاص، أو تخييره^(١) بين العفو والقصاص.

﴿فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ نهى عن أن يسرف وليُّ المقتول؛ بأن يقتل غير قاتل وليه، أو يقتل اثنين بواحد، أو غير ذلك من وجوه التعدي.
وقرئ ﴿فَلَا تُسْرِفُ﴾ بالتاء؛ خطاباً للقاتل، أو لوليِّ المقتول.
﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ الضمير: للمقتول، أو لوليّه، ونصره: هو القصاص.
﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ ذكر في «الأنعام»^(٢).

قال بعضهم^(٣): ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾ و﴿لَا تَقْتُلُوا﴾ معطوفات على ﴿لَا تَقْبَدُوا﴾^(٤).

والظاهر: أنها مجزومات بالنهي؛ بدليل قوله بعدها: ﴿وَلَا تَنْفُ﴾ و﴿لَا تَمْشِ﴾.

(١) في أ، ب، هـ: «وتخييره».

(٢) انظر صفحة ٣٢١.

(٣) قاله الطبري في تفسيره (٥٧٧/١٤).

(٤) في ج زيادة: «وذلك خطأ»، ولم ترد في شيء من النسخ الأخرى، ويظهر أنها زيادة مقحمة؛ بدليل أنه أن ابن جزّي وجّه هذا الإعراب كما سيأتي قريباً.

ويصحُّ أن تكون معطوفات إذا جعلنا ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ مجزوماً على النهي، و«أن» مفسّرة.

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ عامٌّ في العهود مع الله، ومع الناس.

﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون من معنى ^(١)الطلب؛ أي: يُطَلَب الوفاء به.

والثاني: أن يكون المعنى: يُسأل عنه يوم القيامة، هل وفّى به أم لا.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ قيل: القسطاس الميزان، وقيل: العدل.

وقرئ بكسر القاف، وهي لغة.

﴿وَأَحْسِنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن عاقبة ومآلاً، وهو من آل: إذا رجع.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ المعنى: لا تقل ما لا تعلم من ذمّ الناس وشبه ذلك، واللفظ مشتق من قَفَوْتُهُ: إذا اتبعته.

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد، وإنما عاملها معاملة العقلاء في الإشارة بـ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لأنها حواسُّ لها إدراك.

والضمير في ﴿عَنْهُ﴾ يعود على ﴿كُلُّ﴾، ويتعلّق ﴿عَنْهُ﴾ بـ ﴿مَسْئُولًا﴾ والمعنى: أن الإنسان يُسأل عن سمعه وبصره وفؤاده.

وقيل: الضمير يعود على: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، والمعنى على هذا: أن السمع والبصر والفؤاد هي التي تُسأل عما ليس لها به علم، وهذا بعيد.

(١) لم ترد هذه الكلمة في أ، ب، هـ.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ المَرَح: الخيلاء والكِبَر في المشية.

وقيل: هو إفراط السرور بالدنيا.

وإعرابه: مصدر في موضع الحال.

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أي: لن تجعل فيها خَرْقًا بمشيك عليها، والخَرْق هو: القطع.

وقيل: معناه: لا تقدر أن تستوفي جميعها بالمشي.

والمراد بذلك: تعليل النهي عن الكبر والخيلاء؛ أي: إذا كنت أيها الإنسان لا تقدر على خرق الأرض، ولا على مطاولة الجبال؛ فكيف تتكبر وتختال في مشيك؟!، وإنما الواجب عليك التواضع.

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ الإشارة إلى ما تقدم من المنهيات، والمكروه هنا: بمعنى الحرام، لا على اصطلاح الفقهاء في أن المكروه دون الحرام.

وإعراب ﴿مَكْرُوهًا﴾: نعت لـ ﴿سَيِّئَةً﴾، أو بدلٌ منها، أو خبر ثان لـ ﴿كَانَ﴾.

﴿أَفَأَصْفَنَاكُمْ رَبُّكُم بِأَلْبَيْنَ﴾ خطابٌ على وجه التوبيخ للعرب الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله، والمعنى: كيف يجعل لكم الأعلى من النسل وهو الذكور، ويتخذ لنفسه الأدنى وهو البنات؟!.

ومعنى ﴿أَفَأَصْفَنَاكُمْ﴾: خصكم.

﴿فَوَلَّا عَظِيمًا﴾ أي: عظيم النكر والشناعة.

[وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا وَمَا يُزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُغْيَا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَيُّذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفْنًا أَيُّذَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَنْظُنُّونَ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾].

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذَا لَا بُغْيَا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ هذا احتجاج على الوجدانية، وفي معناه قولان:

أحدهما: أن المعنى: لو كان مع الله آلهة لابتغوا سبيلا إلى التقرب إليه بعبادته وطاعته، فيكون من جملة عباده.

والآخر: لابتغوا سبيلا إلى إفساد مُلكه ومعاندته في قدرته، ومعلوم أن ذلك لم يكن؛ فلا إله إلا هو.

﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ﴾ الآية؛ اختلف في كيفية هذا التسبيح:

ف قيل: هو تسبيح بلسان الحال؛ أي: بما تدلُّ عليه صنعته من قدرة وحكمة.

وقيل : إنه تسييح حقيقة ، وهذا أرجح ؛ لقوله : ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ﴾ .
 ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ في معناه قولان :
 أحدهما : أن الله أخبر نبيه ﷺ أنه يستره من الكفار إذا أرادوا به شرًا ،
 ويحجبه ^(١) منهم .

والآخر : أنه يحجب ^(٢) الكفار عن فهم القرآن ، وهذا أرجح ؛ لما بعده .
 والمستور هنا :

قيل : معناه مستور عن أعين الخلق ؛ لأنه من لطف الله وكفايته ، فهو من
 المغيبات .

وقيل : معناه ساترًا .

﴿أَكِنَّةٌ﴾ جمع كِنَانٍ وهو الغطاء ، و﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ مفعول من أجله
 تقديره : كراهة أن يفقهوه ، وهذه كلها استعارات في إضلالهم .

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ الآية ؛ معناها : إذا ذكرت في القرآن
 وحدانية الله تعالى فرَّ المشركون عن ذلك ؛ لما فيه من رفض آلهم وذمها .
 و﴿نُفُورًا﴾ مصدر في موضع الحال .

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ كانوا يستمعون القرآن على وجه الاستهزاء ،
 والضمير في ﴿بِهِ﴾ عائذ على «ما» ؛ أي : نعلم ما يستمعون به من الاستهزاء .

(١) في ج ، د : «ويحجبه» .

(٢) في ب ، هـ : «حجب» .

﴿وَإِذْ هُمْ نَجَوَى﴾ جماعةٌ يتناجون، أو هم ذو نجوى، والنجوى: كلام السرّ.

﴿رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ قيل: معناه جُنَّ فُسُجِرَ.

وقيل: معناه ساحر.

وقيل: هو من السّحر - بفتح السين -؛ وهو الرّئة؛ أي: بشرًا ذا سحر مثلكم، وهذا بعيد.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي: مثلك بالساحر، والشاعر، والمجنون.

﴿فَصَلُّوا﴾ عن الحق.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى الهدى؛ ونزلت الآية في الوليد بن المغيرة، وأصحابه من الكفار.

﴿وَقَالُوا آءَ ذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَتًا﴾ الآية؛ معناها: إنكارهم للبعث، واستبعادهم أن يخلقهم الله خلقًا جديدًا بعد فنائهم.

والرّفات: الذي بليّ حتى صار غبارًا وفتاتًا.

وقد ذكر في «الرعد» اختلاف القراء في الاستفهامين^(١).

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ المعنى: لو كنتم حجارة أو حديدًا لقدّرنا على بعثكم وإحيائكم، مع أن الحجارة والحديد أصلب الأشياء وأبعدها عن

(١) انظر صفحة ٦٦٩.

الرطوبة التي في الحياة؛ فأولى وأحرى أن نبعث أجسادكم ونحيي عظامكم البالية، فذكر الحجارة والحديد تنبيهًا بهما على ما هو أسهل في الحياة منهما.

ومعنى قوله: ﴿كُونُوا﴾ أي: كونوا في الوهم والتقدير، وليس المراد به التعجيز كما قال بعضهم في ذلك.

﴿أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قيل: يعني السموات والأرض والجال.

وقيل: بل أحال على فكرتهم عمومًا في كل ما هو كبير عندهم؛ أي: لو كنتم حجارة أو حديدًا أو شيئًا أكبر عندكم من ذلك وأبعد عن الحياة؛ لقدّرنا على بعثكم.

﴿فَيَنْفُضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحركونها تحريك المستبعد للشيء، أو المستهزئ.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ أي: متى يكون البعث.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ﴾ الدعاء هنا: عبارة عن البعث بالنفخ في الصور.

والاستجابة: عبارة عن قيامهم من القبور طائعين منقادين.

﴿وَبِحَمْدِهِ﴾ في موضع الحال؛ أي: حامدين له.

وقيل: معنى ﴿بِحَمْدِهِ﴾: بأمره.

﴿وَتُظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: لبثتم في الدنيا، أو في القبور.

[﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنَّ يَسَاءَ يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِنْ مِنْ قَرَبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾].

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ العباد هنا: المؤمنون؛ أمرهم أن يقول بعضهم لبعض كلامًا لينا طيبًا.

وقيل: أن يقولوه للمشركين، ثم نسخ بالسيف.

وإعراب ﴿يَقُولُوا﴾ كقوله: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١] في «إبراهيم»، وقد ذكر^(١).

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ قيل: يعني الملائكة.

وقيل : عيسى وأمه وعُزَيْرًا^(١).

وقيل : نفرٌ من الجن كان العرب يعبدونهم.

والمعنى : أنهم لا يقدرّون على كشف الضرّ عنكم ، فكيف تعبدونهم؟! .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ المعنى : أن أولئك الآلهة الذين تدعون من دون الله يبتغون القرّبة إلى الله ، ويرجونّه ، ويخافونه ، فكيف تعبدونهم معه؟! .

وإعراب ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ ، و﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ صفة له ، و﴿يَبْتَغُونَ﴾ خبره ، والفاعل في ﴿يَدْعُونَ﴾ ضميرٌ للكفار^(٢) ، وفي ﴿يَبْتَغُونَ﴾ للآلهة^(٣) المعبودين .

وقيل : إن الضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ و﴿يَبْتَغُونَ﴾ للأنبياء المذكورين قبل في قوله : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ .

و﴿الْوَسِيلَةَ﴾ هي ما يُتوسَّل به ويُتقرب .

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدلٌ من الضمير في ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ؛ أي : يبتغي الوسيلة من هو أقرب منهم ، فكيف بغيره؟ .

أو ضمّن معنى «يَحْرِصُونَ» ؛ فكأنه قال : يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله بالاجتهاد في طاعته .

(١) في ج ، د : «وعزير» بالمنع من الصرف ، وهو مختلف في صرفه ومنعه من الصرف ، كما سبق كلام ابن جزى عنه في سورة التوبة ، صفحة ٤٨٨ .

(٢) في ج ، د : «الكفار» بدون لفظة «ضمير» .

(٣) في ب ، ج : «الآلهة» .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : أَنَّهُمْ يَتَوَسَّلُونَ بِأَيُّهُمْ أَقْرَبَ .

﴿مَحْذُورًا﴾ من الحذر ؛ وهو الخوف .

﴿وَأِنْ مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا الْكَلَامُ وَجْهَيْنِ :

أحدهما : أَنْ يَكُونَ بِالْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ الَّذِي لَا بَدَّ مِنْهُ .

والآخر : أَنْ يَكُونَ بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ يَأْخُذُ^(١) الْمَدِينَةَ دَفْعَةً فَيَهْلِكُهَا ، وَهَذَا أَظْهَرُ ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ مَعْلُومٌ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى الْإِخْبَارِ بِهِ .

وَالْهَلَاكُ وَالتَّعْذِيبُ الْمَذْكُورَانِ فِي الْآيَةِ هُمَا فِي الْحَقِيقَةِ لِأَهْلِ الْقُرَى ؛ أَيْ : مَهْلِكُو أَهْلِهَا أَوْ مَعْذِبُوهُمْ .

وَرَوَى : أَنَّ هَلَاكَ مَكَّةَ بِالْحَبْشَةِ ، وَالْمَدِينَةَ بِالْجَوْعِ ، وَالْكُوفَةَ بِالْتَّرْكِ ، وَالْأَنْدَلُسَ بِالْخَيْلِ .

وَسَأَلَ الْأُسْتَاذَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ الزَّبِيرِ عَنْ غَرْنَاطَةِ ، فَقَالَ : أَصَابَهَا الْعَذَابُ يَوْمَ قَتْلِ الْمُوَحِّدِينَ بِهَا فِي ثَوْرَةِ ابْنِ هُودٍ ، وَأَمَّا هَلَاكُ قَرْطَبَةَ وَإِشْبِيلِيَّةَ وَطَلِيْطَلَةَ وَغَيْرَهَا فَأَخَذَ الرُّومُ لَهَا .

﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ يَعْنِي : اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ .

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ الْآيَاتُ هُنَا يُرَادُ بِهَا : الَّتِي يَقْتَرِحُهَا الْكُفَّارُ ، فَإِذَا رَأَوْهَا وَلَمْ يُؤْمِنُوا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ .

(١) فِي أ ، ب ، ج ، هـ : «بِأَخْذٍ» .

وسبب الآية : أن قريشاً اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، فأخبر الله أنه لم يفعل ذلك لئلا يكذبوا فيهلكوا ، وعبر بالمنع عن ترك ذلك .

﴿أَنْ تُرْسِلَ﴾ في موضع نصب ، و﴿أَنْ كَذَبَ﴾ في موضع رفع .
ثم ذكر ناقة ثمود تنبيهاً على ذلك ؛ لأنهم اقترحوها فكانت ^(١) سبب هلاكهم .

ومعنى ﴿مُبْصِرَةً﴾ : بينة واضحة الدلالة .

﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ إن أراد بالآيات هنا المقترحة : فالمعنى : أنه يرسل بها تخويفاً من العذاب العاجل وهو الإهلاك .
وإن أراد المعجزات غير المقترحة : فالمعنى : أنه يرسل بها تخويفاً من عذاب الآخرة ؛ ليراها الكافر فيؤمن .

وقيل : المراد بالآيات هنا الزلازل والرعَد والكسوف وغير ذلك من المخاوف .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ المعنى : اذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش ؛ يعني : بشرناك بقتلهم يوم بدر ، وذلك قوله : ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر : ٤٥] ، وإنما قال : ﴿أَحَاطَ﴾ بلفظ الماضي وهو لم يقع ؛ لتحقيقه ^(٢) وصحة وقوعه بعد .

(١) في أ ، ب ، هـ : «وكانت» .

(٢) في ب : «لتحققه» .

وقيل : المعنى : أحاط بالناس في منعك وحياطتك منهم ، كقوله : ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] .

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ اختُلف في هذه الرؤيا :

ف قيل : إنها الإسراء :

فمن قال إنه كان في اليقظة : فالرؤيا بمعنى الرؤية بالعين .

ومن قال إنه كان في المنام : فالرؤيا منامية^(١) .

والفتنة على هذا : تكذيب الكفار بذلك ، وارتداد بعض المسلمين حينئذ .

وقيل : إنها رؤيا النبي ﷺ في منامه هزيمة الكفار وقتلهم ببدر ، والفتنة على هذا : تكذيب قريش بذلك وسخريتهم به .

وقيل : إنها رؤياه أنه يدخل مكة ، فعجل في سنة الحديبية فرد عنها ، فافتتن بعض المسلمين بذلك .

وقيل : رأى في المنام أن بني أمية يصعدون على منبره ؛ فاغتم بذلك^(٢) .

﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ يعني : شجرة الزقوم ، وهي معطوفة على ﴿الرُّيَا﴾ ؛ أي : جعل الرؤيا والشجرة فتنة للناس ؛ وذلك أن قريشاً لما سمعوا أن في جهنم شجرة زقوم سخروا من ذلك وقالوا : كيف تكون شجرة في النار والنار تحرق الشجر؟ وقال أبو جهل : ما أعرف الزقوم إلا التمر بالزبد .

(١) في ب ، ج ، هـ : «منامة» ، وفي د : «منامه» .

(٢) في ج ، د : «لذلك» .

فإن قيل : أين لُعنت شجرة الزقوم في القرآن؟
فالجواب : أن المراد : لعنةُ آكلِها .
وقيل : اللعنة بمعنى الإبعاد ؛ لأنها في أصل الجحيم .
﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ الضمير لكفار قريش .

• • • • •

[وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿١٣﴾ وَاسْتَغْفِرُ مَنْ أَسْطَغَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بَخِيلِكَ وَرَجَلَيْكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿١٥﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْأَفْلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا فُجِّعْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٧﴾ أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿١٨﴾ أَمْ أَمْسَرْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٢٠﴾] .

﴿طِينًا﴾ تمييزٌ، أو حالٌ من ﴿مَنْ﴾، أو من مفعول ﴿خَلَقْتَ﴾ .

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ الكاف من ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ للخطاب، لا موضع لها من الإعراب، و﴿هَذَا﴾ مفعول بـ «أرأيت»، والمعنى: أخبرني عن هذا الذي كَرَّمْتَهُ علي - أي: فَضَّلْتَهُ - ؛ لم فضَّلْتَهُ وأنا خير منه؟، فاختصر الكلام بحذف^(١) ذلك.

وقال ابن عطية: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ هنا بمعنى: أَتَأَمَّلْتُ ونحوه، لا بمعنى أخبرني^(٢).

(١) في ج: «فحذف».

(٢) المحرر الوجيز (٥/٥٠٦).

﴿لَاخْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾ معناه: لأُمْلئَنَّهُم وأقودهم، وهو مأخوذ من: تحنيك الدابة؛ وهو أن يشدَّ على حنكها بحبلٍ فتنقاد.
 ﴿قَالَ أَذْهَبَ﴾ قال ابن عطية: ﴿أَذْهَبَ﴾ وما بعده من الأوامر: صيغة أمر على وجه التهديد^(١).

وقال الزمخشري: ليس المراد الذهاب الذي هو ضدُّ المجيء، وإنما معناه: امض لشأنك الذي اخترته؛ خذلاً لنا له وتخلية^(٢).

ويَحْتَمِلُ عندي: أن يكون معناه: الطرد والإبعاد.

﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَرَّاءُ كُفْرٍ﴾ كان الأصل أن يقال: «جزاؤهم» بضمير الغيبة؛ ليرجع إلى ﴿مَنْ تَبِعَكَ﴾، ولكنه ذكره بلفظ الخطاب؛ تغليبا للمخاطب على الغائب، وليدخل إبليس معهم.

﴿جَزَاءٌ مَوْفُورًا﴾ مصدر في موضع الحال، والموفور: المكمل.

﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾ أي: اخدع واستخفَّ.

﴿بِصَوْتِكَ﴾ قيل: يعني الغناء والمزامير.

وقيل: الدعاء إلى المعاصي.

﴿وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: هَوَّلَ، وهو من الجَلْبَةِ، وهو الصياح.

﴿بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ﴾ الخيل هنا يراد به^(٣): الفرسان الراكبون على خيل،

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥/٥٠٨).

(٢) انظر: الكشف (٩/٣٣٠).

(٣) في أ، د، هـ: «بها».

والرَّجُلُ : جمع راجل ؛ وهو الذي على رجله :

فَقِيلَ : هو مجاز واستعارة بمعنى : افعل جَهْدَكَ .

وقيل : إن له من الشياطين خيالاً ورجلاً .

وقيل : المراد : فرسان الناس ورجالهم المتصرفون في الشر .

﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ مشاركته في الأموال : هي بكسبها بالربا ، وإنفاقها في المعاصي وغير ذلك .

ومشاركته في الأولاد : هي بالاستيلاد بالزنا ، وتسمية الولد عبد شمس وعبد الحارث وشبه ذلك .

﴿وَعَدُهُمْ﴾ يعني : المواعد الكاذبة ؛ من شفاعة الأصنام وشبه ذلك .

﴿إِنْ عِبَادِي﴾ يعني : المؤمنين الذين يتوكلون على الله ؛ بدليل قوله بعد ذلك : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ ، ونحوه : ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ [النحل : ٩٩] .

﴿يُزْجَىٰ لَكُمْ أَلْفُكُ﴾ أي : يجريها ويسيرها ، والفلك هنا : جمع ، وابتغاء الفضل : في التجارة وغيرها .

﴿الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ يعني : خوف الغرق .

﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ضلَّ هنا : بمعنى تَلَفَ وفُقدَ ؛ أي : تلف عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه إلا الله وحده ، فلجأتم إليه حينئذ دون غيره ، فكيف تعبدون غيره وأنتم لا تجدون في تلك الشدة إلا إياه؟! .

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أي : كفورًا بالنعم ، والإنسان هنا : جنس .

﴿أَفَأَمِنْتُ﴾ الهمزة للتوبيخ، والفاء للعطف؛ أي: أنجوتم من البحر فأمتم الخسف في البر؟! .

﴿حَاصِبًا﴾ يعني: حجارة، أو ريحًا شديدة ترمي بالحصباء .

﴿وَكَيْلًا﴾ أي: قائمًا بأموركم، وناصرًا لكم .

﴿قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ يعني: الذي يقصف ما يلقي؛ أي: يكسره .

﴿يَبِيعًا﴾ أي: مطالبًا بئاركم؛ أي: لا تجدون من ينتصر لكم منا، كقوله:

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥] .

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ يعني: فضّلهم على الجن وعلى سائر الحيوان، ولم يفضلهم على الملائكة؛ ولذلك قال: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾، وأنواع التفضيل كثيرة لا تحصى، وقد ذكر المفسرون منها: كون الإنسان يأكل بيده، وكونه منتصب القامة، وهذه أمثلة .

[يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِإِمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾].

﴿بِإِمْئِهِمْ﴾ قيل: يعني بنبيهم؛ يقال: يا أمة فلان.

وقيل: يعني: كتابهم الذي نزل عليهم.

وقيل: كتابهم الذي فيه أعمالهم.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الفتيل: هو الخيط الذي في شق نواة التمرة، والمعنى: أنهم لا يظلمون من أعمالهم قليلاً ولا كثيراً، فعبر بأقل الأشياء؛ تنبيهاً على الأكثر.

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ الإشارة بـ ﴿هَذِهِ﴾ إلى الدنيا.

والعمى يراد به: عمى القلب؛ أي: من كان في الدنيا أعمى عن الهدى^(١) والصواب فهو في يوم القيامة أعمى؛ أي: حيران يائس من الخير. ويحتمل أن يريد بالعمى في الآخرة: عمى البصر؛ كقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

(١) في ب: «الهداية».

وإنما جعل الأعمى في الآخرة أضل سبيلاً ؛ لأنه حينئذ لا ينفعه الاهتداء.

ويعجز في ﴿أَعْمَى﴾ الثاني :

أن يكون صفة كالأول .

وأن يكون من «أفعل» التي للتفضيل ، وهذا أقوى ؛ لقوله ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فعطف ﴿وَأَضَلُّ﴾ الذي هو من «أفعل من كذا» على ما هو شبهه .

وقال سيويه : لا يجوز أن يقال : هو أعمى من كذا .

ولكن إنما يمتنع ذلك في عمى البصر ، لا في عمى القلب .

﴿وَأَن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ الآية ؛ سببها : أن قريشاً قالوا للنبي ﷺ : اقبل^(١) بعض أمرنا ونقبل على بعض أمرك .

وقيل : إن ثقيفا طلبوا من النبي ﷺ أن يؤخرهم بعد إسلامهم سنة يعبدون فيها اللات والعزى ، والآية على هذا القول مدنية .

﴿لِفَتْرَى عَلَيْنَا غَيْرُهُ﴾ الافتراء هنا يراد به : مخالفة ما أوحى إليه في القرآن أو في غيره .

﴿وَإِذَا لَاتَخَذُوا خَلِيلًا﴾ أي : لو فعلت ما أرادوا منك لاتخذوك خليلاً .

﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَبًّا قَلِيلًا﴾ ﴿٧٤﴾ «لولا» تدل على امتناع شيء لوجود غيره ، فدللت هنا على امتناع مقاربة النبي ﷺ الركون إليهم ؛ لأجل تثبيت الله له وعصمته .

(١) في دزيادة : «على» .

﴿كَذَّكَ﴾ تقتضي -أيضاً- نفْيَ الركون ؛ لأن معنى كاد فلان يفعل كذا : أنه لم يفعله ؛ فانتفى الركون إليهم ومقاربته ، فليس في ذلك غَضٌّ من جانب النبي ﷺ ؛ لأن التثيت منعه من مقاربة الركون إليهم ، ولو لم يثبت الله لكانت مقاربته للركون إليهم شيئاً قليلاً ، وأما مع التثيت فلم يركن قليلاً ولا كثيراً ، ولا قارب ذلك .

﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي : ضعف عذابهما لو فعل ذلك .

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ الضمير لقريش ، كانوا قد همُّوا أن يخرجوا النبي ﷺ من مكة ، وذلك قبل الهجرة ، فالأرض هنا يراد بها : مكة ؛ لأنها بلده .

﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي : لو أخرجوك لم يلبثوا بعد خروجك من مكة إلا قليلاً ، فلما خرج النبي ﷺ مهاجراً من مكة إلى المدينة ، لأجل إذاية قريش له ولأصحابه ، لم يبقوا بعد ذلك إلا قليلاً ، وقتلوا يوم بدر .

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ انتصب ﴿سُنَّةَ﴾ على المصدر ، ومعناه : العادة ؛ أي : هذه عادة الله مع رسله .

[﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١) وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ (٨٣) قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (٨٤)].

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ هذه الآية إشارة إلى الصلوات المفروضة:

فدلوك الشمس: زوالها، والإشارة إلى الظهر والعصر.

وغسق الليل: ظلمته، وذلك إشارة إلى المغرب والعشاء.

وقرآن الفجر: صلاة الصبح.

وانتصب ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾:

بالعطف على موضع اللام في قوله: ﴿لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾؛ فإن اللام فيه ظرفية بمعنى «عند».

وقيل: هو عطف على ﴿الصَّلَاةِ﴾.

وقيل: مفعول بفعل مضمّر تقديره: اقرأ قرآن الفجر.

وإنما عبّر عن صلاة الصبح بقرآن الفجر؛ لأن القرآن فيها أكثر من غيرها؛ لأنها تصلى بسورتين طويلتين.

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: تشهده ملائكة الليل والنهار، فيجتمعون فيه؛ إذ تصعد ملائكة الليل وتنزل ملائكة النهار.

﴿وَمَنْ أَلِيلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ لما أمر بالفرائض أمر بعدها بالنوافل. و﴿مِنْ﴾ للتبعيض، والضمير في ﴿بِهِ﴾ للقرآن.

والتهجد: السهر؛ وهو ترك الهجود، ومعنى الهجود: النوم؛ فالتفعل هنا: للخروج عن الشيء، كالتحرج والتأثم في الخروج عن الإثم والحرَج. ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ يعني: الشفاعة يوم القيامة، وانتصب ﴿مَقَامًا﴾ على الظرف.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ الآية؛ المدخل: دخوله إلى المدينة، والمخرج: خروجه من مكة.

وقيل: المدخل: في القبر، والمخرج: إلى البعث.

واختار ابن عطية أن يكون على العموم في جميع الأمور^(١).

﴿سُلْطَنًا نَّصِيرًا﴾ قيل: معناه: حجة تنصرنى بها وتُظهر^(٢) بها صدقي.

وقيل: قوة ورياسة تنصرنى بها على الأعداء، وهذا أظهر.

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ الحق: الإيمان، والباطل: الكفر.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ ﴿مِنْ﴾: لبيان الجنس، أو للتبعيض.

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥/ ٥٣٠).

(٢) في أ، ب: «ويظهر».

والمراد بالشفاء: أنه يَشْفِي القلوب من الريب^(١) والجهل.
 وَيَحْتَمِلُ أن يريد: نفعه من الأمراض؛ بالرُّقَى به والتعويد.
 ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَنِ﴾ الآية؛ المراد بالإنسان هنا: الجنس؛ لأن ذلك
 من سجيّة الإنسان.

وقيل: إنما يراد الكافر؛ لأنه هو الذي يُعْرِضُ عن الله.
 ﴿وَنَّا بِحَانِهِ﴾ أي: بُعد، وذلك تأكيدٌ وبيانٌ للإعراض.
 وقرئ ﴿نَاءً﴾، وهو بمعنى واحد.
 ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾ أي: مذهبه وطريقته التي تشاكله.

(١) في أ، ب: «الريبة».

[وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَاتٍ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ فِئْلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ السائلون: اليهود، وقيل: قريش بإشارة اليهود.

والروح هنا:

عند الجمهور: هو الذي في الجسم، وقد يقال فيه: النفس.

وقيل: الروح هنا جبريل.

وقيل: القرآن.

والأول هو الصواب لدلالة ما بعده على ذلك.

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من الأمور التي استأثر الله بها، ولم يُطلع عليها خلقه.

وكانت اليهود قد قالت لقريش: أسألوهم عن الروح، فإن لم يجيبكم فيه بشيء فهو نبي، وذلك أنه كان عندهم في التوراة: أن الروح مما انفرد الله بعلمه.

وقال ابن بريدة: لقد مضى النبي ﷺ وما يعرف الروح^(١).

ولقد كثر اختلاف الناس في النفس والروح، وليس في أقوالهم في ذلك ما يعول عليه.

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ خطاب عام لجميع الناس؛ لأن علمهم قليل بالنظر إلى علم الله.

وقيل: خطاب لليهود خاصة.

والأول أظهر؛ لأن فيه إشارة إلى أنهم لا يصلون إلى العلم بالروح.
﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَ بِالَّذِي أُوحِيَآ إِلَيْكَ﴾ أي: إن شئنا ذهبنا بالقرآن، فمحوناه من الصدور والمصاحف.

وهذه الآية متصلة المعنى بقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: في قدرتنا أن نذهب بالذي أوحينا^(٢) إليك فلا يبقى عندكم شيء من العلم.

﴿وَكَيْلًا﴾ أي: من يتوكل برده وإعادته بعد ذهابه.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ يحتمل أن يكون:

استثناء متصلًا؛ بمعنى: أن رحمة ربك ترد القرآن بعد ذهابه لو ذهب.

أو استثناء منقطعًا؛ بمعنى: أن رحمة ربك تمسكه عن الذهاب.

﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾
عجز الخلق عن الإتيان بالقرآن؛ لما تضمنه من العلوم الإلهية، والبراهين

(١) أخرجه أبو الشيخ الأصهباني بإسناده إلى عبد الله بن بريدة في كتاب العظمة (٣/ ٨٦٧).

(٢) في أ، ب، هـ: «أوحي».

الواضحة، والمعاني العجيبة التي لم يكن الناس يعلمونها، ولا يصلون إليها، ثم جاءت فيه على الكمال.

وقال أكثر الناس: إنهم عجزوا عنه لفصاحته وحسن نظمه.

ووجوه إعجازه كثيرة قد ذكرنا في غير هذا منها خمسة عشر وجهًا^(١).
﴿ظَهَرَ﴾ أي: معينًا.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بينا لهم كل شيء من العلوم النافعة، والبراهين القائمة، والحجج الواضحة.

وهذا يدل على إن إعجاز القرآن بما فيه من المعاني والعلوم كما ذكرنا.
﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ الكفور: الجحود، وانتصب بقوله:
﴿أَبَى﴾؛ لأنه في معنى النفي.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الذين قالوا هذا القول: هم أشراف قريش، طلبوا من النبي ﷺ أنواعًا من خوارق العادات، وهي التي ذكرها الله في هذه الآية.

وقيل: إن الذي قاله عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، وكان ابن عمه النبي ﷺ، ثم أسلم بعد ذلك.

والينبوع: العين، قالوا له: إن مكة قليلة الماء ففجّر لنا فيها عينًا من الماء.

(١) ذكر في المقدمة في الباب الحادي عشر عشرة أوجه من الإعجاز، وذكر هذه الأوجه العشرة أيضًا في كتابه «النور المبين في قواعد عقائد الدين» (ص: ٦٧).

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخِيفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبا: ٩].

﴿كِسْفًا﴾ بفتح السين: جمع كِسْفَةٍ؛ وهي القطعة.

وقرئ بالإسكان؛ أي: قِطْعًا واحدًا.

﴿قَبِيلًا﴾ قيل: معناه مقابلة ومعاينة.

وقيل: ضامنًا شاهدًا بصدقك، والقبالة في اللغة: الضمان.

﴿بَيْتٌ مِّن زُرُوفٍ﴾ أي: من ذهب.

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ﴾ تعجبٌ من اقتراحاتهم، و^(١) تنزيهٌ لله عن قولهم: ﴿تَأْتِي بِاللَّهِ﴾، وعن أن يطلب منه هذه الأشياء التي طلبها الكفار؛ لأن ذلك سوء أدب.

﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي: إنما أنا بشر؛ فليس في قدرتي شيء مما طلبتم، وأنا رسول؛ فليس علي إلا التبليغ.



(١) في ج: «أو».

[وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾].

﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ المعنى : أن الذي منع الناس من الإيمان هو إنكارهم لبعث الرسل ^(١) من البشر .

﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ الآية ؛ معناها : أنه لو كان أهل الأرض ملائكةً لكان الرسول إليهم ملكًا ، ولكنهم بشر ؛ فالرسول إليهم بشر من جنسهم .

ومعنى ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ : ساكنين في الأرض .

﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ذكر في «الأنعام» ^(٢) .

﴿عُمًى وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ قيل : هي استعارات بمعنى أنهم يوم القيامة حيارى .

(١) في أ ، د ، هـ : «الرسول» .

(٢) انظر صفحة ٢٤٩ .

وقيل: هي حقائق، وأنهم يكونون عمياً وبكماً وصماً حين قيامهم من قبورهم.

﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ معناه في اللغة: سكن لهما، والمراد هنا: كلما أكلت لحومهم فسكن لهما بدّلوا أجساداً أُخَرَ، ثم صارت ملتبهة أكثر مما كانت. ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا﴾ استبعادٌ للحشر، وقد تقدّم معنى الرفات^(١)، والكلام في الاستفهامين^(٢).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ﴾ الآية؛ احتجاج على الحشر؛ فإن السموات والأرض أكبر من الإنسان، فكما قدّر الله على خلقتها؛ فأولى وأحرى أن يقدر على إعادة جسد الإنسان بعد فناءه. والرؤية في الآية رؤية قلب.

﴿أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ القيامة، أو أجل الموت.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ «لو» حرف امتناع، ولا يليها إلا الفعلُ ظاهراً أو مضمرًا، فلا بد من فعل يقدر هنا بعدها تقديره: لو تملكون، ثم فسّره بـ ﴿تَمْلِكُونَ﴾ الظاهر، و﴿أَنْتُمْ﴾ تأكيد للضمير الذي في «تملكون» المضمر. ﴿حَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أي: الأموال والأرزاق.

﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أي: لو ملكتم الخزائن لأمسكنكم عن الإعطاء خشية الفقر، فالمراد بالإنفاق: عاقبة الإنفاق؛ وهو الفقر.

(١) انظر صفحة ٨١٠.

(٢) انظر سور الرعد صفحة ٦٦٩.

ومفعول ﴿لَأَمْسَكَنَّكُمْ﴾ : محذوفٌ .

وقال الزمخشري : لا مفعول له ؛ لأن معناه : بَخِلْتُمْ ؛ من قولهم للبخیل : ممسك^(١) .

ومعنى الآية : وصف الإنسان بالشح وخوف الفقر ، بخلاف وصف الله تعالى بالجلود والغنى .

(١) انظر : الكشف (٣٨٦/٩) .

[وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَسَّ لِىَ إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٦١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنِ مَشْبُورًا ﴿١٦٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٦٣﴾ وَقُلْنَا مِى بَعْدِهِ لِبَنِّ إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٦٤﴾ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٦٥﴾ وَفَرَأَيْنَا فَتْنَةً لِّقُرْآنِهِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيرًا ﴿١٦٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّا لِلَّذِينَ ءَاثَرُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلْآذْقَانِ سُجْدًا ﴿١٦٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٦٨﴾ وَيَجْرُونَ لِلْآذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٦٩﴾ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَر بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٧٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١٧١﴾].

﴿تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ الخمس منها: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والأربع: انقلاب عصاه حية، وإخراج يده بيضاء، وحلُّ العُقْدَةِ من لسانه، وفَلَقَ البحر.

وقد عُدَّ فيها: رفع الطور فوقهم، وانفجار الماء من الحجر، على أن يسقط اثنان من الآخر.

وقد عُدَّ فيها -أيضًا-: السنون، والنقص من الثمرات.

وروي أن بعض اليهود سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «هي ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببريء إلى سلطان ليقته، ولا تسحروا،

ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا المحصنات، ولا تفروا يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت»^(١).

﴿فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: أسأل المعاصرين لك من بني إسرائيل عما ذكرنا من قصة موسى؛ لتزداد يقيناً، والآية - على هذا - خطاب لمحمد ﷺ.

وقال الزمخشري: إن المعنى: قلنا لموسى: أسأل بني إسرائيل من فرعون؛ أي: اطلب منه أن يرسلهم معك، فهو كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، فالأمر في قوله ﴿فَسَلَّ﴾ لموسى على إضمار القول. وقال - أيضاً - : يَحْتَمِلُ أن يكون المعنى: أسأل بني إسرائيل أن يعضدوك ويكونوا معك^(٢).

وهذا أيضاً على أن يكون الخطاب لموسى.
والأول أظهر.

﴿إِذْ جَاءَهُمُ﴾ الضمير لبني إسرائيل، والمراد: آباؤهم الأقدمون.
والعامل في ﴿إِذْ﴾:

على القول الأول: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾، أو فعل مضمَر.

والعامل فيه على قول الزمخشري: القول المحذوف.

﴿مَسْحُورًا﴾ هنا وفي «الفرقان»: أي: سُحِرَتْ فاختلط عقلك.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٠٩٢)، والترمذي (٢٧٣٣)، (٣١٤٤)، والنسائي في الكبرى (٤٤٩/٣)، (٤٣/٨).

(٢) انظر: الكشف (٣٨٨/٩).

وقيل : معناه : ساحر .

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ - بفتح التاء - خطاب لفرعون ، والمعنى : أنه علم أن الله أنزل الآيات ، ولكنه كفر بها ^(١) عنادًا ، كقوله : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل : ١٤] .

والإشارة بـ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إلى الآيات .

﴿مُجْرِبًا﴾ أي : مُهلِكًا ، وقيل : مغلوبًا ، وقيل : مصروفًا عن الخير .
قابل موسى قول فرعون : ﴿لَأُظَنِّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ بقوله : ﴿وَإِنِّي لَأُظَنِّكَ بِفِرْعَوْنَ مُجْرِبًا﴾ .

﴿فَارَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يعني : أرض مصر .

﴿أَسْكَنُوا الْأَرْضَ﴾ يعني : أرض الشام .

﴿لَفِيفًا﴾ أي : جميعًا مختلطين .

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ﴾ الضمير للقرآن ، و﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه في الموضوعين : بالواجب من المصلحة والسداد .

وقيل : معنى الأول كذلك ، ومعنى الثاني : ضد الباطل ؛ أي : بالحق في أخباره وأوامره ونواهيه .

﴿وَفَرَّأْنَا فَرَقَّتُهُ﴾ انتصب بفعل مضمر يدل عليه ﴿فَرَقَّتُهُ﴾ ، ومعناه : بيناه وأوضحناه .

(١) في ج ، هـ : «كذبها» .

﴿عَلَىٰ مَكِّثٍ﴾ قيل : معناه على تمهلٍ وترتيل في قراءته .

وقيل : على طول مدة نزوله شيئًا فشيئًا من حين بعث النبي ﷺ إلى وفاته ، وذلك عشرون سنة ، وقيل : ثلاث وعشرون .

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أمرٌ باحتقارهم وعدم الاكتراث بهم ، كأنه يقول : سواء آمنتم أو لم تؤمنوا ؛ لأنكم لستم بحجة ، وإنما الحجة أهل العلم من قبله ، وهم المؤمنون من أهل الكتاب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ يعني : المؤمنين من أهل الكتاب .

وقيل : الذين كانوا على الحنيفية قبل البعثة ؛ كزيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل .

والأول أظهر .

وهذه الجملة تعليلٌ لما تقدّم ، والمعنى : إن لم تؤمنوا به أنتم ، فقد آمن به من هو أعلم منكم .

﴿يَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي : لناحية الأذقان ، كقولهم : خرّ لليدين وللنم .

والأذقان : جمع ذَقْنٍ ، وهو أسفل الوجه حيث اللحية .

وإنما كرّر ﴿يَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ ؛ لأن الأول للسجود ، والثاني للبكاء .

﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ سببها : أن الكفار سمعوا رسول الله ﷺ

يدعو : «يا الله يا رحمن» ، فقالوا : كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد ، وها هو يدعو إلهين ! ، فنزلت الآية مبينة أن قوله : «الله أو الرحمن» اسمان لمسمى واحد ، وأنه مخيرٌ في الدعاء بأيّ الاسمين شاء .

والدعاء في الآية بمعنى التسمية ؛ كقولك : دعوت ولدي زيداً ، لا بمعنى النداء .

﴿أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ﴿أَيُّمَا﴾ اسم شرط منصوب بـ ﴿تَدْعُوا﴾ ، والتنوين فيه عوضٌ من المضاف إليه ، و﴿مَا﴾ زائدة للتأكيد ، والضمير في ﴿لَهُ﴾ لله تعالى ، وهو المسمى ، لا الاسم .

والمعنى : أي هذين الاسمين تدعو فحسنٌ ؛ لأن الله له الأسماء الحسنى فوضع قوله : ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ موضع الجواب ، وهو في المعنى تعليل للجواب ؛ لأنه إذا حُنتُ أسماؤه كُلُّها حُسُنَ هذان الاسمان .

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ المخافته : هي الإسرار .

وسبب الآية : أن رسول الله ﷺ جهر بالقرآن في الصلاة ، فسمعه المشركون ، فسبُّوا القرآن ومن أنزله ، فأمر رسول الله ﷺ بالتوسط بين الإسرار والجهر ؛ لئسمع أصحابه الذين يصلون معه ، ولا يُسمع المشركين .

وقيل : المعنى : لا تجهر بصلاتك كلها ، ولا تخافت بها كلها ، واجعل منها سرّاً وجهراً ، حسبما أحكمته السنة .

وقيل : الصلاة هنا الدعاء .

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ أي : ليس له ناصر يمنعه من الذل ؛ لأنه تعالى عزيز ، فلا يفتقر إلى وليٍّ يحميه ، فنفى الولاية على هذا المعنى ؛ لأنه غني عنها ، ولم ينف الولاية على وجه المحبة والكرامة لمن شاء من عباده .

وحكى الطبري أن قوله : ﴿لَمْ يَنْخِذْ وَلَدًا﴾ ردُّ على النصارى واليهود ، الذين

نسبوا لله ولداً ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ﴾ ردُّ على المشركين ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ ردُّ على الصابئين في قولهم : لولا أولياء الله لذلَّ الله ، تعالى الله عن قولهم ^(١) .

﴿وَكِبَرَهُ﴾ معطوف على ﴿قُلْ﴾ ، ويَحتمل هذا التكبير :

أن يكون بالقلب ؛ وهو التعظيم .

أو باللسان ؛ وهو أن يقول : «الله أكبر» مع قوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْخِذْ وَلَدًا﴾ الآية .

(١) انظر : تفسير الطبري (١٣٩/١٥) .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
﴿ سورة النساء ﴾	٥
﴿ سورة المائدة ﴾	١٣٨
﴿ سورة الأنعام ﴾	٢٤٠
﴿ سورة الأعراف ﴾	٣٢٩
﴿ سورة الأنفال ﴾	٤٣٨
﴿ سورة براءة ﴾	٤٧٣
﴿ سورة يونس <small>عليه السلام</small> ﴾	٥٣٦
﴿ سورة هود <small>عليه السلام</small> ﴾	٥٧٠
﴿ سورة يوسف <small>عليه السلام</small> ﴾	٦١٧
﴿ سورة الرعد ﴾	٦٦٦
﴿ سورة إبراهيم <small>عليه السلام</small> ﴾	٦٩١
﴿ سورة الحجر ﴾	٧١٢
﴿ سورة النحل ﴾	٧٣١
﴿ سورة الإسراء ﴾	٧٨٩